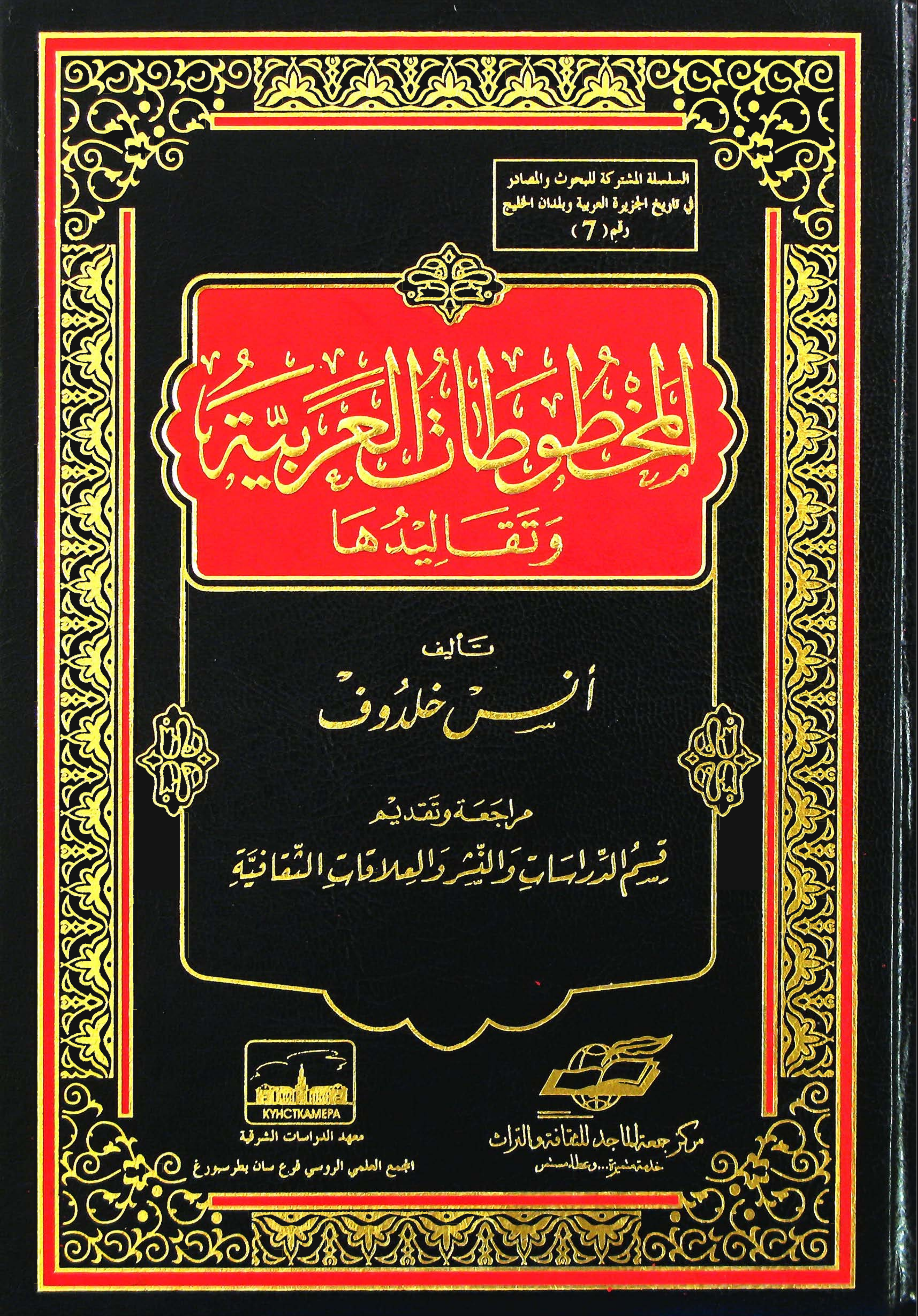

السلسلة المشتركة للبحوث والمصادر
في تاريخ الجزيرة العربية وبلدان الخليج
رقم (7)
المخطوطات العربية
وتقاليدها
تأليف
أنس خلدوف
مراجعة وتقديم
قسم الدراسات والنشر والعلاقات الثقافية
KYHCTKAMEPA
معهد الدراسات الشرقية
المجمع العلمي الروسي فرع سان بطرسبورغ
مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
خدمة متميزة... وعطاء مستمر




المخطوطات العربية
وتقاليدها





مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

ص.ب.: 55156 ـ دبي ـ الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 2624999 4 00971 / 2625999 4 00971 فاكس: 2696950 4 00971

www.almajidcenter.org - E-mail: info@almajidcenter.org

السلسلة المشتركة للبحوث والمصادر
في تاريخ الجزيرة العربيةوبلدان الخليج
رقم (7)



المخطوطات العربية وتقاليدها

تأليف

أنس خلدوف

مراجعة وتقديم

قسم الدراسات والنشر والعلاقات الثقافية





معهد الدراسات الشرقية
المجمع العلمي الروسي فرع سان بطرسبورغ

091.1
غ ل د م

خلدوف، أنس
المخطوطات العربية وتقاليدها / تأليف أنس خلدوف ؛ مراجعة وتقديم قسم الدراسات والنشر والعلاقات الثقافية.- دبي : مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 1430 هـ/2009م.
351 ص.؛ 24 سم.- (السلسلة المشتركة للبحوث والمصادر في تاريخ الجزيرة العربية وبلدان الخليج ؛ رقم 7).
يتضمن إرجاعات بيلوجرافية.
ردمك 9789948152798 .
1 - المخطوطات العربية – الوراقون - المؤلفون العرب - التأليف – الكتب – البلدان الإسلامية.
أ. العنوان. ب. السلسلة.

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.


بسم الله الرحمن الرحيم


مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
خدمة متميزة ... وعطاء مستمر

التقديم

الحمد الله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم وبعد:

في إطار التعاون العلمي والثقافي القائم بين مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ومعهد الدراسات الشرقية للمجمع العلمي الروسي فرع سان بطرسبورغ، قررت المؤسستان الاشتراك في ترجمة سلسلة من البحوث والدراسات الروسية المتعلقة بالجزيرة العربية وبلدان الخليج، وكذا إنجاز بحوث مشتركة لنفس الغرض ونشرها، ومن بينها هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم للباحث العربي والمسلم في جميع أنحاء المعمورة والموسوم بـ: **المخطوطات العربية وتقاليدها – تأليف أنس خلدوف**

وينبغي أن نشير هنا إلى أن ما يرد من الآراء في هذه البحوث والدراسات، لا يعبر عن رأي المركز، ولا اتجاهه، وإنما القصد من التعاون في نشرها، تمكين الباحث العربي والمسلم من الاطلاع على وجهة النظر الروسية في تقييمها وتحليلها للقضايا محل الدراسة والبحث، إضافة إلى التعرف على الدراسات والكتب التي تنشر هناك بلساننا وهو موضوع كتابنا هذا.

ومثل هذا العمل نعتقد أن له أثرا كبيرا في إثراء الفكر، وتوسيع مجال التفكير والاستنباط، والتمكن من فهم الأمور بشمولية أكبر من ذي قبل، للوصول إلى تفاصيل ما كان لها أن تظهر لولا الله والرأي الآخر المعاكس.

ونحن نأمل أن يتحقق من إصدار هذه السبلسلة الغاية والأثر الذي قصده المركز والمشار إليه أعلاه، خدمة للأمة والإنسانية، وتقريبها من الحقيقة أقصى ما يمكن.

ولا يفوتنا ونحن نخرج هذا العمل أن نتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من ساعدنا وسهل لنا إخراجه وعلى رأسهم معالي جمعة الماجد رئيس المركز وكل الإخوة بالإدارة العليا.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

قسم الدراسات والنشر والعلاقات الثقافية
مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

تمهيد

بالطبع إنني مسرور جداً بأن السيد جمعة الماجد ومساعده الدكتور عبد الرحمن فرفور قد قررا أن يطلعا القارئ العربي على كتابي هذا؛ إلى جانب ذلك أود أن أقول بأنني قد بدأت تأليف هذا الكتاب منذ أكثر من عشرين عاماً، وأنه قد أصدر سنة ١٩٨٥، وكان قد وجه إلى سكان الاتحاد السوفييتي من الذين يعرفون القراءة بالروسية بما فيهم المسلمون أو على أقل تقدير الذين لم ينسوا بأن أجدادهم كانوا مسلمين؛ لن أخفف من شعوري بأنني أردت غير مرة أن أعترض على سيادة العلم السوفييتي والمنشورات المبسطة والقريبة من فهم الجماهير الجامع للثروات الكتبية والثقافة الكتبية لدى الروس والبيزنطيين وغيرهم من الشعوب المسيحية ماضياً وحاضراً، وأنني أردت مقارنتها مع المعطيات الواقعية في العالم العربي – الإسلامي، ولعلّ هذا هو سبب تأليف هذا الكتاب؛ ربما كان ينبغي علي أن أؤلف هذا الكتاب للقارئ العربي بصورة أخرى إلى حد ما، إذ أنه قد يجد فيه بعض البيانات معروفة له منذ نعومة أظفاره وفي غير محلها، وبعضها تُعدُّ عديمة الفائدة ولا حاجة لها.

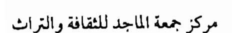
ولكن من جهة أخرى فإنّ موضوع بحثي واسع وملحٌ لدرجة أنه تنشر على أساسه سنوياً أعمال كثيرة بمختلف اللغات وفي مختلف البلدان، ولا يمكن أن نذكرها بالتفصيل، وإنما نذكر المصادر البيلوغرافية فقط كمجلدات مؤلَّف فؤاد سزكين التي لا تزال تصدر حتى الآن، ودليل كوكيس عواد خالد الذكر الذي لم أكن أعرفه في غضون تأليفي لكتابي، والعمل المشترك لزملائنا الألمان:

"Grundriss der Arabuschen philolgie"، وكذلك

"World survey of Islamic Manuscripts"، أربعة مجلدات كتبتْ من قبل فئة من المؤلفين أيضاً؛ أضف إلى ذلك أنني قد وجدت في كتابي خلال السنوات التي مضت طائفة من العيوب، كما تجمعت عندي مواد كثيرة في هذا الموضوع.

لكنني الآن فقدت إمكانياتي وقواي، فلم يبقَ أمامي إلا أن أقدم اعتذاري للقراء سلفاً، ومع ذلك فأنا آمَلُ بأن القارئ سيشاركني الرأي بأنني قد ألَّفتُ كتابي على قدر استطاعتي وألقيت شعاعاً عليها؛ وسيظهر في المستقبل الباحثون الشباب الأقوياء – وبالدرجة الأولى من البلدان العربية – الذين سيتوصلون إلى نتائج أكثر وسيبلغون آفاقاً أوسع.

سان بطرسبورغ، ٣٠ تموز (يوليو) ٢٠٠٠



مقدمة

ما توجَّبَ علينا اتخاذه في هذا البحث هو توضيح كل ما نجده من غموض في مجال تقاليد المخطوطات العربية منذ نشأتها وحتى القرن العشرين، وذلك مع حسبان زمانها ومكانها وأهميتها الاجتماعية – التاريخية، وأن نلقي ضوءاً على أهم خصالها ومميزاتها ونتعرف على الكتاب العربي المخطوط من كافة نواحيه، وذلك بغية الحصول على أوصافه الكمية والكيفية. إن مأرب كل بحث وإمكانية إنجازه يعودان في آخر الأمر إلى مقدرات هذا الفرع من فروع العلم وكمية الوقائع الموجودة، ومستوى دراسة المسائل النظرية. من الخطأ الاعتقاد أن الخطوات اللازمة للعمل التي سننجزها واضحة، لذا فالقضايا الوارد ذكرها سوف تعالج ضمن إطار بحث علمي في موضوع واحد وذلك ضمن بعض الحدود المعينة.

لو راجعنا بعض الوقائع من تاريخ الاستعراب، التي تم تشكيلها في روسيا في القرن التاسع عشر لرأيناها تعود بالدرجة الأولى إلى جمع ودراسة المخطوطات العربية[١]، وقد تزايد عدد مجموعات المخطوطات ولا سيما في بطرسبورغ ومراحل مستويات استيعابها و مراحل تطورها.

كل المؤلفات حول المخطوطات المنتشرة في روسيا يمكن تجزئتها على أربعة مجموعات: ا- وصف المخطوطات (في الكتالوجات والمقالات)؛ 2 - نشر نصوصها (كلياً أو جزئياً وتارة مع ترجمتها)؛ 3 - البحوث التاريخية – الأدبية؛ 4 - الأعمال في تاريخ روسيا والبلدان المجاورة لها (أوروبا الشرقية، آسيا الوسطى، القوقاز) المستندة إلى مواد المصادر العربية المستمدة مراراً من المخطوطات. إنّ الاهتمام بالإعادة التامة لإنشاء تاريخ شعوب أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى والقوقاز، والأمل في العثور في

(١) كراتشكوفسكي (١٩٥٠) المجلد الخامس، الصفحات ٧١-٧٢، ٨٠، ٨٨، ٩٨، ١٠٣- ١٠٤، ١٠٦- ١١٢، ١٢٠، ١٢٣- ١٢٤، ١٣٦، ١٧١، ١٧٨.

المصادر العربية المخطوطة على البيانات الجديدة كأن يكون ضمن الوقائع الأساسية التي اهتدى إليها العلماء الروس عند مراجعتهم المخطوطات العربية، ينبغي أن نضيف أن الأعمال في هذا المجال أغلبها اختصاصية لا يهتم بها إلا المختصون، وقد صَدَرَ الكثير منها باللغات الأجنبية (اللاتينية والألمانية والفرنسية)، وأضحت تحفة ببليوغرافية.

استأنفت تقاليد الاستعراب ما قبل الثورة وفي المرحلة السوفيتية العاقبة لها وذلك من قبل مؤلفات ف.ف. بارتولد وأ.إ. شميدت وإ.ي. كراتشكوفسكي وتلاميذهم، كما توسع بصورة لا يُستهان بها الاستعراب السوفيتي، ففي العشرينات والثلاثينات ازدادت كثيراً مجموعات المتحف الآسيوي (مؤخراً معهد الاستشراف لأكاديمية العلوم في إتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية)، ففي تلك السنوات وما تلتها ظهرت مراكز جديدة لجمع وتخزين المخطوطات في طشقند وقازان وباكو وتفليس ومخاشكلا ودوشانبي وسمرقند ويريفان وغيرها[1]، إن اتجاه الاستعراب السوفييتي هذا – المرتبط على الأغلب بدراسة المخطوطات – مازال يخلق الجديد من الأعمال ومنشورات المخطوطات، ومن أبرز الأعمال الخاصة كتاب إ.ي. كراتشكوفسكي "حول المخطوطات العربية، صحائف المذكرات حول الكتب والناس" (موسكو- لينيغراد ١٩٤٥)، وقد جذب نشرة[2]، انتباه الكثير من القراء السوفييت إلى مسائل الاستعراب العملي والآثار المخطوطية والأدب العربي في القرون الوسطى، فبفضلِ استناد الكتاب على المواد اليقينية، والواقعية وعلو خصاله الأدبية انعكست عليه التقاليد القديمة للإستشراق الروسي والأوروبي، وأظهرت الأهمية الحيوية للمخطوطات العربية ودراستها.

---

(١) انظر. خالدوف ١٩٧٨، مكتبة المخطوطات العربية، الصفحات ٢٢٠-٢٥٢، ٢٣٧-٣٢٨.

(٢) أصدر الكتاب بشكل موسع عام ١٩٤٦، وأعيد نشره فيما بعد عدة مرات كما ترجم إلى العديد من اللغات الأوروبية.

بيد أنه ما زالت في الاستعراب السوفييتي الكثير من المسائل غير المحلولة كاملاً والتي قدرت فيما سبق إلا أنه حتى الآن لم يتم جرد وفهرسة المخطوطات العربية الموجودة في الاتحاد السوفييتي، ولم يكتب تاريخ الأدب العربي، وهذه المشكلات تسفر عن نفسها أكثر فأكثر مع توسع البحوث الاستشراقية في بلدنا. إن الأعمال العامة حول المخطوطات العربية والتقاليد الكتابية ليس لها وجود عندنا حتى الآن، غير أن الملاحظات والاستنتاجات الخاصة ذات الطابع التاريخي – الثقافي والشيفري وعلم الكتب متناثرة على صفحات من الطراز المذكور. على أية حال من الصعب التوقع أن تكون الاستنتاجات العامة جارية بناء على مواد مجموعات المخطوطات في بلد واحد ولو حتى أجري بحثها بصورة أفضل، إجمالاً هي لا تشكل حتى الجزء الخامس عشر من المخطوطات العربية الباقية، فلا بد من الأخذ بعين الاعتبار تجارب الاستعراب العالمي في الشرق والغرب، إن الحالة غير المقبولة لدراسة التراث العربي المخطوطي تبرز أكثر من خلال التعمّق والتنوّع بينما في العلم السوفييتي تقاليد الكتب والكتابة والثقافة الكتابية في الحضارة اليونانية والرومانية القديمة وعهد القرون الوسطى في بيزنطيا وأوروبا الغربية وروسيا درست بشكل أوسع.

كانت المخطوطات موضوعاً أساسياً للاستعراب الأوروبي في الحقبة الممتدة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر عند الضرورة، ففي تلك الآونة كان الأدب القديم باللغة العربية مخطوطاً كلّه تقريباً إذ أن الطباعة باللغة العربية لم يكن لها وجود، وفقط في منتصف القرن التاسع عشر بلغت الطباعة نطاقاً محسوساً. من المعلوم أن طلائع الاستعراب الأوروبي من ف. بوستيل (١٥١٠-١٥٨١) وي غوليوس (١٥٩٦-١٦٦٧) حتى إ. ريسكي (١٧١٦ -١٧٧٤) وأ. سيلفستر ودز ساسي (١٧٥٨ - ١٨٣٨) كانوا يفتشون ويجمعون ويدرسون المخطوطات أو يركزون انتباههم على المخطوطات العربية المجمعة في أوروبا لذاك الحين[١]، أما المخطوطات

---

(١) Fuck, 1955, p.42 -45, 50. 60-61, 71, 80, 91-92, 98-101, 108, 124, 189 - 193

العربية نفسها فلم تكن بنادرة آنذاك، إذ كانت أشياء مألوفة في البلدان العربية والإسلامية من المغرب وحتى أندونيسيا وتباع خاصة في الأسواق، وكانت سهلة المنال للجامعيين والعلماء الأوروبيين في ظروف تفوق الغرب في المجال الحربي – السياسي والتجاري – الاقتصادي، ولو أنه ثمة عوائق كانت تعقد القضية (منها الحالة السياسية والثقافية واللغوية) والصعوبات: كضعف تطور وسائط النقل والاتصال. كانت مجموعات المخطوطات العربية في أوروبا تتعبأ وتزداد عدداً على وجه الانتظام، بيد أن دراستها العلمية كانت تتم ببطء نظراً لقلة عدد المختصين.

في القرن التاسع عشر مع تعقد دراسات اللغة العربية وآدابها ازداد تدفق المخطوطات العربية إلى الخزائن الأوروبية، وقد توسعت الأعمال بفهرستها وانتشرت دراسات بعض المؤلفات، وحتى أنواع الفنون بكاملها، وتم نشر العديد من الآثار المهمة أصلاً وترجمة، وبدأ جرد منتظم لمؤلفات الكتابة العربية العائدة إلى القرون الوسطى ومؤلفيها، وبين الحين والآخر كانت الوقائع المجمَّعة تستنتج من خلال الببلوغرافية ومن خلال مؤلفات حول تاريخ الأدب ومختلف فروعه، في القرن العشرين بقيت اتجاهات الأعمال الاستعرابية مستأنفة وبنطاق واسع، وأصبح عدد المؤلفات المطبوعة المكرسة لوصف المخطوطات ونشرها وترجمة النصوص هائلاً لدرجة أنه إذا صنفت في قائمة فسيحتاج ذلك إلى عدّة مجلدات، يكفي أن نشير إلى وجود الدليل الببليوغرافي[1].

في بلدان الشرق – حيث تخزن أغلبية المخطوطات العربية (رغم التصدير الهائل لأكثرها قيمة) – بدأت الأعمال في مجال فهرستها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأجريت بصورة منتظمة وغير متوالية، وقد ظهر تطور ملحوظ فيها لما

---

(١) انظر: مكتبة المخطوطات العربية، الصفحة ٦-١٢، يمكن إيجاد قائمة الأعمال في مجال تاريخ الأدب العربي لدى كراتشوفسكي، المجلد ١ - ٤؛ فيلشتينسكي، ١٩٧٧، الصفحة ٢٥٧ -٢٨٢. وزد إلى ذلك كتب بروكلمان وسزكين وبيرسون وكوركيس عواد رائد المخطوطات الإسلامية في العالم.

حازت هذه البلدان على استقلالها السياسي في غضون الكفاح ضد الاستعمار، بدأ في كل مكان نشر فهارس المخطوطات أو على الأقل استعراضها، وفي البلدان العربية صارت من أهم مسائل العلوم الأدبية دراسة وشرحاً وترويجاً بين الجماهير ((التراث)) ((تراثنا)) ((التراث العربي))، وكما هو معلوم أن هذا التراث مجسم غالباً في المخطوطات، وهذا التراث يثير اهتماماً كبيراً في كل البلدان العربية حيث يعترف به – ولو جزئياً – كذمة من ذمم التاريخ. إنّ كمية المخطوطات في حقيقة الأمر لا تزال تزيد كثيراً عن كمية المخطوطات التي صارت سهلة البلوغ للمختصين بشكل أو بآخر.

بنفس الصورة تجري الأمور في مجال نشر الآثار الكتابية وعلم النصوص والأبحاث التاريخية – الثقافية، وقد استبدلت المنشورات التجارية للمؤلفات العربية العائدة إلى القرون الوسطى الصادرة خلال السنوات المئة والخمسين الأخيرة في بلدان الشرق بغزارة بالمنشورات الأصلية المزودة بالقوائم الموثوق بها والمصاحبة للبحث وجهاز الاستخبار، أما العلم الأوربي – الذي كانت له تقاليده الغنية ومآثره – فبدأ يتنازل عن مواقعه فانتقلت المبادرة كلها تقريباً إلى بلدان الشرق حيث توجد الآن كوادر مؤهلة من المختصين في علم النصوص، وما هو كافٍ من الإمكانيات الإصدارية والمالية كما تحسنت الأجهزة المطبعية، إلى جانب ذلك أدخلت أجهزة لإعداد الكتب التطبيقية الببلوغرافية والإستخبارية، ونتخذ كمثال على ذلك منشورات معهد المخطوطات العربية لدى جامعة الدول العربية والأكاديميات والجامعات في سوريا والعراق ومصر وإيران وتركيا والسعودية.

من بين أعمال مستعربي القرن التاسع عشر الكثيرة في المجال التاريخي – اللغوي بدأت تظهر أعمال مكرّسة للنواحي التكنيكية والفنيّة والمادية لدى الكتب العربية المخطوطة كإعطاء الشكل النهائي لها وتزويدها بالرسوم وتغليفها وكذلك المواد الكتابية والبالوغرافية ومكتبات القرون الوسطى، كما تمت كتابة الرسائل العلمية

حول الكتاب العربي[١]، وخلال الربع الأخير من القرن أخذ علماء الشرق العربي نصيبهم في حل مشكلات الكتاب العربي المخطوط، ومن أبرز الأعمال في هذا الصدد مؤلفات كوركيس عواد (العراق) ويوسف العش (سوريا) حول المكتبات القديمة[٢]، وغيرهما من المختصين في علم الكتابة العربية القديمة (بالوغرافيا).

على مدى تاريخ الاستعراب الطويل تم رصدُ كمٍّ هائل من البيانات حول المخطوطات، لكن هذه البيانات ليست معقولة ومستنتجة لدرجة كافية، فالميل نحو الاختصاصات الضيقة جعلت المستعربين يدرسون المخطوطات من الزوايا المعينة، كمثل زاوية عالم الآثار أو النصوص أو تاريخ الأدب أو عالم اللغة أو عالم الفن، كما اختلف كثيراً استخدام الآثار العربية الكتابية بصفة المصادر، ولا شك أنه ليس فقط اختلاف نمط دراسة المخطوطات العربية هي القانونية والمثمرة، إنما كل اتجاهات الدراسة (من البحث عن المخطوطات ووصفها البدائي إلى تعميمها على مختلف المستويات) ذات آفاق إذ أن المشكلات غير المحلولة والمواد المجهولة مازال منها الكثير.

إن تركيب المعطيات – التي أضحت ثروة الاستعراب – لا يمكن تأجيله حين ستنكشف كل المخطوطات الموجودة وتتم دراستها ويتقدم غيرها من الأبحاث الخاصة، وإذا لم يتم شمول كل تقاليد المخطوطات العربية والأبحاث كثيرة المواضيع للمخطوطات العربية؛ لن يتم إدراك النواحي الجوهرية لثقافة الشرق العربي في القرون الوسطى والعالم الإسلامي بأسره، ففي النبذة المختصرة المنتشرة حول الثقافة الكتابية العربية[٣]، أجريت محاولة إظهار بعض مميزاتها، وقد أشير فيها إلى أن حب الكتاب من المزايا الخاصة بالثقافة العربية وأن المخطوطات كانت تصدر بكميات هائلة وأنه حتى

---

(١) ومن أبرزها .Groh Mann. Arnold, ١٩٢٩; Pedersen. ١٩٤٦

(٢) ك. عواد، ١٩٤٨؛ Eche، ١٩٦٧.

(٣) خالدوف، ١٩٨٢أ.

المختصون أنفسهم لم يكونوا يعرفون ما هي الكميات الحقيقية للمنتجات المخطوطية الكتبية، ولمزيد من التوضيح يكفي أن نجري المقارنة الآتية: كانت أكبر مكتبات الأديرة والمدن في أوروبا الغربية في القرن الثاني عشر تحتوي من عشرات إلى ١٥٠-٢٠٠ مجلد، أما أغنى مكتبات ((درايم)) و((كلوني)) فأكثر من خمسمائة مجلد (يرجح أن المكتبة البابوية ومكتبة مدينة ((تور)) كانتا تتفوقان على سائرها من المكتبات، لكن كمية محتوياتها غير محددة تماماً)[1]، في حين أن مكتبات بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وشيراز وبخارى وغيرها من مدن الشرق كانت تحتوي في الحقبة الممتدة ما بين القرنين العاشر والثاني عشر على عشرة آلاف مجلد وأكثر، أضف إلى ذلك كانت الكتب في المكتبات الشرقية أغنى وأكثر تنوعاً من حيث الفحوى.

استناداً إلى الموقف الحالي للاستعراب السوفييتي وإلى حساب ما أحرزه العلماء الأجانب من منجزات نقترح تحقيق المسائل المطروحة، قبل كل شيء لا بدّ أن نفسّر تفسيراً اجتماعياً- لغوياً كيف صار السكان غير المتجانسين القاطنين على الأراضي الرحبة يستخدمون اللغة العربية كوسيلة رئيسة للتعبير عن الأدب والعلم والإديولوجيا بكافة نواحيها والأدب الروحاني، كما تم تناول مسألة تاريخ اللغة العربية الفصحى ووضع أساس قواعدها، كما لوحظ تشكيل نظام الكتابة العربية التي حددت خواص النصوص المسجلة بواسطتها.

يرتبط نطاق آخر من المشكلات مع نشوء آداب اللغة بالعربية من بداية الانتقال من الكينونة الشفهية للمواد الأولية.منها إلى تدوينها وصولاً إلى كتابة الكتب العربية، وقد اكتشفت ذخيرة من المؤلفات العربية المخطوطة في سير استعراض تاريخ تشكل الفنون الأدبية – الكتبية وتطورها، ويشار على وجه الخصوص إلى الأهمية الأولية لعلم اللغة العربي ((المحلي)) الذي اكتسب تلك الأهمية لتقاليد المخطوطات، وقد يكون ذلك العلم من مؤلفات في مجال النحو المختارة – كما يتمنى المؤلف –

(١) Beddie,1929.

لإظهار تراكيب كتابة الكتاب العربي في القرون الوسطى بتناسبيات حقيقية لدى عناصرها، وذلك بغية القضاء على محدودية الاستعراضات الموجودة باللغة الروسية حيث تتم المباحثة غالباً في الأدب الفني بشعره ونثره.

وفي الختام: سنبحث في بعض الفصول العديد من المشكلات المرتبطة مع المصطلحات ((المؤلِّف)) و((المؤلَّف)) و ((المخطوطة))، كما سيتم بحث منتجات المؤلفات الكتابية وإعادة تدوينها في النسخ من وجهة نظر ودوافع وأهداف هذا النشاط وطبيعة النشاطات الفردية ونتائجها، ومن وجهة نظر الطلبات عليها والمقدرة على دفع أتعاب العقل والعيون الساهرة، وترويج المخطوطات بين الجماهير، إلى جانب ذلك ستصور الطبيعة الجديرة بالمؤلف في القرون الوسطى والنساخ وبائع المخطوطات وشاريها وجامعها، كما سنصف العمليات الخاصة في ((نقل)) المعارف والإثبات المناسب بالوثائق للمؤلفات والمخطوطات وعناصرها النصوصية، سنلفت بعض الانتباه إلى مختلف المبادئ في تنظيم وترتيب النص وخاصيته الشكلية – التركيبية للمؤلف وما ينسخ من المخطوطات، وسنقدم تفسيراً عن كل المصطلحات العربية التكنيكية الخاصة بالأعمال المخطوطية والتقاليد الكتابية.

كرّسنا فصلاً صغيراً للمخطوطات العربية التي هي بمثابة الأعمال الحرفية وموضوع الثقافة المادية (كشكلها الخارجي وتغليفها ومواد الكتابة وأدوات الكتابة وفن صناعتها)، وفي الفصل الختامي من هذا الكتاب جمعنا ودرسنا المعطيات حول أطرزة المجموعات الخاصة والمكتبات العامة ونشاط المكتبات الببلوغرافية، ومن ثم قدمنا استعراضاً مرتباً ترتيباً زمنياً وواسعاً إقليمياً من البيانات حول المجموعات والمكتبات المحددة، كما وضعنا أرقاماً تحدد عدد المخطوطات التي وصلت إلينا الآن.

إن هذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ هو عبارة عن استئناف الاستعراض المذكور أعلاه (التعليق 8) لكن المعطيات هنا أوسع وأكثر دقة، والعرض منظم، في غضون إعداد ذلك الكتاب اعتمد المؤلف على تجاربه الخاصة الكثيرة، ومع ذلك فهو

يدرك أنه حتى هذه التجارب لا تكفي لدراسة ولو مواد سهلة البلوغ بصورة مرغوبة، عدا ذلك بقيت الكثير من المواد بعيدة المنال، ألّف الكتاب بناء على المصادر المخطوطة من مجموعات سانت بطرسبورغ والآثار العائدة إلى القرون الوسطى المنتشرة، وإلى ما توصل إليه الباحثون الأخرون من نتائج، وقد تمَّ فحص أغلبها غير مرة، من البديهي أن العمل الشامل كهذا لا يخلو من بعض التقصيرات، وقد رفعت فيه الكثير من القضايا التي من الصعب الآن حلها حلاً كاملاً، وتحتاج بعض هذه القضايا إلى طريقة الأبحاث العلمية في موضوع واحد.

قدمت الأسانيد على المصادار والأبحاث في الحواشي السفلى تحت اختصارات اصطلاحية والتي ستفسر في ((قائمة المراجع والأعمال)).


مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
خدمة متميزة ... وعطاء مستمر

الفصل الأول
اللغة العربية والكتابة العربية

لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجوداً فيها من يعرفه، والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه.

محمد بن إدريس الشافعي

ولكن للكتابة العربية آفة عظيمة وهي تشابه صور الحروف المزدوجة فيها واضطرارها في التمايز إلى نقط المعجم وعلامات الإعراب التي إذا تركت استبهم المفهوم منها، فإذا انضاف إليه إغفال المعارضة وإهمال التصحيح بالمقابلة وذلك من الفعل عامّ قومنا يساوي به وجود الكتاب وعدمه بل علم ما فيه وجهله.

أبو ريحان البيروني

كانت اللغة العربية منذ غابر الزمان تتطور إقليمياً في الجزيرة العربية، ومراحل تطورها عبر التاريخ معروفة بصورة غير تامة، مثلها مثل تاريخها الاجتماعي – السياسي (فيما عدا إقليم جنوب الجزيرة العربية أو حضارة دولة سبأ)، وكل الشهادات اللغوية ما قبل القرن السابع الميلادي طفيفة، وهي تعود أصولاً إلى أطراف الجزيرة العربية، واعتباراً من القرن السابع وما يليه ثمة عدد كبير من الآثار الكتابية تمنحنا صورة واضحة ليس للغة العربية فحسب، بل وتلقي شعاعاً على حالته السابقة، إن مقارنتها مع سائر اللغات السامية المقاربة للعربية أبرزت خواصها وسمحت لها بإدراك مراحل التطور التي مرت بها.

أجريت أولى المحاولات في تسجيل النطق العربي مع استخدام مختلف أنواع الأبجديات العربية الجنوبية أو السبئية المكونة من ٢٨-٢٩ حرف، وقد أثار تأريخ

النقوش- التي أجريت بها الأبجدية وتناثرت في غرب الجزيرة العربية من سيناء إلى اليمن – جدالاً في العلم وبين الفينة والأخرى أعيدت مراجعتها، ولكنها ما زالت تتراوح افتراضياً بين القرن الرابع والخامس الميلاديين، بيد أن هذه الكتابات – والتي أغلبها نقوش وكتابات قبرية أو تكريسية – لا تعطي بيانات تاريخية للغة العربية إلا القليل القليل، نظراً لأنها لا تحتوي إلا على كميات محدودة من الكلمات، وكذلك لقلة الصيغ النحوية فيها، كما أن قراءة تلك النقوش عسيرة لتأديتها بصورة عشوائية ولتآكلها الجزئي بسبب مضيّ زمن طويل[١].

كانت الأبجدية العربية الجنوبية تستعمل لنقل لغة العرب الشماليين المتقاربة خلال ألف عام، لكن التقاليد الكتابية هذه لم ترسخ فاندثرت مع اندثار الثقافة والكتابة في جنوب الجزيرة العربية. ممّا أدى إلى نتائج أخرى كاستخدام العرب الأبجدية السامية الشمالية الغربية النبطية والتدمرية، وقد تطور أحد أشكال الأبجدية الآرامية – التي استخدمت في النقوش النبطية اعتباراً من القرن الثاني قبل الميلاد وحتى القرنين الثالث والرابع الميلاديين – إلى أن تحولت تدريجياً نحو التطور حتى غدت فيها بعد كتابة عربية.

حدث تطور هذه الكتابة في ظروف ازدواج اللغتين الآرامية والعربية: ففي المجال الرسمي كانت تستعمل اللغة الآرامية التقليدية التي – حسب اعتقادنا – خرجت في ذاك الحين خلف نطاق الاستعمال، وفي الحياة اليومية كانت تستعمل لغة العرب النبطيين[٢]. حدث تفاعل ونفاذ شديدين بين اللغتين، تسربت إلى اللغة الآرامية ليست الكلمات العربية فحسب، بل حتى الصيغ الصوتية والصرف. في حقيقة الأمر نجد أن اللغة الآرامية المحلية المتأثرة كثيراً بالعربية والمنتقلة بواسطة الأبجدية الآرامية هي التي تسمى باللغة النبطية، أما اللغة العربية المحلية – والتي بدأت تتمثل بواسطة

---

(١) Brockelmann. 1954, p. 208-212; Oxtoby, 1968: Winnett, Harding.1978.

(٢) Cantineau, 1930; p:X.

الكتابة العربية – فاستمدت منذ ذاك الحين الكثير من الكلمات الآرامية، وقد احتفظت منذ تلك الآونة بالعديد من خواص الإملاء العربي.

تنسب النقوش المكتوبة بالأحرف النبطية إلى القرن الرابع ولكن باللغة العربية، وأصل أقدمها من ((النمارة)) جنوب دمشق وتؤرخ بعام ٣٢٨م، وكان من نصيبها تخليد ما فعله ((ملك العرب أجمعهم)) امرؤ القيس (ويحتمل اللخمي)، وثمة ثلاثة نقوش من سوريا كذلك تنسب إلى القرن السادس، وهي عربية ليس من حيث اللغة فحسب، بل ومن حيث الكتابة المنفردة.

كل البيانات اللغوية إجمالاً – التي من الممكن استخلاصها من النقوش ما قبل العربية والعربية المبكرة، وبعض المصادر غير العربية تورد أسماء الأعلام والقبائل والتسميات الجغرافية – غير كافية بأَنْ ترسم لنا صورة واضحة عن اللغة العربية على وجه العموم والحالة اللغوية في الجزيرة العربية قبل القرن السابع الميلادي، فالمعطيات ضئيلة ومتقطعة، تعكس طاقماً غير كامل من القواعد وكمية محدودة جداً من مصطلحات اللهجات المحلية، أضف إلى ذلك فهي مرتبطة مع المناطق الحدودية حيث حدثت اتصالات مع مختلف اللغات والثقافات.

في غضون ذلك نضجت في وسط الجزيرة العربية – حيث لم يعثر على آثار المقتبسات الكتابية إلا في السنوات الأخيرة- الصورة النهائية للغة العربية الفصحى نشأت وتطورت بين قبائل لا تعرف الكتابة قاطنة في نجد، وقد كانت لغةً شاعرية على الأغلب تكتب بها الأشعار والأغاني.

يمثل نشوء هذه اللغة مشكلة صعبة، ولكن ملحّة في الاستغراب يستحيل تحديد تاريخ نشوئها، ومن الصعب تنسيب منشأها إلى منطقة معينة أو قبيلة معينة، وترابطها مع اللغة العامية غامض، تم تسجيل لغة العرب الشفهية التي نشأت بلغتهم الشعرية فقط بعد ظهور الإسلام وتطوّر نظم الكتابة العربية، وغالباً في الحقبة الممتدة ما

بين القرنين السابع والعاشر، إذن فمعارفنا حول اللغة العربية مسندة كلها ليس على نظام الكتابة فحسب، بل على ما سجله هؤلاء الناس من مؤلفات أدبية شفهية، والتي سبقت تدوين هذه المؤلفات بعدة أجيال.

يقف الباحث أمام لغة مكتملة ومنظمة وكاملة في تطورها وغنية من حيث مقدراتها النحوية وذخيرتها اللفظية، وموحدة لمعظم قبائل الجزيرة العربية إذا لم نقل كلها.

يعود الشعر العربي القديم وأخبار الأنساب إلى القرن السادس، وجزئياً إلى القرن الخامس، أما الاستعادة الأكثر قدماً في التقاليد الشفهية فإما فُقِدتْ، وإما صارت مبهمة، فتصور الموقف التاريخي الواقعي – حيث حدثت تشكيل لغة الشعر العربي – تنعدم خلف ستار من الأحداث التاريخية التي تلتها، في غضون فتوحات القرن السابع غادرت الكثير من القبائل أماكنها المعتادة وقطنت جزئياً أو كلياً خلف نطاق الجزيرة العربية، واختلطت ببعضها وتوحدت في أحلاف جديدة، تعرضت التصورات النسبية كذلك لإعادة إدراكها.

حسب تصورات تقاليد بداية القرون الوسطى كان البدو أجمعهم يتكلمون باللغة العربية ((الفصحى))، وثمة اعتقادات حول فصاحة أو نقاء اللغة بصورة خاصة لدى بعض القبائل ولا سيما القاطنة منها في أواسط الجزيرة العربية، ولكن ليس ثمة تأكيد بأن الاعتقادات كهذه مثبتة لغوياً، فلعل كان دافعها المنافسة السياسية بين القبائل، في آخر الأمر اعترف بلغة إحدى القبائل كاللغة الفصحى ألا وهي قبيلة قريش التي انحدر الرسول الكريمﷺ، ومن ثم الخلفاء الراشدون.

من الراجح أنّ هذه اللغة تشكلت نتيجة تطور طويل على أساس مختلف اللهجات وإدراكها إدراكاً فنيّاً، انتشرت هذه اللغة من مركزها الأول بسرعة طالما أنّ القبائل العربية المتنقلة كانت تتماسّ مع بعضها باستمرار، كما في الأسواق السنوية

والأعياد الدينيّة التي كانت تقام من خلال مباريات الشعراء، كان الفن الشاعري والانتهاء إلى التقاليد الشاعرية العامة سهلاً – على ما يبدو – لأن كل قبيلة لها فلكلورها الخاص بها.

طبعاً إنّ لغة الشعر لدى العرب كانت تختلف عن اللغة العامية اليومية نظراً لعلو بلاغتها ودرجة تنظيمها، وكان من الممكن تعلمها فقط بعد دراستها والتدريب أو من خلال الموهبة الخاصة، كان فن الكلمة يحتاج إلى اصطفاء الذخائر اللغوية وإلا فلن يكن الشعر معبراً وحسن الإيقاع، لذا يمكننا أن نقول بثبات أنّ لغة الشعر لم يكن أحد يتكلم بها، ومع ذلك ليس من باب الصواب تسميتها باللغة الاصطناعية، فهي ((اصطناعية)) كأية لغة شعرية أو أدبية أخرى، إنها لغة فن الكلمة التي تشكلت نتيجة انتقاء وإفراد وتكديس تدريجي لعلامات الصورة المكملة للغة[1]، فقد كان العرب يصقلونها ويطورونها أجيالاً، ومؤخراً صارت هذه اللغة تنقل بواسطة نظام الكتابة الخاص ووضعت من قبل النحاة المنظرين.

إنَّ وجود لغة الشعر الموحدة واقع قطعي مثل وجود مختلف اللهجات العربية، وقد كتب اللغويون العرب في الحقبة الواقعة ما بين القرنين الثامن والعاشر الميلاديين عن اختلافات محسوسة بين لغة الشعر والصيغ العامية التي تتكلم بها القبائل، وذلك في مجال الأصوات والصرف، والنحو، بيد أن بياناتهم تتعلق فقط ببعض المزايا اللغوية والمصطلحات اللافتة للأنظار، ولكنها لا تحتوي على معلومات منتظمة عن لهجة قبيلة ما، وتارة يصعب التحديد ما إذا كان الموضوع يتعلق بانعطافات طفيفة صدفية أم باختلافات جذرية تخص طابع اللهجات، عدا ذلك إنّ البيانات الواصلة إلينا لا تشمل كل أقاليم وقبائل الجزيرة العربية.

---

(١) غوجمان، ١٩٨١، الصفحة ١٤-١٧.

مثلاً عبر اللغويون عن مميزات النطق في قبيلة أو أخرى بالكلمات المقلدة للأصوات كمثل ((غمغمة)) و((طلطلة)) و((فشفشة)) و((كسكسة)) و ((كشكشة)) و((طمطمنية)) وهلم جراً... تنحصر كلُّ ملاحظاتهم للوقائع – كما تبين – في مقارنة مجموعتين من اللهجات ألا وهما ((الحجازية)) (نسبة للإقليم) و((التميمية)) (نسبة للقبيلة)، بكلمة أخرى كان وسط الجزيرة العربية ينقسم إلى إقليمين بلهجتيهما، وهما الإقليم الشرقي والغربي يلتقيان في وسط نجد[١].

يجدر الإشارة أن لغة الشعر واللهجات القبلية كانت عبارة عن شكلين مختلفين للغة واحدة، لماذا؟ لأن الأساس الصوتي والمصطلحي والكلامي لدى هذين الشكلين كان واحداً، وبفضل هذا الأساس الموحد كانت اللغة العربية موحدة واقعية تجابه غيرها من اللغات، سواء القريبة منها أو البعيدة، وضمن نطاق هذه الوحدة كانت توجد تغيرات طفيفة في مجال النطق دون إخلال بالتفاهم.

مع انتشار لغة الشعر انتشر نوع من ازدواجية اللغة، فقد كان هناك صنفان وظيفيان ضمن لغة واحدة يكملان بعضهما ويتفاعلان مع بعضهما، بقيت لهجات مختلف القبائل والأقاليم واسطة للتعايش وتتفق مع لغة الشعر التي هي بمثابة الحياة الروحية على المستوى السامي، ساهمت لغة الشعر على الحفاظ على كل ما هو مشترك بين اللهجات، ويرى العلماء (ف. مارسيه وأ. فلايش وغيرهما) شبهاً لهذه الحالة اللغوية في اليونان في زمن ((غوميروس)) فيسمون لغة الشعر العربي ((قوينيه[٢]، الشعر أو الأدب))[٣].

بالتدريج توسع مجال استخدام ((القوينيه)) العربي اجتماعياً، فقد كانت تؤلف بها الخطب والمتكهنات والأساطير وما إلى ذلك، وطبقاً للبيئة أو مجال الاستعمال يظهر

---

(١) Rabin، ١٩٥١، الخرائط على الصفحتين ١٤–٣٠.

(٢) قوينيه: من اليونان Koine وتعني اللغة المشتركة التي ظهرت نتيجة اختلاط اللهجات. المعرب..

(٣) Fleisch, 1947,p.99.

أن ((قوينيه)) كان يتطور بمختلف المتغيرات، فكان متنوعاً ضمن نطاق معين ويتنازل بعض الشيء لسمات اللهجات الحيَّة محافظاً كذلك على ما تجمع من الصيغ المعهودة في النحو، من خلال التراكيب والمفردات الخارجة عن نطاق الاستعمال.

من بين الخواص العامة بتراكيب هذه اللغة[1]، سوف نمس القليل منها غالباً ما توجد في المخطوطات طالما أنها أثرت تأثيراً فعالاً على طبيعة النصوص المنشأة بواسطتها، وعلى النظم الكتابية التي دُوّنتْ بها النصوص.

يتكون التركيب الصوتي في اللغة العربية من ٢٨ حرف ساكن وستة حروف صائتة، منها حرفان ساكنان ضعيفان (أو شبه صوتيان) وهما الواو والياء ((W .y) وهما معرضان أكثر من سائرهما للتغيرات التركيبية، وثمة حروف صوتية مختلفة من حيث الكيفية وهي الألف والواو والياء، واختلافها من حيث الكمية (الحرف القصير والحرف الطويل) اختلاف صوتي يلعب دوراً هاماً.

ينسب تاريخياً نظام ثلاثة أزواج من الأحرف الطويلة والقصيرة إلى الحالة اللغوية ما قبل السامية، كما أن تركيب نظام الأصوات الساكنة معروف كله تقريباً. يخضع اتصال الأحرف الساكنة بالصائتة عند تشكيل الوحدات اللغوية المركبة للقواعد المعينة، ولا يجوز اتصال أكثر من حرفين صوتيّين بتاتاً، أية كلمة أو مقطع منها يبدأ بالحرف الساكن فقط، إذن فالوحدة الأدنى ذات معنى يمكن أن يكون مقطع كلمة ولكن ليس حرف، والمقاطع معظمها مفتوحة (أي التي تنتهي بأحرف صوتية)، وتتكون من حرف ساكن صوتي قصير أو طويل، ونادراً ما يوجد مقطع مغلق بحرف صوتي قصير، وتتلاقى مقاطع مغلقة بحرف صوتي طويل في الغالب قبل تشديد حرف ساكن أو توقف في نهاية عبارة أو جملة أو بيت شعر، تستخدم هذه القواعد كذلك عند

(١) أنظر بالتفصيل يوشمانوف، ١٩٣٨؛ خالدوف، ١٩٨١، خالدوف، ١٩٨٢، الصفحة١٥ -٢٩.

التقاء الكلمات وتحدد على وجه العموم بالتقسيم المقطعي للنطق العربي حيث يظهر التتبع المنتظم للأحرف الصوتية الساكنة.

في الحقيقة إن الأحرف الساكنة والصوتية تشكل نظامين مستقلين نسبياً ومختلفين وظيفياً، وهذان النظامان يكملان بعضهما البعض، ويستند المعنى غالباً على الأحرف الساكنة التي تحدد مدلول الجذر، أما الأحرف الصوتية فتحدد معاني الكلمات من الأصل وتعبر عن المعاني النسبية.

يتألف الجذر عادة من ثلاثة أحرف ساكنة، وإلى جانب ذلك ثمة عدد محدود جداً من الجذور الحاوية على حرفين ساكنين (دون الأربعين)، وكمية صغيرة من جذور مكونة من أربعة أو خمسة أحرف ساكنة وهي مشتقة إذ تم البرهان على ذلك.

إنّ الجذر المكوّن من ثلاثة أحرف ساكنة لا يلفظ عملياً لذا فهو مجرد بنفسه، وفقط عند تزويده بالأحرف الصوتية تظهر كلمة ذات معنى، يثبت على واقعية الجذر للإدراك اللغوي بأنّ معناه المجسد أو فكرة عامة توجد في كل مشتقاته.

العناصر الصوتية غير الجذرية كذلك ليست مستقلة، فهي تبرز عند مقارنة الكلمات مختلفة الجذور وتترسخ في تمازج الأحرف الصوتية المعاني المفردية – النحوية المستمرة القادرة على أن توافق أي جذر، عند تشابه الجذور، وتمازج الأحرف الصوتية يُظْهِر أنواعاً موحدة الطراز، لكن إذا كانت هنالك كمية غير محدودة من إمكانيات تشكيل جذور من ثلاثة أحرف ساكنة (حتى عند عدم توافق بعض الأحرف الساكنة) فإنّ فقر الأبجدية العربية بالأحرف الصوتية تحد كثيراً من تنوع الحركات، ومع ذلك فبعض أنواع الحركات لا تستعمل وبعضها تستعمل أكثر من مرة لنقل مختلف المعاني مما فتح سبيلاً لتكاثر المرادفات والاشتراكات اللفظية.

يشكل التركيب ((الجذر + الحركة)) أسساً اسمية وفعلية، ويلعب دوراً كبيراً في تغير كَلِمِةِ ولكنه ليس وسيلة وحيدة، فثمة وسائل أخرى كاستعمال إضافي لعناصر الجذر قد تكون تشديداً للساكن الثاني أو الثالث إما تتكرر متصلة أو منفصلة، أما في الجذر المزدوج المكون من صوتين ساكنين، تتكون اللواصق والسوابق عادة من مقطع صوتي واحد (وكمية الأحرف الصوتية التي تحركها محدودة) التي تتغير كذلك بتغير الحركات.

من جملة هذه الأساليب تتشكل تقنية الاشتقاق وتغير الكلمات في اللغة العربية، وهذه التقنية جديرة بكل اللغات السامية، وتمتاز اللغة العربية بكثرة استعمالها إذ أنها توصل إلى النهاية المنطقية مما أدى إلى تنوع كبير لمخططات شكلية وغنى اللغة العربية بالمفردات، كل جُمل الأفعال والأسماء العربية يمكن أن تعود إلى الكمية المعدودة من الأنواع التي أكثرها معروف وينسبونها عادة إلى المرحلة ما قبل السامية.

يمكن أن يكون نواة الجذر الفعل الأصلي وفي الغالب يصعب التثبت من ذلك، ونجد في بعض الجذور تمازج العديد من الأسماء والأفعال الأصلية التي تتباين معانيها كثيراً، والمهم أنه يمكن أن تتشكل الأسماء من الأفعال وتتشكل الأفعال بسهولة من الأسماء التي تقدر بدورها على تكوين المشتقات، وبهذه التقنية يسهل إبداع الكلمات الجديدة وطرق التحديد وتجريد معاني المفردات، وتجعل الأفعال المشتقة من الأفعال تحافظ على ارتباطها مع الحدث أو الحالة، وتحتفظ أيضاً بالتعدية الفعلية، وتبدو على وجه الخصوص إمكانية المصادر التي تجمع بين خاصية الفعل الأصلي واسم الفعل وتمثيل الفعل أو الحالة بصورة مجردة.

تحافظ كل فصيلة من الكلمات المنبثقة عن جذر واحد على وحدة واضحة من حيث الأصل العام، وهذا الشيء محسوس مادياً إذ تسمعه الأذن وتقرأه العين، وتتكون مشتقات الجذر باحتوائها على أصوات جذر الثلاثة الساكنة الثابتة ومخططات اشتقاق الكلمات النموذجية في خلية حيث الروابط التأصيلية والدلالية واضحة وبيّنة، وتؤدي

هذه الدرجة العالية من انتظام الصيغ المشتقة من الجذور النمطية إلى العديد من النتائج في نظام اللغة العربية عامة ولمجالات استعماله الوظيفية.

هذا ما يفسر به قبل كل شيء ما يسمى بـ ((جبر)) قواعد اللغة العربية، ويرتبط مع هذا غنى وتجانسية المفردات العربية، مما جعلت الكمية الكبيرة من الأنواع المنتجة هذه الطريقة لاشتقاق كلمات زائدة لا حاجة لها، إنّ المفردات في اللغة العربية المستعارة من اللغات الأجنبية قليلة نسبياً، وقد يكون سبب ذلك هو تطور اللغة العربية خلال فترة طويلة من الزمن في منطقة منعزلة بسكانها، المتجانسين من حيث العرق والمنعزلين نسبياً عن الشعوب الناطقة بلغات من أصول أخرى، أما مفردات اللغة العربية المستعارة من لغات سامية أخرى فتكاد لا تعترف بها إذ أنها تخضع لجذر ما حتى الكلمات الدخيلة من اللغات الأكثر بعداً (كالفارسية واليونانية واللاتينية)، فهي مشتقة عادة من جذور ذات ثلاثة أحرف ساكنة وتخضع لقواعد التصريف الداخلي.

تنضم الأحرف إلى نظام خارجٍ عن نطاق الأفعال، والأفعال والأسماء، وكما أنّ الحركات وتشديد السكنات لا تلعب فيها دوراً كبيراً وعدد الأحرف الساكنة الجذرية فيها بالعادة أقل من ثلاثة (وذلك إذا استثنينا المشتقة منها جذراً ذو دلالة). تمثل الأحرف أدوات مساعدة لا تستغني اللغة عنها، وهي قليلة العدد (أكثر من مئة بقليل)، ومع ذلك تستعمل كثيراً، وإذا نظرنا إلى هذه المجموعة المخلوطة من وجهة النظر الشكلية والوظيفية نرى أنها تضم ليس الأحرف فحسب (اليمينات والإثباتات والمقارنات والاستفهام والنفي والتعجب والنداء) بل أحرف الجر والعطف والظروف وحتى الضمائر.

ينتسب علم النحو العربي إلى عداد اللغات ((الحرة)) بمعنى أنه ليس ثمة نظام خاص لترتيب الكلمات، أما الحالة التركيبية للكلمة العربية فإنّ التعبير الصرفي عن السمات النوعية في الحالة الإعرابية والجنس والعدد والظرف لدى الاسم، والشخص والعدد والصيغة والجنس لدى الفعل توفر لها استقلالاً عن موقعها من الجملة، بيد أن

هـذا لا يعني قـط أن ترتيـب الكلمات في الجملـة العربيـة اختيـاري دومـاً، فهـذه الحريـة نسبية، مثلاً يرتبط اسمان في حالات مترابطة ارتباطاً وثيقاً، ومن هنا تظهر عبارات ثابتة توحدها ضمائر في كلمة واحدة، بنفس الدرجة تقريباً مثل: الارتباط الوثيق بـين الـصفة والموصوف وبين الاسم وحرف الجر.

ثمة نوعين رئيسيين للجملة: الاسمية والفعلية، وفي كلا النوعين ترتيب خاص للكلام، وتغيير نظام الكلمات محتمل، وتلعب الأحرف المبتدئة للجملة دوراً كبيراً، تقع بين الجمل أحرف العطف والحصر، ويمكن أن يعبر الفعل بمفرده عـن جملـة، فـصيغته الشخصية تمثل منطقياً الفاعل، مقابل هذا كثير ما ينوب الضمير الشخـصي في الحـالات الإعرابية غير الاسمية عن جزءٍ من أجزاء الجملة المذكورة مـن قبـل، أكـان ذلـك الجـزء رئيسياً أم ثانويا، اسماً أم عبارة، فهذا الأسلوب يستعمل لتجنب التكرار ويجعل العبـارة مختصرة ومعبّرة، ولكن الشيء كهذا غالباً ما يـزرع في العبـارة بعـض الغمـوض إذ يفقـد ارتباط بين اسم وضمير الذي ينوب عنه، وتظهر في النّص الذي يـسبقه مبـاشرة كلـمات أو عبارات من الممكن أن يعود إليها ذلك الضمير، الجملة المركبة في اللغة العربية نـادرة الوجود، ولو أن كل جزء منها يمكن أن يصبح جملة مستقلة.

تجدر الإشارة كذلك إلى أن اللغة العربية تخلو من فعل واصل مساعد، وهذا ما عسر – على سبيل المثال – إجراء ترجمة ملائمة لنصوص فلسفية يونانيـة وأدّى ذلـك إلى شذوذ بعض التعابير عن بعض الاستدلالات العقليـة حـول الكينونـة والتطـابق وعـدم التطابق، من المحتمل أنّ هذا الشيء قد أخر إلى حد ما تطور الفكر الفلسفي الأصلي[1]. وليس ثمة أفعالٍ في اللغة العربية مـساعدة بـارزة كمثـل ((أن يكـون)) و ((أن يملـك)) فيما عدا بعض أفعال الشروع والمدة التي تستعمل كأفعال مساعدة.

(١) أنظر بينفينيست، ١٩٧٤؛ الصفحة ١٠٤ -١١٤، وما يليها؛ أفنان، ١٩٦٤، الصفحة ٢٩ وما يليها.

ترتبط الخاصيات الشكلية للشعر العربي مع اللغة العربية ارتباطاً وثيقاً ومحدوداً، وقد حدد الدور التمييزي والتركيبي للتفريق الكمي للأحرف الصوتية والتقسيم الطبيعي للنطق العربي إلى المقاطع الصوتية المتتابعة القصيرة والطويلة – التي تترابط في التناسب ٢ : ١ – وضعف الإفصاح عن النبرة طابع الكم للعروض العربي، فيكفي جعل تناوب المقاطع بما فيها القصيرة والطويلة منتظماً بدقة على حساب اختيار حاذق للكلمات وترتيبها بحيث أن يصبح الكلام موزوناً، ولكن إذا بلغ تكرار تمازج المقاطع الصوتية المعينة والقوافي يظهر عندئذ كلام شعري، كانت أنواع الاشتقاق تمنح كمية راجحة من كلمات ينطق بها بلهجة صاعدة، أي انتقال من مقطع صوتي قصير إلى طويل[١]، فليس من العجيب أنه من بين ستة عشر بحراً – التي اكتشفها منظرو العروض العربي – عشرة بحور صاعدة الإيقاع والستة الباقية ذات إيقاع صاعد – هابط، كما بينت أبحاث غ. ويل[٢]. تلعب دوراً جوهرياً في تشكيلات إيقاعية نبرة شعرية خاصة التي غالباً ما تطابق النبرة العادية في الكلمة ولو أنها قد تختلف عنها في بعض الأحيان.

إلى جانب ذلك إنّ المخططات الطرازية لاشتقاقات من جذور معيارية ودرجة عالية من انتظام الصرف توفر في اللغة مجموعة من الكلمات والصيغ المعينة واحدة أو متساوية الطول، كأن تطابق حرفين ساكنين نهائيين في كلمتين مثيلتين يؤدي إلى اتفاق الأصوات مما فتح سبيلاً واسعاً إلى التقفي، وهذا ما تم استخدامه بنجاح في الشعر والنثر العربيين، كانت قافية واحدة كافية لإنشاء العديد من أبيات الشعر تارة والعشرات منها تارة أخرى، وهذا ما ساعد على إنشاء مؤلفات شعرية كاملة مسندة على قافية واحدة، من الطبيعي أن الشعر العربي ذو قافية واحدة ظهر نتيجة تحقيق المجالات الموجودة في التركيب اللغوي.

---

(١) فلايش، ١٩٦٥، الصفحة: ٤٩–٥٠.

(٢) Weil, 1954; EI,NI,NE, p. 667-677 (G.Weil)

إنّ لغة الشعر العربي القديم غنية ومطورة على أكمل وجه، فكثرة المرادفات للتعبير عن نفس الأشياء والظواهر والأفعال والصفات تزداد على حساب تنوع الصيغ الاسمية والفعلية، بالإضافة إلى استخدام واسع للنعوت التي تنوب تارة عن الأسماء العامة، وتارة عن الكمية الهائلة من الاستعارات، كما أنّ كثرة استعمال التشبيهات جدير بالتعبير الفني للشعر العربي، وهي تتكثف في كلمة واحدة أو تتوسع في صورة كاملة[1].

مع ظهور الإسلام حدث تطور حاسم في تاريخ العرب والجزيرة العربية، بما في ذلك مجال اللغة والأدب، ومع انتشار الإسلام في الجزيرة العربية تشكلت جامعة لغوية حديثة الطراز وظهر أثر أدبي من نوع لم يسبق له وجود.

كانت مواعظ النبي محمد ﷺ في المراحل المبكرة من نشاطه (٦١٠-٦٢٢) تنحصر ضمن خطب قصيرة شاذة الإيقاع والقافية، لم تكن تلك الخطب من ناحيتها الإيقاعية عبارة عن شعر وإنما نثر مقفي (السجع) التي كان يلجأ إليها غيره من الخطباء العرب في ذاك العصر، مؤخراً تغيرت أقواله شكلاً ومضموناً، فغلبت عليها النصح والمواعظ والإرشادات التي كان يفصح النبي ﷺ عنها بخطب طويلة هادئة وموزونة الإيقاع وبسجع أقل.

من البديهي أن الرسول الكريم ﷺ كان يخطب مستمعيه بلغة كان يعرفها بنفسه، والتي كانت مفهومة لدى الجميع، هكذا كانت اللغة العربية غير اللهجية والموسومة قليلاً ببعض خاصيات النطق والمرادفات والنحو، ألا وهي لغة قبيلة القريش.

وحدت طائفته الإسلامية أعضاءها تحت راية الدين الواحد، فيما عدا القرشيين انضم إليها منذ البداية ممثلو الطبقة الدنيا من المجتمع المكي، أي العبيد غير

(١) كراتشكوفسكي (١٩٢٤) الصفحة ٢٥٣، وما يليها.

العرب والمعتقون منهم، لم تكن وحدة اللغة شرطاً لهذه الطائفة، ولكنها كانت شيئاً بديهياً، وحتى في غضون انتشار الإسلام في كافة أرجاء الجزيرة العربية لم تصادف عوائق لغوية.

كان النبي محمد ﷺ متأكداً أنه ينقل كلام الله تعالى ((بلسان عربي مبين))[1]، وفي نتيجة ذلك بلغت اللغة العربية مقام اللغات المقدسة، وتعالت من حيث مكانتها مع لغات أخرى كتبت بها الكتب المقدسة، شدد النبي ﷺ في قوله عن اللغة (اللغة الأم دوماً واضحة ومفهومة لحاملها) أهمية إلهامه الذي نطق هو به، وأكد على استقلال طائفته الصغيرة من صحابته، ففي مرحلة معينة كان ذلك الشيء هاماً في المجال النفسي، كانت الأهمية العملية للغة العربية كأداة الحياة الدينية- السياسية تزداد مع ازدياد عدد الطائفة وتعززها التنظيمي، صارت بنية الشروط الأولية لتوحيد الجماعات والطوائف المتفرقة في نظام اجتماعي ذو لغة واحدة، وبعد برهة من الزمن تحقق ذلك لما أصبحت الجزيرة العربية لأول مرة في تاريخها موحدة سياسياً في دولة تيوقراطية.

في مرحلة الردّة وترويض القبائل كانت القمة الحاكمة من الطائفة الإسلامية معنية جداً بجمع وتنظيم وحفظ كل ما بشر به الرسول الكريم وهذا يلخص الأحقية التشريعية والأخلاقية لسلطتها، في غضون ذلك كانت وصايا محمد ما زالت موزعة في مقتطفات وبحالة متناثرة، وحفظت بالدرجة الرئيسة في ذاكرة الناس وجزئياً في مدونات.

وبمرسوم الخليفة أبي بكر (٦٣٢-٦٣٤) أنشأ زيد بن ثابت الكاتب الأسبق للنبي (ﷺ) النص الإجمالي للقرآن الكريم، وهكذا تمت عملية تحول القرآن الشفهي إلى كتاب مدّون الذي أنشأ وقتذاك بنسخة واحدة، بيد أنه كان وقتذاك صحابة آخرون

---

(١) سورة النحل، الآية:١٠٣، وسورة الشعراء الآية: ١٩٥، وتنسب هاتان السورتان إلى الفترة الممتدة ما بين ٦١٩-٦٢٣م، وكما تفيد الروايات كان سبب القول عن ((لسان عربي مبين)) الجدال مع اليهود؛ حيث كان النبي محمد (ﷺ) يدافع عن حقيقة رسالته النبوية (غربازنيفتش، ١٩٧٧، الصفحة:٤٨).

للرسول (أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وغيرهم) الذين قاموا بجمع المصاحف الجزئية أو الكاملة، والتي كانت أغلب الأحيان تطابق الرواية المعدّة للخليفة، ولكنها كانت تختلف عنها مثلما كانت تختلف عن بعضها في جزئيات إذ كانت هنالك تمايزات في تتابع بعض الفقرات أو في بعض الجمل المحددة أو باستبدال كلمة بأخرى أو صيغة قواعدية بصيغة أخرى، وفي تباين شرح أسباب النزول ومدلول بعض الجمل والكلمات.

لم يتم مباشرة حل قضية إنشاء نص القرآن الموحد وتفسيره بصورة متماثلة، فاستمر تداول الروايات المتناقضة للقرآن، تجددت الهمم لعملية إنشاء النص الكامل والصحيح زمن الخليفة عثمان بن عفان (٦٤٤-٦٥٦)، لأجل ذلك في نحو عام ٦٥١ عينت لجنة من أربعة من الصحابة ذوي سمعة حميدة برئاسة زيد بن ثابت، هذه المرة أجري العمل بدقة أكثر، فتم جمع وفحص كل المصاحف سهلة البلوغ وضع في أساسها مصحف المجموعة الأولى التي انتقلت من أبي بكر إلى عمر بن الخطاب بين المجموعة الأولى والثانية طفيفاً على الأغلب، وأمر الخليفة بإحراق النسخ الأخرى واستنساخ النص الجديد وإرساله من المدينة إلى المدن الكبرى، كمكة، ودمشق، والكوفة، والبصرة، كان تدوين النص القرآني الجديد المدقق مرحلة هامة في تشكل اللغة العربية الفصحى وتعزيز مكانتها الاجتماعية.

والآن فلنلقي انتباهنا إلى وسيلة تدوين النصوص العربية، كانت الكتابة السامية الشمالية عبارة عن نظام الأصوات الساكنة دون تمثيل الأحرف الصوتية، فكان ذات طابع مقطعي صوتي، أي كل حرف كان يمثل اقتراناً مع حرف ساكن، وأي حرف صوتي، لذا يمكن أن نعتبر ذلك النظام هجائياً[1]، يظهر أن مخترعي الكتابة السامية كانوا يدركون اختلاف الدور الوظيفي للساكنات مع الصوتيات في لغتهم، فكانوا

(١) دياكونوف، ١٩٧٩، الصفحة ١١-١٤.

يسترشدون بقياساته، كان في الأبجدية (أو الهجاء) اثنين وعشرين رمزاً وفقاً لعدد الأحرف الساكنة.

عند استيعاب العرب الأبجدية السامية الشمالية بذلوا كل طاقتهم لتطبيق الأصوات الساكنة مع الأصوات الساكنة من لغتهم (أو المقاطع الصوتية كمثل الساكنة+ الحركة) سارت عملية التطور ليس على وجه الاستقامة واستغرق قروناً، وليس كل مراحل ذلك التطور مدونة وثائقياً.

في البداية: في غضون ازدواج اللغتين العربية والآرامية كانت تستخدم الكتابة الآرامية لتمثيل أسماء العلم العربية وأدوات النداء وبعض الأفعال وغيرها من العناصر، لأجل تمثيل الأصوات العربية الساكنة التي ليس لها وجود في الآرامية كانت تنقى الأحرف ليست الشبيهة بصوتها، وإنما وفقاً للتطابق التأصيلي للكلمات في اللغتين كمثل ((نظر)) مثل ((نظار))، ومن ثم كانت الكتابة المعينة تنقل بالتماثل أي كلمات أخرى التي ليس لها نظير في اللغة الآرامية، ولكن ليست كل الكتابات تخضع للتفسير كهذا[1]، فمن بين اثنين وعشرين حرف آرامي قلما اسْتُعملتْ أحرف ((سمكت)) في كتابة الكلمات العربية، ومؤخراً زال ذلك الحرف ولم يدخل الأبجدية العربية، مر النظام المكون من أحدى وعشرين حرف عامة، وكل حرف كجزء من هذا النظام خاصة بتطور كتابي في ظروف نشوء الاتجاه نحو تمايل الأحرف، أي، ارتباط مجموعة من الرموز ضمن كلمة واحدة، في آخر الأمر تبيّن أن عدة أزواج من الأحرف ومجموعة من أربعة أحرف – التي كانت متباينة بوضوح في الكتابة السامية القديمة المربعة – تشابهت بعضها رويداً في الكتابة النبطية أو صارت متساوية تماماً، هكذا كانت رموز ((ج)) و((ح))، ((ز))و((ر))، ((p)) (بالعربية ((ف))) و((ق))، وكذلك ((ب)) و((ي)) و ((ن)) و((ت))، وهكذا قل عدد الأحرف المختلفة عن بعضها في الكتابة النبطية المتأخرة المستخدمة لتدوين الكلمات العربية، فصار عددها خمسة عشر، عند ذلك كان

(١) Diem, 1976.

لبعض الأحرف شكلان مختلفان، بهذه الصورة دخل النظام الكتابي العربي مرحلته المبكرة، واستأنف وظيفته خلال مئات السنين.

في الكتابة العربية المبكرة زادت النزعة نحو ميل الأحرف، فصارت معظم الأحرف ترتبط مع الأخرى من جهتين ضمن كلمة واحدة، واستثنيت من هذه القاعدة الألف الذال والدال والزين والراء التي قلما كانت مرتبطة مع الأحرف الواقعة على جهتها اليسرى في الكتابة النبطية، أما في الكتابة العربية فزال ارتباطها مع الرموز الواقعة على يسارها نهائيا[1]؛ صار التشابه الخطر أو التطابق الكامل بين الأحرف أكثر عجباً، فظهرت حاجة لإجراء تدابير جديدة بغية التفريق بينها، فوجد حل لهذه المشكلة ليس في تحويل أشكال الحروف، وإنما بوضع فوقها أو تحتها علامات منفصلة عنها تميزها عن بعضها، في المرحلة المبكرة- التي برزت في الكتابة القرآنية – استبدلت بالنقاط، كان هاماً المبدأ أن بعض الأحرف كانت مشكَّلةً من عنصريين كتابيين كانا يكتبان منفصلين عن بعضهما ولم يخصا حرفاً معيناً.

خلاصة الكلام: في نتيجة التشابه صارت العلامة ((ح)) المشتركة بين الجيم والحاء ترمز لحرف الحاء، وترمز لحرف الجيم بوضع نقطة أسفلها، وصارت العلامة ((ر)) المشتركة بين الراء والزين تمثل حرف الراء فقط، والزين بنقطة أعلاها، أما الزوج الفاء والقاف ففي بادئ الأمر كانوا يميزوهما بوضع نقطة فوق الفاء ونقطة تحت القاف، وهذا ما بقي في إحدى الروايات الثانوية للكتابة العربية، ولكن في روايته الأساسية زود حرف القاف بنقطتين في الأعلى، بفضل هذه الأساليب تم التمييز بين الواحد والعشرين حرفاً التي ورثتها الكتابة العربية من الأبجدية النبطية.

على نفس النهج سارت عملية إعداد الحروف الإضافية التي ليس لها وجود في الأبجدية النبطية، تم استخدام الرموز الموجودة بتزويدها بعلامات تميزها عن

---

(١) كانتينو، ١٩٣٠، الصفحة ٣٥.

الأخرى، فحرف الخاء صاروا يمثلونه على هيكل الحاء بوضع نقطة فوقه (خـ)، والثاء بهيكل مشترك بين الباء والياء والنون والتاء بوضع ثلاث نقاط فوقه (ثـ)، والذال بهيكل حرف الدال بوضع نقطة فوقه(ذ)، والضاد بهيكل حرف الصاد بوضع نقطه فوقه (ض)، والظاء بهيكل حرف الطاء بوضع نقطة فوقه (ظ) والغين بهيكل حرف العين بوضع نقطة فوق (غ)، والرمز المشترك بين السين، الشين ((س)) صار يمثل حرف السين، وعند وضع ثلاث نقاط فوقه يصبح حرف الشين.

هكذا في نتيجة التطور الطويل ظهرت الأبجدية العربية المكونة من ثمانية وعشرين حرف ساكن، وقد شهد ترتيبها الأبجدي تغيرات بعد الترتيب التقليدي، والمرجح أنّ هذا قد حدث من جراء تشابه الحروف وإدخال الجديدة منها، ثم وضع الأزواج والمجموعات من الأحرف المتشابهة قرب بعضها. بالإضافة إلى تغيرات أخرى لا تخضع لتفسير (كمثل وضع الهاء والواو والياء في آخر الأبجدية) يظهر أنّ إدراك الأبجدية العربية بمثابة حوزة العرب صار بعد نسيان نشأتها النبطية، تظهر إحدى مراحل إعادة إنشاء الأبجدية في فرعها المغربي الذي احتفظ على ترتيب آخر للأحرف الأكثر تقليدية، كما تم الحفاظ على قيمة الأحرف العددية، كما هي كانت في الأبجدية الأولية أما الأحرف الجديدة فغدت تمثل أرقاماً جديدة مئوية.

ما يخص ميل الأحرف – وهذا ما كان جديرٌ بالكتابة النبطية بصورته الأولية ومطور في العربية المبكرة – فبعد نضوج الكتابة العربية بات قاعدة، بهذه الطريقة تم بروز الكلمة كوحدة لغوية ممثلة بوضوح في توحدها الكتابي، فليس تفصيل الكلمات وليس المسافات الشرطية بينها، وإنما ارتباط مباشر بين الحروف ضمن كلمة واحدة هو الذي وفر هذه الوحدة، فمن الحرف الأول يمتد مع اتجاه الكتابة (أي من اليمين إلى اليسار) خط من حرف إلى حرف وهكذا حتى نهاية الكلام. من الواضح أنّ إكمال كلمة على السطر التالي ظاهرة خارقة للعادة، وكل حرف تتغير هيأته حسب موقعه من الكلمة: في بدايتها أو وسطها أو نهايتها، كما وضعت أشكال ثابتة ومنتظمة للأحرف

التي انضمت إلى تركيب نظام الأبجدية العربية، وقد أضحى شكل الحرف الواقع في نهاية الكلمة المنفصل مع حرف يسبقه نموذجاً لهيأته المستقلة، ولو أن هذين الشكلين يختلفان عن بعضهما قليلاً، كما لا بد من الإشارة أن الأشكال المستقلة والنهائية لبعض الأحرف العربية تعود إلى أنواع الأحرف النبطية، أما سائرها فظهرت بصورة مستقلة.

في الحقيقة إننا نصادف هنا من جديد تناقضاً في النظام والاستثناءات من القاعدة، فستة أحرف-ألا وهي: الألف والدال والذال والراء والزين والواو – لا ترتبط إلا مع أحرف تسبقها أي الواقعة على يمينها، أما الأحرف التي تليها فمفصولة عنها، وهذا يعني أن الكلمات حيث توجد هذه الأحرف متقطعة تفقد ارتباطها الكتابي، لا بدّ وأن نضيف إلى ذلك أن بعض الحروف – وعلى الأغلب ذات مقطع صوتي واحد – ليس لها مكانة بمثابة كلمة مستقلة وتكتب متصلة مع كلمات كاملة الوزن إما تكتب بصورة متصلة أو منفصلة، والشيء نفسه جدير بتمازج من حرفين، إذن لو اتخذنا العبارة ((في الكتابة العربية كل حرف يطابق صوتاً ساكناً أو مقطعاً صوتياً كمثل الساكن + الصوتي)) كقاعدة ينبغي القول أن الاثنين والعشرين حرف لها أربعة أشكال، أما الستة الباقية فشكلان فقط، تكتمل قاعدة كتابة الكلمات بصورة متصلة بحالة استثنائية: قد تخالف هذه القاعدة إذا وجدت في بداية كلمة أو وسطها حرف من الحروف الستة المذكورة، ومن جهة أخرى فإنّ الوحدة الكتابية من عداد المتصلة بربطات الأحرف يمكن أن تكون توحداً بين كلمة وحرف أو تمازج بين حرفين.

ليس ثمة تأريخ خاص لتعديل نظام الكتابة العربية ككمية من الأشكال المختلفة للأحرف حسب موقعها من الكلمة: في البداية أو الوسط أو النهاية (إجمالاً (٤×٢٢) _ (٦×٢)=١٠٠) بيد أن هذا النظام موجود في أقدم الآثار العربية الكتابية الذي برز منذ البداية كخاصية شاذة للكتابة.

" كانت من مشكلات الكتابة الملحة تمثيل الأحرف الصوتية"[١] لاشك أنّ هذا الموضوع هام جداً في الكتابة العربية، ففي الكتابة الآرامية (وطبعاً في النبطية) استخدمت الأحرف الساكنة ((ء))، ((و))، ((ي))، ((هـ)) لتمثيل الأحرف الصوتية الطويلة في نهاية الكلمة، وقد استمدت الكتابة العربية هذه العادة ثم باتت تستخدم أحرف الألف والواو والياء لتمثيل الأحرف الصوتية بها منطقياً ليس في نهاية الكلمة فحسب، بل وفي وسطها كذلك، فبات هذا النظام بدعة هامة[٢].

لم تنل الحروف الصوتية القصيرة نصيبها من التمثيل في الكتابة بالرموز كما هو جدير بكل فروع الأبجدية السامية، بيد أنّ الحاجة في تمثيل الأحرف الصوتية القصيرة في الكتابة كانت موجودة ولا سيما في النصوص التي كان ينبغي كتابتها مراراً بصورة متماثلة، في بادئ الأمر مُثّلَتْ هذه الأحرف بنقاط وكانت تكتب بحبر ملون، فالحرف i كان يمثل بنقطة تحت حرف الذي هو يليه، وa فوق الحرف مباشرة وu فوق الحرف، ولكن منحرفاً قليلاً إلى اليسار أو اليمين، ولكن لما اكتشف أنّ هذه العلامات تؤدي وظيفة الحروف المستقلة صارت تمثل بعلامات كتابية على شكل خطوط مائلة: فوق الحرف لتمثيل a، تحت الحرف لتمثيلi، أما u فصاروا يمثلونه بعلامة فوق الحرف "ُ" (الضمة)، وكان يشار إلى عدم وجود حرف صوتي قصير أو إزالته بدائرة صغيرة فوق الحرف والتي صارت كذلك توضع فوق حرف صوتي طويل، بفضل هذه البدعة ابتعد نظام الكتابة العربية عن طرازه التقليدي الهجائي، ولكنه لم يُعُدْ أبجدية على وجه الاكتمال طالما أن تمثيل الأحرف الصوتية القصيرة بقيت تؤدي وظيفة العلامات المساعدة الثانوية فوق السطرية، أو تحت السطرية، ولم تصبح حروفاً كاملة القيمة.

---

(١) فريدريخ، ١٩٧٩، الصفحة ١٠٨.

(٢) ومع ذلك حتى في الكتابة العربية بعد نضجها لم يحدد تطابق هذه الرموز الثلاثة مع الأحرف الصوتية الطويلة، ولوحظت بعض انحرافات في الكتابة التاريخية (ويعتبرونها ((معيبة))).

لم يتوقف تطور الإملاء العربي على هذا، فقد أدخلت بعض العلامات الإضافية، ولكنها احتفظت على بعض التناقضات المرتبطة مع التفريق بين قواعد النطق في اللغة العربية وثبوت الكتابات التقليدية.

إلى جانب استعمال الأحرف ألف وواو وياء بمثابة الصوتية الطويلة ā، ū، ī تم تقسيم وظائف هذه الأحرف، وطبق في الكتابة مبدأ الاقتصاد، فعندما كانت الحاجة إلى وضع حرفين متساويين قرب بعضهما – حتى ولو كانت وظائفهما مختلفة – غالباً قد يحذف واحد منهما، وهذا المبدأ موجود منذ غابر الزمان في كل الأبجديات السامية حيث إذا كان حرف ما مثنى يسجل بحرف واحد، وقد أدخل العرب علامة خاصة فوق الحرفية "ّ" التي ترمز إلى مضاعفة (تشديد) الساكن، وإذا وضعت هذه العلامة فوق حرف الياء أو الواو كانت تمثل كذلك التمازج iy أو uw.

أصبح الحرف العربي أكثر تعقداً فصارت وظيفة الألف الذي وقع على عاتقه تمثيل (('')) وā، الواقع أنه في الإملاء القرآني المبكر حيث برز النطق المكي (القريشي)، وحيث الانفجار الحنجري لم يعد يحس به كحرف ساكن، غداً الألف يمثل في بداية الكلمة حروفاً صوتية قصيرة (u،i ، a)، وفي وسط الكلمة ونهايتها صار يمثل ā الطويل فقط، ولكن عند تحديد إملاء اللغة العربية الفصحى معتمدين على الشعر ونطاق أوسع من اللهجات، حيث كان النطق بالانفجار الحلقي يتأرجح بين صوت مفخم واضح وصوت ضئيل لا يكاد يسمع، صاروا يضعون ((الهمزة)) – كرمز ذلك الانفجار الحلقي – حيثما تتلاقى وأدخلوها في النص القرآني كذلك محاولين بألا يُخِلّ بالأساس التقليدي لنظام الأصوات الساكنة، كانوا يضعون الهمزة المرموزة بإشارة ((ء)) – كحرف العين غير المكمل – إما فوق خط رباط أحرف وإما فوق الواو والياء والألف وإما على مستوى السطر، وهكذا ظهرت الكتابات كمثل ((ؤ، ـؤ))، ((ء))، ((ئـ، ئ، ـئ، ـئـ))، ((إِ، أ، إ))، تتعقد الحالة كذلك من أن الحرف الساكن ((ء)) ليس جذري دوماً: فهو قد يكون بمثابة البداية المفخمة للكلام أو بمثابة فاصل بين حرفين صوتيين

ولا سيما الطويلين أو بمثابة المحول التركيبي للسواكن الألف والواو والياء (وهي مختلفة في مختلف اللهجات، وهذا هو سبب تنوع وتقلب الإملاء الصحيح للهمزة).

بعد الهمزة على المسند كانوا يحولون حرف الألف والواو والياء بمثابة الأحرف الصوتية الطويلة، فلذا صارت الكتابات مثل ((ـؤ، ئـ)) تمثل التمازج 'u' و'i، وفي بداية الكلمة كانت نفس التمازجات تكتب على شكل ((أو))، ((إيـ)) أما التمازج 'a الطويل فكان يكتب إما على شكل((أ ا)) إما بألف واحد مزود بعلامة التطويل الخاصة ألا وهي المد((آ)) الذي صار يكتب تارة فوق aالطويلة في وسط الكلمة أو نهايتها وحتى مع الحرفين i و uالطويلين وغيرها من الوظائف (مثلاً عند اختصار الكلمات والتعبير).

كانت نهايات الكلمات في الكتابة العربية المبكرة تكتب طبقاً للقواعد النبطية[1]، فمثلاً النهاية الأصلية للأسماء التي كانت تنتهي بـ n- لم تكن تظهر في الكتابة، وفقط في حالة النصب كانوا يضعون ألفاً، فكلمة ((ثلاثة)) كانت تكتب بالنبطية tltوفي حالة النصب tlta، وبالعربية كانت تكتب tit أو tlat وفي حالة النصب tlata في حين أنها كان تلفظ في حالة الرفع talatun وفي حالة الجر talatin وفي حالة النصب tarlatan، رويداً أدخلت لأجل تمثل n- النهائي علامات فوق السطرية، وتحت السطرية على شكل نقطتين ونقطة حمراء وتجويف، وفي آخر الأمر وقع الاختيار لصالح تجويز علامات الأحرف الصوتية القصيرة (التنوين)، يبدو أن النهاية un - لدى أسماء العلم في حالة الرفع كانت تكتب في مرحلة ما على شكل واو كما هو الحال في الكتابة النبطية، ومؤخراً لم تبق هذه الكتابة في العربية إلا في اسم واحد فقط ألا وهو ((عمرو))، وفي الأسماء المؤنثة كانت النهاية. تمثل ليس بواسطة الحرف ف t- كما هو في الكتابة النبطية- إنما بواسطة الحرفhكما هو في العبرية القديمة (بما فيها في حالة الربط حيث كان يلفظ بوضوح)، ولكن فيما بعد لأجل الدلالة على لفظه كصوت t اصاروا

---

(١) Kobert, 1960;Diem, 1973.

يزودون الحرف h بنقطتين من فوقه، في نتيجة ذلك إذا هذا الرمز عملياً شكلاً من الأشكال الكتابية لدى الحرف t.

خلاصة الكلام: سارت عملية تطور الإملاء التاريخي للغة العربية متجهة من الكتابة النبطية الموروثة إلى تطبيقها وفقاً لحاجات النطق العربي. مرّ هذا التطور بتجارب وأخطاء كثيرة في ضبط الكتابة المتصلة لعناصر (هيئات) الأحرف الرئيسة وإدخال النقاط بغية التمييز بين الأحرف وغيرها من العلامات المساعدة، تم ذلك بصورة عفوية وغير منتظمة من قبل مختلف النساخين، وكانت هنالك محاولات إقصاء هذه التصرفات الفردية الحرّة. فبين الفينة والأخرى أجريت محاولات ليس لتسوية الإملاء، ولكن على الأقل تنظيمه، في نتيجة ذلك وجد الحل الأوسط إذ شكلت كتابة تضم العديد من خاصيات الكتابة التاريخية المشترطة بالنظام المحافظ على القديم، إلى جانب الخاصيات المطابقة لحاجات الأعراف اللفظية لدى قواعد اللفظ في المجموعتين الرئيسيتين من اللهجات التي تمثلتْ في أثرين رئيسيين ألا وهما القرآن الكريم والشعر، يمكن أن ننسب تشكل نظام الكتابة العربية إلى أواسط القرن الثامن (وينسب بعض الباحثين هذا إلى أواسط القرن التاسع)، ولكنه لم يكشف عن نفسه في أي قرار رسمي يكون فرضاً، كانت في الإملاء المشكل حالات متبعة من قبل الجميع إلى جانب حالات مختلفة عليها التي كانت سبباً للترددات والاختيارات الفردية.

في ظروف الاتجاه الواحد في الكتابة العربية – وهو استعمال حرف واحد لتمثيل ساكن واحد وعلامة مساعدة لحرف صوتي واحد واستخدام حرف ساكن واحد لتمثيل ثلاثة أحرف صوتية أي إتباع مبدأ النطقيات (فونولوجيا)- كانت هنالك بعض الاستثناءات، وبالذات كانت السواكن تكتب حسب موقعها من الكلمة، وعند التشديد كانت توضع شدة فوق الحرف المشدد بدلاً من كتابة حرفين، والتغيرات الصوتية التركيبية كانت تبدي عن نفسها بصورة متقطعة في تبديل السواكن أو ظهور العلامات المساعدة؛ كانت الأحرف الساكنة الخالية من نقاط تكتب بصورتها المصغرة

في الأسفل (وتارة في الأعلى) بغية تمييزها؛ وكانت الأحرف الصوتية تكتب بمختلف الأشكال والنهاية ا– (التنوين) – كإشارة للاسم غير المحدد – تكتب بعلامات مساعدة (فيما عدا النصوص الفنية حول العروض والنحو)؛ وفي بعض الحالات الخاصة كانت تكتب حروف زائدة يتعذر لفظها.

بفضل إدخال الحركات غدا نظام الكتابة العربية قريباً من حيث إمكانياته إلى الأبجديات الحرفية – الصوتية، فيمكننا القول أنه قد تغلب على عيوب الكتابة السامية المسندة على مبدأ المقاطع الصوتية للكلمات، وصارت الاشتراكات الكتابية فيها تطابق الاشتراكات اللفظية القليلة[1]، ولكن إذا كانت كتابة العنصر الكتابي الأساسي للأحرف شيئاً لا بد منه لكي تتم الكتابة عامة، فإن كتابة الحركات لم تنل نصيبها من هذه الضرورة، فلم تصبح عنصراً ضرورياً في الإملاء المنظم تنظيماً دقيقاً، فقد كانوا يكتبونها ويغفلونها متى يشاؤون، لذا فالكتابة العربية كانت تاريخياً قابلة للانعكاس ومعرضة للعودة إلى نقطة انطلاق تطورها، أي إلى حالتها البدائية حين كانت تحتوي على خمسة عشر حرفاً (ومع موقعها النهائي والمنعزل تصبح ثمانية عشر، إجمالاً إذا أحصينا كل أشكالها عندئذ يصبح عددها ست وستون وحدة) بهذه الكمية الأدنى من الأحرف – فيما عدا الرسم البدائي للقرآن الكريم – كانت تتم النقوش على الحجارة والأدوات والعمل النقدية، بالإضافة إلى كتابة بعض الوثائق والكتب، عملياً تراجعت الحركة إلى الوراء – بسبب الإغفال لمختلف العلامات مع الحفاظ على الأساس الكتابي للأحرف مع الرباطات والشرطيات الإملائية – في النصوص تشابكات مبتكرة من عناصر النظام ((الكامل))، فإذا اتخذنا كوحدة كل شكل من أشكال السواكن مع حسبان ليس موقعها من الكلمة فحسب بل وحتى كل أشكالها من الحركات والتنوين والتشديد سيكون العدد الإجمالي لوحدات النظام ((الكامل)) حوالي ثمانمائة، فكل نص

---

(١) مثلاً في درجة التفضيل النسبي للنعوت في حالة الرفع حيث تطابق الفعل المتكلم المفرد في صيغة غير المنتهية من الصنف الأول، وفي حالة المفعول به تطابق المفرد الغائب في الصيغة المنتهية من الصنف الرابع من نفس الجذر.

وحتى مقاطع النصّ الواحد تكتب عملياً بقواعد مختلف بواسطة مختف مجموعات الأحرف التي يمكن أن يتراوح عدد أشكالها من ٦٦ إلى ٨٠٠، كلما قلَّ استخدام العلامات والرموز زادت مخالفة تلقائية لتطبيق النظام الكتابي الشرطي مع النظام الصوتي الذي يليه، فتصعب بذلك القراءة إذ يمكن أن نقرأ عبارة واحدة بأكثر من شكل، إذ يضطر القارئ ليس إلى تمييز الأحرف بصرياً، و(هذا يتعلق غالباً بالخط) فحسب، بل وتخمين العلامات والرموز التي أغفل عنها ولم تتم كتابتها، فإدراك مضمون نص ما يعود إلى معرفة اللغة نفسها بمفرداتها وقواعدها، والتثقف اللغوي لدى القارئ، وعدد الاشتراكات الكتابية يزداد، ولهذا فضبط قراءة صحيحة وموحدة يمكن أن لا تحير القارئ قليل الخبرة فحسب، بل تتحول إلى مشكلة معقدة لا حل لها، فإذا كان نص عربي مكتوباً فقط بواسطة الهيكل الساكن هذا يعني أنه مكتوب بالشيفرة وبحاجة إلى حل الرموز، ويتعلق عدد العناصر التي ينبغي فك رموزها تعلقاً عكسياً بعدد الحركات الموجودة في النص.

يمكن أن نشير كذلك إلى خاصيات الكتابة العربية الأخرى التي هي أقرب إلى المحاسن منها إلى العيوب، فهي واسعة ومقتصدة لا تأخذ مكاناً كثيراً على الصفحات[1]، إنّ عدم وجود علامات كتابية ترمز للصوتيات يكشف عن التركيب الجذري للغة، مُظهراً بذلك تركيب نظام الأصوات الساكنة لدى جذر ما، ولو أن مجموعة السواكن يمكن أن تؤدي أحد الدورين، فإما أن تدخل إلى تركيب الجذر أو تكون جزءاً من اللواصق أو السوابق وغيرها من اشتقاق الكلمات، وكل مرة لا بد من تحديد في أية وظيفة من الوظيفتين استعملت السواكن في كلمة معينة، كما لا بد من إدراك أين يوجد التشديد، وأين اختفى الساكن الجذري من مجموعة ((ء)) و((و)) و ((ي)) وأين تحول.

---

(١) ويزعم البعض (Riberal ١٩٢٨/p. ١٨٥) أن كثرة المخطوطات العربية تعود إلى كيفيّة الكتابة هذه.

تسهل عملية تحديد بنية الجذر وتركيب كلمة بتقييد اقتران السواكن[1] وجواز علم الصرف وانتظام الصيغ، من جهة أخرى تخلق وفرة العلامات المساعدة مختلفة الاختصاصات الموزعة على عدة طوابق فوق سطر أو تحته رسماً صعباً للكتابة، وتحمل في طياتها جواز الإغفالات والانحرافات والتحويرات التي تجعل مضمون النصوص غامضاً أكثر مما هي الأنظمة الكتابية المسندة على الأبجدية التامة، حيث تمثل السواكن والصوتيات في الكتابة على قدم المساواة، مجالاً لخلق الكتابات الزخرفية من عناصرها، كالتمديد والتضييق والتشابكات المختلفة بين الأحرف، وسمح انجراف النقاط على تكوين - في النقوش - أحاجي صور حقيقية، كما سمح احتمال وضع العلامات المساعدة، ولا سيما النقاط أو الإغفال عنها بممارسة الحيل اللغوية بلعبة واعية بخاصيات النظام الكتابي.

وحتى عند وجود العلامات المساعدة لا ينطبق نظام الكتابة العربية إلا مع اللغة الفصحى، أما إمكانياته في تثبيت نصوص بلهجة من اللهجات العربية أو بلغة أخرى، وغيرها فمحدود جداً، والأصعب من ذلك التعبير بالرموز الكتابية عن الأسماء والمصطلحات والاقتباسات الأجنبية، بصفته نظام تقليدي في نقل النظام الصوتي، فهو يستر تنوع الأصوات ومختلف أشكالها. أي لا يعبر عن التنوعات التزامنية، بصفته نظام محافظ على القديم، فهو عاجز عن التعادل مع تغيرات اللغة وتطوراتها، أي التعبير عن الاختلافات في لفظ الأصوات في مختلف الأزمنة.

تبدو الأنظمة الموصوفة للغة العربية وكتابتها بكل محاسنها وعيوبها في المخطوطات العربية وتحدد أهم خاصياتها، وإذا استشهدنا بعبارة البيروني (٩٧٣ - ١٠٤٨) المقتبسة في صدر الفصل، نلاحظ كيف كانت الكتابة العربية تدرك وتقدر من

---

[1] يوشانوف، ١٩٢٨، الصفحة ٢١.

قبل كبار العقول الذين أدلوا برأيهم بصورة خاصة عند حاجتهم في نقل المصطلحات العلمية الأجنبية[١].

بعد مضي الثلث الأول من القرن السابع بات العرب موحدين ومتكاتفين ليس فقط في الإديولوجيا الإسلامية والدولة الواحدة - وهذا لم يساعدهم في الفتوحات خلف نطاق الجزيرة العربية - فحسب، بل وأصبحوا ناطقين بلغة واحدة ومتطورة - التي قلما كانت تختلف عن اللهجات الإقليمية - القبلية - وحائزين على الآداب الشفهية الغنية - التي برزت من خلال الشعر المزدهر - ونظام الكتابة المفرد ولو كان غير مكتمل تماماً في تطوره وكتاب واحد ولكن عظيم الذي تم تصحيحه بدقة تامة في منتصف نفس القرن السابع.

استمرت الفتوحات العربية أكثر من قرن بقليل، وانتهت بتأسيس دولة ضخمة مادة ربوعها من البرينه وحتى الهند، وجلب العرب لغتهم إلى كل المناطق المفتوحة بشكليها الشفاهي والكتابي وكذلك دينهم، بدأت عملية نشر الإسلام واللغة العربية بين السكان المحليين، أو بعبارة أخرى استيعاب السكان المحليين هذا وذاك، استغرقت هذه العلمية زمناً طويلاً واختلفت من حيث شدّتها ومدى تأثيرها في بلدان مختلفة وجلبت نتائجاً غير متساوية، ولكن هذه العملية بالذات هي التي مهدت سبيلاً لتطور كتابة الكتب العربية على أوسع نطاق، الذي تفوق حتى على الذي بقيت فيه سيادة العرب السياسية.

ليس من باب الصحة القول أن اللغة العربية فرضت بالقوة أو بواسطة اتباع سياسة لغوية محددة، بل إن الوضع السياسي - الاجتماعي القائم أمن للُغة العربية ظروفاً ملائمة إلى أقصى حد، فقد تم تعزيز مواقع اللغة العربية طبعاً على حساب أضعاف مواقع اللغات الأخرى والانتقاص من دورها، وتضييق مجال استخدامها، من

(١) البيروني، الصيدلة، الصفحة ١٣٩؛ كراتشكوفسكي، المجلد الرابع، الصفحة ٢٥٥.

الظاهر أن الفتوحات العربية قوضت الدعائم التنظيمية لدى المجتمعات اللغوية السابقة، كما نالت من الشروط الاعتيادية لتداول اللغات وإعادتها، وحرمت هذه الطبقة الاجتماعية الضيقة الداعمة للتقاليد من إمتيازاتها، وفي نفس الوقت أمنت الإمتيازات لكل من ينطق باللغة العربية التي نالت مكانة سامية بصفتها لغة الفاتحين ولغة دينهم وطائفتهم، كانت المنظمة القبلية العربية والطائفة الإسلامية قادرة على أن تستوعب عدد غير محدود من الأعضاء الجدد، وكانت الحكومة تحاول تارة أن تمنع من ذلك.

بعد أن نال رعايا الدولة الإسلامية غير العرب مكانة ((المولى)) وانضموا إلى الطائفة الإسلامية غدوا عنصراً تركيبياً في المجتمع قادراً على التأثير وتارة بصورة حتمية – أثَّروا على تاريخه الداخلي بما في ذلك في مجال اللغة، صارت معرفة اللغة العربية رمز الانتماء وحجة جماعية جديدة والتضامن الاجتماعي - الإيديولوجي والثقافي لدى أعضائها، وبالتدريج صارت تنجذب إلى هذه العملية الفئات الاجتماعية القاطنة في الدولة الإسلامية بمنزلة ((أهل الذمة)) دون تغيير دينها.

إنّ تغيير اللغة للأفراد والجماعات ليس مجرد فقدان إحدى الخبرات اللغوية بل وكذلك إعادة إنشاء تركيب كل المعلومات الثقافية الواصلة عبر اللغة، إلى جانب ذلك كانت تقطع العلاقات مع الماضي التاريخي والأجداد بأفكارهم الثابتة التقليدية وذخيرة القيم أو اكتسبت إدراكاً جديداً، ومن استوعب لغة جديدة بفحواها الثقافية كان وعي ذاته يتعرض لتغيرات كثيرة.

نتيجة انتشار اللغة العربية تغيرت كثيراً الخارطة اللغوية في الشرق الأدنى وشمال القارة الإفريقية وقسم من جنوب أوروبا وإيران، وما وراء القوقاس، وآسيا

الوسطى[١]. خلال قرنين ونيف من وجود الخلافة العربية بات الموقف اللغوي المتشكل في بعض الأقاليم راسخاً غير قابل للانعكاس، ووصل بهذه الصورة إلى أيامنا بتغيرات طفيفة، وفي أقاليم أخرى أدّت الأحداث الحربية – السياسية في المراحل المتأخرة إلى الإزاحة الكلية أو الجزئية للغة العربية كوسيلة المعاشرة اليومية، ولو أنها تركت بصمتها في كل مكان.

من البديهي أنّ هذه الأحداث التاريخية والعمليات الاجتماعية – الإيديولوجية قد أثرت بدورها على اللغة العربية، وفعلاً لقد انتهت مرحلة تطورها في ظروف الانعزال، فقد أدى اختلاط القبائل المختلفة في الجيوش العربية والمعسكرات والحاميات العسكرية إلى زوال الفروق اللغوية بينها، ولكننا قد نبالغ في كلامنا إذا أكدنا أنه في مرحلة انتشار الإسلام الجزيرة العربية والفتوحات خارج نطاقها تشكلت لغة عربية دارجة واحدة، لقد حدث تعديل وتقارب في اللهجات الحية لكن انصهارها الكامل لم يحدث، وتشهد على بقاء الفروق الظاهرة (اللفظ واستعمال كلمات وبعض الصيغ النحوية) المصادرُ العربية.

أدى تدفق ممثلي الشعوب الأخرى (المعربين من حيث اللغة) – أي التزايد الكمّي العادي للناطقين بالعربية – إلى تشدد تطور اللغة، في الحقيقة كان هذا التزايد يعني التكاثر المتكرر لعدد أفعال النشاط اللفظي تتشكل منها الحياة المطابقة للواقع للغة، ففي كل الألفاظ تنجز تراكيب جديدة لذخائر اللغة، وتتفتح سبل تغيير اللغة على مستوياتها الشكلية، زد إلى ذلك إنّ الناس الذين بدؤوا بتكلم العربية لم يفقدوا مباشرة خبراتهم الكلامية السابقة، فكانوا يدخلونها إلى اللغة الجديدة لهم، وثمة شواهد

---

(١) كانت مسألة انتشار اللغة العربية تذكر في أعمال كثيرة وغالباً على الفائت، انظر مثلاً الملاحظات القيمة لدى غريونيباوم (١٩٦٣) الصفحة ٣٤، ٣٩، ٤٤، ٥٦، ٦٥، غويتين (١٩٧٣) الصفحة ٥٠؛ ليه تورنو (١٩٧٣) الصفحة ١٥٧، ١٦٧، ١٦٩-١٧٠؛ تم البحث في تعريب سكان الشرق الأدنى من الساميين في مقال: Polial، ١٩٣٨.

كثيرة تقول إنَّ أهل إيران وآسيا الوسطى وأفغانستان لم يفرقوا بين القاف والكاف وبين الهاء والحاء وبين الصاد والسين ويخلطون الحالات الإعرابية ويخالفون قواعد تطابق الحركات النهائية في المبتدأ والخبر ويدخلون كلمات وعبارات أجنبية، وحتى العرب الأصليين خضعوا لتأثير المحيط، فصاروا يرتكبون بأنفسهم أخطاء لغوية امتلأت بها أحاديثهم(١).

أحدث تأثير العوامل المذكورة إجمالاً تطوراً سريعاً للغة العربية الحيّة، وانحصرت أهم التغيرات ضمن إضاعة تصريف الأسماء والأفعال النهائية، أي أن المتكلمين امتنعوا عن لفظ الحركات في نهاية كلمة متوقفين على حرف ساكن يسبقها، (وهذا ما كانوا يفعلونه في السابق للضرورة الشعرية وفي الخطب عند التوقف) أدى ذلك إلى عواقب بعيدة المدى، فقد تخلخل توازن النظام المكوّن من ثلاثة أزواج من الأحرف الصوتية، واشتد تخفيف الصوتيات القصيرة، كما ظهرت أصوات جديدة من حيث كيفيتها. من الطبيعي أنه قد تمت إعادة تركيب المقاطع الصوتية في كلمة وازداد دور النبرة، وأخذت الأصوات الساكنة كذلك تفقد توازنها ولفظها التقليدي.

لم تكن التغيرات الصوتية منعزلة، بل كانت مصاحبة بإعادة تركيب للمفردات والجمل. يمكننا أن نصوغ الاتجاه العام للتطور اللغوي باختصار: الانتقال من النظام الصرفي إلى التحليلي، وفي اللغة العربية الكلاسيكية زودت التعابير المركبة عن التناسبات المتعلقة بالحالات الإعرابية وصيغ الفعل بالوسائل التحليلية كحروف الجر والأدوات وترتيب الكلمات، فقد زاد وزنها النوعي وتبسط النظام الصرفي.

سلكت لغات سامية أخرى نفس السبيل من التطور، وبعضها قبل ظهور الكتابة فيها، أثرت اللهجات الآرامية الحيّة آنذاك على تشكل اللهجات العربية الدارجة في كل من سوريا، وفلسطين، والعراق، إذ أنها كانت أساسها الجزئي، وفي مصر وشمال

---

(٢) Fuck , ١٩٥٠، الصفحة ٥.

إفريقيا لعبت نفس الدور اللغة القبطية واللغات البربرية البعيدة عن العربية من حيث الأصل.

في تلك الآونة بالذات- لما سارت اللهجات العربية على نهج التطور السريع وأخذت بالابتعاد عن النوع التقليدي المستقر - رفعت بصورة حادة قضية اللغة المعيارية تستخدم في الأدب والمجال الرسمي، من الطبيعي أنها اتُّخذت بمثابة معيار لغة الآداب والقرآن الكريم، فأخذوا يرسخونها في الكتابة، في حين أن الهوة بينها وبين اللهجات كانت تزداد.

أصدرت قرارات هامة – التي ساعدت على تعزيز مواقع اللغة العربية – إبان حكم الخليفة عبد الملك (٦٨٥-٧٠٥)، في البداية ترجم مثل ملفات في مصلحة الضرائب إلى اللغة العربية، فقبل ذلك في المقاطعات البيزنطية السابقة لاسيما في مصر وسوريا كانوا يكتفون بخدمات الموظفين القدامى الذين انتقلوا لخدمة العرب واستخدموا اللغة اليونانية المعتادة لهم، وفي الأقاليم الإيرانية كانوا يستخدمون الفارسية الوسطى، وتعلق الإجراء الثاني بالعملة: ألغيت الوحدات النقدية السابقة، الموروثة من بيزنطيا وإيران الساسانية، وتم سك عمل جديدة الطراز بنقش عربي، ويطلعنا العمل الواصل إلى أيامنا بكميات لا يستهان بها على قصة ظهور لغة جديدة بكتابتها الجديدة لتحل محل اللغات السابقة، وبالطبع رفع توطيد اللغة العربية في هاتين الوظيفتين الهامتين من سمعتها كلغة للدولة.

وفي عهد الخليفة عبد الملك نفسه أجريت خطوة هامة لتطوير الكتابة العربية، وينسب إدخال الصوتيات وسائر العلامات المساعدة الثانوية إلى مبادرة الحجاج – نائب المقاطعات الشرقية من الخلافة – وفئة من مقربيه، وقد سهل تنظيم الإملاء تثبيت النصوص كتابياً، الأمر الذي كانت ضرورته تتنامى. خلفت نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن عدداً لا يستهان به من آثار اللغة العربية الكتابية كالنقوش والوثائق والمؤلفات الأدبية، أثارت مرحلة البحث عن الطريق الأفضل لنظام الكتابة العربية

والنمو الكمي للآثار الكتابية في ظل انتشار عنيف للغة العربية اهتماماً عظيماً بالمسائل اللغوية، وخلقت كمية كبيرة من الرقابة اللغوية، عقب ذلك ظهر تعليم اللغة بقواعدها وذخيرتها من المفردات وجملها وشعرها وعروضها.

على ضوء اللغة العربية الفصحى المقدمة من خلال الآثار تتبدى ملامح ضئيلة جداً من اللهجات الشعبية على قدر ما تسرب تأثيرها إلى النصوص المكتوبة حتى تبدو في الكتابة، يرتبط مصير اللغة العربية الفصحى المقبل بصورة متواصلة مع الآداب الكتبية التي سنبحثها في فصل قادم

الفصل الثاني
الآداب الكتبيــة

إنّ الأدب العربي أثر خالد لا يموت، أبدع ليس من قبل شعب واحد وإنما حضارة كاملة.

هاميلتون أ.ر. غيب

كان القرآن الكريم كتاباً أولاً مكتوباً باللغة العربية، وبات كتاباً مقدساً لدى المسلمين المقروء والمنسوخ كثيراً من المرات في العالم الإسلامي، لكن المرحلة المبكرة من تحول القرآن الكريم التدريجي إلى كتاب ذو شعبية لا نعرف عنها الكثير، فمن الصعب القول في أية فترة من الزمن بدأ نسخه ثانية وثالثة وهلم جراً، في القرن الثامن كان هنالك عدد يستهان به من المؤلفات احتفظت في النسخ المتأخرة، وفي القرن الذي يليه صار تعداد المؤلفين والمؤلَّفات تحصى بالمئات ومؤخراً صارت كتابة الكتب تتنامى بعنف، متجسمة في كثير من الكتب المتنوعة بفحواها الدنيوية والدينية.

تنسب أصول كافة فروع الآداب الكتابية العربية – المعروفة من الآثار والمخطوطات المتأخرة نسبياً – إلى القرن الثامن وجزئياً السابع، وذلك من قبل التقاليد العربية نفسها، ولم تصل من ذاك العصر إلى أيامنا من الشواهد الوثائقية المباشرة إلا القليل القليل، من المنطقي الاعتبار بأنّ الفنون الكتبية العربية كان من الممكن أن تظهر على تخوم القرنين السابع والثامن وبعد ذلك تنمو وتتطور زمنياً ببطء وتتابع، ولكن العلم يواجه عائقاً كبيراً هو ضياع المبكرة منها.

ظهرت مشكلة تأريخ الأدب العربي مع ظهور علم الاستعراب، ويختلف في حلّها طبقاً للمدارس والاتجاهات العلمية. إنّ زيادة المواد الواقعية وتطور سبل البحث أضافت مزيداً من الوقود إلى نار الجدال – التي لم تنطفئ دون ذلك – حول هذه

المشكلة الملحّة في الاستعراب، فالحدان الطرفيان لهذه المشكلة يستندان إما على عدم الثقة الكاملة بالبيانات والتفسيرات الحاوية في التقاليد العربية، وإما على الاعتراف بصحة هذه التقاليد مع بعض الاحتفاظات بشرط التصحيحات، ويختلف أنصار وجهتي النظر المتطرفتين، والحل والوسط المعتدل في تملئة ذلك الفراغ البالغ قرنٌ أو قرن ونصف من تاريخ الآداب العربية المبكر (من ٦٣٠ إلى ٧٥٠م وما بعدها بقليل) حين تم النضوج المجهول لنا لفنونها، ونمو عددي بطيء لمؤلفيها ومؤلفاتهم، كما تختلف وجهتي النظر في تصورهما لعملية التطور الداخلية وفي توزُّع مراحلها على السلم الزمني.

في حين أن سبل تشكل المصادر الأساسية للآداب مفهومة على وجه العموم، فَيُعْتَقَد أن الكتب العربية تشكلت على أساس ما تم تدوينه من مؤلفات الأدب الشفهي المنشأ غالباً قبل ظهور الإسلام بكثير ومحتفظة في ذاكرة الناس، ثانياً إنها عبارة عن نقل من الألسن الأجنبية، وثالثاً إنها ظهرت بمثابة نتاج الفكر الاجتماعي والإبداع الأدبي في المرحلة الإسلامية المبكرة.

إذاً تنحصر المشكلة في تحديد أو بالأصح إعادة بناء بمقدار أكثر أو أقل صورة تتبع ظهور المؤلفات العربية من الأنواع المذكورة ومن مارس تدوينها أو ترجمتها أو تأليفها، ومتى وأين وفي أية ظروف ولأيّ هدف، بيد أن تدوين كتابة الكتب العربية آنفا كان بشكل جزئي حين بحثنا في مسألة انتشار اللغة العربية.

أدّت الوقائع والعمليات التاريخية الكبيرة في القرنين السابع والثامن إلى تغيرات حادة وعميقة في مصائر الشعوب وبلدان الشرق الأدنى التي لم تكن مجرد متوحدة بصورة ميكانيكية في دولة واحدة، بدأت إعادة بناء النواحي الاجتماعية وأشكال المنظمات الاجتماعية وتكامل العناصر غير المتجانسة من حيث اللغة والثقافة والنواحي الدينية – السياسية، وفي هذه البنية الاجتماعية المتشكلة التقت تقاليد الثقافات المختلفة في مجرى واحد، غدت الجزيرة العربية في هذا الإقليم المترامي

الأطراف من الثقافة الجديدة المتماسكة – التي ضمت جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا وبعض أوروبا – جزءاً صغيراً وثانوياً، وأضحى العرب في هذه الوحدة الجنسية – الاجتماعية من بدعها وحامليها أقلية ولو نشيطة ومميزة، مقابل هذا تحولت اللغة العربية إلى وسيلة المعاشرة اليومية، ومن أهم وسائل التعابير في المجتمع الذي خلق هذه الثقافة.

فتوسع الدولة العربية واستيطان العرب على الأراضي الجديدة، ولا سيما في المدن المبنيّة من قبلهم، أو القائمة قبل ذلك وانتشار الإسلام واللغة العربية بين سكان البلدان المفتوحة الأكثر نشاطاً، وتعزز مواقع اللغة العربية بمصابة لغة للدولة وإكمال الإصلاحات الإملائية: كل هذه العوامل مهدت سبيلاً لتطور فن كتبة الكتب العربية المقبل[1].

إذا ربطنا أهم وقائع تاريخ الأدب العربي مع وقائع التاريخ السياسي فإن تصنيف النص القرآني الإجمالي أجري في غضون ترويض القبائل العربية، وإقرار سلطة الطائفة المدنية برئاسة الخليفة أبي بكر في كل أرجاء شبه الجزيرة العربية، أجري الطور الثاني من إنشاء النص القرآني المجمل بعد المعارك الحاسمة كمعركة اليرموك والقادسية ونهاوند حين استولى العرب المسلمون على سوريا ومصر والعراق وإيران، والشاهد على وجود عدد كبير من المصاحف القرآنية ذكرها بصدد الحرب الأهلية التي شنت سنة ٦٥٦، فلما توغل السفاحون إلى الخليفة عثمان، كان الخليفة يحمل في يده المخطوطة القرآنية (وهذا ما حيج على تزييف النسخ بوضع بقع دم عليها) فعقد مقاتلو معاوية العزم على الانتقام لعثمان، فرفعوا على حد رماحهم صحائف القرآن الكريم، وفي مرحلة الفتوحات العربية (أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن)، كانت مراكز الحياة العقلية للطائفة الإسلامية هي الجزيرة العربية والشام والعراق، استأنف الشعر ازدهاره وظهر اهتمام بسلاسل نسب القبائل العربية واحتندت النقاشات الدينيّة –

(١) أنظر خالدوف، ١٩٨٢ أ.

السياسية، وبدأ جمع الأخبار حول الطائفة الإسلامية المبكرة، والحملات العربية الأولى التي قام بها المسلمون، جذبت اهتماماً خاصاً القضايا الفقهية، وكان حلّها متعلقاً بتفسير النواحي القرآنية هذه أو تلك واستخدامها، بهذا الصدد كانت تناقش اختلافات الروايات في قراءة المخطوطات، ومختلف وسائل تفسيره، زادت جملة القضايا والموقف اللغوي الذي تشكل في الدولة من حيوية علم اللغة وبالأخص النحو.

تم إنشاء أول مؤلفات كتابية في الأقاليم المذكورة بالذات، وتتمايل كفة الرجحان لصالح تفسير القرآن بمثابة أقدم الكتب العربية وبالذات تفسير عبد الله بن عباس (٦٨٨م) لو كان هنالك تأكيد أن التفسير قد ألف بصورة كتابية، أخبار عبد الله بن العباس متباينة، وبمقتضى البعض منها بقيت بعدة مخطوطات كثيرة، وبمقتضى الأخبار الأخرى تم تدوين تفسيره وتم تكميله من قبل تلامذته من الجيل القادم، على أية حال، فعلى تخوم القرنين السابع والثامن عاش عدة أشخاص (الضحاك بن مزاحم ومجاهد وسعيد بن جبير) الذين ذاع صيتهم كمؤلفي التفاسير القرآنية، وقد استشهد بتفاسيرهم، ومحمد بن السائب الكلبي (توفي سنة ٧٦٣م) ومقاتل بن سليمان (توفي سنة ٧٦٧م) أولئك الذين وصلت أعمالهم إلينا على شكل مخطوطات ولو متأخرة زمنياً كثيراً عنها، ثمة استشهادات مماثلة، وهي التفاسير الضائعة المؤلفة من قبل أبناء عصر هذين المؤلفين[1].

تنسب إلى نفس المرحلة، وحتى أواسط القرن الثامن تواريخ حياة بعض القراء والعلماء في تفسير القرآن الذين اعتبروهم فيما بعد مؤسسين مدارس مستقلة أو طرق التلاوة، ولكننا لسنا على علم ما إذا كان هؤلاء قد ثبتوا تجاربهم في مؤلفات كتابية أم

---

(١) Sezgin, GAS, I, ٣٤-٣٧. Abbott ١٩٦٧, II.٩٥-١٠١:، وتبحث قضايا الشكل الشفهي والكتابي للتفاسير المبكرة بصورة سيقة في مقال: Leemhuis ١٩٨١؛ ولا تزال تظهر بحوث جديدة حول موضوع تفسير القرآن البدائي، ومثلاً مجموعة المقالات باللغة الإنكليزية: The Quran: Formative Interpretetion ١٩٩٩، وكتاب د. رزوان باللغة الروسية، ٢٠٠٠م.

لا، كما لا نعرف ما إذا كتبت آنذاك مباحث حول الإملاء القرآني واختلاف الروايات في نُسَخِةِ الأولى (مصاحف الأمصار).

يلاحظ شيء مماثل في تسجيل الأحاديث النبوية، كما نعلم في غضون مناقشة وحل الكثير من المسائل المختلفة التي وقفت أمام أجيال إسلامية جديدة، باتت البيانات القرآنية وحدها غير كافية، وكان هنالك مصدر إضافي لحل هذه القضايا ألا وهي حياة النبي محمد ﷺ اليومية وسلوكه وأقواله وأفعاله وإرشاداته وتوجيهاته، بعد أن توفي الرسول الكريم ﷺ سرعان ما تحول إلى شخصية شبه أسطورية، وإلى الإنسان الذي ينبغي على كل مؤمن قياس نمط حياته وتصرفاته عليه كانت الصورة المثالية لشخصية النبي ﷺ تنشأ وتجدد ويعاد إدراكها من جيل إلى جيل، وكرست له الكثير من المؤلفات الشفهية والكتابية التي صارت تظهر مبكراً، وصارت التعاليم حول النبي محمد ﷺ جزءاً لا يتجزأ عن الإسلام – وباتت رمزاً للدين – والفقه واللاهوت وعلم تدوين التاريخ والأدب.

كل الأخبار حول أقوال وأفعال النبي محمد ﷺ والمواقف التي أجري فيه الفعل باتت فرعاً مستقلاً من الأدب العربي، ثم أضيفت إليه قصص فحواها أقوال وأفعال المسلمين الأوائل من جملة صحابة الرسول الكريم ﷺ وأنسابه الذي كانوا من أبرز أرباب الطائفة الإسلامية والدولة، ويسمى كل خبر من هذه الأخبار بالحديث، وهي تدعم بإسناد وسلسلة طويلة من الأشخاص الذين نقلوه، وينسب إخراج حديث أحد صحابة الرسول الكريم ﷺ.

في بادئ الأمر كانت الأحاديث النبوية قليلة نسبياً، وفيما بعد صار عدد البيانات المنقولة والمحدثين لهذه البيانات يزداد على ألسنتهم، حدث التزايد على حساب تطاول سلسلة المحدثين (أي تعدد الأسماء)، وتنوعت طرق النقل ونص الحديث بالذات، ومع ذلك في حقيقة الأمر لعبت دور مصادر التتميم الرئيسة مختلفات شريفة وإبداع حديث بإرادة أو من غيرها، ففي نتيجة ذلك انضمت إلى عداد أقوال النبي

محمد ﷺ وصحابته حكم ومواعظ مصاحبة بإمضاء أو بإغفال عنه، فولكلورية وأدبية، معروفة في مصادر أخرى مبكرة باللغة العربية والأجنبية[1].

مر تثبيت الأحاديث كتابياً – المنقلة قبل ذلك شفهياً – بعدة مراحل: من التدوينات المشوشة إلى مجموعات مرتبة مختلفة الأنواع، لم يصل إلينا أي شيء تقريباً من المرحلة الأولى فيما عدا بعض الاستشهادات والأعمال المتأخرة، في بداية القرن الثامن كل علماء الحديث في المدينة والبصرة والكوفة ودمشق- ومن أبرزهم ابن شهاب الزهري (توفي سنة ٧٤١) ويحيى بن سعيد الأنصاري (توفي سنة ٧٦٠) وابن جريج (توفي سنة ٧٦٧) – لقبوا بمولعي الكتب وذلك بشغفهم بنقل الأحاديث كتابياً، وشكلت الأحاديث المجمعة والمثبتة كتابياً من قبلهم عدداً هائلاً من المخطوطات التي كانت آنذاك على شكل صحائف ودفاتر، بات الزهري مدني الأصل والعامل خلال فترة طويلة من الزمن في دمشق تحت رعاية الخلفاء الأمويين شخصية جذرية في تاريخ تثبيت الأحاديث النبوية الشريفة كتابياً، ولكنه هو وأبناء عصره لم يتحدوا على الأولوية في إنشاء أول مجموعات الأحاديث، إنما كانوا جميعاً يستشهدون بأسلافهم من ممثلي الأجيال الإسلامية الأولى، وليس ببلاغاتهم الشفهية فحسب؛ بل بالكتابة كذلك. من الواضح أن التدوينات الأولى كانت عبارة عن انتقاءات صدفية أكثر أو أقل للأحاديث، ومؤخراً صاروا يجمعونها بأسماء الأشخاص بمثابة المصدر الأصلي أو المنقل الرئيسي (مجموعة على شكل ((مسند)))، وفي نهاية المرحلة التي نقوم ببحثها الآن، أي في أواسط القرن الثامن ظهرت مجموعات موضوعية للأحاديث الموفقة للحاجات العملية في القضاء والإدارة.

أصبح القرآن الكريم وتفسيره والأحاديث النبوية أساساً للتصور الإسلامي حول العادات والأعراف التي ينبغي أن تجري حياة المسلمين الشخصية والاجتماعية طبقاً لها، كان يجب لهذه المثل الأخلاقية- المعيارية أن تستكمل وتعدل جماعياً، وذلك

---

(١) انظر: Goldzuher, ١٨٩٠, p. ٣٩٨; Selleheim, ١٩٥٤, p. ٢٠-٢١

بالآراء المشكلة المتفق عليها من قبل الطائفة (إجماع الأمة)، والمحاكمات الفردية (الآراء) لدى أبرز علمائها وقوادها الدينيين – السياسيين.

أطلق على تعاليم النبي ﷺ والطائفة في مجال القانون (الشريعة) غير المجزأ عن السنة ("العادات"و"العمليات") تسمية"الفقه"، وبعد إعداده وجعله نظاماً بات الفقه مبدأً شرعياً، صارت المؤلفات في مجال الفقه فرعاً من فروع الآداب الكتابية العربية التي ازدهرت مؤخراً ازدهاراً جليلاً.

كان تفسير القرآن الكريم وعلم الأحاديث النبوية والفقه تتطور في آن واحد وتؤثر على بعضها، باتت مجموعات الأحاديث الموضوعية مصادراً شرعية رئيسة، ويعود الفضل في ظهور الفقه إلى علماء الحديث والتفاسير كأبي حنيفة النعمان بن ثابت (توفي سنة ٧٦٧)، والأوزاعي (توفي سنة ٧٧٣)، وسفيان الثوري (توفي سنة ٧٧٨)، ومالك بن أنس.

كانت التعاليم حول وحدانية الله تعالى وقدرته وجبروته وتفوقه على العالم والإنسان، بالإضافة إلى حرية الإنسان في تصرفاته وإرادته جل انتباه المجتمع الإسلامي في القرون الوسطى أو على الأقل جزؤه المثقف، كان علم اللاهوت في بادئ الأمر يتطور ضمن نطاق تفسير القرآن، وعلم الأحاديث والفقه، ولم تتم دراسته في أية مؤلفات أخرى، وقد وقع ظهوره في إحدى فروع الآداب الكتابية في المرحلة التاريخية المقبلة.

كما هو الحال في كل الحضارات العظيمة في القرون الوسطى ظهر في العالم الإسلامي على أساس التعاليم القديمة والمعتقدات، الشعبية التصوف، بيد أنه في المراحل المبكرة لم تكن إلا شخصيات منفردة ميالة إلى الزهد والترحل، مؤخراً صاروا يسمونهم بالصوفية الأوائل، ولو أننا لا نستطيع القول أن التصوف قد صار في القرنين السابع والثامن مذهباً مستقلاً وظاهرة اجتماعية، ومع ذلك ترك الزهاد الأوائل بعض

العبارات المأثورة والأشعار بما فيها الحقيقية أو المنسوبة إليهم، وانضمت إلى بناء الآداب الكتابية بمثابة آثار ذاك العصر.

خلق تفرع الطائفة الإسلامية نزعات وتكتلات إثر الحركات الدينية - السياسية والجدالات العقائدية الجامدة- تعاليماً طائفية، ومع ذلك ليس بحوزتنا المؤلفات المكملة للمرحلة التي نبحثها فحسب؛ وإنما أقوال غير تامة فقط.

أضحى علم تدوين التاريخ فرعاً كبيراً من فروع الآداب الكتابية العربية في القرون الوسطى، وكان هذا العلم ملتفتاً بإحدى جهتيه إلى العقائد الدينية وبجهته الأخرى إلى الأدب الدنيوي، كانت من أهم مواضيع علم التاريخ العربي هو تاريخ الطائفة الإسلامية، وصف فيه على الأغلب نشاط رؤسائها وعلمائها، كما أضيفت إليه أساطير شعبية في الجزيرة العربية، والتاريخ الأسطوري للأنبياء القدماء والقياصرة الفرس، وهذا ما وضع أساساً لمقدمة التاريخ وأسبغ البيانات الإسلامية على مظهر التاريخ الإسلامي والعالمي.

ما يخص المرحلة التي نقوم ببحثها الآن فيمكننا القول أن علماء الحديث ومفسري القرآن الكريم وجزءاً من اللغويين أنجزوا عملاً كبيراً في جمع وتصنيف الروايات والمواد الواقعية حول تاريخ الجزيرة العربية ما قبل الإسلام والطائفة الإسلامية المبكرة، وقد احتفظت البيانات والمواد المجمعة فقط فيما صنعه ونقله المؤلفون المتأخرون.

أضحى من أهم عناصر كتابة الكتب العربية هيكل الشعر العربي الواسع الذي كان ينقل شفهياً خلال قرون وأجيال كثيرة، الذي كان يحفظه وينقله الرواة المحترفون أو البدو العاديين في الغالب أبناء قبائل الشعراء، يقولون إنّ أكثر قراء القرآن المبكرين وجامعي الأحاديث النبوية والمؤرخين والشعراء والمثقفين، كانوا جميعهم خبراء في الشعر القديم، إلى جانب الأشعار، كانوا يذكرون ويروون قصصاً مرافقة ومفسرة

للقصائد، بالإضافة إلى الأمثال والعبارات المأثورة والحكايات والأساطير التي تشكلت من جملتها الآداب الشفهية العربية.

بقيت مسألة زمن بداية تدوين مؤلفات الأدب الشفهي متنازع عليها وصعبة الحل حتى الآن، من المحتمل أن هذا كان ممكن الحدوث في القرن الثامن، ولو أنه يمكن تفسير بعض إفادات المصادر بما فيها التذكير عن ((الرموز الكتابية)) لدى الشعراء القدماء، بأن التدوينات كانت موجودة في مرحلة ما قبل الإسلام، ويزعم بعض الباحثين (ف.كرينكاو وف. سزكين) أن احتمال وجود التدوينات الأدبية في القرنين السادس أو السابع مسلم به.

كان بدو الجزيرة العربية يحبون الشعر، والقادرون على الإبداع الشعري، كانوا كثيرين من ضمنهم، كانت حذاقة التكلم على سلاسة ونظم الشعر ظاهرتين منتشرتين لدرجة أنهما كادتا أن تكونا مألوفتان، كثير ما كان البدو – بما فيهم النساء – يعبرون عن حواسهم عن طريق الشعر، في الوقت نفسه الآن كان الشعر يتمتع باحترام فائق، وتارة كانوا يعلقون عليه أهمية سحرية، كان الشعراء في المجتمع القبلي في الجزيرة العربية يلعبون دوراً كبيراً، فقد كان في كل قبيلة شاعرها المعترف به الذي كان يدافع عنها بكلمته، فيشتم الأعداء ويستجيب لكل الأحداث الهامة، ويمثل القبيلة في الاحتفالات ومباريات الشعراء، وكان عرب الواحات والمدن كذلك يعرفون الشعر البدوي حق المعرفة ويفهموه لاشتراك اللغة ويرشحون شعراء من عدادهم، وفي بلاط حكام دول الجزيرة العربية كان الشعراء دوماً ضيوفاً مرغوباً فيهم، وبالأخص إذا كانوا يمدحون الحكام.

لا شك أن الشعر العربي القديم الأصيل قد سلك سبيلاً طويلاً من التطور في طيات الإبداع الشعبي الشفهي، لكن صورته السهلة البلوغ بالنسبة للبحث تمثل شيئاً مكتملاً، فهذا ليس فلكلوراً، ولأكثر مؤلفاته مؤلفوها المعروفين جيداً بأسمائهم

وسلسلة نسبهم، إنّ الشعر العربي القديم هو عبارة عن إبداع شخصي من الطراز المعهود[١]، ولو أنه يحمل في طياته ملامح التقاليد الفلكلورية – الملحمية.

إنّ طريقة القول في الشعر فردية تجري من نفس شاعر على شكل الحديث المباشر، يقوم شاعر برواية قصة مثيرة شديدة الانفعال عما جرى له، ويمدح مآثره وفضائله، ويعبر عن أفكاره وملاحظاته، كما يصف الظواهر والأحداث المعينة ويحصرها بإشارته إلى المواقع الواقعية، ويذكر أسماء الناس الحقيقيين وأسماء الأجناس والقبائل الأصلية.

إلى جانب ذلك فالشاعر لا ينغمر في عالمه الداخلي، فأفكاره موجهة إلى الأحداث والوقائع الخارجية، فهو يعمل ويراقب وتارة يتفكر في البيئة الاجتماعية والطبيعية المعينة، وهذه البيئة متشابهة ومتكررة في مختلف القصائد بصورة عجيبة، ويتمتع بطل القصائد بخصال إيجابية للغاية تكاد تكون مثالية، فهو كامل جسدياً وأخلاقياً، وشجاع وهمام وراسخ القدم أمام حرمان وصروف الدهر، وهو أفضل المحاربين والصيادين والفرسان والقيافين، إنه مخلص لقبيلته ومستعد دوماً للقتال إلى جهته، وتنفيذ مهمته في الأخذ بالثأر، ويطابق كل أفعاله بالشرف البدوي، تبدو خصاله كمتطلبات اعتيادية لكل رجل من أية قبيلة كانت، فليس من باب الصدفة أنه يتكلم تارة بالجمع المتكلم عن لسان عشيرة كاملة ويشعر نفسه جزءاً لا يتجزأ عنها: ((نحن)) وأغنياء وكرماء ونبلاء ومحاربين وشجعان ومكرمين للضيف وهلم جراً، إن المفاهيم مثل ((لي)) و((لنا))والفردي والجماعي مرتبطة فيما بينها في نفس الشاعر ارتباطاً وثيقاً.

كان مبدعو الأشعار العربية القديمة يقطنون في مختلف أرجاء الجزيرة العربية الواسعة وينتمون إلى مختلف القبائل ويحملون أسماء فردية، لكن أبطال قصائدهم كلهم

---

(١) ويشبهه م.إ.ستيبلين – كامينسكي بشعر الاسكالديين في آيسلندا القديمة (ستيبلين – كامينسكي، ١٩٧٦، الصفحة ٨٣).

شعراء نموذجيون ذوو خصال واحدة، وكأنهم فُصِّلُوا بقياس واحد، وكان ذلك القياس مثال الأخلاق والجمال الناتج من الإدراك الشعبي، والذي بات قاعدة شعرية، وكان من نفس المثل البطولية الأشخاص كرس لهم الشعراء قصائدهم المديحية أو الرثائية، والعكس صحيح في القصائد الهجائية، حيث لا تطابق أوصاف المهجي المثل العليا.

ومن بين هيئات أخرى لأبطال القصائد هيئة شخص منفصل عن قبيلته ومنفرد عنها، فيصبح مشرداً ولصاً أو صعلوكاً، ولكن حتى هو بدوره مثالي من حيث خصاله الحسّية والأخلاقية، وإنّ مواجهة فرديته المتطرفة للقبيلة تشدد من قوة عادات وتوجيهات المجتمع القبلي وتوازن القاعدة الشعرية.

لا يعرف الشعر العربي القديم إلا صورة واحدة لمؤلف شعري كامل، ألا وهو القصيدة، التي تتكون من عشرات الأبيات من بحر واحد وقافية واحدة. ليس ثمة موضوع واحد يشكل القصيدة كلها، بل إنها تضم عدة مواضيع ثابتة تتبع بعضها بنظام مستقر، يصل عدد هذه المواضيع الإجبارية إلى أحد عشر موضوعاً يجب ألا يقل منها في كل قصيدة عن خمسة أو ستة[١]، يحتاج التركيب التخطيطي للقصيدة إلى الغزل إذ يقف الشاعر على الأطلال أي في مكان حيث كانت تسكن حبيبته منذ مدة، وحيث كانت بينهما لقاءات طيبة يغمرها الحب والسعادة، ويتعرف الشاعر على المكان بآثار شعلات النار التي لا تكاد لا تلحظ، وآثار الخيمة، فيتشوق بذكرياته للماضي السعيد ويبكي، بعد ذلك تبدأ نواة القصيدة حيث يصبح الشاعر في الطريق، فيصف فرسه أو جمله والمناظر الطبيعية التي حوله والوحوش والطيور، إذا كان البكاء على الأطلال في بداية كل قصيدة وأوصاف طويلة في وسطها تتلاقى دوماً، فإنَّ جزءها الأخير أقل نمطية، تنتهي قصيدة بمدح النفس على المآثر القتالية والأدبية، أو تمجيد شخص كرس له الشاعر قصيدته أو مدح قبيلة أو ذم قبيلة معادية، وتارة تختلط هذه المواضيع.

---

(١) شيدفار، ١٩٧٤، الصفحة ١١-١٢.

إنّ تحديد مجموعة المواضيع وتَتَبُّعَها وفقاً لقواعد الشعر، والباعث لكتابة قصيدة يصدر من الحقيقة، أما تجسيد وشكل قصيدة فيعودان إلى الفن الفردي للشاعر، وقد أنشئت على غرار ذلك التقليد المتبع قصائد كثيرة ومتنوعة جداً، كان لدى كل شاعر بضع قصائد فقط، ولكننا نعرف ١٢٥ اسم شاعر على الأقل الذين وصلت إبداعاتهم إلى أيامنا ولو جزئياً[1].

فيما عدا القصائد ترك لنا الشعر العربي القديم كثيراً من أشعار قصيرة أو مؤلفة غير تامة (قطعة، مقطعة) تتألف من بيت واحد إلى خمسة عشر أو عشرين بيت، والبعض منها إرتجالات كتبت من جراء أحداث عرضية، وهذه الأشعار غالباً ما كانت هجائية أو رثائية، والبعض الآخر منها يمكن أن تلحظ فيه إما نتاجات مواضيع منفردة من قصيدة ما وإمّا مقاطع نَسِيِهَا الزمن.

يميل بيت الشعر إلى اكتمال نحوي ومعنوي، واستقلال من حيث الموضوع والصورة، حتى لو شمل وصف صورة أو حادث عدة أبيات يبقى كل بيت عبارة عن عنصر قائم بذاته، إن الاتصالات بين الأبيات أو بين مجموعة أبيات ذاتُ فحوى واحد متقطعة وغير متوقعة، وليس بينها إلا اتصالات متداعية منبعثة من لعبة خيال ولكن ليس من تطور الموضوع، وفقط التراكيب المعقدة للجمل والتشبيهات الواسعة هي التي تجعل هذه الاتصالات ظاهرة، في الحقيقة لا نستطيع التكلم عن تطور الحوادث إلا نسبياً، فليس ثمة حركة، وإنما توجد بعض الصور الساكنة التي تبدل بعضها، لذا إذا أسقط من قصيدةٍ بيت أو عدة منها فهذا لا يكاد يلحظ، كما أنه من العسير إعادة تركيب أبيات في حال ما إذا كان مشوشاً، فينسبون أبيات من قصيدة واحدة إلى قصائد مختلفة، فالأساليب الفردية لا تختلف عن بعضها اختلافاً واضحاً بحيث يمكن تخمين مؤلفها بمقتضى الخاصيات البلاغية.

---

(1) Blachere, 1964, p.148-329

تميز الشعراء البدو بحواسهم المرهفة لطبيعة وطنهم، فكانوا يبعثون إليها روحهم ويستعملون خصالها لوصف إنسان، كانوا يخلقون صوراً حسيّة للمناظر الطبيعية المعروفة لهم، وكانوا يصفون بواسطة بعث الروح والموازاة النفسية الطبيعة المتفقة والانفعالات الإنسانية ومزاجها.

جاء الإسلام بنظرية جديدة مبغضة في بادئ الأمر للشعر الموروث من عصر الجاهلية المتَّسم بروح الوثنية، وكان النبي محمد ﷺ يُتَّهمُ بأنه كاهن عادي وشاعر، وكانت له خصامه الشخصية مع الشعراء والقوالين، وفقط في المراحل الأخيرة من نشاطه ألّف شاعران معاصران له قصيدة يمدحونه فيها هي ((قصيدة البردة)) أو ((البردة)) من تأليف كعب بن زهير وحسان بن ثابت، في العقد الأول من العصر الإسلامي ابتعد الشعر إلى درجة ثانوية من الأهمية وصار غير مرئي تقريباً، ولو أنه من دون شك بقي مستأنفاً عند البدو، وكان حجم النتاج الشعري كبيراً كالعادة.

استعاد الخلفاء الدمشقيون ووجهاؤهم المقربون شيوخ القبائل الأسبقين وملوك الجزيرة العربية، ألا وهي رعاية وتشجيع الشعر والشعراء، ألف أبرز شعراء القرن السابع (جرير والفرزدق والأخطل وذو الرمة وغيرهم) كثيراً من القصائد على الطراز القديم التقليدي لا سيما في المدح والهجاء في غضون ذلك تطور في المدن (مكة والمدينة ودمشق والبصرة والكوفة) الفن الغزلي في الشعر، وذلك على شكل قصائد قصيرة منفردة، وكان من أبرز مبدعيه الشاعر المكيُّ عمر بن أبي ربيعة (توفي نحو ٧١٩م) الذي أدخل العديد من الطرق إلى تكنيك القصيدة العربية، وسهل مفرداتها بشكل ملحوظ، وفي الوسط البدوي من الجزيرة العربية برز شعراء غنوا للحب المثالي، حيث كانت المصائب والمآسي تلاحق الشاعر وحبيبته وتؤدي في آخر الأمر إلى موتهما[١].

---

(١) مؤخراً ألفت روايات رومانسية فحواها قصص المحبين المشهورين كجميل وبثينة، وقيس (المجنون) وليلى، وكثير وعزة.

كان في وسط بلاط الخلفاء العباسيين كذلك اهتمام بالقدم العربي كالأشعار والأغاني والأمثال والحكم والأساطير. تفيد المصادر عن مجيء المغنين إلى دمشق المتجولين والقوالين، فينشدون ويروون ويغنون ثم يستلمون مكافآت وهدايا من الخلفاء وغيرهم من الوجهاء، من المحتمل جداً أن نصوص هذه التمثيلات أمام الخلفاء قد دونت وانضمت إلى عداد المؤلفات الكتابية المبكرة، مثل هذا يمكن أن تكون ((كتب)) عبيد بن شارية ودغفل وعلاقة بن كرسم الكلابي (الذي كان بمثابة راوٍ في عهد يزيد بن معاوية الذي حكم في الحقبة الممتدة ما بين (٦٨٠-٦٨٣م)[١].

إن المرحلة الأولى من علم اللغة العربية مغمورة في ضباب من الأساطير، لكن مكانها ينحصر في مدينتين عراقيتين البصرة والكوفة، اشتهر كأول نحوي الشاعر أبو الأسود الدؤلي من قبيلة كنانة[٢] الذي- كما يزعمون- كان يستلم الأوامر من الخليفة علي بن أبي طالب ومعاصريه، لكن ظهور العلوم النحوية المبكرة إلى هذا الحد مشكوك فيه، أما إخباريات أبي الأسود فشبه أسطورية.

يقع تاريخ حياة ابن أبي إسحاق في النصف الأول من القرن الثامن (توفي سنة ٧٣٥م)، وهو بصري الأصل، ومعاصره من الكوفة يدعى معاذ الحراء، ويُعدَّان مؤلفيْن لأول مؤلفات النحو العربي المعروفة من المصادر المتأخرة التي تذكر عنهم، مارس حل المسائل اللغوية بدرجة أكثر أو أقل من علماء الحديث والشعراء ومفسرو القرآن، ومجمعو الروايات التاريخية والنسبية وعلماء الشعر، في هذه المرحلة المبكرة كثير ما كان نفس الناس يكتبون في مختلف المجالات، إذ أن فروع العلم لم تكن آنذاك مفرقة بوضوح، كان من بين تلامذة العلماء المذكورين آنفاً أبو عمرو بن العلاء (توفي سنة

---

(١) شاهد كتابه ((كتاب الأمثال)) بخمسين صحيفة ابن النديم (الصفحة ٩٠) وذكر عنه ياقوت (إرشاده، الصفحة ٦٦) وغيرهما.

(٢) كركاس، 1873، الصفحة 1-2.

٧٧١)، وعيسى بن يوسف الثقفي (توفي سنة ٧٦٦)، ويونس بن حبيب (توفي سنة ٧٩٨)، والرؤاسي وغيرهم.

قام اللغويون واللاهوتيون العراقيون بترجمة العديد من المؤلفات المكتوبة من اللغة الفارسية الوسطى إلى العربية، تعود ترجمة ((كليلة ودمنة)) إلى عبد الله بن المقفع (قتل سنة ٧٥٩)، بالإضافة إلى سرد بعض المؤلفات الواعظة، ثمة أخبار تفيد أنه قبل ذلك في دمشق وبطلب خالد بن يزيد (توفي سنة ٧٠٤)، وعمر بن عبد العزيز (توفي سنة ٧٥٩) تمت ترجمة مؤلفات من اليونانية في السيمياء والطب وعلم النجوم والموسيقا، لكن هذه الأخبار – على ما يبدو – أساطير مختلفة مؤخراً[1].

تلك هي المرحلة الأولى من زهور تشكل الآداب العربية الكتابية التي استغرقت أكثر من مائة سنة بقليل (٦١٠-٧٥٠م): في عهد النبي محمد ﷺ، وعهد الخلفاء الأربعة الراشدين في المدينة والخلفاء الأمويين في دمشق (مرحلة تشكل الدولة العربية)، في تلك الآونة بالذات ظهر النص القرآني المكتوب، وصارت الكتابة العربية تستعمل في دواوين الدولة والمراسلة العملية، كما كتبت بها التفاسير الأولى للقرآن الكريم، ومجموعات الأحاديث النبوية، وبانت مبادئ علم الكلام وعلم تدوين التاريخ واللغة، واستؤنف الإبداع الأدبي لاسيما الشعري، ودونت لأول مرة مؤلفات شفهية للأدب وأجريت العديد من الترجمة إلى اللغة العربية من الفارسية الوسطى، وربما اليونانية كذلك، بيد أن التقدير الكمي لهذا النتاج الكتابي عسير للغاية، إذ أنه كله (فيما عدا المؤلفات الشعرية والقرآن الكريم وبعض الآثار المنقولة).اختلط مع الأدب المتأخر نسبياً مذكراً عن نفسه فقط ببعض الأعلام والتسميات والاستشهادات والصدى من مؤلفات أخرى.

(1) Sezgin, GAS, IV, p. 16-18, 120-126 قارن مع Ullmann, 1973.

ينسب الازدهار الحقيقي للأدب والعلم العربيين، إلى تفرع العلم إلى مجالات مختلفة وازدياد شديد للمؤلفين ومؤلفاتهم، وانتشارها إقليمياً، واتساع نشاط إنشاء ونسخ المخطوطات (٧٥٠٠-١٢٥٨)، ويفسر هذا على الأغلب بطبيعة تلك الحركة الشعبية والانقلاب العسكري - السياسي التي تسلم في نتيجته مقاليد الحكم العباسيون.

بات منتصف القرن الثامن مرحلة تاريخية هامة في تطور المجتمع العربي - الإسلامي والدولة، في هذه الحقبة توقف تقدم الجيوش العربية الذي استمر قبلئذ أكثر من قرن، فاستبدلت الحملات الفتوحية بحروب إقليمية، واستقر الوضع على حدود الخلافة، في بادئ الأمر نشبت نزاعات داخلية: الكفاح الطبقي وتنافس مختلف التكتلات على السلطة وحق امتلاك الثروات الشعبية.

من بين نواحي السخط العام والتذمر الاجتماعي الملموس هو الاعتراض على إمتيازات خاصة كانت تقدم للعرب المسلمين فقط بصفتهم مناضلون في سبيل الدين والدولة الإسلامية، والحقيقة أنه نتيجة خلع الأسرة الأموية الحاكمة توقفت تسديدات القبائل العربية من الخزينة، كما لم تتحقق أماني الجماهير الشعبية في تخفيف أعباء الضرائب عنها والحكم العادل، لكن صفوف الطبقات السائدة أُعيدَ بناؤها، كما تغيّر تركيب الطبقة الحاكمة، وصار بلوغ المقامات العالية والتصرف بدخول الدولة سهلاً بالنسبة للتكتلات الكبيرة من الأشراف غير العرب من ضمن الموالي السابقين الذين تساوت حقوقهم مع العرب، ودخلت الخلافة العربية مرحلة تاريخية جديدة تميّزت بالتكامل الاجتماعي المرتبط مع الموجة الجديدة من اعتناقات جماهيرية للإسلام من قبل المجوس والمسيحيين وغيرهم من ممثلي الديانات الأخرى.

كانت التعاليم الإسلامية منذ بدايتها تشدد على دور المعرفة كشرط من شروط الإيمان، وهذا ما ساعد على التطور المبكر والعنيف للعلوم اللغوية والدينية، وقد شارك في دراستها إلى جانب العرب المنحدرون من الطوائف مختلفة الأجناس والأديان

المعتنقين للإسلام، وكان عددهم يزداد باستمرار، وفي العصر العباسي المبكر، كان تدفق الأشخاص من أصل غير عربي وغير إسلامي إلى مجالات النشاط الذهني قد ازداد من جديد، وفي أحيان كثيرة كانوا مستعدون لهذا النشاط أكثر من غيرهم، وفي هذه الظروف المتقلبة كانت فروع العلم تزداد، وليس هذا فحسب بل أُعيد إدراكها.

ظهرت نجاحات عجيبة للكتابة العربية اعتباراً من النصف الثاني للقرن الثامن في علم اللغة، بعد المؤلفين الأوائل للأعمال اللغوية المذكورين الذين سبق ذكرهم جاء جيل جديد من اللغويين النوابغ ، والباحثين في اللغة العربية والمجمعين المتحمسين لآثارها، بدأوا نشاطهم في البصرة والكوفة.

كان من أكبر أرباب علم النحو العربي الخليل بن أحمد الأزدي الفراهيدي اليحمدي البصري (نحو ٧١٨-٧٩١)، وقدم تلميذه سيبويه (توفي سنة ٧٩٦) وضعاً منظماً ومفصلاً لقواعد اللغة العربية، أما الخليل نفسه فأصدر أول معجم معرف للغة العربية ((كتاب العين))، ونظرية أصلية لنظم الشعر العربي ((علم العروض))، كما ينسبون إليه التنظيم النهائي للإملاء العربي وتأسيس مدرسة مستقلة لتلاوة القرآن، ووضع قسط كبير في النظرية النحوية [١].

في الآونة نفسها عملت في الكوفة فئة من اللغويين الذين مارسوا كذلك الأبحاث النحوية، واعترف بهم كمؤسسي الاتجاه العلمي المستقل، وكان من أبرز ممثليها أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي (توفي سنة ٨٠٤)، وأبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (توفي سنة ٨٢٢).

في أواخر القرن الثامن ومطلع القرن التاسع انتقل معظم علماء اللغة من البصرة والكوفة إلى بغداد، حيث أسسوا مدرستين لغويتين متنافستين، كانوا يعملون بنجاح وألفوا أعمالاً كثيرة، وكانوا يتجادلون فيما بينهم باستمرار حول المسائل النحوية

(١) Reuscher ١٩٥٩، خالدوف، ١٩٨٢، الصفحة ٥٥، ٥٩ - ٦٢، ٦٦-٦٩.

الخاصة، إلى منتصف القرن التاسع وصار لكلتا المدرستين رؤساؤها وهما المبرد وثعلب. استمر الجدال بينهما حتى نهاية القرن، وبعد وفاتهما فقدت المجادلة حدّتها، وحالف النصر النهائي البصريين الذين ثبتوا على نفوذ لا نزاع فيه لمدرستهم "كانت الكوفة مجرد حادثة تطور النظرية النحوية العربية"[١]، ووحيدة في حقيقة أمرها. انتهى استكمال النظرية في القرنين العاشر والحادي عشر بأعمال ابن درستويه ونفطويه والسيرافي والرماني، وأبي علي الفارسي، وابن جني، وغيرهم، وكانت مآثرهم الرئيسة وضع النحو المعياري للغة العربية الفصحى، وقد درسوا النحو وفقاً للتابع التالي: الجمل فاشتقاق الكلمات فعلم الأصوات، وفيما يتعلق بعلم المفردات فلم يدرسوه منفرداً، ولكن كانوا يمسونه في كل المواد الثلاث بمثابة موضوع دراسي هام، فيما عدا التعديلات والتعليقات على ((الكتاب)) الأساسي لسيبويه كانت كتب اللغويون العرب لكثير من المباحث والمؤلفات في مجال المسائل الخاصة والنظرية.

أعدَّ العلماء في كل من البصرة والكوفة وبغداد علم المعاجم العربية، وكان معاصرو الخليل الأصغر منه سناً وتلامذته يصفون ذخيرة الألفاظ في مسائل علمية مكونة من مجموعة مواضيع: الانتقاء المعنوي، وليس الشكلي للمفردات المنحصرة ضمن موضوع معين من الحياة الواقعية أو الأدب؛ وترتيب الكلمات منطقياً أو تداعياً بصورة مشوشة بشرح أشكالها ومعانيها؛ كان ممن اشتهر من مؤلفي المعاجم الصغيرة الأصمعي (٧٣٩-٨٣١)، وأبو عبيدة (٧٣٢-٨٢٦)، اختص الأصمعي بالمفردات اللغوية الخاصة بمختلف المواضيع كمثل الإبل والخيل والإنسان والثياب والسلاح والدار ونخيل التمر والنباتات والأشجار وكلمات نادرة وغريبة والمرادفات والعكوس وغيرها، وكتب أبو عبيدة الأعمال المعجمية من نفس المواضيع أو ما شابهها، وقلدهم اللغويون المتأخرون الذين ألفوا كذلك عشرات من المباحث المماثلة، صنف أبو عمرو

---

(١) Fleisch, 1961, p.33

الشيباني (توفي سنة ٨٢٢) معجم الألفاظ الشعرية النادرة، فوزع الكلمات على فصول وفقاً للسواكن الجذرية الابتدائية.

بقي ((كتاب العين)) للخليل ثلاثة أرباع القرن في ظل ظروف غامضة، وفقط في الستينات من القرن التاسع دخل رويداً إلى الترويج وانضم إلى جملة المؤلفات في مجال اللغة العربية، فبدأت دراسته، ونقده والتعليق عليه ومراجعته، كذلك ظهرت سلسلة من المعاجم المماثلة من حيث الشكل والمضمون.

يعود الفضل في تصنيف معجم عربي ثاني كبير إلى ابن دريد (٨٣٧-٩٣٣) الذي قطن في البصرة في الحقبة نفسها حين تم إصدار عمل الخليل، وفي غضون انتفاضة العبيد سنة ٨٧١ هرب إلى عمان، حيث مكث بين البدو اثني عشر عاماً، وتوجه إثر ذلك إلى فارس، حيث قدم إلى حاكمها معجمه ((الجمهرة)) هدية نحو عام ٩٠٠، في القرن العاشر، وقام كذلك العديد من علماء المعاجم بتضنيف معاجم كبيرة، درس أبو منصور محمد بن الأزهري (٨٩٥-٩٨١) في بغداد، ومكث سنتين في مخيمات الرحل البدوية وبعد عودته إلى وطنه هراة عمل في تأليف كتابه ((كتاب العين))، ولكن موضع بواسطة الأمثلة، ومحسن من ناحية الصيغة، كما استخدم مواد ابن دريد، وأبي علي القالي (٨٩٣-٩٦٧)، ولكن لم يعترف به اعترافاً كاملاً إلا في الأندلس إلى حيث انتقل سنة ٩٤٢، وحيث أضحى مؤسساً للمدرسة اللغوية المحليّة، فقد قدم صيغة موسعة أخرى لـ((كتاب العين))، ومارس بعض تلامذته أعمال المعاجم بنجاح، ومما جاء بعدهم ابن سيده (توفي سنة ١٠٦٦) من دانيا فقد ألف أكثر المعاجم تفصيلاً على غرار الخليل مثل ((المحكم))، وقام إسماعيل بن عباد الصاحب (٩٣٨-٩٩٥) في الري بتعديل مختصر ومعجم الخليل وسماه ((المحيط)).

أصدرت على غرار مؤلفات أبي عمرو الشيباني العديد من المعاجم الخاصة بالمفردات المصطفاة من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والشعر وسائر فروع

الأدب، وقد قدم ابن سيده الذي سبق التنويه عنه أكبر مجموعة ألفاظ لغوية تعتمد الموضوعات في معجمه وسماه "المخصص"[١].

قدَّم أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي (توفي سنة ٩٦١)[٢]، الطريقة الجديدة مبدئياً لترتيب المشتقات الجذرية في المعجم اللغوي وأنجزه في معدم اللغة العربية المبسط أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي الجوهري (توفي بين ١٠٠٢-١٠٠٧)، وهو ابن أخت وتلميذ الفارابي، واعتمد الجوهري على ترتيب الحروف الهجائية، ووزع الجذور على ثمانية عشر فصلاً معتمداً على الساكن الأخير، مؤخراً رتب الجذور في تعاقب الساكن الأول والثاني أي ٣-١-٢، ٤-١-٢-٣، وهكذا رسخت هذه الطريقة لتركيب المعاجم طيلة ألف عام، كان حجم أعمال الجوهري محدودة نظراً لطموحات المفردات المعيارية والفصيحة (كان يأبى بتعمد الكلمات السوقية والمصطلحات غير الأدبية)، كما حاول شرح لفظ وكتابة كلمات في تعابير ذات معيار واحد.

إلى جانب علم النحو والمعاجم تم وضع علم العروض والقوافي في الشعر العربي، وأَسَّسَ لـ ((علم البديع))؛ أي أشكال وتزيينات الكلام الشاعر المشهور عبد الله بن المعتز (قتل عام ٩٠٨)[٣]، كما عمل إلى جانبه في مسائل العروض والبلاغة غيره من اللغويين، وعلى الأخص الجاحظ وقدامة بن جعفر، وفي مطلع القرن الحادي عشر قدّم العسكري مجموعة منتظمة من المواد المكدسة النظرية والإيضاحية في ((كتاب الصناعتين)).

وهكذا من خلال الحقبة القصيرة استغرقت قرناً ونصف أو قرنان من الزمن، ظهرت على أساس اللغة العربية جملة كاملة من المواد اللغوية، واستمر تطورها المسرع

---

(١) Haywood, 1960

(٢) عمر ١٩٧٤، على الأخص الصفحة١٦.

(٣) دراتشكوفسكي المجلد ٤، الصفحات ٧-٣٣٠.

في القرون المقبلة، ما كادت تتفتح أمام هذه اللغة آفاق واسعة، وإذا أصبحت تتفوق من حيث معداتها النظرية على أغلب اللغات الكتابية- الأدبية القديمة، كانت عواقبها ملموسة، فقد ساهمت العلوم اللغوية في استقرار المعايير اللغوية والقواعد البلاغية واغتناء اللغة نفسها وترسيخ القواعد الاجتماعية، كانت اللغة وقواعدها يسيران جنباً إلى جنب وجرّت دراستهما وتدريسهما معاً.

يعود الفضل إلى علماء اللغة على وجه الخصوص في تدوين تراث الأدب الشفهي العربي القديم والإسلامي المبكر، وكانت كل المؤلفات اللغوية تعتمد على هذا التراث، وتقدم على سبيل المثال مقاطع من الآثار الشعرية والنثرية، ويمكن أن ننظر إلى أي عمل في مجال النحو والعروض والمشتقات والبلاغة كمصادر الآداب العربية الشفهية القديمة والأدب المبكر، عدا ذلك صنف اللغويون مختلف مقتطفات ومنتخبات، وكان ممن صنَّف هذه المنتخبات المفضل الضبي وأبو عمرو الشيباني، ومحمد بن حبيب، والأصمعي، وابن الأعرابي، وابن قتيبة، وابن السكيت، والمبرد، وثعلب، والسكري، والسيرافي، وأبو الفرج الأصفهاني، وغيرهم من علماء اللغة والأدب.

كان الأدب العربي الفني وقتذاك يتطور على بشكل متسارع، وبخاصة تجدد الشعر العربي التقليدي من حيث الشكل والمضمون بصورة ملحوظة في إبداعات كثير من الشعراء في القرنين الثامن والتاسع، إذا اغتنى وتنوع الغزل والمديح ووصف البيئة الطبيعية المحيطة بالإنسان، وظهرت مواضيع.وفنون جديدة (القصائد الأخلاقية – الفلسفية والهزلية والهجائية وغيرها). أما الأسبقية فصارت أكثر رقة من حيث التعبير عن المشاعر والأفكار مثله مثل الأداء الفني، رويداً انضمت إليها مواضيع دينيّة (التعبير عن مشاعر الربوبية والتوبة وتمجيد الإسلام)، كانت العلامة الخارجية الأساسية الدالة على الأوقات الماضية هي ((البديع))؛ أي الأسلوب الجديد للشعر الذي كان عبارة عن تجديد الوسائل الاستعارية على مستوى المفردات والجمل في

الشعر نحو التشبيهات والمجازات وانتقاء الكلمات وطرق تجميل الكلام، لقد نال الشعراء ذوو الاتجاه الجديد المرتبطين أغلبهم مع بغداد وبلاد العباسيين اعترافاً جماهيرياً، وما ساعد على ترويح الشعر العربي هو أداء الأشعار من قبل المغنيين والمغنيات المصاحب بالموسيقا؛ إذ كان ذلك تلهية رئيسية للطبقات الاجتماعية العليا.

من العلامات المميزة الأخرى للمرحلة العباسية المبكرة هي حركة الترجمة الكبيرة، فإذا كانت الترجمة قبل ذلك عبارة عن سرد شفهي وعدد المؤلفات الكتابية قبل منتصف القرن الثامن ضئيلاً، ففي النصف الثاني من القرن الثامن تنامى عدد المؤلفات المترجمة. في بادئ الأمر غلبت الترجمة من اللغة الفارسية الوسطى: كالحكايات والمؤلفات الأخلاقية – الواعظة، وبعض الأعمال في الرياضيات والطب والفلسفة العامة (وهذه المؤلفات كانت بدورها ترجمة من اللغة السنسكريتية والسريانية واليونانية والفارسية) التي كانت بحوزة النخبة المثقفة في المجتمع الفارسي قبل الفتح العربي.

تم تنظيم منهج ترجمة المؤلفات العلمية في عهد الخليفة المأمون[١] كان ذلك في مطلع القرن التاسع، لهذا الغرض أسست لجنة المترجمين في ((بيت الحكمة)) الذي أسسه في تلك الحقبة، وقد عمل فيه سهل بن هارون وحنين بن إسحاق، وابنه إسحاق بن حنين، وجيش بن الحسن، وثابت بن قرة، وعيسى بن يحيى، وكان هناك مترجمون آخرون عملوا في المرحلة نفسها وبعدها في بغداد وخارجها. إجمالاً يصل عدد مترجمي الحقبة الممتدة ما بين القرن الثامن والعاشر إلى الخمسين، وعدد المؤلفات المترجمة مئاتٍ من العناوين والمجلدات، أما مؤلفوها فبالعشرات، وبفضل نشاط المترجمين حدث تحول لغوي لحجم هائل من المعارف المكدسة الجديدة والمؤلفات الأدبية والعلمية الموروثة عن جملة من الحضارات القديمة، والتي كانت جزءاً من تقاليد الوحدات

(١) تنسب بعض المبادرات الهامة بما فيها تنظيم حركة الترجمة إلى والدة هارون الرشيد الأكثر شهرة، لكن هذا لا يتناسب والعدالة التاريخية.

الجماعية العرقية الاجتماعية والطوائف الدينيّة التي تأقلمت على أراضي الخلافة مثلما تأقلمت سابقاً في بلاد فارس والمقاطعات البيزنطية السابقة، ومن الآثار المترجمة: الفلسفة العربية والجغرافيا والرياضيات والفلك ومبادئ الموسيقا والسيمياء وغيرها من ((علوم)) الغيب، والطب والبيطرة، وعلم العقاقير أو الصيدلة، وعلم النبات، وعلم الحيوان، وعلم الأحجار والمعادن وغيرها.

لم تكشف الترجمة عن نفسها فقط بالحجم الهائل من المؤلفات الكتابية باللغة العربية فحسب، بل كانت أغلبها تتعرض للتعديل بالإضافة إلى تكميلها بتجربة عربية – إسلامية، وكانت تدمج مع مؤلفات جديدة للمؤلفين العرب، كانت العملية هذه تسير بصورة مزدوجة، فقد تعرب التراث الهلنستي، أما الثقافة العربية – الإسلامية، فتأثرت بدورها بالحضارة الهلنستية، وتكيفت ((علوم الأوائل)) بمختلف الأحجام وطورت فيما بعد على مختلف الأصعدة، ولهذا أصبح كل علم من هذه العلوم فصلاً واسعاً أو أقل من الآداب العربية الكتابية.

تحدث فلاسفة القرون الوسطى (متَّبعين التقاليد اليونانية والرومانية القديمة والهلنستية) عن دور العلم الشامل والموسوعي، وتمت ترجمة جملة من مؤلفات أرسطو بتعليقاتها إلى اللغة العربية كلّها تقريباً، وحاول الفلاسفة العرب المفكرون والكتَّابُ بالعربية (الكندي والمعتزلة المعاصرون له وخلفاؤهم والفارابي وغيرهم) مصالحة التعاليم اليونانية المتناقضة، وذلك بتنسيقها مع الدين، كما برهن أ.ف. ساغاديف[1]، أجريت هذه المصالحة والتنسيق بمساعدة النظرية الإنبعاثية لدى أتباع أفلاطون وتطبيقها مع الصوفية الشرقية، وكانت هذه النظرية قد كملت بكل تعمد وقصد إلى نظام فلسفة أرسطو، وفي نتيجة إعادة إدراك هذه ظهر تصنيف فلسفي للعلوم الذي ابتعد بعض الشيء عن التقاليد الهلنستية، ووضع هذا التصنيف على أكمل وجه أبو علي ابن سينا (توفي سنة ١٠٣٧) وأنشأ على أساسه أعماله الموسوعية.

(١) ساغاديف، ١٩٨٠، الصفحة ٥٤-٦٣.

أول العلوم هو المنطق، العلم ((الأداتي))، ومن ثم تنقسم العلوم على ثلاثة فروع نظرية علم الطبيعة أو الفيزياء، والرياضيات، وعلم ما وراء الطبيعة الميتافيزيقا، ولكل منها نواحيها العلمية والتطبيقية، ((تضم الفيزياء النقية المواد الدارسية للمسائل حول الأشياء الموجودة على وجه العموم، وهي المادة والشكل والحركة، والمحرك الأول، والأجسام العادية في العالم فوق القمري وتحته، والأشكال والحركات الجديرة بها، والنشوء والهلاك، وتأثير الأجرام الفلكية والظواهر على حياة الأرض، والأجسام المعدنية، والنبات والحيوان، والروح النباتية والحيوانية والإنسانية؛ وتضمُّ الفيزياء التطبيقية الطب وعلم التنجيم والقيافة وتعبير الرؤيا وعلم الطلاسم وعلم السحر والسيمياء؛ وتضم الرياضيات النقية الحساب والهندسة والفلك ونظرية الموسيقا؛ وينضمُّ إلى الحساب الصافي بمثابة المواد التطبيقية نظام العدد العشري الهندي والجبر؛ وإلى الهندسة علم المساحة وعلم الحيل والفنون المرتبطة مع صب السنج والموازين والأدوات المقسمة إلى أدراج والأجهزة الصيدلية والمرايا، بالإضافة إلى علم الهدرولكا؛ وإلى الفلك علم رسم الخرائط الفلكية والجغرافية؛ وإلى مبادئ الموسيقا فن صنع الآلات الموسيقية))[1].

فيما عدا الأعمال الشاملة بما فيها الموسعة والموجزة، كانت الفلسفة بموادها النظرية والتطبيقية تعرض في مباحث خاصة كثيرة، هكذا كانت على وجه الخصوص المؤلفات في مجال الرياضيات والفلك وجداول النجوم، كان لـ((كتاب اقليدس)) (أو مجرد ((اقليدس))) في مجال الهندسة مع مختلف التعليقات تداوله المستقل، تدخل الفصول الحسابية بالضرورة إلى فصول المؤلفات في مجال الفقه، حيث تبحث قضايا الوراثة وتقسيم الأملاك، ترتبط مع الفلك والعدد مؤلفات مكرسة للتقويم القمري وتحديد فترة الصلوات والصيام وجهة القبلة.

---

(١) نفس المصدر ، الصفحة ٧٣-٧٤؛ وانظر: خالدوف، ١٩٨١أ، الصفحة ٥-٥١.

انضمت إلى حركة الترجمة من مختلف اللغات مؤلفات في السيمياء وعلم التنجيم والسحر والصوفية اليهودية في القرون الوسطى والعرافة، وتعبير الرؤيا والقيافة، وتقف على رأس مصادر هذه المعارف باللغة العربية شخصية جابر بن حيان الغامضة (القرن الثامن)، ومؤخراً كان الكل يستشهدون به، واحتفظت نصوص كثيرة منسوبة إليه، في الاستعراب الأوروبي كثير ما عبر عن الشكوك الكبيرة بتبعيتها إلى جابر بن حيان، فاتفقوا على رأي بأنها ظهرت في البيئة الإسماعيلية في القرنين التاسع والعاشر، لكن ف. سزكين[١] يؤكد أن مؤلفها هو جابر بن حيان، كانت قضايا الإيمان بالغيب تبحث عن مؤلفات من مجموع المواضيع الأخرى.

وأكثرها شعبية مؤلفات جالينوس وأبقراط المترجمة إلى اللغة العربية وأعمال الأطباء والمترجمين في القرنين التاسع والعاشر، وأغلبهم من غير المسلمين. كان أول كبار العلماء المسلمين الذي مارس عملاً بحثياً مستقلاً، وعمل العلاج في الري، وبغداد أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (توفي سنة ٩٢٥)، ضمت موسوعته الطبية ((الحاوي)) عشرات من الرسائل العلمية في موضوع واحد، ومباحث المؤلفين اليونان والرومان القدماء والبيزنطيين والإيرانيين والهنود والسريان مثلهم مثل تجارب أطباء جنديسابور وبغداد بالإضافة إلى خبرته الخاصة، كما تعود إلى قلمه غيرها من المؤلفات الطبية، واستأنفت تقاليد الطب العربي فيما بعد من قبل الكثير من الأطباء العاملين والمؤلفين.

كانت الأنواع الأساسية للمؤلفات الطبية مباحث حول مختلف الأمراض وأعراضها ومعالجتها وخواص الكيان الإنساني، والجداول المرتبة ترتيباً أبجدياً للأدوية والعقاقير والأعشاب الطبية والمراهم، والدلائل في مجال الطب الشعبي، والدلائل الموجزة للأطباء والموسوعات الطبية.

(١) SezginIGAS، الصفحة ١٣٢ وما يليها.

ثمة بعض المؤلفات بما فيها المترجمة والأصلية في مجال علم الحيوان (وصف كل الحيوانات المعروفة دون تصنيفها)، وفي البيطرة (علاج الخيول والإبل وطيور الصيد)[١].

يرتبط علم النبات العربي ارتباطا وثيقاً مع صناعة العقاقير، ويبدأ من ترجمة ((حول الأدوية)) لديوسكوريدس (القرن الأول) المنجزة ثلاث مرات: ببغداد في منتصف القرن التاسع، وفي قرطبة بعد مضي مئة عام، وفي العراق من جديد في القرن الثاني عشر، يتلاقى وصف النباتات من وجهة نظر خواصها الطبية في مؤلفات الطب، من المحتمل أن المؤلف الأول للمؤلف في مجال علم النبات واللغة كان أبو حنيفة الدينوري(توفي سنة ٨٩٥).

تثبتت على أساس الترجمة من اليونانية والسريانية مؤلفات أضاعها الزمن في مجال علم المعادن للكندي والجاحظ مثل مؤلف القرن التاسع ((كتاب الأحجار)) المنسوب إلى أرسطو المعروف ضمن العديد من المخطوطات، يعود مجموع قيم من البيانات حول المعادن المزود بالشاهدات والبحوث الشخصية إلى قلم البيروني (توفي سنة ١٠٤٨)[٢]، كانت المعادن ولاسيما الأحجار الكريمة تجذب اهتمام العديد من المهن ولاسيما الصياغة والتجارة إذ كانوا يبحثون فيها عن خواص علاجية وسحرية، هذا هو سبب الكتابة عنها في الأعمال في مجال الطب والصيدلة والسيمياء، كانوا يغنون بها الشعر، كما تتلاقى قصص وأساطير حول الأحجار النادرة في مؤلفات الأدب ومجموعة منتخبات.

---

(١) توجد إحدى المخطوطات النادرة من هذا النوع ((كتاب البزدرة)) للحجاج بن خيثمة (عاش في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع) في مجموعة فرع سانت بطرسبورغ من معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا (الشيفرة ـ ٢٨٣)، وأصلها من القاهرة وتؤرخ بسنة ٦٩١هـ/ ١٢٩٢م.

(٢) البيروني، علم المعادن، ترجمة إلى الروسية

انضمت إلى جملة المؤلفات المترجمة أعمال مبكرة قليلة نسبياً، حيث انعكست فيها مجالات النشاط العلمي، كالمهن والحراثة والزراعة، وفن الحرب والألعاب وصناعة العطورات وفن الطبخ وغيرها.

كانت المؤلفات الجغرافية إحدى الفروع القيمة لكتابة الكتب العربية التي باتت نقطة انطلاقها ترجمة أعمال بطليموس والزيجات الهندية في خطوط الطول والعرض، قدم علماء الخلافة ابتداءا من ابن خرداذبة (توفي سنة ٩١٢) لتطور هذا العلم قسطاً كبيراً مستقلاً وعملياً أكثر منه نظرياً. ترجع أهم الأعمال التي كونت في النشر الأوروبي ((مكتبة الجغرافيين العرب)) إلى القرنين التاسع والعاشر، والاتجاهان الأساسيان للأدب الجغرافي هما الرياضي والوصفي اللذان خلقا عدة أنواع من المؤلفات وجداول الطول والعرض للبلدان والبقاع المأهولة مع المقدمة والتعليق؛ والوصف المتتابع لمناخات الربع المسكون من الأرض و((المسالك والممالك)) وخطوط المواصلات البريدية والتجارية؛ ووصف الرحلات المعينة والأعمال المجملة ذات الطابع المختلط[١].

اعتباراً من القرن الثامن قام رجال الدين والرهبان من الطوائف المسيحية الشرقية بترجمة الكتاب المقدس والإنجيل والأناشيد الدينية ومؤلفات آباء الكنيسة إلى اللغة العربية (أجريت بعض الترجمة المبكرة والسرود للحكام المسلمين)، رويداً تنامى عدد المؤلفين الذين كانوا يكتبون بالعربية التعليقات على الكتاب المقدس؛ والأعمال المدافعة عن التعاليم المسيحية المثبتة عليها على وجه العموم، أو فرع من فروعها والمباحث الجدلية ضد الهرطوقية وضد الإسلام، والمؤلفات الأخلاقية- الواعظة الروحانية، بالإضافة إلى الأعمال في تاريخ الكنيسة والطوائف المختلفة، حيث كانت

(١) تنسب أكثر الأبحاث تفصيلية للأدب الجغرافي العربي إلى إ.ي. كراتشكوفسكي (١٨٨٣ -١٩٥١)، وتم نشره بعد وفاة المؤلف: كراتشكوفسكي، المجلد ٤، وقد نشرت ترجمة الكتاب إلى العربية لأبي هاشم في الكويت.

توضح كذلك الأحداث الواقعة في المحيط الإسلامي. كان لبعض الأعمال في مجال العلوم الطبيعية والفلسفة والطب ترويج بين المسيحيين والمسلمين على السواء، حيث كانت أشعار الشعراء العرب من المسيحيين تتمتع بشعبية كبيرة في الوسط الإسلامي، وكانت الأشعار الدينيّة لدى الشعراء العرب المسيحيين تتطور تحت تأثير الشعر الجاهلي والإسلامي.

صارت الطوائف اليهودية القاطنة ضمن حدود الخلافة- على ما يبدو – تتعرض كذلك للتأثير الكبير من لدن اللغة العربية والأدب المكتوب بها، وأصبح كثير من المؤلفين اليهود يكتبون باللغة العربية، ولكن غالباً ما كانوا يستعملون في ذلك أبجديتهم، فكانوا يعلقون على الأعمال العربية بالرموز الصوتية والترجمة، وأكثر ما أثر على اليهود هو الفلسفة العربية والأدب الفني، قام العلماء اليهود بإعداد قواعد اللغة العبرية القديمة على غرار العربية وسرعان ما أحرزوا بعض النجاحات، كما قاموا بترجمة المؤلفات العربية الفلسفية والعلمية بتحمس.

لقد أغنت الترجمة بصورة محسوسة مختلف فروع العلم العربي والأدب واللاهوت التي بدأت تتطور في المرحلة السابقة، أي قبل منتصف القرن الثامن، ويظهر ذلك بصورة خاصة في إعداد الأسس النظرية (الأصول) لعلم الحديث واللغة والفقه والكلام. إنّ سهولة بلوغ تعلم الفلسفة والجدالات بمشاركة الممثلين المهرة للأديان الأخرى والكفاح الاجتماعي – السياسي الصائغة أحياناً في الأفكار الدينية وانفصام الطائفة الإسلامية إلى الملل والمدارس المتصارعة رفعت الكلام الإسلامي إلى مستوى جديد من التجريد، وسلحته ببراهين جديدة وطرق جديدة للتعليلات والدفاع عن النفس، أدى تطور مختلف فروع علم اللغة العربية إلى تقرّب أكثر دقة إلى نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية.

من بين عدد هائل من الأعمال تم بحث مسائل الإملاء القرآني واختلاف الروايات بين نسخه، وتقسيم نصّه إلى أجزاء مختلفة، وطرق جديدة للتجويد. استمرت

كتابة تفسير القرآن الكريم من قرن إلى قرن، أَجْمَلَ الرصيدُ الأساسي في مطلع القرن العاشر تفسير محمد بن جرير الطبري (٨٣٨-٩٢٣)، وقد زاحم عمله المتسع التفاسير السابقة له، وفيما بعد سعى بعض المؤلفين إلى إنشاء تفاسير موجزة ومختصره، وبعضهم حاول إنشاء تفاسير واسعة ومستفيضة، والبعض الآخر ليست توليفية كتفسير الطبري.

بلغ النشاط في جمع ونقد الأحاديث النبوية أوجه وطوره الحاسم في النصف الثاني من القرن التاسع حين تم وضع ست مجموعات التي حازت على النفوذ الراسخ الثابت بمثابة القواعدية، وهي: الجامع الصحيح (أو مجرد ((الصحيح))) للبخاري ومسلم والترمذي، والسنن لأبي داود وابن ماجة والنسائي. باتت مجموعة البخاري – عملياً- مؤلفة ثانية من حيث الأهمية في العالم الإسلامي بأسره بعد القرآن الكريم، فأضحت دراسة الأحاديث ممارسة مفضلة، وتارة محترفة لدى كثير من الناس (من منتصف القرن الثامن، وحتى منتصف القرن التاسع كُتِبَ في هذا المجال أربعمائة مؤلَّف على الأقل)، وصارت تتفرع إلى مواد خاصة، وبالأخص صارت أقسام ((علم الحديث)) معارف رجال الحديث وطرق روايته وتصنيف ونقد الأحاديث.

إلى بداية القرن العاشر تشكلتْ بصورة نهائية أربع مدارس سنية (المذاهب الفقهية)، ولكن أقل أهمية، كما تشكل الفقه لدى الشيعيين أي الزيديين والإماميين والإسماعيليين، وتمَّ البحث في الأعمال المؤسسة من قبل منشئي كل مذهب،وتلامذتهم وأتباعهم في جملة واحدة من القضايا نحو: الطهارة والصلاة والخراج والزكاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله، والقضاء والأعمال الممدوحة والذميمة والإرث وأنواع الملك والبيوع والرهائن والمعاملات بين المسلمين وهلم جرا، لم يكن القانون من جملة وظائف الدولة الإسلامية، ولم تكن هنالك مجموعات من القوانين، فلذا حازت المؤلفات في مجال الفقه على أهمية فكانت كثيرة العدد جداً، كانت كل من المدرستين الفقهيتين السنية والشيعية قد أصدرتا عشرات منها في منتصف القرن الحادي عشر.

كان علم اللاهوت موضوعاً هاماً لأشد الجدالات وحقلاً للحروب اللسانية، حيث كانت تنتشر معارك فكرية دائبة، وكانت عواقبها العملية ليس فقط ظهور مؤلفات كتابية كثيرة، بل ملاحقة الأضداد الفكريين، وكانت في غضونها تتلف مؤلفاتهم، لذا احتفظت الآداب اللاهوتية الإسلامية المبكرة بصورة سيئة، فمثلاً أتلفت أكثر مؤلفات المعتزلة الأساسية مثلها مثل مؤلفات سائر المدارس والطوائف التي كانت لفترة ما مضادة ومتعرضة إثر ذلك للملاحقة، كما لقيت مصيراً آخر مؤلفات في العقائد اليقينية التي نالت إقبالاً رسمياً كمثل أعمال الأشعري وأتباعه الماتوريدي والباقلاني، وأعمال الشيعة الإمامية، وكانت العقائد اليقينية تدرس في مؤلفات شاملة وموسعة أو موجزة أو في رسائل علمية في موضوع واحد ومباحث جدالية مكرّسة لنواحي المذهب الديني الخاصة (كالتوحيد وبعثة النبي والإمامة، ويوم القيامة والآخرة وهلم جراً).

بلغ علم تدوين التاريخ العربي في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ذروته فأحرز نجاحات حاسمة، ففي الحقبة الممتدة ما بين ٧٥٠-٨٥٠م أنشئت مؤلفات تاريخية كثيرة نحو سيرة الرسول وتراجم الصحابة والبارزين من التابعين ومجموعات الأخبار الصادرة عن مختلف القبائل، ورسائل علمية حول أهم الأحداث والمغازي، وتعود هذه الكتب في الغالب إلى أقلام أبي مخنف وابن إسحاق والواقدي وابن سعد وابن هشام والمدائني.

يَرجِعُ إنشاء الأعمال الموسعة – حيث تتوحد مواد المؤلفين السابقين المختلفة في سرد تاريخي مترابط – إلى النصف الثاني من القرن التاسع إلى (البلاذري والدينوري واليعقوبي)، وتنتهي المرحلة المبكرة من علم تدوين التاريخ العربي بظهور مجموعة ضخمة من المواد التاريخية والأسطورية ((تاريخ الرسل والملوك للطبري)) على نفس الوتيرة كتب معاصروه الأصغر منه سناً كابن الأعثم الكوفي (توفي نحو 926) والمسعودي (توفي نحو ٩٥٦) وذيل بعض المؤلفين كتاب الطبري.

منذ القرن التاسع ظهرت أعمال تاريخ مصر والأندلس، ومن ثم كثير ما كانت الأعمال في التاريخ الإقليمي تنصهر مع سفر أخبار الأسر الحاكمة المحلية تسبقها لمحة موجزة عن تاريخ الخلافة، بدأ يتنامى الأدب في مجال سير الحياة على شكل تراجم أناس منفردين ومجموعات السير، حيث تنضم معلومات حول أناس تجمعهم مهن مشتركة كمثل السيرافي حول النحويين، وابن جلجل حول الأطباء، والكندي والخشني حول القضاة، والجهشياري حول الوزارء، وكرست لعلماء الحديث والشعراء والأدباء والمغنين والموسيقيين عدة مجموعات سير الحياة لكل منهم، كانت البيانات من سير حياة مختلف الأشخاص المشهورين في مجال ما، كالأدب والعلم والفقه والكلام أو النشاط الاجتماعي – السياسي تدخل إلى مختلف الكتب، وكانت أعمال مدوني التاريخ من البلاط تتحول إلى حد ما منذ القرن العاشر إلى تواريخ حياة أفراد الأسر الحاكمة الذين كانوا هم يعملون في خدمتهم.

وقفت إلى حد ما – على جنب – بعضُ المؤلفات مثل ((كتاب المعارف)) لابن قتيبة (توفي نحو ٨٨٩)، وهو عبارة عن مجموعة تاريخية مرتبة ترتيباً زمنياً لمختلف المعلومات، و ((كتاب الديارات)) للشابشتي (توفي نحو ٩٩٨)، يضمُّ نصفه تاريخ الأديرة المسيحية ونصفه الآخر مجموعة منتخبات أدبية، و((الآثار الباقية)) للبيروني (توفي نحو ١٠٤٨)، وهو مجموعة روايات تاريخية زمنية لمختلف الشعوب، وله أيضاً ((تحرير ما للهند من مقالة))، وهو عمل متعدد الجوانب حول الهند الذي ألفه استناداً على تراجم وسرد المصادر الهندية، وتجربة تصنيف العلوم لابن فارغون في ((جوامع العلوم))، والخوارزمي في ((مفاتيح العلوم))، والمؤلف الببليوغرافي لابن النديم ((كتاب الفهرست)). يمكن أن نضيف إلى ذلك أنه في الأندلس في القرن العاشر تمت ترجمة بعض الأخبار المسيحية – اللاتينية إلى اللغة العربية العائدة إلى ما بين القرن الخامس والسابع (القديس إيرونيم وباول أورسي وإيسيدور الإشبيلي) الذين أثروا

بعض الشيء على علم تدوين التاريخ المحلي، وانضموا إلى عالم العلماء العربي الإسلامي[١].

في نتيجة ذلك التطور صارت الأشكال المعنية لوعي الذات التاريخي جديرة بقمة المجتمع العربي – الإسلامي في القرون الوسطى، بالإضافة إلى الدقّة في حساب السنوات طبقاً للتقويم القمري، واستخلاف تقاليد علم تدوين التاريخ.

إنَّ كمية المؤلفات بما فيها المترجمة والأصلية قليلة نسبياً، وهي مكرسة لمسائل التركيب الاجتماعي والسياسي وإدارة الدولة وواجبات وآداب سلوك الحكام والقضاة ومختلف الموظفين (الكتاب والوزراء).

وأخيراً تجدر الإشارة إلى اغتناء الفكر العربي الروائي بفضل تدفق المواد من مختلف المصادر، وبفضل تطور أنواعها المذكورة، وصلت من قدم الجزيرة العربية إلينا قصص وأساطير بطولية، وأمثال وحكم وعبارات مأثورة وخطب النبوءات. تمت ترجمة مواد كاملة أدبية مصنفة من لغات أخرى، وأضيفت إليها من المصادر الأدبية الأساطير والمُثُل والحواديت والموجزات للحكم الحياتية لدى القدماء. أخذ بالتطور النثر الروائي بأنواعه بالتطور من التاريخي والفلسفي والروحاني- الواعظ والخطابي والرسائلي والحياتي، كل هذا كان ينضم إلى جملة منتخبات ومؤلفات أدبية بمختلف الاقتران والنسبة، في القرن التاسع تمت ترجمة مجموعة ((ألف حكاية)) (أصل الحكايات ((ألف ليلة وليلة))) من الفارسية إلى العربية، إلى جانب ذلك تمت ترجمة العديد من مجموعات أخرى خلال الحقبة الممتدة ما بين القرنين الثامن والعاشر.

من أبرز أنواع النثر العربي هو المقامات، وهي قصص إحتيالية التي كانت تشكل عادة سلسلة ببطلين دائمين، واستعملت فيها القافية والإتزان مثلها مثل سائر أنواع النثر.

---

(١) بويكو، ١٩٧٧، الصفحة ٧٧-٧٨.

وهكذا من خلال ثلاثة قرون من التشكل والتطور تحدد مجموع المواضيع العام للمؤلفات العربية، وثبتت وترسخت الذخيرة الكتبية، وأسفر النشاط المتنوع الإيديولوجي والأدبي والعلمي عن نفسه من خلال عدد كبير من المؤلفات، وبلغت الآداب الكتابية حجماً جليلاً. في بداية هذه المرحلة كانت الآداب مرتبطة مع المراكز العربية السابقة (المدينة والبصرة والكوفة ودمشق)، بالإضافة إلى بغداد، ومؤخراً ارتفعت هيبة المدن الفارسية والأفغانية وآسيا الوسطى التي قدمت استزادة لملاك العلماء المسلمين (نيسابور ومرو وبخارى وسمرقند وبلخ وبيهق وهراة وغزنة والري وشيراز وهمذان وأصفهان وغيرها) غدت الموصل والواسط وحمص وحلب والقدس والفسطاط القاهرة المغزية منذ سنة ٩٦٩م، ومدن المغرب العربي (القيروان وطاهرت وفاس) والأندلس (القرطبة وإشبيليا وطليطلة وغيرها)مراكزاً ثقافية كبيرة، ولكن بقيت مركزاً مهمًّا للحياة الفكرية.

في هذه المرحلة بالذات كسبت الثقافة العربية – الإسلامية – على الأقل ثقافة الطبقات الاجتماعية العليا (النخبة) – طابعاً كتابياً – أدبياً بائناً بوضوح، وكانت المصادر المزودة لهذه الثقافة الكتابية مختلفة، لكن النتيجة كانت أكثر من جملة الأطراف بمختلف الدلائل والأوصاف: من خلال كمية المؤلفات وحجم النتاج الكتبي وعدد الأشخاص العاملين في النشاط الكتبي (الأدباء والشعراء والعلماء والمترجمين والنساخين وغيرهم) وترويج نسخ المخطوطات الجماهيري وشمول المساحة والسكان، وسنوضح ذلك بالتفصيل في فصول مقبلة من بحثنا.

ولكن لا بد من الإشارة إلى وحدة التقاليد الكتابية – الأدبية التي تشكلت ودعمت ليس فقط بالوحدة اللغوية ونظام الدولة، فوحدة الدولة بالذات – إذا كانت هنالك وحدة بالأساس – بدأت تتفكك وتتهدم على يد القوى في القرن التاسع، وفي القرن الذي اتى بعده باتت وهمية، بيد أن استخلاف التقاليد الكتبية احتفظ على ذخيرته وأفكاره الأساسية وأنواعه الفنية وأساليبه، وكانت المخطوطات تتداول في كل الأرجاء

متغلبة بسهولة على حواجز الحدود غير الواضحة والمتغيرة بين دويلات إقطاعية والطوائف المنعزلة.

لا بد وأن نتكلم عن تطور اللغة العربية في تلك المرحلة بصورة خاصة، لقد طبقها المترجمون كي تكون قادرة على التعبير عن المفاهيم المجردة وكونوا مصطلحات علمية. كل من كان يكتب بالعربية طوّرها وعقلها، ولما نالت لغة الشعر العربي والدين والدولة مكانة لغة العلم ارتفعت سمعتها أكثر، أما المعارف المجسّدة فيها فزادت من لذتها لدارسيها، وهذا ما مهد لها سبيل النجاح في تنافسها مع لغات أخرى[1]، لقد تنامت مجالات استعمال اللغة العربية سواء كتابياً أم بصورة محكية، وفي كل مجال كان يتشكل أسلوبه الوظيفي الخاص بمصطلحاته وعباراته، وأضحت اللغة العربية أساسياً بأنظمته الفرعية.

في أواخر القرن العاشر انفصلت اللغة العربية الفصحى تماماً عن لهجاتها المحكية وعن وسائل المعاشرات اليومية، وغدت لغة العلم الكتبي ميتة، وكان الحفاظ عليها مرتبطاً منذ ذاك الحين مع التدريس ونشاط اللغويين والمتكلمين والعلماء بمؤلفاتهم الكتابية، ولكن اللغة المحكية – ولا سيما لغة أهل المدن وأوساط المثقفين – كانت تتسرب تارة إلى المؤلفات الكتابية على شكل أخطاء قواعدية (في الإملاء والاشتقاق والعبارات والمفردات والجمل)، فظهر اتجاهان: التمسك بفصاحة اللغة، تلك القاعدة المتبعة على أكمل وجه من قبل اللغويين والأدباء والمتكلمين الإسلاميين، والاتجاه الثاني – كما يسمونه – الأسلوب الوسط للغة الفصحى (أو اللغة العربية

---

(١) مما ساعد على الحفاظ على السمعة الاجتماعية العالية للغة العربية هو تمجيدها في أعمال الكثير من المؤلفين، اعتبر إ. ي. كراتشكوفسكي أن هذا ((عبارة الكلمة)) تنضم إلى عداد ((المبادئ الأساسية البهي للأدب العربي)) (شيدفار، ١٩٧٤، الصفحة ١٠٠-١٠٧) لكن هذا الرأي لا يكاد يكون عادلاً إذ أن الأمر يجري حول ظاهرة من ظواهر مجال اللغويات أو علم النفس الاجتماعي الذي كان من الممكن أن ينعكس بصورة غير مباشرة في النظام الأدبي البهي.

الوسطى) التي بانت غالباً في الأعمال في مجال العلوم الطبيعية وسائر العلوم الدقيقة وآثار الأدب الشعبي والمؤلفات المسيحية - العربية.

بما أن كتابة الكتب باللغة العربية في الحقبة الممتدة ما بين القرن الحادي عشر والثامن عشر (وحتى جزئياً التاسع عشر) أغلبها تقليدية، فسنكتفي فيما بعد بلمحة موجزة عنها وذلك بأن نستمر ببحثنا بصورة زمنية مروراً بأهم المراحل، وليس الأقاليم وفروع المعرفة، كما ينبغي أن نأخذ بالحسبان أن مناطق انتشارها كانت تتغير، فتتسع تارة وتضيق تارة أخرى، وأنه رغم تقليديتها كانت تظهر خاصيات محلية في جمع المؤلفات المستخدمة والمنشأة.

اعتباراً من النصف الثاني من القرن الحادي عشر وحتى منتصف القرن الثالث عشر كانت بغداد عاصمة ثقافية وكتبية في العالم الإسلامي، وذلك رغم عدم استقرار أهميتها السياسية، طبقاً لسير التاريخ السياسي كانت المراكز الثقافية تزداد عدداً، فكانت مدن مختلفة تزدهر وتنحط، فمثلاً الحملات الصليبية وحركة ((المحررين)) في إسبانيا والفتوحات النورمانية في حوض المتوسط، كل هذه العوامل قلصت الأراضي التابعة للمسلمين، فأخذت مواقد الثقافة العربية – الإسلامية في كل من إشبيليا وبعض الجزائر وإقليم بلاد الشام وفلسطين وشمال إسبانيا تتضاءل، وفي الشرق حدث عكس ذلك، فقد تابع الغوريون (نحو ١٠٠٠-١٢١٥) سياسة أسلافهم في دخول الهند وأسلمة سكانها موسعين بذلك نطاق انتشار اللغة العربية، وكتابة الكتب بها، وحدثت الأشياء نفسها في بعض مقاطعات آسيا الوسطى والقوقاس وآسيا الصغرى.

فيما يتعلق بفحوى الكتب المكتوبة في المرحلة الممتدة ما بين منتصف القرن الحادي عشر وحتى عام ١٢٥٨ ينبغي أن نبدأ من الملاحظة، وذلك أن الشعر العربي استمر تداوله من الأندلس وحتى آسيا الوسطى، وكل أرجاء الخلافة كانت وفيرة بالشعراء الموهوبين بثقافة الكلمة والفن الماهر، وأدخلت ذخيرة قيمة إلى الشعر جماعة من مهرة الفن الشعري البارزين في الأندلس، حيث ظهرت لأول مرة الموشحات

والزجل التي وصلوها كذلك في الشرق الأدنى، تبدأ الصوفية بالتعبير عن نفسها بصورة شعرية أكثر فأكثر، فقد عاش أشهر الشعراء الصوفيين العرب في تلك الحقبة بالذات، ومنهم ابن الفارض وابن العربي والبوصيري، وفي مجال النثر المحور أنشأت أفضل كالمقامات – حسب الاعتراف العام – والحريري بصريُّ الأصل (توفي نحو ١١٢٢)، واستمر تأليف الدواوين والمنتخبات المتنوعة التي كانت تضم آثار الشعر العربي القديم والقرون الأربعة الأولى من العصر الإسلامي، مثلها مثل إبداعات الشعراء والأدباء الجدد، ونالت شعبية خاصة مؤلفات الأدب.

كانت كل أقسام علم اللغة العربية تعدّ في مؤلفات جديدة من قبل كثير من المؤلفين الموجودين في كل مدينة من المدن الهامة في الدولة الإسلامية، وكان علم اللغة من جملة المواد التدريسية الأساسية في المؤسسات التعليمية، وعنصراً هاماً في التعليم العام، وكانت المؤلفات في النحو في تلك الآونة عبارة عن تعليقات على المؤلفات التي سبقتها وتحويلها لأغراض تدريسية، وتارة البحث في المسائل الخاصة أو التحليل المتوازن بين مختلف وجهات النظر، وكثيراً ما كانت تنشأ مؤلفات قيمة، منها: ((المفصل)) للزمخشري، وتعليقات ابن يعيش على ((كتاب)) سيبويه، والكتب الدراسية المقتضبة لابن الحاجب وغيرهم، ولو أن المكانة السائدة كانت من جهة المؤلفات المقلدة، لكان من الممكن تكراره إذا تحدثنا عن مؤلفات حول العروض والبلاغة وعلم المعاجم، واستخدمت أساليب ومبادئ علم المعاجم (الكلمة مع التعليق الاشتقاقي والنحوي والواقعي عليها) في العديد من مجالات المعارف وظهرت في نتيجتها المعاجم المختصة كالصيدلية والجغرافية والنباتية- المعدنية، ومعاجم الرجال بمختلف حرفهم وغيرها.

كانت المواد اللاهوتية – القرآنية تعدُّ بشغف لا متناهي وحماس عال في كل البلدان الإسلامية، فقد كتبت مؤلفات في القراءة والتجويد والتفسير، وكانت تعلق على السابقة منها، وكانت تنظم مجموعات جديدة من الأحاديث، كما عدلت

((السنن)) الكلاسيكية و ((الصحيح)) في القرن التاسع، وطورت أصول علم الحديث وجمعت مجموعات جديدة من البيانات حول الرواة.

كان حجم نتاج كتب الفقه كبيراً واسعاً من حيث مواضيعه، وقد ساعد على ذلك كثيراً أنه في النصف الثاني من القرن التاسع برزت المدرسةُ وكسبت مكانة خاصة، حيث كانت مادة الفقه من أهم المواد الدارسية، وكان الفقيه مدرس هذه المادة[١]، ذو شخصية بارزة ومبجلة، وظهرت كتابة مؤلفات فحواها المذاهب السنية الأربعة وقد اعترف بها بمثابة المؤلفات الأساسية، وغدت فيها بعد ذاتُ شعبية[٢].

تميزت تلك المرحلة كذلك بوفرة المؤلفات في مجال مذهب الاعتقاد اليقيني الإسلامي وعدد المؤلفين غزيري الإنتاج كابن حزم والغزالي وابن عقيل وفخر الدين الرازي، وكانت الأخوة الصوفية تتوسع وتزداد، وكل مذهب من مذاهب الصوفية كان يؤلف الكتب التي فحواها سرد الاعتقادات اليقينية ومجموع الصلوات ووصف سبل التقرب إلى الله تعالى، ومآثر الأولياء الروحانية ووصف سيرة حياتهم، أما لاهوت الموازنة (أو علم الهرقطة)، فجاءت في أعمال أساسية لابن حزم (توفي نحو ١٠٦٤)، والشهرستاني (توفي نحو ١١٤٢).

من جملة الأعمال الجديرة بمجال علم تدوين التاريخ أعمال في التاريخ الإقليمي وروايات الأسر الحاكمة، وكتب في مجال التاريخ العمومي ((الكامل)) الشهير لابن الأثير (توفي نحو ١٢٣٣). ازدهر أدب السير والترجمة بأنواعة وأشكاله الكثيرة، ومن أكثر المجموعات هي ((الإكمال)) لابن ماكولا و ((كتاب الأنساب)) للسمعاني و ((إرشاد الأريب)) لياقوت.

---

(١) المقدسي، ١٩٨١، الصفحة ١-٣٤

(٢) مثلاً الكتب الحنفية: ((المختصر)) للقدوري و((الهداية)) للمرغيناني و ((الفتاوى)) لقاضي خان.

ندرت هذه المرحلة بنقول إلى اللغة العربية، فبعد تناقصها كادت أن تتوقف تماماً، كما نفذ الاهتمام بالمؤلفات الأدبية والعلمية من البلدان والشعوب خارج العالم الإسلامي، فبقي هنالك دوران منعزل للأفكار والوقائع والطرائق المحتواة في الكتابات أو المؤلفات العربية المزدهرة في تلك الآونة، والمنشأة في المراحل الحديثة من حياة الشعوب الإسلامية، في تلك الحقبة اعترف بالكتب العربية بأنها مشبعة بالمعلومات فبدأت ترجمتها إلى لغات أخرى وبكميات لا يُستهان بها (وقبلئذ كان يتم ذلك بصورة عرضية) سارت الترجمة من العربية على نهجين: إلى الفارسية الفصحى واللغات التركية ضمن الطائفة الإسلامية، وإلى العبرية واللاتينية بغية نشرها في الخارج.

أنشئت مؤلفات بمجالاتها العلمية والفلسفية المختلفة بكميات كبيرة، وكانت أكبر مراكز الفكر الفلسفي بغداد وخراسان والأندلس، حيث نجد فيها مجموعة مشاهير الفلاسفة كابن طفيل وابن باجة وابن رشد، وغدا المنطق والجدلية مادتان تدرسان في المدارس، ولهذا الغرض تمت كتابة العديد من الموجزات بمثابة وسائل التعليم، ومن أشهرها ((الإيساغوجي)) و ((الرسالة الشمسية))، وأُنشئت أعمال جغرافية هامة من قبل البكري في الأندلس والإدريسي في صقليا وياقوت في خراسان والعراق وبلاد الشام، كتبت في مجال الرياضيات كتب دراسية ووسائل علمية. كما جرى الشيء نفسه مع الفلك والطب والعديد من المواد التطبيقية وعلوم السر والغيب.

استمر الأدب المسيحي – العربي تطوره في الحقبة الممتدة ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر وفق مناهج حددت في المرحلة السابقة، ولكن بعد أن بلغ النشاط الإبداعي لدى الملكيين والنسطوريين واليعقوبيين أوجه- الذي استمر حتى نهاية القرن الحادي عشر- بدأت التقاليد تتضاءل، والشيء الآخر حدث في الكنيسة القبطية، حيث حلت فترة ازدهار الكتابة العربية في أواخر القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر

وأسفرت عن نفسها بعدد كبير من المؤلفات العائدة إلى أقلام كثير من من المؤلفين، ومن أشهرهم بنو العسّال [١].

تميزت الحقبة الممتدة ما بين النصف الثاني من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر بأحداث ضاقت على إثرها نطاقات انتشار اللغة العربية وضأل حجم النشاط الأدبي والعلمي، بالإضافة إلى إتلاف كميات هائلة من الكتب العربية، ومن جهة أخرى إن الانتصار على الصليبيين والمغول رفع من سمعة مصر وبلاد الشام بصفتها مراكز الثقافة العربية، وهاجر إليهما الكثير من علماء المقاطعات الشرقية من الخلافة السابقة مثلها مثل هجرة العلماء من الأندلس إلى المغرب، ولما اعتنق الحكام المغول في لأوردا (المملكة) الذهبية وإيران والقوم الرحل الإسلام بدأت في كل مستعمراتهم عمليات إحياء الفروع التقليدية للاهوت والعلم والأدب باللغة العربية، وبرز على وجه الخصوص ازدهار العلوم الدقيقة والطب، ولكن جلّت إعادة توزيع ((مجالات النفوذ)) بين اللغة العربية والفارسية واللغات التركية، بقي القرآن الكريم والمواد القرآنية والأحاديث النبوية والفقه والعقائد والعلوم الدقيقة والعلوم الطبيعية وعلم اللغة من نصيب اللغة العربية، وحتى هذه غدت ضئيلة بالمقارنة مع ما سبق، أو صارت عبارة عن مجرد وسائل التعليم للمدارس وموجزات وملخصات الكتب السابقة والتعليقات والشروح، وكل ما كان ملحاً وحيوياً في كل من الفكر الاجتماعي والأدب وعلم تدوين التاريخ، فكانت تكتب في البلدان الإسلامية بسكان من غير العرب ليس باللغة العربية، وحتى المؤلفات اللاهوتية كانت تكتب في الغالب بالفارسية واللغات التركية أو كانت تزود بالترجمة والتعليق بهذه اللغات، ومع ذلك كان جل المتعلمين والمثقفين يجيدون اللغة العربية ويستخدمون كتباً عربية بقيت أو ازدادت عدداً إثر نسخها.

---

(١) Graf, 2, p. 294-300, 387- 414.

تم إنشاء كتب عربية كثيرة مثيرة للاهتمام، في كل من مصر وبلاد الشام والرافدين العليا في عهد الأيوبيين والأسر المملوكة الحاكمة، وكذلك في المغرب وجنوب أسبانيا؛ حيث حكمت أسر محليّة قلما كان قد ضرب عرض الحائط بأي مذهب تقليدي من مذاهب الآداب الكتابية.

تلاحظ في مجال الأدب الفني نزعة إلى تسهيل اللغة والميل نحو فنون الموشحات والأغاني الشعبية، تم تدوين وإكمال المؤلفات الفولكلورية أدبياً إلى جانب الحفاظ على ترويج الشعر ((العالي))، وصنفت كذلك مجموعات منتخبة.

كتب في مجال النحو والعروض والبلاغة موجزات ومباحث علمية جديدة، قدم ابن منظور (توفي نحو ١٣١١)، والفيروز آبادي (توفي نحو ١٤١٤)، مجموعات وفيرة من ذخائر الألفاظ في معاجمها ((لسان العرب)) و ((القاموس)).

فيما يتعلق بالمواد اللاهوتية- الفقهية وعلم تدوين التاريخ، فقد انتهى تطورها السابق بنتيجة شاذة، كتب السيوطي في مجال تاريخ العلوم القرآنية واللغوية، والسخاوي تاريخ علم تدوين التاريخ العربي، وصنّف ابن القفطي مجموعة تراجم حياة علماء النحو، وله أيضاً وبالمشاركة مع ابن أبي أصيبعة مجموعة تراجم حياة الأطباء والفلاسفة، وللصفدي، وابن حجر العسقلاني تراجم حياة محدثي الأحاديث النبوية الشريفة والمؤرخين، وللسبكي تراجم حياة الفقهاء الشافعيين، وهكذا دواليك، تمت كتابة أعمال جديدة تاريخية – جغرافية وسفر أخبار الأسر الحاكمة والعمومية، أما ابن خلدون (توفي نحو ١٤٠٥)، فقد ألف عملاً بارزاً وقدّم تاريخه العمومي ((المقدمة))؛ حيث طور آراءه النظرية والمادية على الأغلب حول تاريخ البشر، وكتب بعض المؤلفين (القلقشندي وابن تعزي بردي والنويري والمقريزي وغيرهم) أعمالاً موسوعية كبيرة انضمت إليها كل جملة المعارف اللاهوتية – الإنسانية في العالم الإسلامي.

من بين سائر فروع المعارف يمكن أن ننوه إلى سلسلة الكتب في مجال فن الحرب المكتوبة من قبل مختلف المؤلفين للقادةِ المماليك، وأعمال كثيرة في الطب تعود إلى قلم الطبيب الكبير ابن النفيس.

في هذه الحقبة تمَّ دعم كبير للآداب الكتابة العربية – المسيحية ولو أن النشاط الأدبي الإبداعي قد أخذ بالنكوص.

خلال الحقبة الممتدة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر كان الشرق الأدنى وشمال إفريقيا تحت سيطرة الحكم العثماني، ولم يبق إلا السلاطنة المغاربة وشرفاء مكة وتارة الأسر الحاكمة في جنوب شبه الجزيرة العربية استقلالا إلى حد ما، وسادت على سائر أجزاء العالم الإسلامي إيران الصفوية وإمبراطورية المغول العظماء، وثمة أسر حاكمة شبه مستقلة كانت تقطن في المقاطعات القزوينية، وبالقرب من البحر الأسود وفي وآسيا الوسطى وأفغانستان والهند وإفريقيا الاستوائية، كما أدى غزو الدول الأوروبية إلى تحول البلدان الإسلامية إلى مستعمرات وشبه مستعمرات.

رغم هذه الظروف لم يتوقف النشاط الأدبي الكتبي باللغة العربية بل وحتى استمر بمدى لا يقل عن سابقه، على الأقل في مجال نسخ الكتب واستمرار التقاليد المخطوطية.

لم يكن انتشار المخطوطات العربية ضيقاً ؛ بل توسعت على إثر الفتوحات العثمانية في أوروبا (شبه جزيرة البلقان)، والإسلام المستطرد للهند، والنشاط التجاري والديني لدى العثمانيين والمغاربة في إفريقيا والحضرميين في حوض المحيط الهندي، لا سيما في إندونيسيا، وكذلك كان الحال في البلدان التي وقعت فريسة الاستعمار الأوروبي، إذ لم تتوقف فيها عمليات نسخ المخطوطات وتدريسها.

أما من ناحية المضمون كان النتاج المخطوطي في مراحله المتأخرة- أي بين القرن السادس عشر والثامن عشر – قد رضخ للمخطوطات الموجودة في العالم العربي – الإسلامي سابقاً، في أحسن الأحوال كانت تتكرر المنجزات السابقة، وتم الحفاظ على هذا المستوى، وبالمقارنة مع أوروبا تلك الحقبة كانت هذه الظواهر تُعدُّ ركوداً وانحطاطاً ومحافظة على القديم وجموداً فكرياً وعدم وجود التحمس للحركة إلى الأمام، كان الكتاب العربي المخطوط يتأخر أكثر وأكثر كذلك من الناحية التكنيكية عن الكتاب المطبوع في البلدان سريعة التطور.

على الرغم من كل هذا كتبت باللغة العربية كمية كبيرة من المؤلفات الجديدة وجدت من ضمنها كتبٌ قيّمةٌ جداً (وفقط منذ زمن ليس ببعيد ألفت الاستعراب المتحمس فقط لعصر الازدهار نظره إلى طباق متأخرة من الأدب العربي الكتابي)، نأخذ على سبيل المثال موسوعة طاشكبري زاده (تركيا القرن السادس عشر)، وشرح شواهد الكافية للبغدادي (القرن السابع عشر)، ومنتخب في الأدب التاريخ الأندلسي للمقري (تونس، مصر القرن السابع عشر)، وببلوغرافيا الأدب الكتابي الإسلامي لحاجي خليفة (تركيا، القرن السابع عشر)، والشعر الصوفي وسفر الأخبار المحلية من حضرموت واليمن وجملة الأعمال التاريخية والموسوعة المنشأة في مصر وسوريا (ابن إياس وابن طولون والمحبي)، وإبداعات المؤلفين الصوفية كالشعراني والنابلسي، ومدونات جديدة كثيرة المجلدات: فحواها السلسلة الفولكلورية والملحمية في مصر وشمال إفريقيا (((سير)) عنترة وسيف ذي يزن، وذي الهمة وبني هلال وحكايات ((ألف ليلة وليلة))) وهلم جرا.

تم إنشاء كثير من التعليقات وكذا تعليقات على التعليقات والموجزات ووسائل التدريس للمدارس، غلبت على كل شيء المجموعة اللاهوتية – اللغوية وما تحتويه من مؤلفات كلامية قليلة الأصلية، أما الأعمال في العلوم الطبيعية والرياضيات والفلسفة، فلم يؤلف منها فحسب، بل قلما كانت تنسخ.

ينتهي تطور الكتاب العربي المخطوط العائد إلى القرون الوسطى في القرن التاسع عشر إذ يزاحمه كتاب مطبوع وأدب جديد ويتحول إلى موضوع البحث العلمي في بادئ الأمر ضمن حدود العالم العربي – الإسلامي، في مرحلة ازدهار فن الطباعة احتلت المرتبة الأولى من حديث عدد عناوين الكتب المطبوعة وعدد النسخ مؤلفات مكتوبة في السابق، فبواسطة آلة الطبع تم نسخ مئات من آثار القرون الوسطى ابتداءاً من القرآن الكريم، وست مجموعات من الأحاديث الشريفة، وكذلك المؤلفات الأساسية في الفقه والتفسير والعقائد والأحاديث والمؤلفات التاريخية – السيرية والأدبية ووسائل التعليم في النحو والمنطق والقواميس، وما إلى ذلك، كان التنضيد يتم عادة على أساس مخطوطة واحدة ما سهلة الوصول للناشرين، وفي القرن العشرين تم الاستيعاب التدريجي لأساليب العمل في علم النصوص والمنشورات الواقعية الأصلية للآثار وذلك باجتذاب أكبر كمية ممكنة من المخطوطات، وباتت أفضلها ظواهر عشرات السنين الأخيرة.


مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
خدمة متميزة ... وعطاء مستمر

الفصل الثالث

المؤلفـــون والآثــــار

أول ما يبدو من ضعف ابن آدم أنه لا يكتب كتابا فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غدها أن يزيد فيه أو أن ينقص منه، هذا في ليلة واحدة، فكيف في سنين عدّة!

ما قرأه أبو منصور الثعالبي في بعض الكتب

من الطبيعي أن هذا الحجم الهائل من الآداب الكتابية العربية قد أنجز بأتعاب عدد كبير من المؤلفين، والحقيقة إنّ كميتها كبيرة لدرجة أنه حتى الآن لا توجد قوائم كاملة لها، ولو أنّ محاولات إحصاء المؤلفين العرب قد أجريت غير مرة، وثمة دلائل ممتازة وكثيرة من المجلدات حول الأدب العربي في القرون الوسطى، وتنحصر صعوبة شمول الجميع من كتب بالعربية في عدم فهرسة كل المخطوطات، وليست مخطوطة معروفة المؤلف (أو المؤلفين) الذي كتب فيها المؤلف (أو المؤلفات)، ولكن حتى ولو كانت بحوزتنا أوصاف كاملة لكل المخطوطات العربية ونجحنا في كشف مؤلفي الآثار مهملة الإمضاء، لن نتوصل إلا إلى حساب جزئي للمؤلفين، وتكشف لنا مباحثات الأكثر عمقاً وتفصيلية للآداب العربية الكتابية عبر التنويهات أو الاستشهادات عن المؤلفين الذين عاشوا وأبدعوا في زمن ما لكن مؤلفاتهم لم تصل إلينا حتى نسخ منها، كما أنه من المنطقي الاعتبار كان هنالك مؤلفون لم تصل إلينا أخبارهم قط، ولو أنهم ربما قد لعبوا دوراً ما في تاريخ الآداب الكتابية.

توجد في حساب وتثبيت هوية المؤلفين مشكلاتها الخاصة، وسنعود إلى بعضها فيما بعد، ولكن ثمة صعوبة أخرى، فالمؤلفون ليسوا كثيري العدد فحسب، بل وتختلف ارتباطاتهم مع الآثار أو النصوص المؤلفة من قطع مرتبطة مع أسمائهم.

عند تدوين المواد الشفهية كان العمل الإبداعي منفصلاً تماماً زماناً ومكاناً عن إنشاء كتب بغض النظر عن ما إذا كانت هذه المواد فولكلورية أم مؤلفة، لم يكن المبدعون الحقيقيون مؤلفون بكل معنى الكلمة، بل كان أكثرهم لا يعرفون القراءة والكتابة، ولو أن وعي ذاتهم كمؤلفين كان راقياً على أفضل وجه، وبفضل عملية التدوين انضموا إلى الأدب العربي بمثابة منظمي الأشعار والخطب والقصص والحكم والأقاويل المأثورة والسخريات والملاحظات الفكهة، لكننا مع الأسف لسنا متأكدين دوماً من صحة انتساب مؤلف ما إلى مؤلفه، فقد نسيت أسماء كثيرة ووضعت مكانها أسماء أخرى عمداً أو بغير عمد، وتارة أسماء أشخاص لم يكن لهم وجود، يحدد بعض مؤلفي هذا النوع من الإبداعات بغموض، وليس بأسمائهم (عضو قبيلة ما أو مجرد شخص عربي أو أعرابي وما إلى ذلك)، وعلى أية حال عدد أسماء مؤلفي مرحلة ما قبل الكتابة كبير، وهي لا تزال حية على صفحات الكتب العربية إلى الآن.

لم يكن اللغوي الذي قام بالتدوين (والأفضل أن نسميه بعد ر.بلاشير بالمُدَوِّن) مؤلفاً مكوناً للآثار الشفهية، كان عمله منحصراً ضمن البحث واختيار وترتيب ما قالوه أو عبروا عنه شفوياً أو ألَّفوه، كان يحوّل الآثار من حالتها الشفهية إلى حالتها الكتابية، وينقل كل ما كان معبراً عنه بنظام الرموز الصوتية إلى نظام الرموز الكتابية، إنّ مأثرة المدون للأدب العربي – رغم عدم أبداعيتها ظاهرياً – هي مأثرةكبيرة، فهو الذي أسس المؤلف الكتابي المأخوذ بذاته، ولو أن النص لم يكن من تأليفه قط، فبفضل مبادرته وذوقه وسعة إطلاعه تم ضمان أمانة النصوص وكيفية كتابتها ناهيك عن أنه حافظ على أسماء قدماء المؤلفين، وفي بعض الأحيان كان كذلك يسجل المعطيات حول تواريخ حياة أولئك المؤلفين، وظروف إنشاء المؤلفات الشفهية، ويفسر معاني المفردات والتعابير التي يتعذر فهمها، وهذا ما يبرر تسميته بمؤلف.

في حقيقة الأمر إنّ العديد من مصنفي الكتب من نماذج الإبداع والفصاحة التابعين للغير مجَدَهُم وخلَّدهم الأدب العربي، فمثلاً أبو تمام والبحتري اشتهرا ليس

بمثابة شعراء القرن التاسع فحسب، بل كمصنفي مجموعات الأدب العربي القديم تحت عنوان واحد ألا وهو ((الحماسة))، وكذلك كان اللغويان الأصمعي والمفضل الضبي اللذان سميت مجموعتهما بأسمائهم ((الأصمعيات)) و ((المفضليات))، إلاَّ أنَّ ثمة مجموعة أخرى من الأشعار العربية القديمة ومن أشهرها((المعلقات)) التي تنسب إلى عدّة مصنفين إذ باتت أسماءهم قليلة الأهمية أم أنها ضألت أمام أسماء الشعراء الذين تم جمع إبداعاتهم بأيدي هؤلاء المصنفين المجهولين، في الأدب اللاحق نرى مختلف أساليب استشهاد النصوص من المجموعات المماثلة بذكر أسماء الشعراء والاستشهاد فقط بكتاب المدون دون تذكير أحد كنص مغفل الإمضاء، على أية حال إنّ هذان الصنفان من المؤلفين خلدا بشكل أو بآخر في الأدب العربي، ولو أن الأسماء المنسية كثيرة.

يرتبط النوع الشاذ من التأليف مع الكتب ((الإلهية)) أو ((المقدسة)) وليس لكل الآداب حق عليها، يوجد في اللغة العربية أثر كتابي فحواه كلام الله تعالى وهو القرآن الكريم الذي يعتبر ليس من تأليف النبي محمد ﷺ، وطبعاً ليس من تأليف مصنفي نصه، إن الشك في أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ليس إلا تجديف ولا يشك في ذلك إلا المشركون من غير المسلمون، في القرنين الثامن والتاسع كانوا يتجادلون فقط ما إذا كان القرآن مخلوقاً في زمنه أنه أبدي أزلي.

كانت للحديث النبوي أو الحديث الشريف مكانته الخاصة بخصوص انتسابه لمؤلف، إنه كلام النبيﷺ، ولكنه غالباً ما يكون الشيء برمته المصاحب بأقواله، ربما أنه كان من المعلوم دوماً أن بعض الأحاديث زائفة، بقي هنالك شك أكثر أو أقل في انتسابها التأليفي الحقيقي لمحمدﷺ تجاه المتن، أما النص الزائف فالبطبع ينسب للمحدثين، عدا ذلك إنّ بعض أقوال صحابة الرسول ﷺ ذوي السمعة الطيبة المصاحبة برواياتهم، كان لها تداول مساو للأحاديث النبوية.

أدخلت الترجمة إلى الآداب العربية الكتابية كمية لا يستهان بها من أسماء المؤلفين الأجانب، وأسماء الذين كانت أقوالهم أو آراؤهم يستشهد بها في مؤلفاتهم أو في المؤلفات مغفلة الإمضاء والمكذوبة، تسرب هؤلاء المؤلفون الأجانب لهذه الآراء والأقوال إلى الكتب العربية، ويظهر أن هذا قد تمّ كذلك عبر الترجمة الشفهية طالما أنّ الآثار الأدبية والفولكلورية لدى مختلف الشعوب تسرد بالعربية، لأن المدونين كانوا يسجلونها، فشاعت الترجمة العربية في مختلف الروايات للكتب المقدسة لدى المسيحيين واليهود، ينبغي التنويه إلى أنه عند إجراء ترجمة سواء الشفهية أو الكتابية كان من الممكن أن تحدث بعض الإعادة في الفهم كمثل التَّثبُّتُ الأكثر قطعية مما هو في الأصل على النسب إلى مؤلف، وتحريف اسم مؤلف واقتران في اسم واحد عدة مؤلفين وغيرها من الأغلاط، بنفس الدرجة كانت تهمل أو تحسب حساباً غير كاف تغيرات انتساباً إلى مؤلفين على أساس الآداب التي كانت مصدراً للاقتباسات، فيما يتعلق بأتعاب مترجم مبدع مطلقاً أو مشتركاً مع غيره، فكانت إما تهمل بغير إنصاف مع اسم المترجم نفسه وإما أن تبالغ فيها دون استحقاق لدرجة أن اسم مترجم كان يحل محل اسم المؤلف الأصلي (والأحداث من هذا القبيل نادرة نسبياً).

عامل المؤلفون العرب مواد النصوص الموجودة (مدونات المدونين أو المواد المترجمة وغيرها) كالحوزات الخاصة بالجميع أو لا تخص أحداً مجهدين في الاستمداد منها كل ما يحتاجون إليه وما يناسبهم، أنشئت كتب عربية جديدة كثيرة بواسطة التغيير العادي للمواد الأدبية وترتيبها الجديد وتصنيفها، وحازت طريقة تأليف مقتبسات من مؤلفات الغير على اعتراف واسع، لم يكن الإدخال إلى التأليف مؤلفة تابعة لشخص آخر جزئياً أو كلياً محظوراً للمؤلف، بل العكس صحيح كان ذلك يشجع ويفرض على الأقل في بعض فروع الأدب، كان المؤلفون النزهاء يشيرون إلى المصادر المستعملة وحدود كل اقتباس، أما المؤلفون أقل دقة، فكانوا يستغنون عن ذلك ويحاولون إبهام الاستشهادات، كما أنَّ تركيب مختلف أنواع الاختصارات والمقتبسات والملخصات

والموجزات والمجموعات هي عبارة عن تطور نفس أساليب عمل المؤلفين في الاقتباسات من مؤلفات الغير.

بكر في الظهور والانتشار أسلوب إنشاء كتب جديدة بواسطة التعليقات على الموجودة منها، وكان جزء من المؤلفات المترجمة عبارة عن تعليقات في الأصل، وأول الكتب العربية من هذا النوع التعليقات على القرآن الكريم، كما علقوا كذلك على الشعر والأحاديث النبوية والأعمال في مجالات اللاهوت والمنطق والنحو والبلاغة وعلم العروض والطب والرياضيات، بيد أنه نفس المؤلف كان يعلق عليه مراراً، زد إلى ذلك حدث بأنَّ المعلق الأول كان المؤلف نفسه، وكان من الممكن أن يكتبوا على تعليق ما تعليقاً جديداً الذي كان بدوره يعلق عليه، وكانت درجات التعليقات تبلغ تارة درجة رابعة وخامسة متخللة مع أساليب أخرى كالتلخيص وغيره، وإذا جمعنا كل أصناف هذه الاستدراجات والتحولات والتعليقات، وكذلك التعليقات على التعليقات أو غيرها من المؤلفات ذي شعبية، فسنجد أنفسنا أمام شجرة نسب بفروعها الكثيرة، أما عدد نسخها فستكفي لملئ خزانة كتب[1].

استخدمت في بعض فروع الآداب الكتابية طريقة التعليق، وفي البعض الآخر طريقة الجمع من مؤلفات الغير (في التاريخية منها وتراجم حياة والأعمال الجغرافية

---

(١) يمكن أن نتخذ على سبيل المثال المباحث التعليمية الموجزة في النحو لابن الحاجب مصري الأصل (١١٧٤-١٢٤٩)، وهما ((الشافية)) و ((الكافية))، وقد كتب على الأخيرة منها أكثرها من خمسين شرح من قبل مؤلفي الفترة الممتدة ما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر القاطنين في إفريقيا الشمالية وسوريا وتركيا وإيران وآسيا الوسطى والهند، وبات أكثرها شهرة حاشية الشاعر جامي (توفي سنة ١٤٩٢) الذي كتب لابنه ضياء الدين ((الفوائد الضيائية))؛ ويزيد عدد الحواشي والتعليقات على هذه الحاشية على المئة، كما عدلوا وعلقوا غير مرة على ((منهاج الطالبين)) للنووي (١٢٣٣-١٢٧٨)، وهو الفقيه الشافعي من سوريا، و ((مفتاح العلوم)) للغوي العائد إلى القرون الوسطى السكاكي (١١٦٠-١٢٢٩)، والتحويل المختصر للجزء الثالث من هذا العمل في مجال البلاغة العائد إلى قلم القزويني دمشقي الأصل (توفي سنة ١٣٣٨).

والمنتخبات)، ينبغي الاشتراط أن الإشارة إلى طريقة العمل التأليفي لا تحدد دوماً قيمة المؤلَّف، كتبت في مجال الشروح والحواشي والتعليقات جملة من المؤلفات عميقة وغنية المضمون، وتمثل الكثير من المجموعات من مؤلفات الغير تحفات فنية حقيقية، زد إلى ذلك إن المجموعات من مؤلفات الغير قيمة كذلك كونها حفظت على صفحاتها مقاطع من المؤلفات الأكثر قدماً، وهذا ما أدركوه منذ القرون الوسطى.

لا يقتصر أسلوب التدوين لنشر الكتب فقط على المرحلة المبكرة من الآداب العربية الكتابية، بل بقي منتجاً إلى الأبد، ولم يكن الشعراء يؤلفون قصائدهم وهم جلوس في مكاتبهم حاملين في أيديهم أقلاماً، وإنما فقط كانت المؤلفات الشعرية تكتب من قبل الشعراء غير الموهوبين، والأشعار الخالية من المواهب اللغوية والشعرية هي التي كانت تخلق بصورة كتابية، كذلك لن يهتم الشعراء كثيراً بجمع دواوين أشعارهم، وإنما كان ذلك على عاتق عشاق فنهم وهم اللغويون المتعلمون، وفقط في المراحل المتأخرة نسبياً أخذ بعض الشعراء يهتمون بجمع دواوين شعرهم، فمثلاً صنف الصوليّ ديوان أبي تمام ورتبه ترتيباً أبجدياً، كما صنف علي بن حمزة الأصفهاني ديوانه تصنيفاً موضوعياً[١]، أما الشاعر نصر بن أحمد بن مأمون الخبزؤرزي البصري فرتب قصائده ترتيباً أبجدياً بنفسه وقدمه للصولي[٢]، أما ديوان أبي نواس والمتنبي فلهما رواياتها المختلفة إذ أنهما قد صنفا من قبل مختلف الأشخاص[٣]، لم تكن أشعار ابن الرومي منظمة، إنما كان يرويها عنه المسِّيبي، ومن ثم صنف أبو بكر الصولي ديوان شعره مرتباً أشعار ابن الرومي ترتيباً أبجدياً أما أبو الطيب الوراق فجمع مجموعات متداولة وأضاف إليها ملحقاً مكوناً من ألف بيت[٤]، وكان ديوان كشاجم ينسخه عن طيب خاطر مقلده الشاعر السري مضيفاً إليه أشعار منافسيه كي تسود شهرتهم كمنتحلين،

(١) ابن النديم، الصفحة ١٦٥؛ ابن خلكان الصفحة ١٣٢.

(٢) ابن النديم، الصفحة ١٦٩.

(٣) نفس المصدر، ص١٦٠، ١٦٩؛ ابن خلكان، ص١٣٥.

(٤) ابن النديم، ص ١٦٥.

وكذلك كي يكسب بذلك مالاً أكثر، لقد جمع أشعاره على ثلاثمائة صحيفة ثم أضاف إليها أشعاراً زائدة، مؤخراً أعاد أحد الأدباء ترتيب أشعاره ترتيباً أبجدياً طبقاً للقوافي[١]، تعود إلى المرحلة المتأخرة بلاغات كثيرة منها: ((لأبي الجوائز الواسطي (ت١٠٦٨) أشعار رائقة)، ولم أر له ديواناً، ولم أعلم هل دوّن أم لا))[٢]، لم يكن ابن عنين (ت١٢٣٣)مهتماً بجمع أشعاره، فقام بهذا العمل أحد الدمشقيين، لكن ديوانه الصغير الذي صنفوه احتوى على أقل من العشر من أشعاره ناهيك عن أنه كانت من بينها أشعار ليست له[٣]، جمع البديع الأسطرلابي (ت١١٤٠) أشعاره وصنف ديواناً[٤]، جمع ابن التعاويذي (ت١١٨٨) ديوانه قبل العمى وعمل له خطبة طريفة ورتبة أربعة فصول وكل ما جدده بعد ذلك سماه الزيادات[٥].

كل الأمثلة التي وردت تخص دواوين الشعراء المعينين، وفيما يتعلق بشعر مختلف الشعراء فكانوا يجمعونها ناس متعلمون مثيرون، وتارة كانوا بلا تعمد ينشرونها على شكل كتاب، كان مصنفو المنتخبات يجمعون أشعار أبناء عصرهم من الشعراء وأشعار الشعراء المبكرين المنقلة شفهياً، من الطبيعي أن صفحات كتب كانت تستخدم لـ((حصاد)) و((جني)) الاستشهادات مختلفة الأنواع والكلمة الفصيحة والحكيمة، تتلاقى في تراجم حياة الأشخاص غير المعروفين في تاريخ الأدب تنويهات عن نشاطاتهم وجمعهم المواد الأدبية[٦].

(١) نفس المصدر، ص ١٦٩، ابن خلكان، ١، ص٢١٠.

(٢) ابن خلكان، ١، ص١٣٩.

(٣) نفس المصدر، ٢، ص ٢٦،

(٤) نفس المصدر، ص ١٨٥.

(٥) نفس المصدر، ص ١٩.

(٦) مثلاً الكاتب والقاضي أبو عمرو عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد الطرسوسي (١٠١٠، ١٠١١) الذي كان أديباً فاضلاً وجمع أشعار الكثير من أبناء عصره (ياقوت إرشاد ٥، ص٣٧).

كانت الآداب الشفهية في كل المراحل التاريخية تزود وتغني الآداب العربية الكتبية، فيما عدا الشعر كانوا يسجلون خطب رجال السياسة والقادة الدينيين وحوارات المائدة أو المؤانسة لدى الأشراف[١]، وأقاويل الزهاد والصوفية والقصص المروية على ألسن شهود العيان ومذكرات من شارك في وقائع ما[٢]. كان التدوين الكتابي للمواد من هذا النوع يسمح بدرجة أو بأخرى على إجراء التصنيع الأدبي وإعادة إدراكه، ظهرت خطب ورسائل ومواعظ وهمية أو ((مثالثة)) المزينة بالنعوت والاستعارات البهية والتراكيب المعقدة للجمل، المزودة بالإيقاع والقوافي، هكذا ظهر ((المؤلفون)) كأبطال القصص التي أكثرها تخلو من العنوان[٣]، بيد أن بعض الآداب الشفهية كانت تتعرض أثناء التدوين للتصنيع الأدبي إلى النزر القليل من المهارة، ومنها مختلف النوادر والحوارات في الشوارع والقصص اليومية والمتأخرة منها ولاسيما ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر سلسلات الحكايات، وكما يسمونها الروايات الشعبية، كان في فترة القرون الوسطى من التاريخ العربي- الإسلامي ارتباط شاذ وغريب بين الأدب الفردي والفلكلور على خلاف ما هو في العصر الحديث حين ازداد الاختلاف بين هذين النوعين كثيراً نتيجة ازدياد دور الفردية في الأدب ونقاء تسجيل الفلكلور، لذا يمكن أن نضم ولو بصعوبة حوالي نصف الأدب العربي العائد إلى القرون الوسطى إلى الفلكلور، إذا نظرنا إليه من خلال المفاهيم الثابتة، أعرناه أهمية شاملة وطبقنا على المراحل التي مضت المقاييس العصرية للفصل بين الأدب والفلكلور[٤].

---

(١) وأوضح مثال على ذلك ((نشوار المحاضرة)) للتنوخي (٩٩٤)، انظر:

Brockelmann Gal, SBI, S. 254 (١)

(٢) بني تاريخ الفتوحات العربية عند الطبري، ومن تقدم له كله تقريباً على مثل هذه المذكرات.

(٣) مثلاً الخلفاء والوزراء والزهاد المبكرون.

(٤) إنّ عدم الوضوح وضعف إعداد المقاييس التي كانت تفصل بها في مرحلة القرون الوسطى بين المفاهيم ((الأدب)) و((الفلكلور)) و((الأدب الشعبي)) تساعده تارة على استعمال هذه المصطلحات بحرية تامة، وخصوصاً تزيد حجم الفلكلور العربي العائد إلى القرون الوسطى،وذلك بضم المؤلفات الأدبية الشفهية

تتمتع اللغة العربية ببيان مطور لحد ما من التسميات والمصطلحات، وذلك لوضع علامة على أنواع وأساليب أعمال التأليف ولتدرج الذخيرة الإبداعية لدى مختلف الأشخاص الذين شاركوا في إنتاج وتوسيع الآداب الكتبية، كانوا يسمون الشاعر ليس بهذه التسمية القديمة فقط، بل وأطلقوا عليه كذلك تسمية((ناظم)) و((قائل)) أو الذي ((أنشأ)) و ((أنشد))، والمترجم الذي ((نقل)) أو ((ترجم))، ومن ((أخرج)) أو ((استخرج))، ومن ((عمل)) أو ((صنع))، وأشير إلى عمل المؤلف الكتابي بفعل ((كَتَبَ)) (جمع، ألف، دوّن، صنف)، وصيغة اسم الفاعل من هذه الأفعال ((كاتب))، ((جامع))، ((مؤلف))، ((مصنف))، وأطلقوا على عمل المعلق بالأفعال ((فسر))، ((شرح))، ((علق))، ((كتب شرحاً)) (أو حاشية أو تعليقاً) وباسم الفاعل ((مفسر))، ((شارح))، أما عملية تحويل المؤلّف وتحسينه واختصاره واقتباس منه فأعلمت بالأفعال ((هذّب))، ((صحح))، ((اختار))، ((اختصر))وغيرها، وكانوا يسمون مؤلفي الأعمال الخاصة كذلك بالمصطلحات المنوهة إلى اختصاراتهم كالأديب والفقيه والطبيب والنحوي وغيرها، أي عالم في الأدب أو الفقه أو الطب أو النحو، أما نسب المؤلف إلى مؤلفه أو التبعية الأدبية فكانوا ينوهون عنها غالباً بالتعابير اللغوية العادية الدالة على الملك أي بالحالة المترافقة وحرف الجر ((لـ)) وكلمة ((صاحب))، لا يوضح التسلسل التاريخي لظهور الكلمات والمصطلحات الواردة الذكر ولا تتكرر ولا يتباين استعمالها إلا بإجراء البحث الدقيق في سياق حديث المواد الكثيرة جداً.

إليه والتي تم تدوينها في مختلف الأزمنة والمراحل، فتعرضت بشكل أو بآخر للتصنيع الأدبي، بناء على هذا النوع من الصعوبات أنشأت موضوعات أساسية لرسالة دكتوراه ف.ف. ليبيديف بعنوان ((مشكلات مصادر الفلكلور العربي العائد إلى القرون الوسطى)) (ملخص الرسالة: لينيغراد، ١٩٨٠).

نكرر أن عدد المؤلفين الكاتبين باللغة العربية كان هائلاً[١]، ويعود ذلك ليس فقط إلى رحابة الحدود المساحية والزمنية للآداب العربية الكتابية وبعض مميزات تكوينها، إنما يعود ذلك على الأغلب إلى الظروف الاجتماعية التي تداولت في ظلها الإديولوجيا والأدب والعلم، هنا ينبغي التنويه على الأقل عن ثلاثة أسباب: إن وجود العلم كشرط لا بدَّ منه في نظام الثقافة العربية – الإسلامية في القرون الوسطى[٢]؛ والمشاركة في تأليف وإعداد الكتب كان عملياً ظاهرة جوهرية للطبقية الاجتماعية؛ إن عدم وجود التقاليد الشكلية كالتفارق الطبقي أو العرقي في طلب العلم (وكان ذلك مستنداً إلى المساواة النظرية بين كل المسلمين أمام الله تعالى، ونظرية وحدة الطائفة الإسلامية حيث لا فرق بين الدنيوية والدينيّة).

حثت مختلف الدوافع الكثيرين إلى السعي نحو النشاط العلمي والكتبي وذلك لغرض الترفع من المنزلة الاجتماعية والبروز من بين عامة الشعب، بيد أن السبيل المؤدي إلى العلم كان طويلاً ومشوكاً، ولم يكن ينجح في مسلكه حتى رغم توافر الظروف المواتية لذلك، لذا كانت الإمكانيات محدودة دوماً وعرض الأعمال العلمية والثقافية كان يزيد عن الطلب، وكانت المنافسة محسوسة وحادة في الغالب.

ليس هنالك شك في أن مؤلفي الكتب كانوا أشخاصاً يتمتعون بامتيازات اقتصادية واجتماعية خاصة، فكانوا ينالون العلم وبحوزتهم متسع من الوقت ويسر مادي كاف لذلك، كان أصلهم من الطبقات الاجتماعية السائدة أو كانوا يتولون وظائف الدولة ويعيشون على أجورهم، أو كان لهم دخلهم المستقل إذا كانوا أغنياء أو

---

(١) مثلاً يقدم ابن النديم (ت٩٩٥) بيانات حول التراث الشعري من ٣٢٥ شاعر (ص ١٥٩-١٧٠)، ويذكر (ص١٣٣) عمل ابن المرزباني (ت ٩٩٤) الحاوي على أسماء أكثر من خمسة آلاف (!) شاعر، ويحتوي نص ياقوت (ت١٢٢٩) ((إرشاد)) على تراجم حياة ١٠٤٠ أديب، وكان جلهم معروفين كمؤلفين، وذكر جلال الدين السيوطي (ت١٥٠٥) في مؤلف ((بغية الوعاة)) اسم أكثر من ألفي عالم لغة.

(٢) توضح المعارف ومختلف نواحي ذلك الشرط على أساس المواد الواقعية الكثيرة في بحث: ١٩٧٠ Rosenthal (ترجمة إلى الروسية: روينتال، ١٩٧٨).

تجار أو صناع، وقلما كان يتسرب إلى النشاط الأدبي أو العلمي أهل المدن من الطبقة الدنيا، أو أهل الريف كالفلاحين وهم يمثلون الغالبية الاجتماعية، كان الشعراء من عداد العرب المترحلين، من خواص المجتمع العربي – الإسلامي في القرون الوسطى هو أن الذين كانوا يقبضون دخولاً من قيمة إيجار أرض أو خدمة الدولة أو التجارة أو الصناعة كان أكثرهم يحتشدون في المدن (وليس في عقاراتهم أو قصورهم)[١]، فلذا قطن كل ((الإقطاعيون المثقفون)) في المدن وغالباً في العواصم والعمالات أي المراكز السياسية – الإدارية، وكانوا يشاركون في استحواذ وإعادة توزيع واستثمار النتاج الزائد الذي كانوا يحصلون عليه غالبا من استغلال الفلاحين.

كان أكثر الوجهاء العرب منحدرين من قريش وكانوا بأعدادٍ كثيرة، كان بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين شعراء، أما عبد الله بن المعتز الذي كان خليفة لفترة وجيزة قام بتأليف عمل فحواه نظرية النظم ومجموعة منتخبات الشعر العربي الحديث، غالباً ما يوجد الأشخاص المنضمون إلى المجال الأدبي من عداد أقرباء الأسر الحاكمة، فمثلاً نحن نجد بعض المؤلفين من ضمن أنساب الأمويين الأسبانيين[٢]، كان من عداد النسل البعداء لمروان الثاني (٧٤٤-٧٥٠) أبو الفرج الأصفهاني (٨٩٧-٩٦٧) مؤلف كتاب الأغاني[٣]، ولعب دوراً كبيراً في رواية الأحاديث النبوية أبناء وأحفاد الخلفاء الأربعة الراشدين، كان من ضمن سلالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه الكثير من المؤلفين في مختلف الأزمنة والمراحل[٤]، ومن أشهرهم الشريف المرتضى والشريف الرضي على تخوم القرنين العاشر والحادي عشر، كان من بين سلالة أبي بكرٍ > علماء اللاهوت والحديث حتى العصر الحديث[٥]، كان من بين الهاشميين – وهم ممن ينسب

(١) بولشاكوف، ١٩٨٢، ص ١٥٦، ١٦٧، ١٨٥-١٨٧، ١٩٢، ٢٠١-٢٠٢.

(٢) بويكو، ١٩٧٧، العدد ٤-١٧-٢٣-٥٤-٦٣.

(٣) ياقوت، إرشاد، ٥، ص١٤٩؛ ابن خلكان، ١ ص٣٣٤-٣٣٥؛ خالدوف، ١٩٨٠، ص ٦-٧.

(٤) انظر مثلاً بروزوروف، ١٩٨٠، العدد ١١-٥١-٧٠.

(٥) ومن أشهرهم ابن الجوزي، انظر ابن خلكان، ١، ص ٢٧٩-٢٨٠.

من بعيد للنبي محمد ﷺ – الشافعي، برز من بين سلالة عثمان بن عفان > الفقيه الشافعي نجم الدين في القرن الثاني عشر في دمشق[١]، ينتسب إلى عداد السلالة البعداء لبعض القادة ورجال الدولة البارزين من المراحل الإسلامية المبكرة: عالم المعاجم من القرنين الثامن والتاسع (جده زيد بن ثابت)[٢]، واللغوي من القرنين العاشر والحادي عشر نفطويه (جده المهلب بن أبي صفرة)[٣]، والنحوي القرطبي من القرن الحادي عشر (جده سعد بن أبي وقاص)[٤]، والشاعر من القرن الحادي عشر (جده خالد بن الوليد)[٥]، والمتكلم المشهور من القرن أبو موسى الأشعري)[٦]، كان ((فيلسوف العرب)) الكندي منحدراً من الأسرة الملكية في الجزيرة العربية من المرحلة ما قبل الإسلامية، وانحدر من أسرة اللخميين المؤرخ الشيعي أبو القاسم المنذر بن محمد المنذر القابوسي[٧]، كما كان هنالك جملة من المؤلفين بين الغساسنة والأرستقراطيين الحميريين.

كانت من بين الوجهاء ورجال الدين القدماء غير العرب (المسيحيين والمجوس وغيرهم) سلالات كاملة من الأدباء والأطباء مثل الصولي (سليل الحاكم التركي جرجان صول تكين) والصابي والبرمكي وسلالة بختيشوع وكثيرون غيرهم، كذلك قدمت سلالات إقطاعية – برزت من القرن الرابع وحتى العاشر وفي القرون المقبلة، سواء من العرب أو غير العرب- بعض المؤلفين أغلبهم أنساب أو سلالة الحكام، ونادراً ما كان من بينهم حكام جالسون على العرش (المعز بن باديس من

---

[١] ابن خلكان، ١، ص٤٦٧-٤٧١.

[٢] نفس المصدر، ص٢٠٧-٢٠٨.

[٣] بولشاكوف، ١٩٨٢، ص ١٥٦، ١٦٧، ١٨٥-١٨٧، ١٩٢، ٢٠١-٢٠٢.

[٤] نفس المصدر ، ص ١٢.

[٥] نفس المصدر ٢، ص١٦-١٧.

[٦] نفس المصدر ، ١ ص ٣٢٦-٣٢٧..

[٧] بروزوروف، ١٩٨٠، العدد ٥٧.

القرن الحادي عشر في إفريقيا وأبو الفداء من القرن الرابع عشر في حماه) وخصوصاً انحدر مؤلفون كثيرون من طبقة الجهاز الإداري الحاكم في الدول الإسلامية كالوزراء والكتاب والحجاب وهلم جرا.

كان أكثر الفقهاء والمتكلمين والمحدثين الميالين للتقاليد ومدوني التاريخ واللغويين من عداد المسلمين والمدنيين الميسورين، كان أصل الأطباء والفلاسفة والمختصين في العلوم الدقيقة والعلوم الطبيعية من عداد أبناء المدن الأثرياء ومن أصل مسيحي أو يهودي والأقل من أصل إسلامي، وكانت أكثر الجماعات اختلاطاً من الناحية الاجتماعية هي جماعة الشعراء إذ أنّ هواية نظم الشعر كانت منتشرة على نطاق واسع، فانحدر الشعراء المحترفون من مختلف الفئات الاجتماعية أي ابتداء من الوجهاء وانتهاء بالمثقفين المدنيين الفقراء.

أظهر الحكام المسلمون أنفسهم على وجه الخصوص كمشجعين ورعاة الأدب والعلم والدين، ونال إظهار الشهامة والكرم والعمل التشجيعي مكانة هامة في نظام العلاقات الاجتماعية وقواعد السلوك في شرقاً في القرون الوسطى.

كان في عهد أي خليفة أو سلطان أو أمير ملاك كبير بدرجة أكثر أو أقل من الشعراء ومدوني التاريخ والأطباء والمنجمين والعرافين، تعسَّرت العلاقات المتبادلة بين الحكام الزمنيين وعلماء اللاهوت والفقهاء، وعلماء الحديث والصوفية الذين كانوا دوماً يعبرون عن عدم ارتباطهم بالسلطة الزمنية، وعن تجنبهم منها، وعن بغضهم ومعارضتهم لها، حدث وأن عبّروا عن ذلك بالفعل، وتارة كان موقفهم لا يتعدى حدود المظاهر، ولكن في أكثر الأحوال كانوا يجدون الحل الوسط فينالون هدايا من الحكام والأشراف، وحتى كانوا يعملون في خدمتهم المباشرة، كان عدد الأفراد المعيلين وأهميتهم دليلاً هاماً على قدرة ونفوذ الحكام الذين كثير ما كانوا يتنافسون فيما بينهم على ضم أكبر عدد من العلماء والأدباء تحت رعايتهم، أما العلماء والأدباء فكانوا

بدورهم يبحثون عن الحماة الأقوياء والكرماء، وكان الوزراء وقادة الجيوش والنواب وغيرهم من كبار الموظفين يقلدون في ذلك سادتهم.

ليس ثمة بيانات موضوعية حول مقدار الأجور والعطاءات التي كانت تمنح لمثلي الاختصاصات العلمية والثقافية، سواء المنتظمة منها أو فقط في المناسبات، وإنما بحوزتنا فقط بيانات متقطعة التي لم يتم جمعها ودراستها إلى الآن، فلذا سنكتفي ببعض الأمثلة.

تفيد المصادر غالباً عن منح الهبة السخيّة على الأشعار البهية وخصوصاً في المديح، ولكننا لن نتوقف عليها، كانت المؤلفات المكتوبة بالتوصية يدفع عليها بالوظائف المربحة والأجور المنتظمة والأتعاب الإعانية، كان ((خدمة)) المؤلفين تنحصر ضمن تكريسهم مؤلفاتهم لحماتهم – كما يزعمون – بغية تخليد أسمائهم في التاريخ.

يروى أن الظروف المواتية لعمل المترجمين في القرن التاسع قد وفرها الخلفاء العباسيون، وأن الخليفة المأمون قد دفع لحنين بن إسحاق ذهباً قدر وزن المؤلفات المترجمة من قبله، وفي عهد الخليفة المقبل المعتصم (٨٣٣-٨٤٢) عين حنين رئيساً للمترجمين ومحرراً لكل ما ترجمه المترجمون من المؤلفات وخصصت له ثلاث غرف في قصر الخلافة بسامراء إلى حيث نقلوا كل ما كان هو بحاجة إليه[1]، كان حماة العلوم والفنون الأثرياء، وهم ثلاثة أبناء موسى بن شاكر ينفقون شهرياً خمسمائة دينار على المترجمين[2]، وكافأ المأمون الأصمعي الذي كتب له ((تاريخ قدماء الملوك العرب)) بمنحه قطعة أرض، كما أنه كلّف الفرّاء بتأليف ((ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العربية، وأمر أن يفرد بحجرة من حجر الدار))، وعين له الخدم كي يبعدوه عن

---

(١) ابن أبي أصيبعة، ١، ص ١٩٦؛ Eche,1967,P.٤٧

(٢) ابن النديم، ص٢٤٣، ابن أبي أصيبعة، ١، ١٨٧.

المشكلات الجانبية والهموم اليومية[١]، من الطبيعي أنه قد تمت كتابة وتكريس للمأمون الكثير من أعمال علماء ((أكاديميته))، ومنهم سهل بن هارون ومحمد بن موسى الخوارزمي، ويوحنا بن ماسويه، وجبريل بن بختيشوع، والفراء وغيرهم، وكرس العديد من المترجمين أعمالهم لأسلافه، كالمنصور والمهدي وهارون الرشيد، عملياً كانت أعمال المؤلفين تقدم فيما بعد لكل خليفة من الخلفاء العباسيين.

كافأ عضد الدولة البويهي (٩٤٩-٩٨٣)بسخاء الأئمة والمؤذنين والعلماء والقراء، وأجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسابين والأطباء والحسّاب والمهندسين[٢]، وطبقاً لذلك كثرت الأعمال المكرسة لعضد الدولة، كتب أبو الحسن محمد بن علي بن نصر ((كتاب المفاوضة)) لجلال الدولة البويهي[٣].

وأنشأ من قبل ابن يوسف بوصية من العزيز الفاطمي زيج كبير (أي الجداول الفلكية)الذي أُنهيَ في عهد الخليفة الحاكم (٩٩٦-١٠٢١) فأطلقت عليه تسمية ((الزيج الحاكمي))[٤]، كان وزير الفاطميين ((المارق المكار)) ابن كلس ينفق شهرياً على العلماء والنساخ ومغلفي الكتب ألف دينار[٥].

عملت في صفوف الحكم الثاني (٩٦١-٩٧٦) جماعة كبيرة من العلماء الذين ألفوا له جملة من المؤلفات[٦]، ألف عالم المعاجم سعيد بن الحسن بن عيسى الربعي

(١) ابن الأنباري، ص ٨١؛ ياقوت، إرشاد، ٧، ص ٢٧٧؛ ابن خلكان، ٢، ص ٢٢٨.

(٢) ابن الأثير، المجلد الثامن، ص ٥١٨.

(٣) ابن خلكان ١، ص ٣٥.

(٤) نفس المصدر، ص ٣٧٥.

(٥) ميتس، ١٩٧٣، ص ١٥٢.

(٦) بويكو، ١٩٧٧، ص ٧٦-٨١، ١٦٧-١٧٠، كتب الخشني له ((كتاب القضاة)) والمطرف بن عيسى تاريخ البيرة، وأحمد بن محمد بن فرج الجياني جغرافية إفريقيا وغيرها..

كتاب ((كتاب الفصوص))، وكرسه لمنصور بن أبي عامر الذي ولي باسم أحد الخلفاء الأمويين الواهنين الأندلسيين، ونال عليه جائزة قدرها خمسة آلاف دينار[١]، كتب ابن قلاقس عام ١١٦٨ في صقليا للقائد الحربي أبي القاسم بن الحجار ((الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم))[٢]، مرَّ الأندلسي ابن ديحية (ت١٢٣٥) في إحدى رحلاته بإربل، وكان ذلك عام 1207، فكتب لحاكمها ونال عليه ألف دينار[٣]، كان يستلم بمثابة الجوائز كميات هائلة من المال بالإضافة إلى قطع أراضي الأطباء الذيني كانوا جانب الشعراء، وبعض الأدباء النحويين ومربيي أولاد الخلفاء يمثلون فئة الإقطاعيين المثقفين الذين يستلمون مبالغاً كبيرة، ولكنهم كانوا يربحون على خدماتهم الطبية أكثر مما هو على كتبهم[٤].

يمكن أن نقدم أمثلة كثيرة من هذا القبيل؛ لأن المؤلفات المكرسة لحماة مؤلفيها تعدّ بالمئات، ولو أن مبالغ مكافأة المؤلفين ليست معروفة كلها، ولكن ثمة أحداث معاكسة تماماً، فمثلاً جمع الزاهد المتعبد أبو غالب تمام بن غالب بن عمر التياني (ت ١٠٢٥) القاطن في مرسية كتاباً مشهوراً ((في اللغة لم يؤلف مثله اختصاراً أو إكثاراً)). ولما استولى الأمير القرطبي أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامري على مرسية وجه إلى أبي الغالب ألف دينار مقترحاً له إضافة إلى مقدمة كتابه عبارة ((ألفه لأبي الجيش المجاهد))، فرد أبو الغالب له الدنانير قائلاً:" والله لو بذلت لي الدنيا على ذلك لم أفعله ولا استنجزت الكذب فإني لم أؤلفه لك خاصة، ولكن للناس عامة"، والشخص الذي نقل ذلك الخبر((أعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها وأعجب لنفس هذا العالم

(١) ابن خلكان، ١، ص٢٢٩.

(٢) نفس المصدر، ٢، ص ١٥٨.

(٣) نفس المصدر، ١، ص٣٨١.

(٤) ثمة بيانات حول الثروات الهائلة التي كان يتمتع بها الأطباء في بعض تراجم حياة عند ابن القفطي، وابن أبي أصيبعة.

ونزاهتها))[١]، قطن عالم الفيزياء والرياضيات المشهور أبو علي الحسن بن الحسن ابن الهيثم البصري (١٠٣٩) في مصر (القاهرة) حيث عامله الخليفة الفاطمي الحاكم بعين العطف، لكن ابن الهيثم لكي يتجنب خدمة الحاكم أظهر الجنون والخبال، وفقط بعد وفاة الخليفة((أظهر العقل وما كان عليه))، ومارس حياة الزهد كما ألّف ونسخ كتباً كثيرة وكذلك درّس[٢].

الحقيقة أنه ليس على وجه الدوام كانت حالة العلماء المولعين بالكتب مرتبطة مع اليسر المادي ومكانة معينة في درجة الترقي في المقامات البيروقراطية، تحت تأثير الميل نحو الزهد في المرحلة الإسلامية المبكرة ومؤخراً التعاليم الصوفية نال إقبالاً الاقتران الشاذ بين المعار الحياتي الأدنى والنفوذ الأسمى لمولعي الكتب، وذلك على الأقل في مجال الأخلاق، كان بمقدور هؤلاء الناس البقاء مستقلين عن سلطة أصحاب الملك والانتماء إلى ((المعارضة التقية))، وإنشاء مؤلفاتهم في الخلوة، وأكثر المؤلفات من هذا النوع – أي دون نيل مكافآت مادية عليها أو تكريسها لأحد – تعود إلى الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، في حين أن جل الكتب في مجال الطب والعلوم الدقيقة الطبيعية وفن الحرب وغيرها من المواد التطبيقية بالإضافة إلى تدوين التاريخ الرسمي أنشئت تحت رعاية السلطات المباشرة وكرست للحماة المعينين.

لم تكن العلاقات المتبادلة بين العالم والحاكم دوماً عن طريق التطوع، وثمة بعض أحداث الإكراه[٣]، ولو أن جل دوافع العلماء كان الطموح والبحث عن ظروف ملائمة للعمل والضيق المادي، نسمع في كل المراحل، وحتى المزدهرة منها شكاية من

---

(١) ابن خلكان،١ ، ص٩٧.

(٢) ابن القفطي، ص١٦٧.

(٣) مثلاً أجبر عضد الدولة رئيس عشيرة الصابيين في بغداد إبراهيم بن هلال على كتابه تاريخ آل بويه ((الكتاب التاجي)) ففي بادئ الأمر دعاه إلى فارس بإغرائه بوعوده وبمجرد حضوره: ((سجنه مدة طويلة ، فقال: " إن أراد الخروج من سجنه فليصنف مصنفاً في أخبار آل بويه" فصنف كتاب التاجي))، ابن القفطي، ص٧٥-٧٦).

((ضآلة سوق العلم)) و ((قلة الطلب على بضاعة المعارف)) (بهذه العبارات بالضبط) وزهادة ثمن العلم الحقيقي وما إلى ذلك، كما هو يحدث في أغلب الأحيان كانت حالة الوسط تتكيف وتنجح أكثر، ثمة أمثلة كثيرة كيف كان الموهوبون من الشعراء والعلماء ينهكون وتارة يفشلون في إحراز الاعتراف العام بهم، فيذهبون من بلاط إلى بلاط متعرضين لإهانات الزملاء وأهواء الحماة.

معروفة فقط حالات وظروف معينة لتأليف المؤلفات، ولا تكاد تكون الاستنتاجات العامة مناسبة هنا، ولكننا سنستجمع بعض الوقائع والملاحظات.

أنشئت بعض المؤلفات في سنوات دراسة وأبحاث المؤلفين الشباب، بالعادة كانت مؤلفاتهم عبارة عن تحويل أو اختصار كتب معروفة، مثلاً أنشأ الوزير المقبل المغربي (ت١٠٢٧) مختصر ((إصلاح المنطق))، لابن السكيت، وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره[١]، كانت تجربة القلم الأولى لدى طلاب المدرسة المنتهين لدورة تعلم الفقه هي تسجيل محاضرات مدرسهم باختيار وحل مستقل للمسائل الفقهية يُكتب عليها هذه هي ((تعلقة)) له[٢]، لكن جل الكُتّاب إما كانوا يكتبون في سن الشيخوخة بعد التقاعد الإكراهي أو الطوعي، هكذا كان بعض المدرسين يختمون مهنتهم بتأليف أهم مؤلف حياتهم في مجال الأصول أي نظريات، وعلم مناهج الأبحاث العلمية في الفقه[٣].

كان بعض المؤلفين يكدسون رؤوس الأقلام بكميات كبيرة ولم يلحقوا تجسيدها في منهج معين ومؤلف كامل، أو كانت عندهم إلى جانب المؤلفات المنتهية مؤلفات غير مكتملة، وسنقدم بعض الأمثلة: كان لدى البلاذري (ت٨٩٢) ((كتاب البلدان)) الكبير (على خلاف ((فتوح البلدان)) المختصر الذي وصل إلينا) وبقي هذا

---

(١) ابن خلكان، ١، ص ١٥٦.

(٢) المقدسي، ص١١٨-١٢٢، ١٧٤-١٧٥.

(٣) نفس المصدر، ١٢٦-١٢٧.

الكتاب غير مكمل[١]، كان لدى علان الشعوبي (القرن الثامن) مؤلف غير منتهٍ ((الحلبة))، وضاع إلى زمن ابن النديم (كتب عام ٩٨٧)[٢]، وينوه ابن النديم إلى عشرات المؤلفات غير المكملة[٣]، مثله مثل ابن خلكان[٤]، وغيرهما من المؤلفين، فيما عدا جملة من المؤلفات ترك اللغوي المصري بابا شاذ (ت١٠٧٧) كومة من المسودات حين عاش في الخلوة في الغرفة المنعزلة قرب مسجد عمرو بن العاص، ((يقال لو أنها بيضت لقاربت خمسة عشر مجلدة))، ونالت تسمية ((تعليق الغرفة)) واستخدمت من قبل عدة أجيال من تلامذته[٥]، ترك القاضي الفاضل (ت١٢٠٠) ((مسودات رسائله في المجلدات والتعليقات في الأوراق إذا جمعت ما تقصر عن مئة مجلد))[٦]، قام عالم المعاجم ابن منظور (ت١٣١١) بالاكتتاب من المؤلفات التاريخية – اللغوية واستكتب – كما يزعمون – لا أقل من خمسمائة مجلد[٧]، وكان أكثر تصنيف الفارابي (ت٩٥٠) ((في الرقاع ولم يصنف في الكراريس إلا القليل، فلذلك جاءت أكثر تصانيفه فصولاً وتعاليق ويوجد بعضها ناقصاً ومنثوراً))[٨]، كتب الفيلسوف البلخي (ت٩٣٤) كثيراً لكنه لم يكمل مؤلفاته مكملة[٩]، كذلك نجد تنويهات إلى مؤلفات الأب غير المنهية

---

(١) ابن النديم، ص ١١٣.

(٢) نفس المصدر، ص ١٠٥.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٥، ٦٠، ٦١، ٧٥، ٧٩، ٨٣، ١١٤، ١١٥، ١٢٩، ١٤٤، ١٤٩، ١٥١، ١٧٣، وغيرها، وكما أن مؤلف ((الفهرست)) نفسه غير مكمل.

(٤) ابن خلكان، ١، ص٢٥٢ حول ابن درستويه؛ ١، ص ٢٦٧ حول ابن الخشاب.

(٥) ابن خلكان، ١ ص ٢٣٥.

(٦) نفس المصدر ، ص٢٨٤.

(٧) Brockelmann, Gal, II, p.21, N3

(٨) ابن النديم، ٢، ص ٧٧.

(٩) ابن النديم، ص ٢٢٩.

والمكملة من قبل ابنه[١]، فقد كمل مؤلف ((الإقناع)) لأبي سعيد السيرافي ابنه يوسف(ت٩٩٥)[٢].

لا نعرف دوماً كم استغرق المؤلفون من الوقت لكتابة كتبهم، إذا كانت الأشعار البهية والمكاتيب الرفيعة تخلف بارتجال والمباحث الجدلية كانت تكتب دفعة واحدة، وكانت الأمالي تقرأ بعدة جلسات، وكانت المؤلفات الكبيرة التي موادها مقتبسة من مؤلفات الغير والأكثر من ذلك المؤلفات الأصلية تنشأ بجهود مضنية ودقيقة، كان الحريري يؤلف ويضبط مقاماته طويلاً[٣]، قضى أبو الفرج الأصفهاني كل عمره تقريباً في جمع مواد لازمة لكتابه ((كتاب الأغاني))[٤]، الشيء نفسه يمكن أن يقال عن ((تفسير)) و ((تأريخ الرسل والملوك)) للطبري و ((تأريخ دمشق)) لابن عساكر[٥]، و ((معجم البلدان)) و ((إرشاد الأريب)) لياقوت وغيرها من مؤلفات كثيرة.

في أغلب الأحيان كانت المؤلفات تدخل في التداول بعد إنهائها مباشرة، وكان نشرها يتم بتقديمها إلى العلماء أو إلى القراءة الجماهيرية (للتلاميذ مثلاً) ثم السماح بنسخها، لكن بعض المؤلفين كانوا لمختلف الأسباب يمسكون مؤلفاتهم لوقت ما، كما ذكر أنفا لم يصدر الفيلسوف البلخي مؤلفاً من مؤلفاته، ثمة رواية عن الماوردي (ت١٠٥٨) أنه كان يخبئ كل ما كتبه وأوصى بنشرها فقط بعد موته[٦]، كما صرح

(١) نفس المصدر، ص ١٢٤، ١٤٣.

(٢) ابن خلكان، ٢ ص ٣٥٠.

(٣) خلال عشر سنوات أي تقريباً من ١١١٠، انظر ياقوت، إرشاد، ٦ ص ١٦٨-١٦٩.

(٤) خالدوف، ١٩٨٠، ص-١٠.

(٥) قال لي معلمي زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري متناولاً إحدى مجلدات ذلك التأريخ: " فلا غرو أن أمنعه وأحجبه من الراغبين فيه على أني مازلت أعاتب نفسي على هذا الصنيع... فلم ألام إذا أخفيته عن طالبيه وحجبته عن خاطبيه، وقد أقسمت أن لا أسمع بإعارته ما دام في مسودته لئلا يلح طالب بالمتاسة...) (ابن خلكان، ١ ص ٢٣٥).

(٦) ابن خلكان، ١ ص ٣٢٦.

ياقوت الحموي بنفسه أنه لا يريد نشر كتابه((إرشاد الأريب)) لكي لا يستخدمه قبل الأوان هواة التلخيص والسرقات الأدبية[١]، وفي بعض الأحيان كان مؤلف ما لا يجرؤ على نشر مؤلفه معتبراً إياه غير مكتمل فيتممه ويضبطه باستمرار، ولأسباب إيديولوجية كان من الممكن أن يخفي المؤلفون من الطوائف المتطرفة والمطاردة من قبل السلطات أو مؤلفو المنظمات السرية مؤلفاتهم، ولم تكن هذه المؤلفات إلا في متناول نطاق ضيق من الأشخاص، اشتكى من هذه الظروف على وجه الخصوص ابن النديم[٢]، كانت سهولة منال المؤلف تعود كذلك إلى صاحب الطلب الذي كان بمقدوره المساهمة في ترويج المؤلف المقدم له أو إخفائه في مجموعته الشخصية[٣]، وكان ترويج المؤلف يمثل تارة خطراً على حياة مؤلفه[٤].

عمل جل المؤلفين في العزلة، لكن أشياء كثيرة كانت تعود إلى جو ملائم وبيئة مناسبة، وبالأخص حيث كانت تتكون أسر كاملة من العلماء والأدباء كان العمل مثمراً بفضل تبادل المعلومات والمساعدة المتبادلة من جهة، وبفضل المنافسة الدافعة للعمل الجهيد والجدالات من جهة أخرى، تجدر الإشارة إلى أن المشاركة والتعامل بين جملة من

---

(١) ياقوت، إرشاد، ١، ص ١١-١٢. ما أظن هذا الرجل إلا عزم على وضع هذا التأريخ من يوم عقل على نفسه وشرع في الجمع من ذلك الوقت وإلا فالعمر يقصر عن أن يجمع فيه الإنسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبيه.

(٢) ابن النديم، ص١٨٢، ٢٣٦، ((ولم يصل إلينا لأنّ كتبهم مستورة)).

(٣) انظر حول المجموعات والمكتبات الصعبة الوصول- التي كانت تصل إليها خطوط المؤلف – في الفصل الثامن.

(٤) مثلاً الخليفة المستنجد (١١٦٠-١١٧٠) الذي حبس موظفه رفيع المقام ابن حمدون بعد أن ((وقف على حكايات ذكرها نقلاً من التاريخ)) المقدمة في ((التذكرة)) المنشر من قبله، ((توهم في الدولة غضاضة ... فأخذ من دست منصبه وحبس، ولم يزل في نصبه إلى أن رمس)). انظر ابن خلكان، ١، ٥١٧.

الأشخاص كان شرطاً لا بدّ منه لظهور المؤلفات عند التدوين الأول للمؤلفات الشفهية أو عند إجراء الترجمة، وفي المحاضرات في القاعات (انظر الفصل الرابع)، أو عند نظم الأشعار في مناسبات معينة (مثل تبادل المزاج الشعري أو كلمات المجاملة أو الشتائم) أو عند إكمال الابن لكتاب أبيه أو تلميذ لكتاب معلمه، أو عند استخدام الكتّاب والمساعدين من قبل المؤلفين الأثرياء وذوي النفوذ[١]، أو عندها كان المؤلف مركباً من تبادل الأسئلة والأجوبة (وبالأخص مؤلفات الفلاسفة والأطباء)[٢]. والفقهاء الذين كانوا يقدمون الفتاوى).

في بعض الحالات المعينة كانت تنشأ أعمال مشتركة حقيقية، ومن أبرزها الموسوعة الفلسفية من القرن العاشر ((رسائل إخوان الصفا))، بدأ بتصنيفها عبد الله بن ميمون القداح وأبناء عصره، وكمل العمل أتباعهم تحت رعاية فئة من الأئمة الإسماعيليين، ومن ضمن الأشخاص الذي أوصلوا ((الرسائل)) إلى صورتها النهائية بين ٩٦٠-٩٨٠م أبو سليمان محمد بن معشر البستي المقدسي، والقاضي أبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد النهراجوري والعوفي، ويضاف إليهم الكاتب زيد بن رفاعة وأبو محمد بن أبي بغل، تمتاز السلسلة المكونة من 52رسالة منشأة بجهود مشتركة من قبل جماعة كبيرة من المؤلفين وعدّة أجيال على امتداد القرنين التاسع والعاشر بوحدة المضمون الفائقة (مع بعض التناقضات لا تكاد تلحظ) كنظام عقائد

---

(١) خدم ابن الأثير المبارك بن محمد عند حكام الموصل، ولما تقاعد صار يكتب مؤلفات في الحديث والتفسير والنحو و ((صنعة الكتابة)) أي فن إدارة الأعمال، ولما مرض ((كان عنده جماعة يعينونه عليها في الاختيار والكتابة)). وكان ليوسف ابن عبد البر (ت١٠٧١) مساعدوه في إنشاء مؤلفات، انظر ابن خلكان، ١، ص ٤٤١؛ ص ٣٤٨، يمكننا الظن أنَّ المصادر لا تفيد دوماً عن هؤلاء المساعدين غير المسمين بأسمائهم.

(٢) مثلاً كان الطبيب هبة الله بن ملكا أبو البركات يكتب أجوبة على أسئلة المرضى مصاحباً إياها بنصائحه، فكانوا ينسخونها، فظهر إثر ذلك مؤلف كامل الذي دخل في التداول. انظر: ابن خلكان القفطي، ص ٣٤٥.

الطائفة[١]، وعلى سبيل الأمثلة الأخرى أعمال مؤسسة مبكرة من المذاهب الفقهية الحنفية والمالكية والشافعية، فمثلاً أنشئت إحدى أهم أعمال في مجال الفقه المالكي تحت عنوان ((المدونة)) من قبل أجيال من الفقهاء، بدأ به أسد بن الفرات على أساس المواد المسجلة من قبله في مصر عند ابن القاسم، وكمله سحنون (٨٥٤) مع استخدام مواد عالم الحديث المصري ابن وهب ثم نظمها وسردها من جديد، وأنهى ((المدونة)) تلامذة سحنون[٢]، ثمة مؤلفات أخرى للمؤلفين المشهورين التي أنهيت بأقلام تلامذتهم ودخلت في التداول بصورتها المكملة أو نصف مكملة مثل ((كتاب العين)) للخليل و ((الحاوي)) لأبي بكر الرازي.

كانت الاختصاصات في مختلف فروع العلم ظاهرة متطورة، ومع ذلك سعى كثير من العلماء نحو تعلم مختلف فروع المعارف، فكانوا يفلحون في نيل معارف عميقة، والكتابة المحترفة في عدة مجالات، والمثال على ذلك الفيلسوف الكندي (توفي نحو ٨٧٤) الذي كتب كذلك في مجال المنطق والهندسة والحساب والارتماطيقي والموسيقى والنجوم والطب وعلم الأخلاق والسياسة والجيوديسية والميكانيكا وعلم المعادن والسيمياء[٣]، وكان أبو زيد البلخي (ت٩٣٤) ((فاضلاً في سائر العلوم القديمة والحديثة))، فكتب مؤلفات في أقسام العلوم والفلسفة واللاهوت والتاريخ واللغة والرياضيات والفلك[٤]، وكان أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٩٦٥) عالم الحديث، وكان يعرف كذلك ((الطب وعلم النجوم وفنون العلم))[٥]، وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي الداني (١١٣٤) الذي صنف مجموعة مختارات ((الحديقة))كتب مبحثاً حول الاسطرلابية والموجز في علم الفلك ومؤلفاً حول

---

(١) EI, NE, II,p. 1098-1103 (Y.Marquet).

(٢) ابن خلكان، ١ ص ٢٩٢.

(٣) ابن النديم، ص ٢٥٥-٢٦١.

(٤) نفس المصدر ، ص ١٣٨.

(٥) ياقوت، معجم البلدان، المجلد الأول، ص ٦١٣-٦٢٠.

العقاقير العادية وكتاباً في المنطق، كما أنه كان يكتب شعراً[١]، كما تمتع بمختلف فروع المعارف موسى بن يونس الذي رآه ابن خلكان في الموصل سنة ١٢٢٩[٢]، ومصنفو الموسوعات من مصر وسوريا في الحقبة الواقعة ما بين القرن الرابع عشر والسادس عشر بالإضافة إلى العديد من المؤلفين الذي سنتكلم عنهم أدناه.

تجذب الانتباه كثيراً غزارة الإنتاج الأدبي لدى بعض المؤلفين، فإذا أحصيت مؤلفات لدى مؤلف واحد بالعشرات فهذه ظاهرة اعتيادية، فثمة مؤلفين انتخبوا أكثر من ذلك بكثير.

من الطبيعي أنه في المراحل المبكرة كانت أكثر النشاطات إنتاجاً هي نشاطات المدونين وعلماء الحديث في جمع وتسجيل المواد الشفهية، فمثلاً تمكن أبو عبيدة (توفي نحو ٨٢٦) من كتابة مائتين عمل في مجال اللغة، وأبو عمرو الشيباني (ت٨٢٢) من تصنيف دواوين ثمانين قبيلة ونيف، والسكري (ت٨٨٨) من نقد دواوين عشرات الشعراء وعدة قبائل، فهذا يشهد ليس على العبقرية وسعة الإطلاع وكفاية العمل فحسب، بل وعلى الإمكانية المبدئية في إنجاز المسائل الضخمة كهذه فيما عدا حنين بن إسحاق الذي كان له إلى جانب أكثر من مئة وخمسين عمل مترجم حوالي مئة عمل من صنعه، من البديهي أنّ المؤلفين الذين كان بوسعهم الاستناد إلى ما أنجزه أسلافهم من التأليف، والاستفادة من كل ما يروق لهم، وإجراء التعليق والسرد، كانوا يؤلفون كميات ضخمة من المؤلفات.

يلحظ في بعض فروع الأدب كيف كانت المواد الأدبية تتكدس من جيل إلى جيل ومن قرن إلى قرن، ومن ثم تتجسد في أعمال متزايدة الحجم، هكذا جرت الأمور مع مجموعات الأحاديث النبوية والتفاسير ومعاجم المعرفة ومجموعات السير الحياتية،

---

(١) ابن خلكان، ١، ص ٨٠-٨١.

(٢) نفس المصدر، ٢ ص ١٣٣-١٣٣.

كذلك كان لعدد المؤلفات وكمية المكتوب نزعة نحو التزايد ولاسيما لدى علماء الحديث والفقهاء وعلماء الكلام والنحو والصرف واللغة والمؤرخين والموسوعيين، فلنأخذ على سبيل المثال بيانات حول بعض المؤلفين غزيري الإنتاج.

كتب رائد المذهب الخاص في علم الشريعة الإسلامية واللاهوت أبو سليمان داود بن علي بن داود الأصفهاني (ت٨٨٤) أكثر من مئة وخمسين مؤلف، ويبلغ حجم التسعة الكبرى منها إجمالاً ١١٨٠٠ ورقة[١]، كتب كل من المؤلفين الشيعيين العياشي (٩٣٢) والجالودي (ت٩٤٤)[٢]، مائتي مؤلف متنوع المواضيع، أحصى ياقوت من التراث الواسع لأبي حاتم البستي أربعين مؤلفاً ((ما استحسنه)) مكونة إجمالاً من ٣٤٩ جزء، بلغ الحجم الإجمالي للمؤلفات الخمسة والأربعين في مجال اللغة لابن المرزباني (ت٩٩٤) ٣٣٩٨٠ ورقة[٣]، من بين ثلاثين مؤلف عائد إلى قلم الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله المسبحي الحراني المصري (١٠٢٩) تشكل الثلاثة عشر منها ٣٠٧٠٠ ورقة[٤]، ولما أعار ابن خلكان أكثر اهتمامه للفقهاء الشافعيين في عمله في كتابه ((وفيات الأعيان)) قال عن كل ثان أو ثالث منهم بأن مؤلفاتهم كثيرة[٥]، فمثلاً كان أبو بكر أحمد بن أحمد بن الحسين الخسروجردي (٩٩٤-١٠٦٦) الذي ساهم كثيراً في نجاح الشافعية في نيسابور – كان أول من جمع نصوص الشافعي في عشرة مجلدات، وكتب إجمالاً حوالي ألف جزء[٦]، كان يقول أبو المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد الروياني (١٠٢٥-١١٠٨): لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من خاطري،

(١) ابن النديم، ص ٢١٦-٢١٧.

(٢) بروزوروف، ١٩٨٠، العددان ٦٤، ٦٧.

(٣) ابن النديم، ص ١٣٢-١٣٤.

(٤) ابن خلكان، ١ ص ٥١٦

(٥) نفس المصدر، ١ ص ١٣٠، ١٤٥، ١٤٦، ١٧١، ١٨٩، ٢١٥، ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٨٧؛ ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣١١، ٣١٢، ٣٢٦، ٣٣٥، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٧٤؛ ٢، ص ١٢٥، ١٣٢، ٣٤٨.

(٦) نفس المصدر، ١، ص ٢٠-٢١.

وكتب إلى جانب المؤلفات الأخرى ((بحر المذهب)) وهو من أطول كتب الشافعيين[١]، أما عالم اللاهوت والأديب أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (١٠٦٤) فخلف – كما زعم ابنه – حوالي أربعمائة مجلد من مؤلفاته المكتوبة بيده التي ملأت ثمانين ألف ورقة[٢]، فحدد من خلال العناوين أكثر من ثلاثمائة مؤلف لابن الجوزي (ت١٢٠١) التي بقي منها أكثر من النصف، ومن ضمنها مدونات تاريخية كثيرة المجلدات كالمنتظم وجملة المباحث الصغيرة[٣]، كما صنف الأديب والمؤرخ ابن أخي العزيز أبو عبد الله محمد بن محمد عماد الدين الكاتب الأصفهاني (ت١٢٠١) مجموعة مختارات ((خريدة القصر)) في عشرة مجلدات مع ملحق و ((البرق الشامي)) في سبعة مجلدات و ((الفتح القدسي)) بمجلدين والتاريخ الكبير للأسرة السلجوقية الحاكمة ((نصرة الحقبة))وديوان الرسائل وديوان الشعر في أربعة مجلدات وديوان ((الدوبيت)) الصغير[٤]، من المحتمل أن ضارب الرقم القياسي في حجم التأليف هو جلال الدين السيوطي (ت ١٥٠٥) الذي تعود إلى قلمه أكثر من ستمائة مؤلف بما فيها كثير من المجلدات، وقد وصل إلينا جلها.

ينبغي أن نتذكر من جديد أساليب عمل المؤلف وسبل إنشاء المؤلفات، لقد كان بعض المؤلفين يبينون التعابير بتكرار أنفسهم كتبياً، وهذا ما يلاحظ مثلاً في أعمال المؤلف المثمر والموهوب كأبي علي ابن سينا[٥]، وحدث تارة أن مؤلف واحد كتب عدَّة نسخ، فهكذا كتبت مثلاً بالصيغتين الصغيرة والكبيرة ((كتاب القراءات)) لابن مجاهد و ((معاني الشعر)) لابن السكيت و ((كتاب الخراج)) للكلوذاني و((زيج)) لمحمد بن

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٩٧ -٢٩٨.

(٢) ابن القفطي، ص٢٣٢-٢٣٣؛ ابن الجوزي، المنتظم، ص ١٦٠؛ ابن خلكان، ١، ص٣٤٠-٣٤٢.

(٣) الوتشي، ١٩٦٥؛ ٥٠٠-٥٠٨ .Brockelmann, GAL, I,S.

(٤) ابن خلكان، ٢ ص ٧٤-٧٦.

(٥) هالدوف، ١٩٨١ أ، ص٥٤.

موسى الخوارزمي[١]، ظهر بثلاث صيغ ((كتاب النوادر)) لأبي عمرو الشيباني والكسائي[٢]، وكتب الواحدي ثلاثة تفاسير للقرآن الكريم، وهي: ((البسيط)) و((الوسيط)) و((الوجيز))[٣]، ثمة مؤلفات مختلفة وجوه الرويات مثل ((الموطأ)) لمالك و ((الجمهرة)) لابن دريد[٤]، و ((كتاب المسالك والممالك)) لابن حوقل[٥]، وغيرها.

أثارت الأعمال الناجحة الرغبات في كتابة أعمال مماثلة من حيث الشكل والمضمون على أساس مواد جديدة، فمثلاً أضحى أبو عبد الله هارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم (ت٩٠١) رائد سلسلة مجموعات المختارات الشعرية للشعراء القريبين منه من حيث الزمن، على خلاف الذين لم يكونوا يهوون سوى الشعراء الجاهلين والإسلاميين المبكرين، انتقى أبو عبد الله خيرة أشعار مئة وواحد وستين شاعر ابتداء من بشار بن برد وانتهاءً بمحمد بن عبد الملك، ونشر على الشعب مجموعة مختارات تحت عنوان ((البارع))، كما اتخذ فكرته وأجرى مجراه الثعالبي (ت١٠٣٨) فأنشأ مجموعة المنتخبات من أربعة مجلدات تحت عنوان ((يتيمة الدهر)) وألحقها بمجموعة مختاراته ((دمية القصر وعصرة أهل العصر)) وعقبه كتاب الخطيري (ت١١٧٢) ((زينة دمية الدهر))، وختمت هذه السلسلة بمجموعة المختارات المكونة من عشرة مجلدات لعماد الدين الأصفهاني ((خريدة القصر وجريدة العصر)) مع ملحقه[٦].

---

(١) ابن النديم، ص ٣٥، ٧٣، ١٣١، ٢٧٤.

(٢) نفس المصدر، ٨٣.

(٣) ابن خلكان، ١ ص ٣٣٣.

(٤) ابن النديم، ص ٦١.

(٥) كراتشكوفسكي، المجلد الرابع، ص ١٩٨-١٩٩.

(٦) ابن خلكان، ١ ص ٢٠٣؛٢، ص ٧٥، ١٩٤.

من الأمثلة على سلسلة الأعمال في مجال أسماء الرجال الدارقطني (ت٩٩٥) الذي كتب ((المختلف والمؤتلف)) حول أسماء العلم المختلفة والشبيهة، وصنف عبد الغني بن سعيد الأزدي كتابه بصورة مماثلة، ولكن مبنية بشكل آخر ((المؤتلف والمختلف)) حيث أضاف أبو نصر ابن ماكولا ملحقاً فأنشأ بدوره مؤلفاً مستقلاً تحت عنوان ((الإكمال))، استكمل هذا ((وهو في غاية الإفادة في رفع الالتباس والضبط والتقييد)) فيما بعد من قبل ابن نقطة[1]، وفي الآداب العربية الكتابية بعض ((السلسلات)) المماثلة الأخرى.

مع ذلك فقد أثارت الغزارة الهائلة لإنتاج المؤلفين المعينين العجب وحتى الشكوك، فيما يخص ابن الجوزي المذكور أنفا فقد لاحظ كاتب سيرة حياته: ((وبالجملة فكتبه أكثر من أن تعد وكتب بخطه شيأً كثيراً والناس يغالون في ذلك حتى يقولوا أنه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره وقسمت كل يوم تسع كراريس، وهذا شي عظيم لا يكاد يقبله العقل))[2]، من المحتمل أنَّ المبالغات في الإفادات حول عدد المؤلفات وكمية الأوراق فيها كانت حقيقة وبالأخص عندما كانت تقدم أرقام نهايتها الصفر ولم تكن الإحصاءات دقيقة الحساب دوماً.

ككل آداب القرون الوسطى يوجد جزء من الآثار العربية مجهولة المؤلف، ومن الطبيعي أنه عند تدوين الآثار الشفهية – سواء في المرحلة البدائية أو ما بعدها- بقيت نسبة معينة منها من غير المؤلفين، وترجمت كذلك إلى اللغة العربية آثار مهملة الإمضاء من الفارسية الوسطى إلى الهندية واليونانية والسريانية[3]، ومؤخراً في غضون سير عملية التطور المستطرد للآداب العربية الكتابية كانت المؤلفات مهملة الإمضاء تظهر

---

(١) نفس المصدر، ١ ص ٣٣٣-٣٣٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٧٩، يمكن أن تطابق الكلمات الأخيرة تجاه بيانات حول التراث المخطوطي لابن حزة (انظر أعلاه) التي أفيدت مع استشهاد بابنه.

(٣) قائمة عند ابن النديم (ص ٣١٣-٣١٨).

إما لأسباب تاريخية- أدبية (كان المؤلف لسبب من الأسباب يخفي اسمه وتارة كان مضطراً إلى ذلك) وإما لظروف التي كانت في ظلها التقاليد المخطوطية (فإذا أصيبت مخطوطة ما بخلل ميكانيكي أو ضاع جزء منها، عندئذ كان تحديد اسم مؤلفها عسيراً أو مستحيلاً بالنسبة لقارئ القرون الوسطى)[١]، إنّ مشكلة تحديد مؤلفي المخطوطات المهملة الإمضاء الواقفة المستعربين المعاصرين (عند فهرسة المخطوطات ودراسة إبداع المؤلفين المعينين وما إلى ذلك) تُحلُّ في أكثر الأحوال بنجاح)[٢]، ولو أنها في بعض الأحيان تبقى غير محلولة[٣].

ينبغي الاعتراف كذلك أن المؤلفات المغفلة الإمضاء لا تجدر كثيراً بالأدب العربي في القرون الوسطى، فهي عبارة عن جزء بسيط بالمقارنة مع المؤلفات الموقع عليها اسم المؤلف.

تقع الأهمية الكبيرة على مشكلة المؤلفات المنسوبة بالكذب لـ((مؤلف)) هذا أو ذاك، وهي تمس على وجه الخصوص بعض كتب المرحلة المبكرة (القرنين الثامن والتاسع) بالإضافة إلى الآثار صغيرة النوع، كالأحاديث الشريفة والأمثال السائرة وبعض الأبيات الشعرية، أدخلت جملة المؤلفات في التداول تحت اسم علي بن أبي

---

(١) مثلاً لم يستطع ابن خلكان (١، ٣٥٨) تثبيت اسم المؤلف الذي مارس تسجيلاً يومياً للأحداث، كان يرى مجلداً واحداً فقط في مدوناته التاريخية- اليومية.

(٢) أتضح لبارتولد أن ((المؤلف المغفل الدمشقي)) هو ابن طولون، انظر بارتولد (١٩١٢) المجلد السادس، ص ٥٧، التعليق ١٨٨؛ كما سأستشهد بتجربتي الشخصية: لقد تمكنت من تحديد اسم مؤلف الأثر في مجال سيرة حياة العائد إلى القرن الثاني عشر من خوارزم الذي هو عبارة عن مخطوطة معيبة في مجموعة فرع سانت بطرسبورغ من معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا (خالدوف،١٩٧١)،وهو عبد السلام الأندرسباني تلميذ الزمخشري.

(٣) انظر مثلاً: تاريخ الخلفاء مهمل الإمضاء في نشر ب.أ. غريازنيفيتش، ١٩٦٠، ١٩٦٧ ، (الثاني بمشاركة م.ب. بيوتروفسكي) لم يتم تحديد اسم مؤلف (القرن الثاني عشر؟) أثر معروف في مجال تاريخ الخلفاء ((كتاب العيون والحدائق))، كما نعلم أنه لم يتم إحصاء المخطوطات العربية المهملة الإمضاء.

طالب وأسماء سائر أئمة الشيعة كجعفر الصادق، وفي مجال ((علوم)) الغيب والعلوم الطبيعية توجد مشكلة مؤلفات تحت اسم خالد بن يزيد[١]، وجابر بن حيان[٢]، كان الرأي القائل بأن الآثار يجب أن تكون دوماً موقعة بإمضاء مؤلفها الحقيقي لدرجة أن ابن النديم لم يكن يصدق قط على وجود الأنساب الكاذب للآثار إلى مؤلفيها، فقد على ذلك برهاناً شاذاً وساذجاً[٣]، ومع ذلك فقد أنشئت العديد من المؤلفات ونسبت إلى مؤلفين غير مؤلفيها وبالأخص المبكرين والمشهورين منهم كالأصمعي[٤]، والواقدي[٥]، والجاحظ[٦]، وابن قتيبة[٧]، وابن سينا[٨]، وغيرهم.

كما نوه أنفا غير مرة كانت التقليدية تسود على الأدب والعلم العربيين في القرون الوسطى، بيد أن مسألة الملك الأدبي كانت تلهم في مختلف النواحي، وكانت تطرح تارة بشكل جدي وحاد، و الاتهامات في السرقات الأدبية كثيرة، ولكنها تخفى بصورة خاصة في الشعر، كانت المعالجة النظرية للمسألة تنحصر كذلك ضمن نطاق الشعر إذ كان يناقش الفرق بين التقليد والسرقة الأدبية، كما كانوا يجادلون حول وضع

(١) رأي ابن النديم (ص ٣٥٤). مخطوطات مؤلفات خالد بن يزيد، ولكن الجدال حول ما إذا كانت هي تمثل العبارات المقتبسة الكاذبة مستمر حتى الآن، انظر: Ullmann, 1978

(٢) انظر قائمة المؤلفات الكثيرة المتداولة تحت اسمه عند ابن النديم (ص ٣٥٥-٣٥٨)؛ وعن الجدالات حول هذه المسألة:

(٢) Brockelmann, Glam SB I, p. 426-429; Sezgin, GAS, IV, p.132-269.

(٣) وهذا ما يخص بالذات جابر بن حيان إذ كتب ابن النديم (ص٣٥٥) وأنا أقول أن رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنف كتاباً يحتوي ألفي ورقة يتعب قريحته وفكره بإخراجه ويتعب يده وجسمه بنسخه ثم ينحله لغيره إما موجوداً أو معدوماً ضرب من الجهل.

(٤) Grenache, 1969

(٥) Sezgin, GAS, I,p. 294-297

(٦) Pellat, 1956

(٧) Lecomte, 1965.

(٨) Mahdavi, 1954.

حد بين استخدام المدار التقليدي والإستهادة العادية الظاهرة كانت أم باطنة واستحواذ منجزات الغير[١]، تطبيقاً للآثار الكاملة نجد تارة إتهاماتٍ في السرقات الأدبية المركبة بنفس العبارات كالتي عند النظريين في الشعر والاستهادات الشعرية، ولكن ليس واضح دوماً ما هو المقصود من هذه الاتهامات، مثلاً اعتبر ابن النديم أن ابن الفقيه في مؤلف ((كتاب البلدان)) قد ((سلخ)) عمل الجيهاني[٢]، ولطخ بالعار أبا بكر الصولي كونه نسخ واستحوذ مؤلف غيره[٣]، وتمتع بسمعة السارق الأدبي السيئة المنجم أبو العنبس الصميري[٤].

كان المؤلفون الكاتبون باللغة العربية يدركون الحصر في إمكانيات نيل المعارف للعقل الإنساني فيعيرون أكثر انتباههم للناحية الإعادية في العلم والأدب، ولكن بما أنهم كانوا آملين بأنهم سينالون جزاءهم في الآخرة، وبأن نسلهم سيعترفون بهم ولم يكونوا يأملون في الربح والمجد في هذه الدنيا الفانية كانوا يبذلون جهوداً هائلة، لذا كانت الآثار الأصلية من حيث الشكل، أمّا المضمون تقيم حق التقييم.

كان الكثير من المؤلفين يفتخرون بمنجزاتهم الإبداعية، وليس فقط من سعة العلم المكدس، أراد الجغرافي المقدّسي (ت ٩٩٥) إعطاء حق من سبقه فاستهدف خصيصاً بأن لا يكرر ما كتبه المتقدمون فقام برحلة طويلة كي ينشيء كتابه على أساس المواد الجديدة والمجربة[٥]، كما هي معروفة قصة عالم المعاجم الجوهري (توفي ما بين ١٠٠٣–١٠٠٧) الذي أعلن عن إنهائه نصف معجمه فيزعمون بأنه صاح من أعلى سقف مسجد نيسابور ((أيها الناس! إني علمت في الدنيا شيء لم أسبق))[٦]، وكان

(١) Grunebaum, 1944، غريونبياوم، ١٩٨١، ص ١٢٧-١٥٦؛ كوديلين، ١٩٨٣، ص ١٠٠-١٢٣.

(٢) ابن النديم، ص ١٥٤.

(٣) نفس المصدر، ص ١٥١.

(٤) ابن القفطي، ص ٤١٠.

(٥) المقدسي، ص ١-١٠.

(٦) ياقوت، إرشاد، ٢ ص ٢٦٩؛ قارن مع ميتس، ١٩٧٣، ص١٦١.

ياقوت حريصاً جداً على طرافة معجمه في تراجم حياة الأدباء، وعلى وفرة المعلومات فيه وعدم تشابهه مع أي مؤلف مماثل في السابق[١].

ختم ابن خلكان عمله في مجموعات سير حياة الناس المشهورين من العالم الإسلامي بالقول: " فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعجل بالمؤاخذة فيه فإني توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لي مع أنه كما يقال أبى الله أن يصح إلا كتابه، لكن هذا جهد المقل وبذلك الاستطاعة، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه وفوق كل ذي علم عليم))[٢].

لا بد أن كل خبراء الكتابة من كافة الأزمنة والشعوب أفصحوا عن عذاب التأليف على الشكل الآتي: ((إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: " لو غيّر هذا لكان أفضل، ولو زيد لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل " وهذا أعظم العبر، وهو الدليل على استيلاء النقص على جملة البشر "[٣].

إن الأقوال كهذه – حيث يظهر وعي الذات لدى المؤلفين – كثيرة، وهي مليئة بالظلال، ومن الظاهر أنها تحتاج إلى بحث أدبي مستقل، أما الآن فتجدر الإشارة أن الأدب العربي على خلاف سائر الآداب الشرقية القديمة لم يكن مغفل الإمضاء حتى

---

(١) ياقوت، إرشاد، ١١-١٢: وأعلم أنني لو أعطيت حمر النعم وسودها ومناقب الملوك وبنودها لما سرّني أن ينسب هذا الكتاب إلى سواي، وأن يفوز بقصب سبقه إلاي لما قاسيت في تحصيله من المشقة وطويت في تكميله طول الشقة الخ.

(٢) ابن خلكان، ٢ ص ٤٢١.

(٣) قول القاضي الفاضل في رسالته إلى عماد الدين الأصفهاني، انظر حاجي خليفة، ص ٤٢-٤٣، Rosental, 1947, p. ٦٧-٦٨، كما قارن مع قول الثعالبي في العبارة المقتبسة الواقعة في صدر هذا الفصل.

عند وجوده بصورة شفهية عند البدو، ولو أن التقليدية جديرة بالأدب العربي بدرجة عالية[١].

تظهر من المواد المحتشدة في هذا الفصل جملة أساليب نسبة التأليف إلى مؤلفه الجدير بآثار الأدب العربي في القرون الوسطى[٢]، عند وصف مؤلف ما موضوع اسمه على صفحة العنوان لا يكفي ذكر اسم مؤلفه فقط، بل يجب الإظهار بأي معنى ولأي مدى كان هو مؤلفاً، وكشف مؤلفين آخرين انضمت أعمالهم بحجم أو بآخر إلى هذا المؤلف، والإشارة إلى صلته مع المؤلفات السابقة له والمماثلة من حيث المضمون والتركيب، وتحديد المصادر الشفهية، يسلك القارئ الباحث سبيلاً معاكساً لسبيل التطور التاريخي للأدب، فمن مخطوطة القرن السابع عشر مثلاً يقرأ مؤلف موضوع على صفحة مخطوطة القرن الخامس عشر مثلاً فيحدد بذلك تعلقه بسلفة (معلمه المباشر أو مؤلف من القرون السابقة) وتعلقه غير المباشر (وفقاً لعنوان وتركيب المؤلف أو نمط البسط أو كمية الوقائع المحتشدة أو نطاق الأفكار المفصح عنها) من جملة المؤلفات وجماعة المؤلفين من القرنين العاشر والحادي عشر مثلاً فتستند أخيراً إلى ((المنابع)) أي تقاليد الآداب العربية الشفهية وتجربة الطائفة الإسلامية المبكرة والآثار المروية، ولا يتم التغلب على الصعوبات التي تظهر إلا جزئياً من جراء ضياع بعض الحلقات الوسطى، النواقص في النصوص.

---

(١) قارن رأي في تقليدية الآداب الشرقية القديمة مع إهمال الإمضاء فيها عند غرينتسير، ١٩٧١، ١٧.

(٢) تميل التصورات المضادة لزماننا عن التأليف الأدبي الفرديْ إلى نقلها إلى الماضي وتطابقها مع المواد المخطوطة، وإن مشكلات تفريق أنواع وأصناف التأليف الفردي أو غير الفردي للإبداع الأدبي تناقش في العلم على نطاق واسع لدى مختلف الشعوب، انظر ستيبلين- كامينسكي، ١٩٧١، ص ٣٨-٥٢؛ نفس المؤلف، ١٩٧٢؛ نفس المؤلف، ١٩٧٦، ص ٨٢-٨٣؛ أفيرينتسيف، ١٩٧١، ص ٢٠٧-٢٢٩، وما يتعلق بكتابة الكتب العربية في القرون الوسطى فإنّ هذه المشكلات ينبغي حلّها بصورة أوسع طالما أن الأمر يجري ليس فقط عن الأدب الفني.

خلقت غزارة المؤلفين المشددة بتكرار وتعدد طبقات أسماء العلم في اللغة العربية والميل نحو اختصارها في الاستخدام اليومي (انظر عن ذلك في الفصل السادس)، ظهرت منذ القرون الوسطى مشكلة التمييز بينهم وإثبات هويتهم، حدث تارة وأن ترسخت الأخطاء المرتكبة في بعض الأحيان في تحديد المؤلفين أو خواص المؤلفات في التقاليد المخطوطية، فكانت تؤدي إلى تشوشات مقبلة، تبقى هذه المشكلة المتعقدة بهذه الظواهر ملحة في الاستعراب، وفي غضون وصف جملة المواد المخطوطية يتعذر تارة حلّها، طبقاً لذلك تزداد أهمية الإعداد سواء المعين أو النظري لمشكلات نسب الآثار إلى مؤلفيها في الآداب العربية الكتابية من القرون الوسطى.

الفصل الرابع
نقل المعرف وإثبات النصوص بالوثائق

الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء

عبد الله بن المبارك عند أبي سعد السمعاني

تنحصر الميزة الأساسية للمؤلفات العربية من القرون الوسطى بكثرة الأسانيد فيها على الأشخاص المعينين، كثيراً ما تزود البلاغات حول واقع أو حادث ما أو تصريح أو رأي بالتنويه على أن هذا صادر عن إنسان ما أو الشاهد العيان أو السامع الذي كانوا يسمونه باسمه ونادراً بوصفه، ينبغي الأخذ بالحسبان أن الإسناد عند المحدّث يختلف عن الإسناد عند المؤلف الحقيقي أو الوهمي، ويمكننا أن نجد تفسيراً لهذه الظاهرة في الظروف المذكورة أعلاه أي النشوء والاكتمال المقبل للأدب العربي في ظلها: تمثل الطبقة الكبرى من الأدب العربي تدوين آثار الآداب الشفهية، وإن الطريقة المماثلة لإثبات النصوص المثبتة بالوثائق بالإسناد على المخبر الشفهي لا يمكن اعتباره شيئاً خاصاً، إذ توجد الأشياء المشابهة في غيرها من الآداب القديمة والعائدة إلى فترة القرون الوسطى، ولا يمتاز الأدب العربي إلا بوفرة الأسانيد النصوصية الداخلية.

تتميز الخاصية الأساسية كقاعدة عامة بكثرة درجات الأسانيد إذا تمتد بين مؤلف أثر كتابي ما والمصدر الأولي للخبر أو النص المقدّم سلسلة طويلة من الأشخاص الذين نقلوا ذلك الخبر واحد للآخر بصورة متتابعة، تجدر هذه الإشارة قبل كل شيء بالطبقة المعينة من النصوص العربية ألا وهي الأحاديث الشريفة، فلتقدم أمثلة:

" قال: وحدثني الليث، قال: حدثني عقيل عن ابن شهاب قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ كان أسمح الناس، وكان ما يكون في رمضان:"[١].

" قال حدثنا أبو عبد الرحمن قال: حدثنا حيوة قال: أخبرني سالم بن غيلان أنه سمع دراجا أبا السمح يحدث عن أبي الهيثم عن أبي سعيد أنه سمع النبي ﷺ يقول: إن الله إذا رضي عن عبد أثنى عليه لسبعة أضعاف من خير ما يعمله، وإذا سخط على العبد أثنى عليه لسبعه أصناف من الشر الذي يعمله. قال: وحدثنا ابن وهب بهذا الإسناد بمثله"[٢].

يمكن أن تكون الأحاديث عبارة عن قصص صحابة الرسول الكريم ﷺ ومعاصريه (صاحب في صيغة الجمع **أصحاب أو صحابة**)، وعن الأرباب ذوي نفوذ في الجيل القادم (**تابع** وفي صيغة الجمع **التابعون**)، والعلماء المتأخرين، مثلاً:

" قال ابن إسحاق عن أبي إسحق السبيعي عن عمرو بن ميمون الأودي قال: شهدت يوم طعن عمر "[٣].

" حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، قال: حدثنا محمد بن عمرو عن رجل قد سماه عن ابن عباس، قال أنه قام لزيد بن ثابت فأخذ بركابه، فقال: هكذا يا بن عم رسول الله! قال: إنا هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا"[٤].

---

[١] Abbott ١٩٦٧، ص ١٦٦، تم نشر النصر على أساس المقطع من ورق البردي في بداية القرن التاسع، وأثبته كمسند ابن شهاب الزهري (ت٧٤١).

[٢] Abbott ١٩٦٧، ص ٢٣٧، أثبت النص كمجموعة أحاديث لأسد بن موسى (٧٥٠-٨٢٧).

[٣] Abbott ١٩٥٧، ص ٨٠، تم نشر النصر على أساس المقطع من ورق البردي الذي أرخته الباحثة أنه "ليس بعد الربع الأخير من القرن الثامن"، وأثبت كـ((تاريخ الخلفاء)) لمحمد بن إسحاق (ت٧٦٧).

[٤] Abbott ١٩٦٧، ص ٢٤٧، أثبت النص كـ ((فضائل الأنصار)) لمؤلف مجهول، المجموعة الموضوعية للأحاديث في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، وينسب إلى نفس المرحلة ورق البردي الذي تم نشر على أساسه المقطع.

يتكون كل حديث من جزئين: متن الحديث والإسناد الذي يسبقه أي تعداد الأشخاص الناقلين للحديث، بالعادة يكون الحديث أطول من المتن، وفي الأمثلة المذكورة قدمنا مقتبسات من المؤلفات المبكرة جداً (القرن الثامن وبداية القرن التاسع)، لذا فالأسانيد فيها قصيرة مكونة من ثلاث أو خمس حلقات، لكن قد يصل عدد حلقات سلسلة الإسناد إلى عشر أو أكثر، فلنأخذ على سبيل المثال مقاطع من أثر السمعاني المكتوب في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي:

"حدثنا أبو سعد محمد بن أحمد بن محمد بن الخليل الحافظ في بنوقان: حدثنا أبو نصر عبد الله بن الحسين بن هارون الوراق وحدثنا أبو شجاع عمر بن محمد بن عبد الله الإمام بعسقلان، وأبو بكر أحمد بن محمد بن بشار القوشنجي بنيسابور، وأبو طاهر محمد بن محمد بن عبد الله السنجي بمرو، قالوا: حدثنا أبو الفضل العباس بن محمد الشقّاني قالا: حدثنا أبو بكر أحمد محمد بن الحارث التميمي: حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الحافظ: حدثنا أحمد بن موسى الأنصاري: سمعت أبي قال: وجدت في كتاب أبي: حدثنا أسود بن سالم: سمعت أبا عبد الرحمن الزاهد خالد بن منصور يذكر عن عبد الله بن الحسن، قال: كان لرسول الله ﷺ ثوبان ينسجان في بني النجّار، وكان يختلف إليهما يقول: عجلوا بهما علينا نتجمّل بهما في الناس"[١].

"أخبرنا أبو الحسين محمد بن كامل بن مجاهد العسقلاني إجازة شافهني بها بدمشق: حدثنا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي في كتابه من صور؛ حدثنا علي بن أحمد الرزاز: حدثنا أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن الدقاق الولي لله: حدثني أبو عيسى بن قطن السمسار: حدثنا ابن عبد الوهاب الحجبي قال: كنت في مجلس بعض المحدثين ويحيى بن معين إلى جنبي، فكتب صفحاً فذهبتُ لأتربه فقال لي: لا تفعل، فإنَّ الأرضة

(١) السمعاني: أدب الإملاء، ص٢٦.

أسرع إليه. فقلت له الحديث عن النبي ﷺ: اتربو الكتاب، فإنّ التراب مبارك، وهو أنجح للحاجة: فقال: ذاك إسناد لا يسوي فلساً"[١].

كانت على غرار الأحاديث تروى أو تشكل شواهد تاريخية كثيرة في مؤلفات الحقبة الممتدة ما بين القرنين الثامن والعاشر، وكانت هذه البلاغات المزودة بالأسانيد تسمى بالأخبار، مثلاً:

" قال محمد بن عائذ: قال الوليد بن مسلم عن يحيى بن حمزة قال: أخبرني راشد بن داود عن شراحيل بن مرثد: إنّ خالد بن الوليد وجماعة من المسلمين نزلوا على حصار دمشق فحاصروها أربعة أشهر "[٢].

"حدثنا أبو زرعة، قال: حدثني عبد الرحمن بن إبراهيم، قال: حدثنا الوليد بن مسلم: إن فتح بيت المقدس سنة ست عشرة"[٣].

"كتب إليّ السري عن شعيب عن سيف عن الربيع بن النعمان أبي المجالد جراد بن عمرو وأبي عثمان بن يزيد بن أسيد الغساني، وأبي حارثة محرز العبشمي بإسنادهم، ومحمد بن عبد الله عن كريب قالوا: أصابت الناس في إمارة عمر > سنة بالمدينة وما حولها فكانت تسفى إذا ريحت تراباً كالرماد، فسمي ذلك العام عام الرمادة"[٤].

توجد الأسانيد كذلك في النصوص الأدبية بما فيها الشعرية والنثرية، فمثلاً توجد في المجموعة القديمة أشعار وتراجم حول شعر المرحلة الجديدة أي المرحلة الأموية المتأخرة والعباسية المبكرة تحت عنوان ((طبقات الشعراء المحدثين)) لعبد الله

---

(١) نفس المصدر، ص ١٧٣-١٧٤.

(٢) أبو زرعة، ص١٧٣-١٧٤ (العدد ٥٨) يتكون العمل الضخم لهذا المؤلف كلّه من هذه القطع، فلذا جزأه الباحث المعاصر له – الذي أعد النص الأصلي- إلى ٢٣٣٠ فقرة.

(٣) أبو زرعة، ص ١٧٦-١٧٧.

(٤) الطبري، المجلد الأول، ص ٢٥٧٣.

بن المعتز (قتل سنة ٩٠٨) توجد في مقدمة كل قصة أسانيد عن المخبرين والمحدثين المباشرين:

"أخبار صالح بن عبد القدوس: حدثني محمد بن يزيد قال: حدثني العوفي، قال: أُخذ صالح بن عبد القدوس في الزندقة فأدخل على المهدي، فلما خاطبه أعجب به لغزارة أدبه وعلمه وبراعته"[١].

"أخبار ابن مناذر: حدثني أبو الأسود بن الفضل، قال: حدثني إسحاق بن عمرو العدوي، قال: كان محمد بن مناذر من أهل عدن، وكان وقع إلى البصرة لكثرة العلماء والأدباء بها"[٢].

"أخبار الحارثي. واسمه عبد الملك بن عبد الرحيم. حدثنا أبو مالك الأنصاري قال: حدثني أبو الأسود الشاعر، قال: كان الحارثي شاعراً مفلقاً مفوهاً مقتدراً مطبوعاً، وكان لا يشبه بشعره شعر المحدثين الحصريين، وكان نمطه نمط الأعراب، ولما قال قصيدته المعروفة العديبة انقاذ الشعراء وأذعنوا، وهو أحد من نسخ شعره بماء الذهب"[٣].

كما توجد أمثلة من الأعمال العلمية الشهيرة العائدة إلى القرنين التاسع والعاشر دلالة كأعمال أبي الفرج الأصفهاني والمبرد.

"قال ابن الأعرابي كما أخبرني به علي بن سليمان الأخفش عن السكري عن محمد بن حبيب عنه وعن هشام بن الكلبي عن أبيه قال: سبب نزول آل عدي بن زيد في الحيرة.."[٤].

(١) ابن المعتز، طبقات، ص ٢٥٧٣.

(٢) نفس المصدر، ص ١١٩.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٧٥.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، ٢، ص ٩٧.

" أخبرني الحسين بن يحيى عن حماد بن إسحاق عن أبيه عن أبي عبيدة، قال: لم يزل الحطيئة في بني قريع يمدحهم حتى إذا أحيوا"(١).

" وللحطيئة وصية ظريفة يأتي كل فريق من الرواة ببعضها، وقد جمعت ما وقعت إلي منها في موضع واحد وصدرت بأسانيدها: أخبرني بهذا محمد بن العباس اليزيدي، قال: حدثنا أحمد بن يحيى بن ثعلب، قال: حدثنا عيينة بن المنهال عن الأصمعي: أخبرني أحمد بن محمد عبد العزيز الجوهري، قال: أخبرنا عمر بن شبة: أخبرني إبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة: نقلتها من كتاب محمد بن الليث عن محمد بن عبد الله العبدي عن الهيثم بن عدي عن عبد الله بن عبد الرحمن عن أبيه: أخبرني الحسن بن يحيى عن حماد بن إسحاق عن أبيه عن أبي عبيدة: أخبرني هاشم بن محمد الخزاعي، قال: أخبرنا أبو غسان دماذ عن أبي عبيدة، قالوا: لما حضرت الحطيئة الوفاة اجتمع إليه قومه، وقالوا: يا أبا ملكية أوصِ!"(٢).

"حدثنا أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز، قال: حدثنا أبو عثمان سعيد بن جابر، قال: حدثنا أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش بطريقة قراءة، قال: قرأ هذا الكتاب أمامي لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد"(٣).

" حدثنا بعض أصحابنا عن الأصمعي عن المعتمر بن سليمان عن أبي مخزوم عن أبي شفقل راوية الفرزدق"(٤).

إذا تركنا جانباً مضمون الأخبار نفسها التي لا تهمنا ها هنا فسنجد أن مخطط الأسانيد على الشكل الآتي: أخبرنا أ عن ب الذي نقل بدوره ما سمعه من ج... عن ما

(١) أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، ٢، ص ١٩١.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، ٢، ص ١٩٥.

(٣) المبرد، الكامل، ص٢، يبدأ بهذا الإسناد ما تبقى من نص المؤلف.

(٤) المبرد، الكامل، ص ٧٠، راوية الشاعر من كان يعرف شعره عن ظهر قلب وينقله.

حدث أو قيل، والعبارات والمصطلحات التكتيكية – التي قمنا بترجمتها إلى الروسية حرفياً قريباً إلى الأصل – تتكرر ولو أنها تتنوع بعض الشيء، تدخل كلمة ((قال)) إلى كلام المؤلف أو المحدث المباشر، أما ((حدثني)) و((حدثنا)) و((أخبرني)) و((أخبرنا))فتعني فعل ما سمعه شخص آخر، كلا الفعلين متساويان يمكن أن يبدلان بعضهما البعض، ويظهر أن الاختلاف بين الضميرين ((أخبرني)) و((أخبرنا)) ينوه إلى أنّ المحدث كان مستمعاً وحيداً أم واحداً في الجماعة، يدل حرف الجر ((عن)) كذلك إلى إحدى مراحل نقل الحديث ويقدر – على ما يبدو – على تبديل أيٍّ من هذه الأفعال.

والأسانيد نفسها لا توضح تماماً ما هي جوهر رواية نص الخبر إذ أن مصطلح ((رواية)) نادراً ما يذكر فيها، تدل جملة الشهادات على أن أساس ذلك كان التعليم الشفهي ومعالجة النص بصوت عال، فالعارف بصفته معلم يروي خبراً ما مع تفسير لازم ويسمعه تلميذه ويحفظ، بعد ذلك يظهر التلميذ لمعلمه أنه إستوعب هو النص بصورة صحيحة وحفظ بدقّة كل تعابيره الكلامية وبينه حرفياً دون تحريف أو تبديل، كما ينبغي على المعلم التوضيح كيف عرف هو النص ما أخبره لتلميذه ومن الذي أخبره، وينبغي على التلميذ أن يتصور بوضوح ما هو السبيل الذي سلكه ذلك الخبر إلى أن وصل إلى معلمه.

كانت عادة التحقق من دقة وكمال وعدم تحريف الآثار الشفهية عبر استحداثها المقرر عند نقلها بصوت عال من شخص إلى آخر منتشرة في المراحل المبكرة من تطور الأدب العربي، يظهر أن هذه العادة قد ظهرت في البيئة الشفهية، وتعود إلى المجتمع العديم الكتابة في عصر ما قبل الإسلام بالجزيرة العربية؛ وتبعد كل الافتراضات حول التأثير الخارجي إذ أن سائر الآداب تخلو من هذا التكتيك.

يظهر أنه في الآونة لما كان الحديث الشفهي طريقة وحيدة كانت هنالك قواعد معينة تهدف إلى ضمان الحفاظ الآمن على المعلومات الهامة من الناحية الاجتماعية، وتجنب أي تحريف عند نقلها، ومن المحتمل جداً أن حفظ ونقل المعلومات تحولت إلى

مهنة مستقلة، وأضحت موضوع اهتمام فئة معينة من الناس ذوي نفوذ وسمعة طيبة في المجتمع، وعرفت الجزيرة العربية الرواة من خلال ذكرهم على الأقل منذ القرن السادس وبداية القرن السابع، أما المتأخرين منهم (راوي أو إخباري أو محدث أو قاص)، فكانوا في القرنين السابع والثامن يستأنفون أعمالهم.

لا شك أنّ الأشياء المماثلة يمكن إيجادها عند الشعوب المتساوية من حيث التطور، أظهرت مباحثات علماء خصائص (الإثنوغرافيين) في المجتمعات الإفريقية- التي كانت عديمة الكتابة منذ زمن ليس ببعيد – أن الروايات التاريخية كانت تحفظ عندهم بدقة، أما أهلية الرواة، فكانت تراقب بصرامة[١]، عند ذلك فإن أساليب التحقيق ومراقبة دقة الحفظ وكمال النصوص وعدم تحريفها عند روايتها (ترديد التلميذ حرفياً ما سمعه عن معلمه) شبيهة جداً مع التي نعرفها من التقاليد العربية، والصورة المماثلة للصورة الجديرة بالجزيرة العربية القديمة.

وبعد ظهور وإثبات الكتابة لم تفقد صورة تدوين البيانات بالإسناد على رواية الراوي قوتها مثلها مثل المصطلحات، ولكن أسلوب التعليم نفسه تعدل، سمح للمعلم والتلميذ على السواء استخدام التدوين، ومع ذلك بقيت الذاكرة القوية تقدر كل التقدير، وفي بعض الأحيان كانوا يثقون بها أكثر من الكتابة، ثمة قصص حماسية حول الناس ذوي القدرة على حفظ النصوص الطويلة بعد سماعها مرة أو مرتين، ويحفظونها لفترة طويلة وبكميات كبيرة[٢]، بقي الحفظ عن ظهر قلب وتقوية الذاكرة مطالبين بها في المرحلة المبكرة والمتأخرة على حد سواء، ولكن التدوين الكتابي

---

(١) Vansina, 1965.

(٢) حدث غير مرة وأن صادف المستشرقون المرتابون أناساً ذوي ذاكرة قوية في الشرق العربي في عصرنا الحاضر، وكانوا يقومون بفحصهم ويذهلون، انظر مثلاً مذكرات إ.ي . كراتشكوفسكي من عام ١٩٠٨ حول معلم المدرسة المكفوف العينين منذ ولادته من قرية لبنانية صغيرة الذي كان يعرف عن ظهر قلب كل المعاجم الموجودة عنده بما فيها ((لسان لعرب)) بمجلداته العشرين والكتب في النحو: كراتشكوفسكي (١٩٤٥) المجلد الأول، ص ٣٢.

للنصوص صار يحطم كل ما يجد في طريقه من الشكوك والارتيابات، ويظفر بالاعتراف العام به، وكرست لأفضال وعيوب الحفظ عن ظهر قلب والتدوين الكتابي أعمال كثيرة شعراً ونثراً.

وهكذا صار منذ فترة معينة مقبولاً بأن يقص الراوي ليس بالاعتماد على ذاكرته، وإنما بالقراءة من التدوين، لكي يسمع التلميذ ويسجل ويتذكر النص المستوعب. يظهر أن التدوين بقي لفترة ما وسيلة مساعدة تحت ظل سيادة الحديث الشفهي، لكن رويداً تغير التشديد وتغيرت الأدوار فبرزت عملية التدوين، وباتت في المرتبة الأولى بمثابة وسيلة حفظ ونقل المعارف، ولم يبق التذكر الشفهي للنص إلا أداة المراقبة.

طبعاً إن مثل هذا السبيل الذي سلكه التطور التاريخي طبيعي جداً، لكنه ليس مبرهن عليه، ولذلك سببان: أولاً: إن الروايات والأخبار ما قبل الإسلامية في الجزيرة العربية تخلو من الأسانيد، أي أن سلسلة رواتها القدامى قد ضاعت نظراً لعدم تدوينها كتابياً[1]، ثانياً: ثمة شهادات إيجابية لدى الأدباء المسلمين بأن الأسانيد صارت تستخدم منذ زمن ليس ببعيد نسبياً بمثابة استحداث العصر الإسلامي، وفقط في مجال رواية الأحاديث النبوية ((كان في الدهر الأول لا يسألون عن الإسناد))، ((الإسناد زين الحديث))، ((رواية الحديث بلا إسناد من عمل الذميّ، فإنّ إسناد الحديث كرامة من الله عزّ وجلّ لأمة محمد)) ((الإسناد جزء من الدين وسلاح المؤمن إذا لم يكن معه سلاح فبأي شي يقاتل؟))[2].

من وجهة نظري إن أصالة الأسانيد تعود إلى الجزيرة العربية، وهذا محتمل جداً، وإلا يتعذر تفسيره تاريخياً، كانت سعة انتشار الطريقة الشفهية – الشكلية لإبداع

---

(١) قارن أعلاه أن الخبر حول عدي بن زيد (القرن السادس) يعود إلى القرن الثامن، أما الخبر حول الحطيئة (القرنين السادس والسابع) فإلى أبي عبيدة (القرن التاسع).

(٢) السمعاني، آداب الإملاء، ص ٥-٨.

الشعراء والمغنين والقدامى[1] تسمح وحتى تشترط عادة الاستشهاد بالأشخاص الرواة للآثار الشعرية، لم يكن رواة الحديث في المرحلة الإسلامية المبكرة قد اخترعوا الأسانيد، ولم يستلموها كنعمة من الله، وإنما استندوا على التجارة القديمة- زد إلى ذلك إنهم كثير ما كانوا أنفسهم حفظة ورواة الآداب العربية الشفهية القديمة، ولكن فلنعد إلى النظام نفسه ووظيفته وتطوره المقبل.

توضح الأسانيد في المؤلفات الواصلة إلينا اقتراناً بين رواية النصوص شفهياً وكتابياً، بيد أن العبارات التكنيكية المستخدمة فيها لا توضح كيف تم تحقيق مرحلتها المعينة إذ لم تشترط بصورة خاصة، وتظهر التنويهات الأكثر تفصيلية في الأسانيد والمؤلفات المكرسة للتنظيم في دراسة الأحاديث لأنَّ الأساليب الروائية كانت ثمانية: القراءة والسماع والعرض والمكاتبة والمناولة والإجازة والوصية والوجادة.

أ- القراءة: وهو مصطلح تكنيكي لا يخص كل القراءات وإنما معيناً منها، أي: عندما يقرأ التلميذ أمام معلمه النص الذي ينبغي عليه حفظه عن ظهر قلب، يسمح له بإعداد تسجيل ذلك النص بنفسه سلفاً ويأخذه مؤقتاً من معلمه أو شخص آخر، وكان على التلميذ أن ((يلفظ)) به (ينبغي أن نتذكر خصائص الكتابة العربية كانت تعسر ذلك، انظر الفصل الأول)، وأن يظهر فهمه الصحيح للنص ويوجه إلى معلمه أسئلة عما لم يفهمه، وكان على المعلم أن يراقب صحة القراءة وينهض تلميذه إذا تعثر ويوجه له الملاحظات ويجيب على أسئلته ويعلق على النص ويفسر من الذي أسمعه إياه وكيف أخذه.

2- **السماع**: أي عندما يستمع التلميذ إلى النص المدرس من قبله حين يقرأه شخص آخر والأفضل إذا كان القارئ المعلم نفسه، وكذلك الأسئلة والأجوبة والتعليقات والاستفهامات حول الرواية السابقة للنص، كما هو في الطريقة الأولى.

---

(1) يرى ج. مونراو بأن خاصيات الشعر العربي القديم الكثيرة تفسر بطبيعته الشفهية – الشكلية، أنظر مونراو (١٩٧٢).

على أية حال ثمة أشياء كثيرة مشتركة بين هاتين الطريقتين وغالباً ما كانت الطريقتان تنصهران في طريقة واحدة إذ كان المعلم يعلم جماعة كاملة من التلاميذ، كان بمقدور المعلم أن يقرأ أو يملي للجميع في وقت واحد، أما التلاميذ فكانوا يقرؤون بالدور، وكانت معارف ((المستمع)) تفحص عندما كان يقرأه هو بنفسه، لذا نجد في الأسانيد بعض التغيرات مثل ((سمع بقراءة فلان)) أو بإملاء فلان..)) وغيرها، (ميز السمعاني[١] ((الإملاء)) كأفضل طريقة لدراسة الأحاديث) كانت كلتا الطريقتين تعدّان أوفق وأوثق الطرائق فكانتا سائدتين، وتلحظ الأسانيد إليها في المصادر أكثر من غيرها.

3- **العرض**: أي عرض وتقديم قبل الإخبار لشخص ذوي نفوذ لكي يستصوبه (أو لا يستصوبه ويمنعه من الحديث)، كان تقديم النص المكتوب من غير دراسته شفهياً لا يستحسن ومع ذلك يطبق عملياً.

4- **المكاتبة**: أي المراسلة المتبادلة، وهي عبارة عن مراجعة كتابية لشخص ذي سمعة لأجل الحصول على بيانات واستلامها. عرفت المراسلة بين العلماء المسلمين القاطنين تارة في مدن مختلفة بعيدة عن بعضها منذ القرن الثامن.

5- **المناولة**: وتعني انتقال المخطوطة من يد إلى يد دون إجراء القراءة المشتركة، كان من الممكن أن يحدث ذلك دون وثيقة بين الملتزمين عبر الأشخاص الناقلين خلال فترات مطولة ومتقطعة.

6- **الإجازة**: وتعني السماح، ليست لها أية خاصية، وإنما تعني السماح في نقل مواد المعلم بغض النظر عن أصلها وطريقة استيعابها من قبل التلميذ.

7- **الوصية**: وتعني انتقال مخطوطة المؤلف إلى شخص آخر بالوصية.

8- **الوجادة**: وهو إيجاد مخطوطة المؤلف بعد وفاته وإيجاد بلاغ ما في مخطوطة ذات نفوذ.

---

[١] السمعاني، أدب الإملاء، ص٨: ((وأصحّ هذه الأنواع أن يملي عليك وتكتبه من لفظ)).

وأخيراً يمكن أن نضيف إلى ذلك ((النقل)) أي النسخ العادي للمخطوطة، كلياً أو جزئياً، بعلم وموافقة صاحبها المعلم.

كل هذه الطرائق لنقل المعارف المعبر عنها في الكلمة تشكلت وأصبحت نظاماً خاصاً مرّت بمرحلة طويلة من الاستحسان، وغدت متطورة على أكمل وجه في علم الأحاديث[1]، واستخدمت كذلك في العلوم القرآنية وتدوين التاريخ وعلم اللغة، دون أن تمس المؤلفات المترجمة والأعمال في ((علوم الأولين))، منذ أن تشكل ذلك النظام في الحقبة الممتدة ما بين القرنين السابع والتاسع كان يتطور باستمرار، وفي التطبيق العملي كان ذلك النظام أكثر تنوعاً مما يمكن تصوره بصورة تخطيطية، وانعكست كل مراحل تطوره في الآثار الكتابية في الأسانيد المباشرة كالتي قدمناها سابقاً، مثلها مثل المعطيات البيوغرافية حول الأشخاص الذين شاركوا في نقل المعارف. حدث تغير محسوس في العلاقة تجاه الأسانيد في تدوين التاريخ في القرنين التاسع والعاشر إذ يلاحظ فيها انتقال إلى رواية الأحداث بصورة مترابطة، فقد كانوا يوحدون البلاغات المروية بسلاسل مختلفة إلى قصة واحدة، كما كانوا يختصرون الأسانيد أو يلغونها، وعند الانتقال إلى الأحداث المعاصرة كانوا يستغنون تماماً عن الأسانيد. مؤخراً تظهر الأسانيد فقط في الاقتباسات من مؤلفات المراحل المبكرة في علم تدوين التاريخ العربي.

استقر نظام الأسانيد في علم الحديث، ولو أنه حتى هنا تلحظ بعض مجموعات أحاديث ذات أسانيد مختصرة أو من دونها، ومع ذلك فاعتباراً من القرن الحادي عشر ينتشر ذلك النظام على مجالات واسعة من التعليم العام سواء في المدرسة أو مراكز التعليم الأخرى.

---

(١) انظر حول رواية الأحاديث: Goldziher، ١٨٩٠، ص ٣-٣٧٤؛ Abbott، ١٩٥٧، ص ٥-٣١؛ Sezgin GAS, I,p. ٥٣-٦٠، لن نتوقف هنا على مشكلات تزييف الأسانيد التي أجري بحثها في المؤلفات هذه وتلك.

نجد التعديل الجديد لذلك النظام في التقاليد الكتبية، فأصبحت المؤلفات المخطوطة في كل البرامج التعليمية تدرس طبقاً للاقتران الموصوف أعلاه بين الرواية الشفهية والكتابية بما فيها الأعمال في المنطق والحساب وبعض الفروع الأخرى من المعارف التي تعود مباشرة إلى الترجمة إلى العربية، أو طورت على أساسها فلا تحتوي على أية أسانيد، وفي غضون سير الدروس كان التلميذ بالعادة يعد نسخة جديدة من المؤلف المدروس، وبعد إنهائه ذلك العمل كان يطلب ((إجازة)) من معلمه على ((الرواية)) المستقلة لنص المؤلف بالأسانيد المناسبة، بعد ذلك كان بمكانه الاستشهاد بصورة قانونية بهذا المؤلف شفهياً وكتابياً، ويعلم به غيره، كانت في إسناده على معلمه تظهر نفس المصطلحات مثل ((قراءة)) و ((سماع))و ((إجازة)) أو مجرد ((عن))، لكن الأهم من ذلك كان الاستلام من العلم ((حق الرواية)).

عند تكرار عملية التدريس في كتاب معين كانت تتشكل سلسلة المحدثين المرتبطين بالعلاقات ((المعلم – التلميذ))، وعند إضافة أسماء أسلاف المعلم والإشارات إلى طرائق الرواية من حلقة إلى حلقة يتشكل إسناد الكتاب الذي يختلف بعباراته التكنيكية عن الأسانيد المبكرة، تلك هي الصعوبة الجوهرية في فهم تطور الإسناد إذ من المحال التحديد من الذي كان حلقة معينة في السلسلة، أكان راوياً الذي استخدم أو لم يستخدم التدوين أم كان مؤلفاً للمؤلف الكتابي. كان المعلم خلال سنوات نشاطه التربوي ((يروي)) مؤلفاً واحداً لعدة أشخاص أو عدة مؤلفات لشخص واحد أو أشخاص عدة، أما التلميذ فكان يمكنه أن ينضم بدورة إلى السلسلة الإسنادية في رواية مختلف المؤلفات، وكان بعض المؤلفين يمثلون دور المدرس الأول فيدرّسون في كتاب من تأليفهم مساهمين بذلك على تكاثر عدد نسخه. ظهرت كثير من المؤلفات في سير عملية التدريس، وكانت تنشأ خصيصاً للتلاميذ (انظر عن ذلك في الفصل الثالث).

كان طالب العلم يدرس تحت إشراف معلمه مؤلفات واحدة تلي الأخرى ويستلم على كل مؤلف إجازة، ومن ثم ينتقل إلى معلم آخر ويدرس عنده عدة معلمين في آن واحد، حدث تارة وأن طالب العلم كان يقوم برحلة تعليمية، بعد إنهائه العلم في مكان ما كان ينتقل إلى مدينة أخرى ويمر بدورة تعليمية عند المدرسين الجدد ومن المؤلفات الجديد، كان في بعض الأحيان يدرس مؤلف واحد مرتان فيستطيع طالب العلم بذلك أن يقارن طريقة وعمق التدريس عند مختلف المعلمين.

كان معيار درجة تعلم ونفوذ العلماء هو كمية الكتب التي درسوها وسمعوها من معلميهم، كانت في المراكز التعليمية مختلفة الأطرزة تعوض على البرنامج مجموعة المؤلفات المدرسة، لم يكن تسلسل التعليم ودرجة التعلم تتخذ قانونياً ولا تثبت رسمياً بأي طقس أو تكريس أو شهادة، ولكن ما يستحق الاعتبار أن الصيغة العربية المعللة لـ ((حق الرواية)) أضحت أساساً لتسمية درجة التعلم ((بكالوريا)) (أي بحق الرواية) [١] في الجامعات الأوروبية الغربية التي تعرضت في مراحلها المبكرة (القرن الثاني عشر) للتأثير العربي (عبر أسبانيا)، لوحظت في تطور المراكز التعليمية العالية كالمدارس في الشرق الإسلامي والكليات في أوروبا الكثير من التشابهات والصفات المشتركة، وقد لاحظ على وجه الخصوص بحث علمي في موضوع واحد كالذي نشر حديثاً أنه كانت أكثر المواد تدريساً هي القانون، وأدخلت لأول مرة الطريقة الكلامية للتدريس على شكل محاضرات ومجادلات وما إلى ذلك[٢]، وبما أن تطور المراكز التعليمية من هذا القبيل في الشرق سبق نظيره في الغرب بمئة عام كان الشرق منبع التأثير على الغرب ولو أن السبل المحدودة غير واضحة تماماً.

كذلك اعتباراً من القرن العاشر صارت شهادة التدريس بالكتاب تلك الطريقة المستخدمة وثيقة كتابية، كانت تسجل إما على ورقة خاصة وإما مباشرة على نسخة

---

(١) Ebied, Young, 1974.

(٢) مقدسي، ١٩٨١ (وخصوصاً ص ٢٨١-٢٩١).

الكتاب المدروس، ولهذه الوثائق أو الشهادات أنواع مختلفة، فهي إما عبارة عن نوع من محاضر المجالس التعليمية لقراءة الكتب والإجازات بصدد المؤلفات المعينة، وإما أجازات من الطراز العام التي كانت عملياً شهادات دراسية[1]، يجري الحديث هنا عن رواية كل مجموعة مؤلفات لمؤلف واحد أو نطاق واسع أكثر أو أقل من المؤلفات في مجال مادة واحدة أو مجموعة مؤلفات في مختلف المواضيع، ويمكن أن تكون الوثائق مختصرة وتقليدية أو موسعة وأنيقة، وقد تحول تأليفها إلى مادة التدريبات البلاغية، وتارة كانوا يقيمونها على الأفضال الأدبية، وفي بعض الأحيان كانت مجموعة إجازات تلميذ واحد كافية لتملئ مجلد كامل يتداول ككتاب مستقل، وغالباً تحت عنوان ((قائمة المدرسين)) (فهرست، برنامج، مشيخة، تسمية الرجال، معجم، أثبات) لشخص ما، وتعود عادة تصنيف قوائم المدرسين، وقوائم المواد المدرسة إلى القرن العاشر، ورسخت أكثر من غيرها في الأندلس[2]، كما خدمت تلك الفهارس بمثابة نوع من أدلاء تاريخ المواد الدارسية المهنية والأشخاص الذين عملوا في تدريس هذه المواد، بهذه الصفة تنجذب الإجازات والفهارس إلى دوران مكرر إذ يستشهد بها المؤلفون حين يكتبون عن أنفسهم فيستخدمونها ويقتبسون منها في تراجم الحياة، ونادراً ما تستغني تراجم حياة أي عالم من العلماء الإسلاميين عن تذكير من الذي روى له ولمن روى هو نفسه (وهذا يخص الشخصيات من القرن السابع حتى العاشر) أين وعند أي معلم درس وما هي الإجازات التي استلمها، فلنقدم بعض الأمثلة:

---

(١) لكن عدم وجود الفئة الجامعية والاعتراف الرسمي بالشهادة الجامعية بقيت صفة مميزة لنظام التعليم الإسلامي على خلاف الأوروبي..

(٢) بويكو، ١٩٧٧، ص ٨٥، وصلت قوائم كثيرة إلى أيامنا على شكل مخطوطات ونشرت بمثابة مصادر قيمة للباحثين المعاصرين، انظر ابن خير الأهواني، ١٩٥٥؛ شبوح، ١٩٥٩، كما يوجد نموذج شيق لمخطوطة قسم الاستشراف من مكتبة جامعة سانت بطرسبورغ الحكومية. Ms. Or. ٩٠١ المحتوية على مجلد بإجازات ابن حجر العسقلاني (ت ١٤٤٨) التي أصدرت حين كان مؤلفها على قيد الحياة، انظر: Rosen, 1881a.

" أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي اللغوي البصري، كان عالماً راوية ثقة عارفاً بأيام العرب كثير الإطلاع، روى عن الأصمعي وأبي عبيدة معمر بن المثنى وغيرهما، وروى عنه إبراهيم الحربي، وابن أبي الدنيا وغيرهما"(١).

" أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري كان فاضلاً ثقة، سكن بغداد وحدث بها عن إسحاق بن راهويه وأبي إسحاق إبراهيم بن سفيان بن سليمان بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن زياد ابن أبيه الزيادي وأبي حاتم السجستاني وتلك الطبقة، وروى عنه ابنه أحمد وابن درستويه الفارسي...، وأقرأ كتبه ببغداد إلى حين وفاته...كان ولده أبو جعفر أحمد بن عبد الله فقيهاً روى عن أبيه كتبه المصنفة كلها"(٢).

"أبو المحاسن يوسف بن رافع بن أميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدي المعروف بابن شداد الملقب ببهاء الدين... أول من أخذت عنه شيخي الحافظ ضياء الدين أبي بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي... قال في بعض تواليفه: " فإني لازمت القراءة عليه إحدى عشرة سنة فقرأت عليه معظم ما رواه من كتب القرآن وقراءة القرآن العظيم ورواية الحديث وشروحه والتفسير، حتى كتب لي خطّه بذلك وشهد لي بأنه ما قرأ أحد عليه أكثر مما قرأت، وعندي خطه بجميع ما قرأته عليه في قريب كراسين وفهرست ما رواه جميعه عندي وأنا أرويه عنه، ومما يشتمل عليه الفهرست البخاري ومسلم من عدة طرق، وغالب كتب الحديث وغالب كتب في الأدب وغيره، وآخر روايتي عنه شرح الغريب لأبي عبيدة القاسم بن سلام قرأته عليه في مجالسهم آخرها في العشر الأخير من شعبان سنة ٥٦٧...؛ ومنهم الشيخ أبو البركات عبد الله بن الخضر بن الحسين المعروف بابن الشيرجي سمعت عليه بعض تفسير الثعلبي وأجازني أن أروي عنه جميع ما رواه على اختلاف أنواع الروايات، وكتب لي خطه بذلك في فهرست سماعي مؤرخاً بخامس جمادى الأولى سنة ٥٦٦...، ومنهم

---

(١) ابن خلكان، ١، ٢٤٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٥١.

الشيخ مجد الدين أبو الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد ابن القاهر الطوسي الخطيب بالموصل...، وسمعت عليه كثيراً من مسموعاته، وأجاز لي جميع ما رواه في ٢٦ من رجب سنة ٥٥٨؛ ومنهم القاضي فخر الدين أبو الرضاء سعيد بن عبد الله بن القاسم الشهر زوري سمعت عليه مسند الشافعي ومسند أبي عوانة ومسند أبي يعلى الموصلي، وسنن أبي داود، وكتب له خطه بذلك وهو في فهرستي، وسمعتُ عليه الجامع لأبي عيسى الترمذي ومنهم أجاز لي رواية ما رواه، وكتب لي خطه بذلك في شوال سنة ٥٦٧؛ والحافظ مجد الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي الأشيري الصنهاجي أجاز لي جميع ما يرويه على اختلاف أنواعه، وفي فهرستي خطه بذلك مؤرخاً بشهر رمضان سنة ٥٥٧، وفهرسته عندي بذلك...ومنهم الحافظ سراج الدين أبو بكر محمد بن علي الجياني، قرأت له صحيح مسلم من أوله إلى أخره بالموصل والوسيط للواحدي وأجاز لي رواية ما يرويه في تاريخ سنة ٥٥٩؛ فهذه أسماء خاطري، وقد سمعت من جماعة لم يحضرني روايتهم عند جمع هذا الكتاب.. إذا كان هؤلاء غنية"))[١].

في مكان آخر يستشهد ابن خلكان في سيرة الطرطوشي بمشيخة ((شيخنا القاضي بهاء الدين بن شداد)) التي حصل عليها في دمشق سنة ٦٨٠[٢]، ويحتمل أنه استخرج منها البيانات المقدمة أعلاه.

" أبو طاهر بركات بن أبي إسحاق إبراهيم بن أبي الفضل طاهر بن بركات بن إبراهيم بن علي بن محمد بن أحمد بن العباس بن هاشم الخشوعي الدمشقي الجيروني الفرشي الرفاء الأنماطي كان له سماعات عالية وأجازات تفرد بها، وألحق الأصاغر بالأكابر، فإنه انفرد في آخر عمره بالسماع والإجازة من أبي محمد هبة الله بن أحمد الأكفاني، وانفرد بالإجازة من أبي محمد القاسم الحريري البصري مؤلف المقامات،

(١) نفس المصدر، ٢، ص ٣٥٤-٣٥٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٥٤-٣٥٥.

أجازه في سنة ٥١٢ من البصرة.. واجتمعت بجماعة من أصحاب أبي طاهر المذكور وسمعت عليهم وأجازوني، ولقيت ولده بالديار المصرية، وكان يتردد إلي في كثير من الأوقات وأجازني جميع مسموعاته وإجازته من أبيه"[١].

" أبو الوقت عبد الله بن عيسى بن شعيب بن إسحاق السجزي كان مكثاراً من الحديث عالي الإسناد طالت مدته...، سمعت صحيح البخاري بمدينة إربل في بعض شهور سنة ٦٢١ على الشيخ الصالح أبي جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم بن عبد الله الصوفي بحق سماعه في المدرسة النظامية ببغداد من الشيخ أبي الوقت في شهر ربيع الأول سنة ٥٣٥ بحق سماعه من أبي الحسن عبد الرحمن بن محمد بن مظفر الداوي في ذي القعدة سنة ٤٦٥ بحق سماعه من أبي محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي في صفر سنة ٣٨١ بحق سماعه من أبي عبد الله بن أبي يوسف بن مطر الفربري سنة ٣١٦ بحق سماعه من مؤلفه الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري مرتين أحداهما سنة ٢٤٨ والثانية سنة ٢٥٢"[٢].

"كان أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد بن يوسف الحوفي عالماً بالعربية... واشتغل عليه خلق ورأيت خطه على كثير من كتب الأدب قد قرئت عليه كتبت لأربابها بالقراءة كما هي جرت به عادة المشايخ"[٣].

يتراوح إثبات الوثائق، البيانات الأدبية حول التعليم بالكتاب في حدود واسعة، نص المبدأ المعلن: " رواية الثقة عن الثقة والعدل"[٤]، كان هنالك سلم من صفات رواة الحديث وغير الحديث مثل الثقة (الصادق) المشكوك، الضعيف، الكذاب)، كتبت مؤلفات خاصة فحواها سرد قواعد الرواية، مثلاً كان السمعاني

---

(١) نفس المصدر، ص٨٨.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٠٦.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٣٢.

(٤) السمعاني، أدب الإملاء، ص٤.

يعترف بستة طرق للرواية:" وأخذ الحديث عن المشايخ يكون على أنواع منها أن يحدثك به المحدث، ومنها أن تقرأ عليه ومنها أن يقرأ عليه وأنت تسمع ومنها أن تعرض عليه، وتستجيز منه روايته، ومنها أن يكتب إليك ويأذن لك في الرواية فتنقله من كتابه أو من فرع مقابل بأصله، وأصح هذه الأنواع أن يملي عليك وتكتبه من لفظ لأنك إذا قرأت عليه ربما تغفل أو لا تسمع وإن قرأ عليك فربما تشتغل بشيء عن سماعه وإن قرئ عليه والحضر سماعه كذلك"؛ ويكمل السمعاني:" وإن عرضت عليه وأذن لك أو كتب لك فهو دون هذه الأنواع ولهذا اختلفوا في صحته حتى أن بعضهم كاد يرى الإجازة..

سمعت شعبة يقول:" لو صحت الإجازة بطلت الرحلة".

... وأما إذا أملى عليك المحدث وكتبت أنت من لفظه فلا يتطرق إليه نوع من الفساد؛ لأنه يعرف ما يملي وأنت تسمع وتفهم ما تكتب"[١].

ثم يعرض السمعاني الكثير من الفروض والقواعد التي ينبغي على المملي والمستملي مراعاتها: وينبغي للمحدث أن يصلح هيئته ويأخذ لرواية الحديث أهبته، وليبدأ بالسواك وليقص أظافره إذا طالت، وليأخذ من شاربه وليسكّن شعث شعره وليلبس الثياب البيض، وليكوّر العمامة وليسرح لحيته وليستعمل من الطيب إن كان عنده ولينظر في المرآة وليتقصد في مشيه إذا قصد المجلس وليبتدئ بالسلام لمن لقيه من المسلمين، ويستحب له أن يصلي ركعتين قبل جلوسه، وليستعمل لطيف الخطاب مع أصحابه ويحسن خلقه مع أصحابه وأهل حلقته... لا ينبغي له إخلاف موعده إلا أن يقطعه عن ذلك أمر يقوم عذره به... ولا يحدث إلا من كتابه، فإن الحفظ خوّان ثم يفتتح بقراءة سورة من القرآن ثم يستنصف الناس ثم يرفع صوته بما يريد أن يمليه ولا يرفع صوته إلا بقدر ما يسمع الحاضرين... ثم يقول له المستملي من ذكرت أو من حدثك رحمك الله؟ فيقول المملي: حدثنا فلان وينسب شيخه الذي يريد أن يروي عنه

(١) نفس المصدر، ص ١٠.

حتى يبلغ بنسبه منتهاه... ولا يروي إلا عن الثقات ويجتنب الرواية عن الضعفاء والمخالفين من أهل البدع والأهواء واستحباب رواية المشاهير والعدول... ولا يروي ما لا يحتمله عقول العوام، ولا يجوز للملي أن يفسر إلا ما عرف معناه، وأما ما لم يعرفه فيلزمه السكوت عنه" ("الكلام تشبع منه كما تشبع من الطعام"؛ " المستمع أسرع ملالة من المتكلم "؛ "إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب")، كما ينبغي أن يختم المحدث مجلسه بالحكايات والنوادر ثم بالأناشيد والأشعار.

كل ما تم تسجيله من خلال المجلس ينبغي إعادة قراءته لضبط كل شيء وتصحيح الأخطاء إذ أن أداة الكتابة (القلم) قد لا تخضع لمستعمله، ويرتكب الأخطاء الكتابية، ولم يكن المعلمون يحبون تكرار الحديث الواحد أكثر من مرة (" هذا أثقل من نقل الصخر"- مالك بن أنس").

" ينبغي للملي أن يتخذ من يبلغ عنه الإملاء إلى مَنْ بَعُدَ في الحلقة ويستحب للمستملي أن يقعد على موضع مرتفع مثل دكة أو كرسي فإن لم يجد استملى قائماً وينبغي أن يكون المستملي جوهري الصوت (مثل الطبال في العسكر) وأن يكون متيقظاً محصلاً (المثال السلبي على ذلك: كان عند أبي عبيدة مستملي يدعى كيسان، وقد وصفه أبو عبيدة بسخرية على الشكل التالي:" إنه يسمع غير ما أقول ويقول غير ما يسمعه، ويكتب غير ما يقول ويقرأ غير ما يكتب ويحفظ غير ما يقرأ".) وأن يتخيّر للاستملاء أفصح الحاضرين لساناً وأوضحهم بياناً وأحسنهم عبارة وأجودهم أداءً، ينبغي عليه أن يطلب من الناس إلزام الهدوء وأن يقرأ الصلاة، ويسمي الشيخ باسمه الكامل وأن يستنجد بكل معنى الكلمة كل ما يقوله وأن يكرر لفظ الكلمة إذا طلب منه ذلك أحد.

ينبغي على طالب الحديث أن يتميز في عامة الأمور عن الناس البسطاء، وأن يتبع السنة وأن يحضر المجلس مقدماً، وأن يكون لباسه ليس فاخراً ولكن مرتباً بأكمام عريضة لكي يضع فيها تسجيلاته، وأن يكون مهذباً ومتواضعاً، وأن يكون متأدباً أمام المملي فيحترمه ويبجله، فلا يبري قلمه أمامه، ولا يكشر عن أسنانه، ولا يتكلم بصوت

عال ولا ينام في المجلس، وأن يرعى كل الفروض الخاصة بأدوات الكتابة والحبر، فيكتب بأحرف جميلة وبخط واضح بحيث أن تكون الخطوط سميكة، وأن يراجع تسجيلاته في النهاية وهلم جرا[١].

كل هذه القواعد المقدمة هنا تشكلت بخصوص رواية الأحاديث، ولكنها تخص كذلك رواية كافة النصوص، عملياً لم تكن هذه الفروض الصارمة تراعى باستمرار وكان إثبات الروايات بالوثائق تتعلق بذلك، تارة كانوا يراقبون الإجازات بدقّة كي تعكس الحقائق التامة، وتارة أخرى كانوا يقبلون علنا بأن تكون الإجازات وهمية جزئيا أو كلياً، وهذا ما يشهد على توغل التساهل المتبادل وربما فساد الأخلاق إلى نظام التعليم والتقاليد الكتبية.

تعود أبكر الوثائق المحتفظة حول التعليم بالكتاب إلى نهاية القرن العاشر، ويربط ذلك صلاح الدين المنجد[٢] مع ظهور ونشوء المدارس، ولكن في الوثائق نفسها لا ينوه دوماً إلى الارتباط مع المراكز التعليمية، وفي كل مجموعة من مجموعات المخطوطات العربية توجد بعض الكميات من هذه الوثائق[٣]، تعطي مجموعة مخطوطات في فرع سانت بطرسبورغ من معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا مواد صغيرة وسهلة البحث، ومع ذلك هي نموذجية بالنسبة لأنواع الوثائق، وكذلك الصيغ المستخدمة فيها على السواء، وهي تبين ما قيل أعلاه.

(١) نفس المصدر، ص ٢٥-٢٧٤

(٢) المنجد، ١٩٥٥، ص٢٣٢-٢٥١ (كما أنّ هناك استجدت في الصور الفوتوغرافية تدوينات حول السماع في بعض المخطوطات القديمة).

(٣) Vajda, 1957; EI, III, p. 1020- (G.Vajda)، لم أتمكن من نشر ثلاثين تدوين العائدة إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر حول "قراءة" و"سماع" مقامات الحريري بالمخطوطة القديمة الشيقة من القاهرة (دار الكتب، آداب ١٠٥)، انظر التقريظ لـ إ. فاغنر: ZDMG, Bd 123, 1973, p. 405-407

نجد في المخطوطة[١] أصلها من أزرنجان (تركيا) إجازة في نهاية «المغني في أصول الفقه» كان مؤلفها الخبازي في عداد مدرسي المدرسة الخاتونية بدمشق، وتوفي سنة ١٢٩٢م[٢]، تبدأ الإجازة على ورق ١١١أ كنص مستقل، أي بالصيغ التمهيدية العادية وهي البسملة والحمدلة وتمجيد الشريعة والنبي وأصحابه ثم تقول: «أما بعد، فإن الإمام العالم الفاضل علاء الدين عليبك نور الدين حمزة المتقطن في محروسة أرزنجان حميت عن الحدثان قد قرأ عليّ جميع أصول الفقه المسمى بالمغني والحق أنه كاسمه المغني للإمام والعالم المدقق جلال الملة والحق والدين والمعروف بالخبازي برّد الله مضجعه! قراءة بحث وتحقيق وكشف وباحثني مباحثة كاشفة في مواضعه المعضلات وتكلم كلاماً واقعاً في مواقعة المشكلات، وسألني أن أجيز له أن يروي عني هذا الكتاب فاستخرت الله كبرا واستنصرته هادياً ونصيراً، وأجزت له أن يروي عني هذا الكتاب بعد رعاية ما يجرب رعايته ثم الملتمس منه أن يذكرني في صالح الأدعية كتب هذه الأسطر الأثنية المعدودة إلى العبد الفقير لله الغني علي بن عمر الأرزنجاني، يسر الله مطالبه وأحسن مواقعه! في رابع عشر صفر... ٧٤٦هـ».

يمكن اعتبار هذه الوثيقة نموذجية من حيث الصيغ والبيانات الواردة فيها، فهي تحتوي على اسم مستلم الإجازة وتاريخ التسليم (١٦ حزيران سنة ١٣٤٥)، وإمضاء المدرس الذي منح واسم المؤلّف وعنوان المؤلف الذي تم بحثه، والتنويه إلى مكان التعليم وطريقته وبالذات طريقة القراءة المصاحبة للمجادلة بين المعلم والتلميذ (كما هو معروف هذا جدير بأتباع المذهب الحنفي)، والطلب من حامل الإجازة بالاستناد على معلمه ومراعاة سائر الشروط التي لم يتم ذكرها، ومع ذلك فهي معروفة لدى الاثنين.

---

(١) ص ٩٤٩، وقد جاءت في عداد المجموعة " الوانية" (أي من منطقة بحيرة وان بتركيا) سنة ١٩١٦.

(٢) Brockelmann, GAL, I,S. 382, N48, I.

احتوت ثلاث صفحات مخطوطة[١]، «كتاب البعث والنشور» - المؤلف المنبئ على نهاية العالم لأبي بكر أحمد بن علي البيهقي الخسروجردي (٩٩٤-١٠٦٦)- على تدوينات موجزة حول السماع مستقلة لكل من الأجزاء الأربعة، والجزء الأول « سمع الجزء كله على الوجه» عند الشيخ أبي عبد الله محمد بن الفضل الفراوي...بقراءة أبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني صاحب المخطوطة أبو القاسم علي بن عبد الله الشافعي الدمشقي، والشيوخ أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين المديني الأصفهاني، ومحمد بن علي الآمُلي، ومثبت الأسامي محمود بن ميمون بن عبد الله الديوسي، ينتهي التدوين الأول بتاريخ جمادى الأولى سنة ٥٣٠ بنيسابور في مسجد المطرز.

وتكررت التدوينات المماثلة في الجزء الثاني والثالث والرابع من المؤلف وقد أُرّختْ سنة ٥٣٠، ويبقى مكان التعليم نفس المسجد في نيسابور، بعد ذلك تأتي تدوينات حول المجالس التعليمية التي تمت في دمشق في الحقبة الممتدة ما بين السنتين ٥٤٨-٥٥٢، هذه المرة يمثل المدرس شخصاً الذي ورد ذكره في التدوين الأول بمثابة صاحب المخطوطة الذي درس عند الفراوي، ولكن بحوزتنا ليست المخطوطة التي تم بها التعليم وإنما نسختها التي عملها عيسى بن سليمان بن عبد الله بن عبد الملك الرعيني الأندلسي المالكي في شهر ذي القعدة سنة ٥٧٩هـ/ شباط-آذار ١١٨٤م؛ كما أنه نسخ التدوين الأول من هذه الوثائق، إذن فهذا الأندلسي التابع للمذهب المالكي نال كتاباً (الراجح لما أتى إلى دمشق في طلب العلم) خاصاً بأحد الدمشقيين من أتباع المذهب الشافعي أبو القاسم علي بن عبد الله الذي درس في البداية من هذا الكتاب في مسقط رأس مؤلفه نيسابور ثم درّس به في وطنه دمشق، والبيانات حول انتقال الأشخاص والكتب المخطوطة مستحقة الاعتبار، فمن ضمن الأشخاص المذكورين عالم الحديث الشهير السمعاني (قرأ الجزء الأول من المؤلف بنيسابور) الذي استندنا على مؤلفاته غير مرة.

---

(١) دالة الكتاب ١٠٤٠ ال الورقة ٢٣٠ب -٢٣١ب.

نجد في مخطوطة أخرى[1] المؤرخة تقريباً بالقرن السابع أو الثامن من جديد حدثاً عندما تنسخ الوثيقة من نسختها الأولية، إنها إجازة موضوعة على الصحيفة أأ «تاريخ مكة» للأزرقي (ت٨٥٨) وفحواها الرواية بطريقة القراءة، نجد هنا اسم شخص الذي كتب الإجازة ألا وهو أبو الوليد الباجي (ت١١٠٠ أو ١١٠١) أما شيخه الذي قرّأه الكتاب ومنحه الإجازة فاسمه أبو الحجاج يوسف بن فتوح، بعد ذلك تأتي قائمة ستة أشخاص الذي روى عبرهم هذا الكتاب وأخرهم مؤلفه، وهكذا فإنّ حق رواية هذا الكتاب ينسب بعد قرنين ونصف إلى المؤلف، ويشار أم كل منهم روى الكتاب «بحق قراءته»، يؤكد أبو الوليد أنه استلم الإجازة ليس على هذا الكتاب فحسب، بل «وأجازني (الأستاذ) بجميع مصنفاته ومروياته وبجميع ما يجوز له روايته من منقول ومسموع بشرطه»، تنتهي الإجازة من غير تحديد الزمان والمكان بكلام الشيخ «لقد أجزت له ذلك» وكلام المستلم «وكتبه..»[2].

توجد في إحدى المخطوطات _دالة الكتاب ١٣٨٢ﷲ، الصحيفة ١١٣أ-١١٥ب) إجازة التي لا علاقة لها بالنص الذي يملأ سائر صفحاتها، وإنما مقتبسة من مكان آخر، منح أحمد بن عبد القادر الرفاعي المكي هذه الإجازة تلميذه جلبي بن عجم مدرس زاده القبرصي.

وتركيب هذه الإجازة على الشكل التالي: بعد الصيغ الافتتاحية والتبجيل يأتي مدح خاص لعلم الحديث والإسناد، بعد ذلك يأتي القول عن التلميذ الذي «قرأ نحواً من عشرين حديثاً من أول كتاب مشارق الأنوار للصاغاني وطلب الإجازة في ذلك وفي جميع (!) ما يجوز لي وعنّي روايته فأجبته إلى ذلك... إحياء لصورة سلسلة الإسناد الذي هو من خواص هذه الأمة الكريمة» بعد ذلك يعدد معلميه ويقدم أسانيد المؤلفات« المروية» المارة عبر كثير من الحلقات حتى مؤلفها: «إنني أروي صحيح

---

(١) دالة الكتاب ٦٠٧ ﷲ، الورقة.

(٢) تم تقديم النص العربي للإجازة من قبل ف.ر.روزين في فهرسه: Rosen,1881, p.89.

البخاري عن معلمي الشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري وهو عن معلمه صفي الدين أحمد بن محمد المقدسي الدجاني المدني الأنصاري الكشاشي...مشارق الأنوار للصاغاني عن الشيخ إبراهيم... عن مفتي مكة الشافعي زين العابدين المكي عن أبيه عن جده... حصلت على السند العالي على صحيح البخاري أثناء رحلتي من استنبول إلى مدينة تونس سنة ١٠٩٠ من أحمد بن حسين التونسي المالكي... »، وتنتهي الإجازة بالتنويه إلى زمان ومكان كتابتها: جزيرة القبرص، ١٨ محرم ١١١٥هـ (4حزيران ١٧٠٣م).

تحتوي المخطوطة المتأخرة نسبياً والعادية من القرن الثامن عشر[١] على تعليقات موسعة من مؤلفها في القرن الحادي عشر السرخسي، وهي تعليقات على مؤلف محمد الشيباني (٨٠٤) «السير الكبير»، علم النساخ في آخر المجلد (الصحيفة ٦٩٨أ) الإجازة التي سلمها الإمام قاضيخان لتلميذه الحصيري وسجلها بخط يده، وقد وجدت في مخطوطة بخط مؤلف الحصيري التي نسخها في بخارى في شارع الدهقاق، يبدو أن خط قاضيخان لم يكن واضحاً طالما أنّ الناسخ كان يقرأه بتردد ويرتكب أخطاء.

كان فخر الدين بن الحسن بن منصور الأوزجندي الفرغاني (ت١١٩٦) يحمل لقباً فخرياً قاضيخان وأصله من مدينة أوزكيند (أو أوزجند التي تسمى حالياً بأوزكن في جمهورية قيرغيزيا)، وكانت خلال مرحلة قصيرة عاصمة إحدى فروع الأسرة الحاكمة قره خان، كانت مجموعته التي أنشأها في مجال القراءات المحكمية

والقواعد الحقوقية «فتاوى قاضيخان» شائعة عند فقهاء المذهب الحنفي، درس محمود بن أحمد الحصيري (١١٥١-١٢٣٨) في بخارى ونيسابور وحلب وأضحى مدرساً في المدرسة النورية بدمشق، من الظاهر أن قاضيخان درّس في بخارى بالذات أما الحصيري فنال منه هذه الإجازة: «يقول الحسن...وهو (أي الحصيري) قرأ عليّ

(١) دالة الكتاب ٤٩٩اا.

كثيراً من الكتب التي ألفها علماء الإسلام وصدور الأنام في تمهيد قواعد الفقه والأحكام وتميز الحلال من الحرام منها محمد [الشيباني] عن أبي يوسف عن أبي حنيفة رحمهم الله بحر المبسوط والجامع الصغير ومنها ما اختص بتأليفها محمد«الجامع» و «السير الكبير» و «الزيارات»، وقد يسر الله تعالى على الشيخ.. محمود [الحصيري].. قراءة عامتها وأحكام صنوفها ومبانيها والوقوف على حقائقها ومعانيها فبلغه درجة الاقتياد والدراسة، منحه الله تعالى بها أعطاه وارتقى مرقات الشرف والرياسة ومنحه الله تعالى بها أعطاه وجعل الجنة مأواه. كتبت هذه الأسطر رجاء أن يذكرني بالدعاء الصالح فإنه أحسن مسؤول وأنفس مأمول».

ينحدر من أفغانستان زمن التيموريين نص الإجازة[١] الذي أعدّه عن نفسه أبو الفيض محمد بن محمد بن ماردانشاه الدشتباياضي الملقب بفصيح الفارسي، بعد المقدمة الاعتيادية ينتقل إلى تبجيل العلم لا سيما علم الحديث ثم يبجل مُدَرِّسَهُ أبا محمد بن محمد بن عبيد الله القائني البخاري الهروي، كما أن مدح المعلم من قبل المنشئ يهدف كذلك إلى توصيف وتعظيم النفس «وإن من السعادة العظمى للمسلمين خصوصاً لأهل العلم وجود شيخنا وأستاذنا... وقد كتبت في وصفه شيخ الإسلام السمرقندي أنه أدرك في ريعان عمره محمد بن محمد الجزري[٢]... ومحمد بن جلال العبدي النيسابوري السمرقندي... وحرر في إجازته العالية محمد بن محمد بن علي الخوافي[٣]... فنزل بقرية جغرتان في سنة ٨١٣هـ[١٤١٠-١١م] وبنى بها مدرسته المعروفة بالجلالية ودار الحديث الجلالية... ولقد خرَّج على الصحاح وألَّفَ في النصائح رسائل واختيارات، وصنف في سائر العلوم نسخاً مفيدة وزبراً معتبرةً من المتداولات فمنها في

---

(١) دالة كتاب ٢١٥٨ اا، الورقة ١٤٤ ب-١٢١ب.

(٢) لقد أخذه تيمورلنك من بورصا سنة ١٤٠٢ فقطن في سمرقند وتوفي سنة ١٤٢٩ في شيراز، انظر بارتولد(١٩١٨) المجلد الثاني، الجزء الثاني، الصفحة ٦٦، ١٢٢، والتعليق ١٤.

(٣) فقد كان مدرساً أولاً في المدرسة التي أنشأها أولوغ بيك بسمرقند وتوفي سنة ١٤٤١، انظر بارتولد(١٩١٨) المجلد الثاني ، الجزء الثاني، ص ١٢٦.

مقدمات العلوم كقرسطون العلوم وفي العلوم الأدبية لوامع النحو... وكتاب النصائح الشاهرخية في مجلدين ألفه تحفة لخزانة سلطان الزمان... شاه رخ سلطان... وإن من أعظم السعادات لي أن شرفني الله سبحانه بملازمة جناب جلاله ويسر لي مواظبة الجلوس على عتبة كماله... حتى إني هجرت الإخوان والأوطان وخدمته مدّة تسع سنين من الزمان...فتيسر لي... في تلك المدة قراءة الكتب المتداولة عليه وسماع نسخ المتناولة منه وعليه تفصيله... ».

بعد ذلك تأتي قائمة طويلة من المؤلفات التي درسها مع تحديد زمان ومكان الدراسة: نيسابور، رجب ٨٢٢هـ[تموز – ١٤٢٠]؛ ظاهرة هراة، رجب ٨٢٢، نيسابور«قرب قبر مسلم» جمادى الآخرة سنة ٩٢٣؛ سبزوار، شعبان ٩٢٣؛ تربة الجم، مشهد، باخرز، بيهق وغيرها، ثم يكمل: «واستجزتُ من حضرته راجياً أن يتفضل عليّ ويمنحني إجازة خاصة فيما كتبت ملتمساً أن يحسن إليّ ويعطيني إجازة عامة فيما لم يكتب ويسمح لي برواية كل ما رواه معلماه الكرماني والجزري» بعد ذلك يعد عشرات المؤلفات في العلوم القرآنية والحديث والنحو وعلم المعاجم والأدب والعروض والبلاغة، «حتى أروي عنه جميع ما له فيه حق مما للإجازة فيه مدخل، وللاستجازة في مطمع من مقروءاته ومسموعاته ومناولاته ومجازاته، ومستدراته ومحفوظاته ومخترعات فكره ومؤلفاته مما قد ألف إلى الآن ومما سيؤلف (!) في الثاني من الزمان... وغير ذلك (!) من التواريخ والمواعظ والقصص والحكايات والخطب والأمثال والأشعار والأسماء والمراسلات بأسانيده العالية المنتمية إلى الشيخ صدر الدين إبراهيم بن محمد بن المؤيد بن حمويه وله في مشيخته ٦٧٥ من الرجال والنساء.. وكتب هذا المستجير الخادم المخلص للشيخ أبي الفيض... في ذي الحجة منْ عام ٨٢٨/ [تشرين الأول – تشرين الثاني سنة ١٤٢٥] في ضاهر هراة».

تحتل قائمة المؤلفات المدروسة من قبل القاضي المصري ابن جماعة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي – بما فيها الأسانيد المنسوبة إلى مؤلفيها – أربع

وثمانين صفحة في كل منها خمسة وثلاثون سطراً مكتوباً بخط دقيق وصغير في مخطوطة القرن التاسع عشر[١] وعنوانها «مشيخة قاضي القضاة عز الدين ابن جماعة» وتضم عشرات العناوين في مجال الحديث والفقه والتفسير والكلام والتاريخ وتراجم حياة وعلم اللغة، بالإضافة إلى عناوين بعض المؤلفات الشعرية.

ما يشهد على أن هذا التقليد كاد أن يصل إلى أيامنا هي مخطوطة[٢] تحتوي على مجموعة من الإجازات (عددها ٩١)، وتوجد العديد من الإجازات المستقلة- التي نالها «طلاب العلم» من العصر الحديث في آسيا الوسطى وداغستان وضفاف الفولغا- في خمس مخطوطات عربية من مجموعة سانت بطرسبوغ[٣].

وهكذا يمكننا أن نثبت على أن النظام الموصوف لرواية المعلومات المعبر عنها بصورة شفهية تنعكس في المخطوطات العربية على شكل: ١) أسانيد في الأحاديث الشريفة، وأخبار في تاريخ الطائفة الإسلامية المبكرة، وروايات في تاريخ الجزيرة العربية القديمة، كانت هذه الأحاديث والأخبار والأساطير تنضم أغلبها إلى مجموعات الأحاديث والمؤلفات في مجال علم الحديث وتفسير القرآن والفقه والمؤلفات التاريخية والتاريخية – السيرية والتاريخية – الأدبية في الحقبة الممتدة من القرن الثامن وحتى العاشر، ودخلت بمثابة الاقتباسات بالأسانيد الكاملة أو الناقصة إلى تركيب الكتب المتأخرة نسبياً، ٢) أسانيد على هيئة أحاديث، وهي أسانيد على أعمال الأسلاف، ٣) بيانات حول «رواية» المعارف والمؤلفات المعينة في أخبار السير الذاتية وسيرة حياة تتلاقى في أعمال مختلفة الطباعات والتراكيب والتخصصات، ٤) وثائق حول التعليم بالكتب، وغالباً ما تسمى تلك الوثائق بالسماع أو الإجازة، وكانت تسجل على الصفحتين الأولى والأخيرة من مخطوطة، أو على صحائف منفصلة. وتارة كانت تنسخ

---

(١) دالة الكتاب ٢٠٤٣اا، الورقة ١ب-٤٣أ.

(٢) دالة كتاب ٢٠٤٢اا الورقة ١-١٠٠أ.

(٣) دالات كتاب C٢٣٠٢, D٣٣٢, B٤٦٦٨|C٢١٧٨, C١٣٣٠،أنظر خالدوف، ١٩٧٧.

من قبل الكتاب مع نسخ جديدة للكتب، 5) المؤلفات الخاصة، أي: قوائم الكتب المدروسة مع «سلسلة نسبها» الملائمة، 6) الرواج الأدبي المتكرر لهذه البيانات أو الوثائق[١].

لقد كانوا يستشهدون بها كمصادر الوقائع أو كنماذج الفصاحة وينشئون منها مجموعات، وقد غدا كل هذا بالإجمال عنصراً هاماً لمنتجات الكتب مباشرة كما ساهمت بصورة غير مباشرة على زيادة حجم إنتاجها، وذلك على حساب الحواشي العابرة والأشخاص المذكورين في الأسانيد، وكذلك على حساب إنشاء الأدلاء الكاملة عنها على حد سواء.

إجمالاً إنَّ لذلك النظام علامة مميزة للثقافة الكتبية العربية- الإسلامية الجديرة بها فقط لا غير، فلا تتلاقى علاماتها في المخطوطات العربية – اليهودية ولا العربية – المسيحية، أما في الكتب الفارسية والتركية وسائر الكتب المخطوطة الإسلامية فإظهارها ضعيف لا يكاد يلحظ إلا إذا كان الأمر يجري حول النقل المباشر من العربية، بيد أنه ينبغي الإشارة بأن كل الأرباب المسلمين كانوا يستوعبونها أولئك الذين كانوا يدرسون المؤلفات العربية ويؤدون فيها نصيبهم.

إنّ مجمع المواد المنوه عليها يلقي ضوءاً على التقاليد الإسلامية من داخلها ويوضح الصلات والعلاقات بين أجيال كثيرة من المدرسين وتلامذتهم ويبرز المدارس

(١) إن المصطلحات الخاصة بهذا النظام الموصوف مشتقة من الأصول المستخدمة من الأصول المستخدمة للكلمات التي احتفظت كذلك على المعاني غير الاصطلاحية، فهي قد تتلاقى في أثر أدبي ما في صياغة مفاجئة للكلام وتضلل حتى المستعرب الخبير، مثلاً ارتكب إزي. كراتشكوفسكي بعض الأخطاء في ترجمة مقطع من ﴿﴿رسالة الملائكة﴾﴾ لأبي العلاء المعري – حيث سخر المؤلف من نفسه- ﴿﴿ وحق ملي أن لا يسأل، فإن سئل تعين عليه أن لا يجيب، فإن أجاب ففرض على السامع أن لا يسمع منه، فإن خالف باستماعه ففريضة أن لا يكتب ما يقول، فإن كتب فواجب أن لا ينظر فيه، فإن نظر فقد خبط عشواء﴾﴾ (أبو العلاء، الملائكة، ص ٣٥-٣٦).

العلمية والأدبية واللاهوتية ويطلعنا على تاريخ نسخ المؤلفات المنفردة خلال قرون عديدة وتارة يسمح لنا كشف سلسلة نسب المخطوطات المعينة.

الفصل الخامس
الوَّراقون وتجارة الكتب

أما الوِراقةُ فهي أنكد حرفة

ابن سارة الإشبيلي

لم تكن وسائل الطباعة الآلية معروفة في الشرق الأدنى على خلاف الشرق الأقصى، كانت الوسيلة الوحيدة للحفاظ على التقاليد الكتابية هو نسخ الكتب بكتابة اليد، وكانت الفئة الكبرى من الحرفيين هي فئة الوراقين أو النساخين، ويمكن تقسيمهم إلى صنفين رئيسيين: النساخون المحترفون، وأولئك الذين كانوا ينسخون الكتب من دوافعهم الشخصية تلبية للضرورة أو للهداية.

ينتمي إلى الفئة الأخيرة من النساخين كل المتعلمين، فكما لاحظنا كانت عملية التعليم نفسها تضم نسخ الأدب العلمي كشرط لا بدّ منه، وهذا بات أحد أسباب تكاثر المخطوطات في العالم العربي – الإسلامي إذ كانت تنال تعليماً أدبياً بنسبةٍ لا يستهان بها من السكان المدنيين، لا سيما الرجال منهم كالموظفين[1] وكل رجال الدين الإسلامي، وغالبية التجار والصناع ناهيك عن أسمى الوجهاء والأدباء.

كانت هواية نسخ القرآن الكريم منتشرة على نطاق واسع، وذلك أن نسخ النص القرآني كاملاً ولو مرة واحدة في العمر كأن من ضمن الأعمال الدينية الشريفة، وكادت أن تكون ضرورية لكل مؤمن يعرف القراءة والكتابة، بل وحتى تعلم القراءة والكتابة كان يجري على أسس القرآن الكريم، فكان الوزير أبو شجاع الروذراوري (ت 1095) يمتاز بخطه الجميل، كان لا يخرج من بيته حتى ينسخ شيئاً من القرآن

(١) انظر مثلا عن كثرة عدد ((طبقة الموظفين)) منذ المراحل المبكرة عند ميتس، ١٩٧٣، ص ٧٥ وما يليها.

العظيم[١]، منذ آونة مبكرة ترسخت عادة إهداء مصحف مكتوب إلى مسجد مدينة أو حي بخط المهدي، وثمة أخبار عن أشخاص فعلوا ذلك خلال حياتهم غير مرة، مثلاً أبو عمرو الشيباني (ت822)- كما قال عنه ابنه- جمع وصنف دواوين شعر من ثمانين قبيلة عربية ونيف، وبعد إنهائه وإصداره كل ديوان كان ينسخ القرآن الكريم ويهديه إلى مسجد الكوفة، وهكذا نسخ أبو عمرو خلال حياته أكثر من ثمانين مصحف[٢].

عمل كل العلماء النزهاء وهواة الآداب الرفيعة في نسخ الكتب للاستخدام الشخصي، وقد كان هذا النشاط بالنسبة لهم استئنافاً طبيعياً لعملية سنوات الدراسة وجزءاً لا يتجزأ من عملهم، فنعلم من خلال ملاحظاتنا للمخطوطات أنه في مثل هذه الحالات كانت الصيغة الدارجة في الكولوفون[٣] تقول: «كتبه لنفسه»[٤].

تحتوي الأعمال في مجال سيرة الحياة بيانات حول مختلف الأشخاص الذين بذلوا جهوداً طائلة في سبيل اكتساب المعارف الكتبية، ناسخين بذلك مؤلفات كثيرة، فلنتخذ أمثلة منهم أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (ت ٩٢٥) «ولم يكن يسود النسخ إما يسود أو يبض»[٥]، وكان محمد بن بسطام بن رجاء الضبي ابن عصره بأفريقيا (ت٩٢٥) قد كتب كتباً كثيرة جليلة بخطه، وكان قد اشترى وصيفاً لإصلاح المصباح لأن نسخه كان يتم بالليل، فكان يتخذ له القصب الحلو يقطعه له قطعاً لطافاً، فإذا نعس الوصيف، جعل فيه قطعة ليزيل عنه النعاس متى عرض له[٦]، كان حمدون بن

---

(١) ابن خلكان، ٢، ص ٦٩-٧٠.

(٢) ابن النديم، ص ٦٨؛ ابن خلكان، ١، ص ١٦٥؛ ويقدم أمثلة أخرى خ. ريبيرا (Ribera, p. ١٩٩- ٢٠٠).

(٣) الكولوفون: التذييل الذي يضاف إلى آخر الكتاب أو أوله من قبل المؤلف أو النساخ العرب.

(٤) توجد هذه الصيغة في نهاية مخطوطات مجموعة فرع سانت بطرسبورغ من معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا تحت دالة كتاب ١١٢٤ اا (خالدوف، ١٩٦٠، الرقم ٩٩).

(٥) ابن القفطي، ص ٢٧٣.

(٦) عبد الوهاب، ١٩٥٥، ص٨١.

مجاهد الكلبي (ت ٩٣٣) من إفريقيا يقول لصديقه أنه نسخ بيده ٣٥٠٠ كتاب (ويقصد من ظروف إفريقيا الشمالية في تلك الآونة أن النسخ كان يتم على دفاتر الرق أو الجلد التي تحتوي على ٢—٢٤ ورقة)[١]، وكان أحمد بن محمد القصري (ت ٩٣٤) يقول: منذ أربعين عاماً ما جف لي قلم[٢]، وتؤكد بعض المصادر بالإجماع أن قيروانياً آخر يدعى أبو العرب محمد بن أحمد التميمي (ت٩٤٤-٤٥) كتب بيده أربعة آلاف كتاب[٣]، كما أن عبد الله بن أبي هاشم التجيبي (ت٩٥٧-٩٥٨) كان حسن التقييد صحيح الكتاب، وكانت كتبه كلها بخطه... كان وزن كتبه سبعة قناطر كلها بخطه، حاشا كتابين. فكان لا يحتمل أن يراهما[٤]، وكان أبو عمرو عثمان بن عبد الله بن إبراهيم الطرسوسي (ت١٠١٠-١١) متقن الخط سريع الكتابة، وقد رأى ياقوت بخطه الكثير من كتب الأدب والشعر[٥]، كتب أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الغفار السمسماني (ت١٠٢٤) الكثير، وخطه غاية الإتقان والصحة، وأكثر كتبه بخطه، وقد رآها أبو بكر الخطيب البغدادي ولكن أدركها الغرق ففسد أكثرها[٦]، وألَّف ونسخ محمد بن فتوح الحميدي (ت١٠٩٥) كتباً كثيرة في الأمسيات والليالي، وعندما كان الجو حاراً كان يعمل في الماء[٧]، كان علي بن محمد الفصيحي الأستراباذي (ت١١٢٣) مدرساً في المدرسة النظامية ببغداد، وكان يكتب خطاً في غاية الصحة وكتب كثيراً من كتب الأدب[٨]، وكتب عبد الجبار محمد بن محمد المغربي — الذي انتقل إلى مصر سنة ١١٥٦ — بخطه كثيراً، قال عنه ابن خلكان: «ورأيت منه شيئاً كثيراً وقد أتقن ضبطه غاية

(١) نفس المصدر، ص ٨٢.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٢-٨٣

(٤) ابن القفطي، ص ٨٣.

(٥) ياقوت ، إرشاده، ٥، ص٧٣.

(٦) ابن خلكان، ١، ص ٣٣٦.

(٧) Eche, 1967, p.195

(٨) ابن خلكان، ص ٣٤٤.

الإتقان وهو حسن الخط على طريقة المغاربة، وأكثر ما كتب في الأدب»[1]، كان الدمشقي الحسن بن محمد بن إسماعيل القيلوبي (ت١٢٣٥) يزعم أنه نسخ بيده ألفي مجلد[2]، ويقولون عن المؤرخ والأديب المشهور ابن الفوطي (١٢٤٤ - ١٣٢٣) أنه كان يكتب بخط بديع أربع كراسات (أي حوالي أربعين ورقةً) يومياً، وفي بعض الأحيان كان يكتب وهو مستلقي على ظهره[3]، ونسخ علم الدين القاسم بن محمد البرزالي (ت١٣٢٨) بخطه الجميل والصحيح عدداً هائلاً من الكتب بما فيها المجلدات الكبيرة والصغيرة، وقد ملأت أربعة دواليب[4]، من البديهي أن المؤلفين المثمرين (انظر الفصل الثالث) وجامعي الكتب (انظر عنهم في الفصل الثامن) والكتبيين كانوا ينسخون كثيراً في مراحل مختلفة من أعمارهم.

لم يكن نسخ الهواة يرضي كافة متطلبات الكتب، فلهذا كان في الغالب يوجد أناس مستعدون لنقل هذه المجهودات الطويلة والمرهقة على أكتاف غيرهم، مثلما كان يوجد أناس مضطرون لممارسة مهنة الوراقة من أجل كسب الرزق أو الخدمة، من كان من الطبقة الأدنى كان من الممكن أن يعمل ناسخاً للكتب لشخص أعلى منه درجة، وفي الغالب كان هذا الواجب يقع على عاتق الناس التابعين من مختلف الفئات، كالعبيد والمعتقين من الطبقات الفقيرة.

تعود أولى الأخبار حول نساخ الكتب الأوائل إلى عهد الأمويين، أمَّا في العصر العباسي وفي عهد المأمون فقد تم توفير النساخين والمترجمين والمؤلفين المميزين[5]. كان

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٠٣.

(٢) Eche, 1967, p.195 إذا صدقنا هذا العدد المنتهي بالصفر فهذا يعني أنه كان ينسخ خلال أربعين عام خمسين مجلد أو عشرة آلاف ورقة في السنة أي حوالي ثلاثين ورقة يومياً من غير أيام العطل أو الأعياد.

(٣) Eche, 1967, p.179-180.

(٤) نفس المصدر، ص ٢٤١.

(٥) ابن القفطي: كُتَّاباً حُذَّاقاً يكتبون بين يديه، .Eche, 1967, p. 23, 380, 47, 36

بحوزة المؤرخ الواقدي غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار [١]، كما عمل في خدمة الفيلسوف الكندي (الإنسان الوجيه والثري) جماعة من الوراقين[٢]، كما عمل في مكتبة ابن فطيس (ت١٠١٢) بقرطبة ستة وراقين أُجَرَاء[٣].

كان أحمد بن حنبل (ت ٨٥٥) في شبابه يكسب كسباً إضافياً بممارسة مهنة الوراقة[٤]، ومن ضمن العلماء المضطرين إلى كسب رزقهم وموارد عيشهم بنسخ الكتب الفيلسوف واللاهوتي المسيحي المشهور يحيى بن عدي (ت٩٧٤) من بغداد، ولما عاتبه بعض معارفه على ملازمة النسخ والقعود قال له: «" من أي شيء تعجب أمن صبري وقعودي؟ لقد نسخت بخطي نسختين من تفسير الطبري وحملتها إلى ملوك الأطراف، وقد كتبت من كتب المتكلمين مالا يحصى، ولعهدي بنفسي وأنا أكتب في اليوم والليلة مائة ورقة وأقل»[٥]، وكتب الأديب أبو حيان التوحيدي (ت١٠٢٣) بكل أسف وشجن أنه كان مضطراً إلى ممارسة«حرفة الشؤم الوراقة» عند إسماعيل بن عباد الصاحب[٦]، قال أبو حاتم الوراق في بيتين شعريين بعد أن مارس مهنة الكاتب خمسين عاماً في نيسابور:

إن الوِراقة حرفةٌ مذمومةٌ   محرومةٌ عيشي بها زَمِنُ
إن عشت، عشت وليس لي أُكُلٌ   أو مُتُّ، مُتُّ وليس لي كَفَنُ[٧]

---

(١) ابن النديم ، ص ٩٨.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٦١..

(٣) بويكو ، ١٩٧٧، ص٢٠٣.

(٤) Abbott, 1967, p.203.

(٥) ابن النديم ، ص ٢٦٤؛ ابن القفطي ص.٣٦١؛ ميتس، ١٩٧٣، ص١٥٨.

(٦) ياقوت، إرشاده، ٥، ص ٣٨٤، ٣٩٣.

(٧) ثعالبي، يتيمة، ٤ ، ص ٤٤٢-٤٤٣؛ قارن مع ميتس، ١٩٧٣، ص ١٥٨..

كان علي بن أبي بكر محمد بن الدقاق (ت١٠٩٦) يمارس مهنة الوراقة لإطعام والدته وزوجته وابنته، فقال: إنني كتبت «صحيح» مسلم في تلك السنة سبع مرات، فلما كان ليلة من الليالي رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت..فقيل لي: ادخل الجنة «ولما دخلت الباب وصرت من داخل، استلقيت على قفاي ووضعت إحدى رجلي على الأخرى وقلت: آه استرحت والله من النسخ!»[١].

بيد أن المتزهدين مارسوا مهنة النسخ دون أن يتضايقوا من ذلك، وإنما كانوا يتطوعون ويشددون في كسب موارد عيشهم«بجهد أيديهم وعرق جبينهم» كان الزاهد مالك بن دينار البصري (ت ٧٤٩) «لا يأكل إلا من كسبه وكان يكتب المصاحف بالأجرة»[٢]، كان عالم اللغة والفقيه أبو سعيد السيرافي (ت٩٨٧) زاهداً ورعاً لم يأخذ على الحكم أجراً، فكان لا يخرج إلى مجلس ولا إلى مجلس التدريس حتى ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرتها عشرة دارهم تكون بقدر مؤنته ثم يخرج إلى مجلسه إنما كان يأكل من يمينه[٣]، وكان أبو جعفر محمد بن صالح بن هانئ الوراق النيسابوري (ت٩٥١) صبوراً على الفقر لا يأكل إلا من كسب يده[٤]، كان لدى ابن الهيثم (المتوفى حوالي ١٠٣٩) خط قاعدة غاية في الصحة... كان ينسخ في مدة سنة ثلاثة كتب في ضمن اشتغاله، وهي «أقليدس» و «المتوسطات» و «الماجسطي» ويستكملها في مدة السنة فإذا شرع في نسخها جاءه من يعطيه فيهم مائة وخمسين ديناراً مصرية فيجعلها مؤنته لسنته، ولم يزل على ذلك إلى أن مات بالقاهرة في حدود سنة ٤٣٠هـ[٥]، وكان أبو العباس أحمد بن عبد الله اللخمي الفاسي (١٠٨٥-١١٦٤) قد نسخ بخطه كثيراً من كتب الأدب وغيرها، وكان جيد الخط حسن الضبط حتى أن والكتب التي توجد بخطه مرغوب

---

(١) ابن الجوزي، منتظم، ٩، ص ١٠١؛ ياقوت، إرشاد، ٦، ص ٣٣٧؛ قارن مع ميتس، ١٩٧٣، ص ١٥٨.

(٢) ابن خلكان، ص ٤٤٠.

(٣) ياقوت، إرشاده، ٣، ص ٨٧.

(٤) سبكي، ٢، ص ١٦٤.

(٥) ابن القفطي، ص ١٦٧.

فيها للتبرك بها ولإتقانها[١]، وكان منتجب الدين أبو الفتوح أسعد بن محمود بن خلف الأصفهاني (١٢٠٣- ١١٢١هـ) من الفقهاء الفضلاء الموصوفين بالعلم والزهد، مشهوراً بالعبادة والنسك والقناعة، لا يأكل إلا من كسب يده، وكان يورق ويبيع ما يتقوت له[٢].

كل ما ورد قد يترك انطباعاً أن المكانة الاجتماعية لدى ناسخي الكتب كانت دنيئة جداً وأنّ أجورهم كانت زهيدة، لكن الأمر لم يكن هكذا بالضبط، لكن ثمة أشياء تجعلنا نعتقد أن أتعاب الوراقين كانت تعتبر عالية الأهلية، ويدفعون عليها على مستوى المهن الفنية، أما التعابير الانفعالية عن العلاقة السيئة تجاه مهنة الوراقة، فالراجح أنّ السبب الدافع لهذا الاتفاق المشؤوم للأحوال هو العادة الجديرة بالقرون الوسطى وهي الشكوى من الوضع القاسي، ولكن الطامحين والواثقين من علو رسالتهم والآملين باعتلاء مناصبهم هم الذين كانوا يعتبرون أن وضع ناسخي الكتب قاسي لا يحتمل، والأجرة التي سبق التنويه عنها والتي قدرها عشرة دراهم على عشر صحائف كبيرة جداً (يحتمل أن السيرافي كشخص ذو نفوذ كان له أثرياء من الزبائن)، كما أن الأجرة اليومية مثل هذه كبيرة أيضاً إذا أخذنا بالحسبان علو سعر العملة في تلك الآونة[٣].

ثمة أمثلة كثيرة أخرى على مخطوطات معروضة للبيع وأمثلة على أجور النساخين العالية، فمن ذلك: كان لدى أبي يعقوب يوسف بن يعقوب ابن خرزاذ النجيرمي (ت١٠٣١) خط ليس جيد في الصورة وهو في غاية الصحة«وكذلك خطوط

---

(١) ابن خلكان ،١، ص ٥٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٦٧، كما حصل على العديد من الأمثلة المماثلة من المصادر ج. مقدسي، ١٩٨١، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٣) بولشاكوف، ١٩٨٢، ص ١٩٦-١٩٧، كما يروى عن أبي سعيد السيرافي نفسه أنه كان يكلف تلاميذته بإعداد نسخة من كتاب ما فيوقع من غير أن ينظر إليه بأنه "قرئ عليه" وذلك بغية الرفع من قيمتها، وهكذا كان يضارب بنفوذه، وإذا أخذنا قصة ياقوت (إرشاد، ٣، ص ١٠٥) نجد أن هذه الوشاية البشعة تناقض غيرها من الأخبار حول طبيعة السيرافي الأخلاقية التي لا تشوبها شائبة.

جماعته» أي اللغويين؛ ولأهل مصر رغبة وتنافس كثير في خطه حتى بلغ سعر النسخة من ديوان جرير بخطه عشرة دنانير[١]؛ وكان أبو الفوارس الحسين بن علي ابن الخازن (ت١١٠٩) فريد عصره في الكتابة، وكتب ما لم يكتبه أحد فإنه كتب فيما كتب خمسمائة نسخة من كتاب الله العزيز ما بين ربعه وجامع[٢]، وكان أبو الفضل أحمد بن محمد ابن الخازن الدينوري البغدادي (ت١١٢٤) الكاتب الشاعر فاضلاً نادرة في الخط أوحد وقته فيه.. كتب من المقامات (ويحتمل الحريري) نسخاً كثيرة وهي في أيدي الناس موجودة[٣]، وكان القاضي والفيلسوف من نيسابور زين الدين عمر بن سهلان الساوي (المتوفى حوالي ١١٤٥) يأكل من كسب يده ويرتفق بالنسخ، ويبيع نسخه من «كتاب الشفاء» لابن سينا بخطه بمئة دينار[٤]، وكان والد الفقيه الشافعي من القرن الثاني عشر الجويني الملقب بإمام الحرمين ينسخ بالأجرة، فاجتمع له من كسب يده شيء اشترى به جارية موصوفة بالخير والصلاح ولم يزل يطعمها من كسب يده[٥]، وكتب ابن القصار (ت١١٨٠) بخطه الكثير من كتب الأدب وشعر العرب، ويقع في خطه الغلط مع كثرة ضبطه واحترازه، قيل أنه لم يكن ذكياً ولم يكن في النحو كما هو في اللغة وكانت طريقته في الخط حسنة، والناس متنافسون في خطه ويغالون به، وكان حريصاً على الفوائد[٦]، وكان أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم الملقب بفخر الكتّاب الجويني البغدادي (ت١١٨٨) قد كتب كثيراً ممّا في أيدي الناس بأوفر الأثمان لجودة خطه ورغبتهم فيه... وليس بمصر الآن من يكتب مثله[٧]، ومارس نسخ كتب الحكمة مقابل أجرةٍ الطبيبُ

---

(١) ابن خلكان، ٢، ص ٣٥١.

(٢) نفس المصدر، ١، ص ١٦٢.

(٣) انفس المصدر، ص ٤٧.

(٤) البيهقي، تتمة، ص ١٢٧.

(٥) ابن خلكان، ١، ص ٢٨٨.

(٦) نفس المصدر، ص ٣٤٤.

(٧) نفس المصدر، ص ١٤٤.

أبو الحسين صاعد بن هبة الله المؤمّل الخظيري (ت١١٩٥)[١]، كان أمين الدين ياقوت بن عبد الله الموصلي الملكي (١٢٢١) ينسخ بكثرة «وانتشر خطه في الآفاق وكان في نهاية الحسن»، وكان مغرماً بنسخ الصحاح للجوهري... كل نسخة في مجلد واحد، فكتب في ذلك ابن خلكان: «رأيت منها عدّة نسخ»[٢]، وكان الشاعر مجد الملك أبو الفضل جعفر بن محمد مختار الأفضلي (١١٤٨٠-١٢٢٥ القاهرة) فاضلاً حسن الخط وكتب كثيراً وخطه مرغوب فيه لحسنه وضبطه، وله تواليف جميع ما فيها أشياء لطيفة[٣]، ونسخ الأديب والمؤرخ النويري (ت١٣٣٢) صحيح البخاري ثمان مرات وباع النسخ بألف درهم[٤].

كما تبين من الأمثلة المقدمة أعلاه أنَّ الإبلاغ عن النشاط الوراقي لشخص ما يضم تقدير كيفية كتابته وأوصاف مميزات خطه، وكانت كيفية الكتابة تقدر أولاً بالنعوت «حسن»، «مليح»، «جيد»، وبأفعال التفضيل «في منتهى الحسن»، «في غاية الجودة»، وهلم جرا[٥]، وكانت هذه الأصناف الجمالية تعبر عن الانطباع عن الشكل الخارجي وصورة الكتابة إجمالاً والهيئة الكتابية لدى بعض الأحرف المنفردة، وكانت المجموعة الأخرى من التقديرات تعبر بالكلمات«صحيح»، «صحة»، «ضبط»، «إتقان»، «تحقيق الخط»، وتارة بالتعابير الموسعة مع استخدام أسماء التفضيل[٦]، هنا كانت الكتابة تقدر من حيث ضمان ورقة نسخ النص ومراعاة القواعد النحوية

---

(١) ابن القفطي، ص ٢١٤.

(٢) ابن خلكان، ١، ص ٢٠٧.

(٣) نفس المصدر، ١، ص١١٣- ١١٤، وكان كذلك ابن خلكان يستخدم النصوص المكتوبة بخط يده.

(٤) توجد النسخة الخامسة من بين المجلدات الثمانية الفخمة التي كُتبت بالقاهرة في ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م حالياً في استنبول (مكتبة "كوبريلي" الرقم٣٦٢) انظر Weisweiler, 1962,S. 150.

(٥) انظر مثلاً ابن النديم، الصفحات ٧٣، ٧٩، ٨٢؛ ابن خلكان، ١، الصفحات٤٢٦، ٤٦٠، ٥١٦؛ ٢ الصفحات ٢٠٨، ٢٥٦، ٢٦١.

(٦) النديم، ص ٧٩ الأسطر ٣-٤ و٢٦-٢٨ الأسطر ١-٣؛ ابن خلكان، ١؛ ابن خلكان، ١، ص٣٣٦، ٣٤٤.

والإملائية وعدم تحريف المضمون وعدم وجود أخطاء، وكلتا الصفتين تبرزان أكثر إذا توافرتا في خط شخص واحد[١]، أو تتواجهان في وصف مفصل لكتابة شخص ما[٢]، كانت جودة الخطوط العالية تثير رغبات الناس في الحصول على المخطوطات المكتوبة بهذا الخط، ويقدرون الطلبات عليها وثمنها الغالي، وكانت الصفات المعممة المعيارية تقريباً وتقديرات الخطوط (كخطوط مختلف أصناف من الناس كالمؤلفين والكتّاب الموظفين وناسخي الكتب)، تزداد أحياناً بملاحظات حول طريقة كتابة شخص ما وأساليبها الفردية[٣]، في مرحلة تزايد الكتب المخطوطة نجد أن ضرورة وضوح ومتانة الكتابة حتى بغض النظر عن الأسعار السوقية للمخطوطات، وكان الخط الحسن شرطاً للمستقبل لدى العديد من الأشخاص المعروفين منذ شبابهم، وكانوا يستنتجون بناء على الخط الصلاحية المهنية لدى الموظفين عند التحاقهم بمختلف الوظائف.

كما أن بيانات إنتاجية العمل لدى نساخ الكتب أخذت اهتماماً واسعاً، فأربعون ورقة في اليوم معدل عالٍ جداً، أما مائة ورقة فشيء خارق للعادة وشبه مستحيل،

---

(١) ابن النديم، ص ٧٩ الأسطر ٢١-٢٣، ص ٨٠، الأسطر ٢٥-٢٧؛ ابن خلكان، ١؛ ابن خلكان، ١، ص ٥٤-١١٣، ٥١٩؛ ٢، ص ١٤٢؛ ابن أبي أصيبعة، ١، ٢٥٩.

(٢) ابن النديم، ص ٩٨. انظر مثلاً ابن النديم الصفحات ٧٣، ٧٩، ٨٢؛ ابن خلكان، ١، ص٣٤٤: "ويقع في خطه الغلط مع كثرة ضبطه واحترازه، وكانت طريقته في الخط حسنة والناس يتنافسون في خطه ويغلون فيه" (انظر ابن القصار أعلاه) وشيقة كذلك ملاحظة ياقوت (إرشاد، ١، ص ٨١) عن أحمد بن أحمد بن أخي الشافعي وكان جماعة من عُمان "يفتخرون بالنقل من خطه، ورأيت خطه، وليس يجيد المنظر لكن متقن الضبط".

(٣) قال ابن القفطي (ص٢٤٥) عن النسخة من "السماع الطبيعي" في عشرة مجلدات التي أشهدها لأبي القاسم عيسى بن علي بن عيسى بن داود بن الجراح: "وهي في غاية الجودة والحسن والتحقيق، وكان أشبه شيء بخط ابن أبي مقلة في القوة والجريان والطريقة"، وكذلك نجد عنده (ص٤٤٤) ملاحظة على خط ابن رضوان المصري على الشكل الآتي:" وكان يكتب خطاً متوسطاً من خطوط الحكماء جالساً مبيناً الحروف"، وكتب ياقوت (إرشاد ٦، ص ٢١) عن ابن أبي جرادة:" وخطه مليح جداً، على غاية من الرطوبة والحلاوة والصحة".

يقولون عن لسان الأصمعي (ت٨٣١) أنه نسخ خلال مساء واحد أربعين قصيدة للحطيئة[١].

إن نسخ كتب لقاء أجرة لم تختلف كثيراً عن نسخ كتب أخرى لبيعها الحر في الأسواق، بيد أنه في المراحل الإسلامية الأولى طرأ سؤال حول إباحية وقانونية بيع الكتب (من المحتمل أنّ الأمر كان يجري حول القرآن الكريم)، وفقط بعد ازدياد كمية الكتب دخلت هذه العملية رواجها ونالت مصادقة الفقهاء، اعتباراً من القرن الثامن وما يليه صارت تجارة المخطوطات تزدهر وتساهم في رواجها الواسع النطاق في كافة أرجاء الخلافة، وفيما بعد في البلدان حيث انتشر الإسلام.

كانوا بالعادة يسمون تاجر المخطوطات ومواد الكتابة بالوارق[٢]، بالعادة كان الشخص الممارس لهذه المهنة إنساناً متعلماً وعند الحاجة كان ينسخ النص المطلوب مقابل أجر معين، ويقصد من مهنة الوراقة في التنويهات المبكرة نسخ مصاحف القرآن الكريم كتنفيذ طلب ما أو للبيع، عرف القرنان الثامن والتاسع الوراقين الذين كان نشاطهم مرتبطاً مع المحدثين، كانوا يعملون في البصرة وواسط والكوفة[٣]، وكان الكثير من اللاهوتيين والفقهاء في تلك الآونة (الشيباني، والشافعي، ويعقوب بن شيبة، داود الظاهري) يلتجئون إلى خدمات الوراقين بغية إعداد نسخ المؤلفات اللازمة، فيتعرضون من ذلك لاستنكار زملائهم المحافظين على القديم الذين كانوا يفضلون عن ذلك الرواية الشفهية أو في أسوأ الأحوال كانوا ينسخون النصوص بأنفسهم.

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٢، ١٧٤، والأرقام المنتهية بالصفر كالأربعين والمئة في هذه الأخبار هي أرقام تقريبية.

(٢) استخدم الحطيئة في قصيدته كلمة " الوراق " بمعنى "صاحب الملك (أو الفضة)" وهي مشتقة من الأصل "وِرْق" (أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، ٢، ١٦٠) ويحتمل أن كلمة "وراق" مشتقة من "وَرَق" التي صارت تستخدم مؤخراً، كما اشتق منه الفعل "ورَق" و"يورّق".

(٣) توجد أسماءهم مع الاستشهاد بالمصادر عند:- Abbott, 1939, p.29; 1957, p22-24;Abbott, 1967, p. 46-47. Abbott

كان الوراق كذلك صانعاً وتاجراً، وكان اتفاق هذين النوعين من النشاط اعتيادياً في تلك الآونة، فكان الوراق يجلس في دكانه أو حانوته حيث تعرض على الرفوف للبيع مخطوطات وكان يبيع أصلها أو نسخاً منها.

كانت الدكاكين والحوانيت تشكل صفوفاً تجارية كاملة في أسواق بغداد ودمشق وحلب والقاهرة وغيرها من المدن الكبرى، ومن بين الأخبار الكثيرة عن صفوف الحوانيت لبيع الكتب سوف ننوه إلى البعض منها، كما أخبر ابن رستة كان في سوق الكتب ببغداد في القرن التاسع أكثر من مئة متجر للوراقين[١]، واشتهرت سوق الكتب بقرطبة في القرن العاشر حيث عملت الكثير من النساء بالنسخ المحترف للكتب ثم كنَّ يسوّقنها عبر الوراقين متنافسات بنجاح مع الرجال، إذ أنهن كنَّ يعملنَ بدقة أكثر وبثمن أرخص، وهناك خبر أنه في إحدى ضواحي قرطبة كان عددهنَّ يعملنَ مائة وسبعين ناسخة للقرآن الكريم بالخط الكوفي، والبعض منهن معروفات بأسمائهن[٢]، كما ازدهرت في إشبيليا في عهد الموحدين (القرن الثاني عشر) سوق الكتب[٣]، وتعود إلى القرن السادس عشر أخبار حول كثرة حوانيت الوراقين في مراكش وفاس، وعن ناسخي الكتب القاطنين في منطقة هاوز الجبلية والموردين منتجاتهم إلى فاس[٤].

توجد بعض التدوينات حول زيارة حوانيت الوراقين في تراجم حياة كثير من مشاهير الشعراء والمؤرخين واللغويين والفقهاء واللاهوتيين، ولا سيما لما يجري الكلام عن البغداديين في الحقبة الممتدة ما بين القرن الثامن والثالث عشر[٥]، وبفضل هؤلاء الزبائن المصطفين تحولت حوانيت الوراقين إلى شبه أندية مدنيةٍ يجتمع فيها ممثلو النخبة

---

(١) ابن رستة، ص ٢٤٥.

(٢) Rubera, 1928, p.198-199, 202-204.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٠٨.

(٤) ليون أفريكانو، ص ٧٦،١٣٧، ٢٢٢.

(٥) ابن النديم، ص ٩٨.

المثقفة، وكما هو معروف عن قصة الجاحظ أنه كان يستأجر حوانيت الوراقين كل مساء كي يتمكن من قراءة الكتب فيها[١]، وكان أبو القاسم القصري في عهد عضد الدولة (حكم من ٩٤٩ إلى ٩٨٣) يجلس في سوق الوراقين ببغداد ويقوّم النجوم[٢]، لزيادة الطلب على المخطوطات كان الوراقون مضطرون إلى التوسع في إحتياطات النسخ الأصلية، وكانت هنالك منابع مختلفة لإعدادها، ممثلاً عند سعيهم للحصول على الكتب الجديدة كانوا يحضرون محاضرات مجانية كان يلقيها أشخاص ذوي نفوذ ويدونون ما يملون عليهم، وقد حفظ التاريخ قصة الفرّاء عندما كان يملي على الوراقين مؤلفه الجديد معاني القرآن، وقد أراد الوراقون احتكار التدوين وبيع خمس أوراق بدرهم، لكن المشترين استاءوا من ذلك، ولما اعترض الوراقون وصرحوا أنه يجب عليهم أن يربحوا من هذا العمل هدد المؤلف أنه سيملي مؤلفه لعدد أكبر من المستمعين وبتفصيل أكثر، عندئذ وافق الوراقون على نسخ عشر أوراق بدرهم[٣]، ولما ظهرت المكتبات العمومية غدا الوراقون زوارها الدائمين، مثلاً كانت في «بيت العلم» سابور ببغداد (القرن الحادي عشر) خادمة خاصة توزيع الكتب على الناسخين[٤]، وكان الوراق يفرح على أنه حصل نسخ المؤلفين الأول أو غيرها من نسخ المؤلفات الموثوق بها التي كان بوسعه تسويق أصلها أو نسخ منها.

وهكذا كان الوراق يلعب تارة دور ناشر الكتب، وتارة أخرى كان يؤدي وظائف الناشر الأول لبعض المؤلفات.

---

(١) ابن أبي طاهر...صار يجلس في سوق الوراقين ببغداد الشرقية (ابن النديم، ص١٤٦)؛ وكان البغدادي الأعمى حبشي بن محمد بن شعيب الشيباني (ت١١٧٠) خلال عشرين سنة يأتي كل ليلة بغير قائد إلى سوق الكتب الواقع قرب بيته (ياقوت، إرشاد، ٣، ص٣)؛ انظر عن البصرة والكوفة عند ابن النديم، ص٥٨.

(٢) ابن النديم، ص ١١٦، ١٤٣.

(٣) ياقوت، إرشاد، ٧، ص ٢٧٧؛ ابن خلكان، ٢، ص ٢٢٨، انظر عن الوراق الخطاط المصري الذي كان ينسخ خمسين ورقة بدينار واحد عند ابن خلكان، ١، ص ٥١٦.

(٤) أبو العلاء، غفران، ص ٧٣؛ Eche, 1967, p.113

إن التقارير لا توضح دوماً ما إذا كان الكلام يجري عن النساخين الممارسين لتجارة الكتب أو عن أصناف أخرى من النساخين، غالباً ما كانت تستعمل المصطلحات الدالة عليهم (كاتب، ناسخ، نساخ، وراق، خطاط، محرر) وعلى نشاطهم (الأفعال المختلفة بمعنى «أن يكتب»، «أن ينسخ») بصورة غير منطقية أو متناقضة، ولم تكن هناك حدود اجتماعية- طائفية، وكانت الأدوار الاجتماعية تتغير بمقتضى الأحوال، وكان بوسع الوراق أن يمازج نشاطه في مجال تجارة الكتب ليس فقط مع نسخها، بل وفي بعض الأحوال مع التأليف إذ أننا نصادف في بعض الأحيان المؤلفين الملقبين بالوراقين أو الناسخين[١]، كتب حسن حسني عبد الوهاب بأنه تعود إلى مرحلة امتدت حوالي ثلاثين عاماً من تاريخ إفريقيا في عهد أسرة الزيريين الحاكمة تراجم حياة لا تقل عن عشرين أديب وعالم ملقبين بالوراقين[٢]، وإجمالاً يحصى هؤلاء الأشخاص بالمئات.

كما كتبت مؤلفات خاصة حول مهنة الوراقة[٣]، زد إلى ذلك كان مصطلح «الوراقة» يفهم بصورة واسعة فيقصد منه كل من ينسخ كتباً مقابل أجرة (سواء أكان يخدم شخصاً ما أم يعمل مستقلاً بذاته)، وكانت تروى عن الوراقين فكاهات[٤] كثيرة، وكان الناس يتكلمون عن مهنتهم وخطهم ونتاجهم ببغض طالما أن سعيهم نحو

---

(١) ومنهم مؤلف فهرست ابن النديم، وبعض الأشخاص الآخرين الذين يخبر عنهم التستري بن علي (ص١٠٧) وأبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور (ص١٤٦-١٤٧) وسندي بن علي (ص١٤١) وغيرهم؛ وفي المصادر المتأخرة الشاعر محمود بن الحسن (سيوطي، بغية، ص٣٤٥) وأبو المحاسن بن أبي نصر بن الدباس الناسخ (ابن خلكان، ١، ص ٢٦٧)، بيد أن الرأي بأن أبا حاكم السجستاني (ت٨٦٤) عالم اللغة البغدادي الكبير امتنع في آخر حياته عن النشاط العلمي وأخذ يمارس تجارة الكتب (Brockelmann) مستند بلا شك على التفسير الفاشل للنص في المصدر

(٢) عبد الوهاب، ١٩٥٥، ص ٨٧.

(٣) وتنسب الأقدم منها إلى أبي زيد البلخي (ابن النديم ، ص ١٣٨).

(٤) مثلاً قالت زوجة أحد الوراقين لزوجها بعد أن تخاصمت معه: "أبلاك الله بقلمٍ جافٍ وسكينٍ صدئ وورقٍ رديءٍ ويومٍ نديٍ وسراج ينطفى!" (السمعاني، أدب الإملاء، ص ١٦٢).

الأرباح وكان هذا يؤثر سلبياً على كيفية نسختهم التي كانت تتفوق عليها بلا شك مخطوطات معدّة تحت إشراف العلماء والعائدة إلى مؤلفيها أو مجرد مستنسخة «لنفسه»، لقد تبين عملياً أن «الهواة» كانوا ينسخون كتباً بأهلية أكثر من النساخين «المؤهلين» الذين كانوا يعملون بدورهم كهواة سطحيين عديمي الخبرة دون التعمق بالمضمون، فيستعجلون ولا يلتزمون الدقّة، ولكن كان يوجه إلى الوراقين المدح والاعتراف بوظائفهم المفيدة اجتماعياً[١]، ويمكن أن نقدر حالة الوراقين الاجتماعية كسائر التجار، وفي بعض الأحيان كان الوراقون يسلكون سلوكاً فاضلاً أمام الموظفين من الرتب العالية[٢].

مارس الوراقون كذلك تجارة السمسار، ولكن لأجل تحديد هذا النوع من تجار الكتب، كالوسيط أو المندوب التجاري كانت هنالك مصطلحات أخرى كدلاّل وسمسار، يظهر في المصادر الأخرى مصطلح «كُتُبي» الذي لا يختلف عن المصطلحات الثلاثة المذكورة، وكان الدلال الكتبي عادة يتجول مع بضاعته ويعرض المخطوطات للشخصيات الحاكمة من هواة جمع الكتب، وكان الحكام يبحثون بأنفسهم عن الوسطاء ويستأجرونهم لكي يحصلوا لهم على المؤلفات أو المخطوطات المطلوبة، هكذا تصرف الخليفة الأموي في قرطبة الحكم الثاني (القرن العاشر) الذي كان يشتري الكتب بالجملة من الشرق الأدنى، كما اشترى ابن سينا عبر السماسرة من بغداد الأدب الفلسفي، ولكن لما جاءت الكتب إلى أصفهان سخط كثيراً على مضمونها وغلاء ثمنها[٣]، كما أرسل أيضاً أرغون الداودار (ت١٣٣٠) من العراق إلى القاهرة ألفي دينار من أجل الحصول عبر السمسار على مجموعة واحدة[٤]، لقب بدلال الكتب

---

(١) يروون مثلاً ما قاله ابن حنبل باستحسان عن هذه الحرفة (الغزالي، ٢، ص٦٩).

(٢) مثلاً قصة عند ياقوت: إرشاد، ٥، ص ٦٧.

(٣) خالدوف، ١٩٨١أ، ص ٤٥-٤٦ مع إسناد على "المباحثات" لابن سينا المستشهدة عند المهداوي(Mahdavi ١٩٥٤) ص٢٠٧-٢٠٨.

(٤) Eche, 1967,p.279

الشاعر ومصنف مجموعة منتحبات الخطيري (ت١١٧٢) وقد لقب كذلك بالوراق[١]، كما مارس ياقوت الحموي الشهير (ت١٢٢٩) بعد أن أعتق (وكان قبلئذ عبداً) اشتغل بالنسخ بالأجرة، بعد ذلك أخذ يتجول في آسيا الوسطى وإيران ويتاجر بالمخطوطات[٢].

عبر ابن خلكان بصورة عابرة عن أحد السماسرة: «الوجيه بن صورة المصري دلال الكتب كانت له دار موصوفة بالحسن فاحترقت» قيل بهذا الصدد أشعار فحواها بأن مال الحرام معرض للفناء بحق، ثم يكمل ابن خلكان: «كان أبو الفتوح ناصر بن علي بن خلف الأنصاري المعروف بابن صورة سمساراً في الكتب بمصر وله في ذلك حظاً كبيراً، كان يجلس في دهليز داره، لذلك يجتمع عنده في يوم الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء والفضلاء ويعرض عليهم الكتب التي تُباع ولا يزالون عنده إلى انقضاء وقت السوق، فلما مات السلفي سار إلى الإسكندرية لبيع كتبه»[٣]، توضح هذه القصة علاقة النخبة المثقفة تجاه نشاط تاجر الكتب السمسار الكبير، أي تستنكره أخلاقياً، ومع ذلك لا تمتنع عن خدماته، ففي ظل العلاقة العامة تجاه التجار – بصفتها نشاط جدير بكل مسلم حقيقي ومفيد للمجتمع ومكسب للربح الحلال- كانوا ينظرون إلى تجارة الكتب بعين الارتياب معتبرين إياها تصرفاً غير أخلاقي.

وكان هناك سبب آخر يدعو إلى عدم الثقة بتجار الكتب، ففي البيئة العلمية كانوا يقدسون رواية النصوص عبر المعاشرة الشخصية بين التلاميذ ومدرسهم، أي: دراستها بصورة شفهية (انظر الفصل الرابع)، في تلك الآونة كانت النسخ الجديدة

---

(١) ابن خلكان،١، ص ٢٠٣-٢٠٤؛ ص٧٥.

(٢) نفس المصدر ،٢، ص ٢١٠.

(٣) ابن خلكان، ١، ص ٦٣؛ السلفي الفقيه المشهور، مر بأيدي ابن صورة هذا جزء لا يستهان به من كتب مكتبة القصر لدى الفاطميين، وذلك لما صارت بقايا هذه المكتبة تُباع بعد استلام صلاح الدين الأيوبي حكم القاهرة سنة١١٧١؛ بقي ابن صورة يتاجر بها عدّة سنوات (المقريزي، خطط، ١١، ص ٤٠٩)؛ توفي ابن صورة في القاهرة سنة ١٢١٠.

للكتب تظهر من تسجيل الإملاء والمحاضرات تحت إشراف أشخاص ذوي نفوذ واحترام، وكانت السوق العفوية تتجنب هذا الطريق، فبات النسخ العادي والطلب عليه والشراء والدراسة المستقلة للمؤلفات الكتابية قناة منفردة لرواية النصوص، والمعارف الكتبية التي كان يستخدمها كثيرون، غالباً ما تشهد أسانيد المؤلفين في المصادر مثل «قرأت في كتاب» (ثم يأتي العنوان أو أسم المؤلف وفي بعض الأحيان هذا وذاك) أو «قرأت بخط» (ثم يأتي اسم المؤلف أو الناسخ) على سعة انتشار هذه العادة، وبالطبع كانوا يفضلون الإسناد على أشخاص من ذوي نفوذ وعلى مخطوطات أو على مخطوطات أمينة وغالباً منسوخة بخط المؤلف أو المقارنة بها، وأولئك الذين كانوا يكتفون بهذه القناة، كانت تلحق بهم اتهامات في قلة أهليتهم وعدم استقامة رأيهم ومخالفتهم للأخلاق، يخبرون مثلاً أن أبا الفرج الأصفهاني كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها[١]، كما اشترى ابن سينا في سوق الوراقين ببخارى تعليقات الفارابي على «كتاب ما بعد الطبيعة» أو «الميتافيزيقا» لأرسطو فدرس الكتاب بإرادته[٢]، كان ياقوت في الغالب يدرس الكتب بنفسه من غير مدرس، وكان ابن النديم خلف نطاق الفئة العلمية[٣]، ومع ذلك فكل الذين تمّ ذكرهم كانوا علماء بارزين ألفوا مؤلفات أصلية، فلهذا كان الانحياز عن الطرق المعتادة يؤدي في بعض الأحيان إلى نتائج ممتازة.

كانت معظم المخطوطات سواء المنسوخة «لنفسه» أو للبيع تصبح في آخر الأمر بضاعة، وتتعرض للترويج السوقي في بعض الأحيان عدة مرات، وتذكر المصادر الكثير من القصص المؤثرة عن البيع الاضطراري لبعض نسخ الكتب التي كانت لسبب أو لآخر عزيزة جداً لملاكها، بيد أن تكرار بعض التفاصيل المحورية تجعلنا

---

(١) الخطيب، تأريخ بغداد، ١١، ص ٣٩٩، ميتس، ١٩٧٣، ص١٦٤.

(٢) ابن القفطي، ص ٤١٥-٤١٦.

(٣) بولوسين، ١٩٧٨ ص ١١٧.

نفترض أن بعض هذه القصص كانت تحمل في طياتها طابعاً أدبياً مختلفاً وتعرض بالأحرى موقفاً نموذجياً[١]، والقصص الأكثر واقعية هي التي تُروى عن بيع المخطوطات المعينة.

لأجل تغطية نفقات الحج[٢]، كانت سوق الكتب مصدراً هاماً لتزويد المجموعات الخاصة والمكتبات (انظر عن ذلك في الفصل الثامن)، وكثيراً ما حدث أن الكتب من هذه المجموعات والمكتبات كانت بدورها تعود إلى السوق بإرادة أصحابها أو بعد وفاتهم، مثلاً ورث ابن ليوسف الصدفي مصنف «الزيج الحاكمي» كتباً من والده الفلكي وباعها «بالأرطال في الصابونيين!»[٣].

تجدر الإشارة إلى أن المصادر تقدم بيانات حول كثير من الناس الملقبين بالوراقين، وعن مئات وآلاف الناس الذين نسخوا كتب هذا أو ذاك، وتحتوي فهارس المخطوطات العربية على عشرات الألوف من أسماء النساخين وتوجد أكثرها في كولوفونات المخطوطات التي لم يتم فهرستها[٤]، ولم تتم أية محاولات إنشاء دليل إجمالي حول النساخين بالفهارس والمصادر، وليس ثمة أبحاث حول النساخين العرب.

إن البيانات في المصادر حول ثمن المخطوطات ليست منتظمة، وثمة جملتين من المعطيات، فمن الأخبار ذات صفة عامة نعرف من خلالها مصروفات مبالغ ضخمة

---

(١) قارن قصة بيع نسخة "الجمهرة" لابن دريد من قبل مالكه الذي وقع فريسة الفقر، وكان ذلك في القرن الحادي عشر، وقد أعدّ المخطوطة لنفسه و"أنس بها عشرين حولاً" (ياقوت، إرشاد، ٥، ٨٢-٨٤؛ ابن خلكان، ١، ص٣٣٧).

(٢) هكذا فعل أحد أهالي القاهرة في القرن الخامس عشر، ويخزن أحد مجلدات هذه المخطوطة في استنبول (Weisweiler, 1962(S.172,N 335).

(٣) ابن خلكان،١، ٣٧٥؛ والراجح أنه باعها كي يستعملها الباعة للف بضاعتهم.

(٤) من الدلالة أن مجموعة المخطوطات العربية في فرع سانت بطرسبورغ من معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا (حوالي خمسة آلاف مجلد أو حوالي ١٠٧٠٠ وحدة النصوص المنفردة) تعطي ١٧٦٢ اسم ناسخ.

وموارد من أجل الحصول على الكتب، وكانت هناك مجموعة قيّمة جداً أو كانت تضم نسخاً غالية، وعن تقييم مجموعة كتب بمبلغ معين من المال، ولكن من غير تحديد عدد الكتب، مثلاً كان جامع الكتب وعالم المعاجم في القرن التاسع أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد بن هانئ الأندلسي ينفق مبالغاً هائلة على مكتبته التي بيعت فيما بعد بأربعمائة ألف درهم[١]، وبيعت مجموعة كتب قاضي أبي المطرف ابن فطيس (ت١٠١٢) بقرطبة بعد وفاته بأربعين ألف دينار[٢].

قيمت مكتبة ضريح عبيد الله ببغداد – التي نكبت على أثر الفيضان سنة ١٣٢٤ - بعشرة آلاف دينار[٣]، وحصل شيخ الإسلام الدمشقي هبة الله بن عبد الرحيم البارزي (ت ١٣٣٧) على كمية ضخمة من الكتب قيمتها الإجمالية مائة ألف درهم[٤]، وفي القاهرة كانت لدى الملك الأشرف (ت١٣٧٦) المجموعة الوقفية من عشرة رحال مليئة بالنماذج الباهرة، وقد باعها ابنه بستمائة دينار في حين أنه كانت قيمتها عشرات الأمثال[٥].

وهناك جملة أخرى من المعطيات الخاصة بأسعار البيع لدى مختلف المؤلفات أو المجلدات أو الأوراق أو إيجار النسخ والتي في حقيقة الأمر لم تكن تختلف عن أسعار السوق، لقد ذكر أعلاه أن أوراق كتاب الفراء (ت٨٢٢) كانت تباع خمس أو عشر أوراق منها بدرهم ومؤخراً صاروا يشترون خمساً منها بدينار[٦]، كما دفعوا للوراق على معجم الخليل بالبصرة في القرن التاسع خمسين ديناراً[٧]، وكان ثمن «كتاب المغازي»،

(١) الأزهري، تهذيب، ص ٢٣-٢٤؛Eche, 1967.p.65.

(٢) ابن بشكوال، العدد ٦٨٣؛Ribera, 1928, p. 195-196؛ ميتس، ١٩٧٣، ص ١٥٠.

(٣) Eche, 1967.p.184

(٤) نفس المصدر، ص٢٤٢.

(٥) المقريزي، خطط،٢، ص ٤٠١-٤٠٢؛Eche, 1967.p.258.

(٦) ياقوت، إرشاد، ٣، ص ٧٨.

(٧) نفس المصدر،٥، ص ١٥٠-١٦٥.

في النصف الثاني من القرن التاسع من عشرة إلى عشرين ديناراً[١]، وفي القرن العاشر بلغ ثمن تاريخ الطبري كثير المجلدات مائة دينار[٢]، وكما نوهنا كان أبو سعيد السيرافي يبيع عشر أوراق بعشرة دراهم، وقد اشترى أبو علي الفارسي (ت١٠٠٠) كتابه في الأهواز بألفين درهم[٣]، وثمة أخبار تفيد بأنَّ مخطوطات كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني كانت تباع بمبالغ ضخمة كألف دينار على مبيضة المؤلف، وعشرة آلاف درهم على النسخة، وأربعة آلاف درهم على مسودة المؤلف[٤]، كما روى يحيى بن عدي أنه رأى تعليقات ألكسندر الأفروديسي على كل «السماع» و «كتاب البرهان» لأرسطو في وراثة إبراهيم بن عبد الله الناقل النصراني وعرض عليه الكتابين بمئة وعشرين دينار، ولكن بينما كان هو ذاهباً ليحضر المال بيع الكتابان مع سائر الكتب لأحد الخراسانيين بثلاثة آلاف دينار[٥]، صرح ناسخ في النصف الثاني من القرن العاشر أنه كان يبيع مخطوطات ديوان المتنبي من مئة وخمسين إلى مائتي درهم[٦]، وفي بداية القرن الحادي عشر كانوا يشترون ديوان ابن الحجاج (ت١٠٠١) بخمسين أو سبعين ديناراً، أما الخليفة الفاطمي فدفع على مؤلفه ألف دينار[٧]، وكان يحيى بن أحمد الأرزني (ت١٠٢٤) يخرج في وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب «الفصيح» لثعلب ويبيعه بنصف دينار[٨]، وكان ثمن ديوان جرير في نسخة

---

(١) Tritton, 1957, p.195; Ashtor, 1969,p.60

(٢) ياقوت، إرشاد، ٧، ص٢٩٢؛ Brockelmann, Gal, SBI,S.١٨١

(٣) ميتس، ١٩٧٣، ص ١٤٩(وهذا يهدف إبادة كتاب منافسه!).

(٤) ياقوت، إرشاد، ٥، ص ١٥٠-١٥١، ١٦٤؛ المقري،١، ص ٢٥٠؛ خالدوف، ١٩٨٠، ص١١..

(٥) ابن النديم ، ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٦) Ashtor, 1969,p.61

(٧) الثعالبي، يتيمة،٢، ص ٢١٥؛ الجهشياري، وزراء، ص٤٣٠؛ ميتس ١٩٧٣،ص ٢٢٥؛ ويحتمل أن أتعاب المؤلف أيضاً من ضمنها لأن الشاعر كان يشبب بالفاطميين.

(٨) ياقوت، إرشاد، ٧، ص٢٩٢؛ ابن خلكان؛ ١ ص ٤٧٨؛ Eche, 1967,p.108

النجيرمي (ت١٠٣١) عشرة دنانير[١]، واشترى الشريف المرتضى (١٠٤٤) في بغداد مخطوطة «الجمهرة» لابن دريد بستين ديناراً[٢]، كان ثمن النسخة الوقفية «البستان في الرقائق» لأبي الليث السمرقندي عشرة دنانير، وبيع بالمزاد العلني ببغداد بدانقين[٣]، أمر القاضي الفاضل (ت١٢٠٠) في القاهرة بأن يشتري لابنه مخطوطة «الحماسة» لأبي تمام بدينار واحد[٤]، وكانت الكتب في مكتبات مرو في بداية القرن الثالث عشر تقدر وسطياً بدينار مقابل كل كتاب[٥].

في أبحاث إ. أشتور[٦] جمعت المعطيات حول أسعار الكتب والتي استخرجت من المصادر الروائية والوثائقية الكثيرة في جداول، ولنأخذ على سبيل المثال البعض منها: ما يعود إلى عام ١١٩٠ كان السعر التجاري لستة مجلدات «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني ثلاثة دنانير، و«منافع الأعداء» لجالينوس بتعليقات يوحنا فيلوبون بنصف دينار وقيراط واحد، ومجلدي «ثمار الستة عشرة» بثلثي دينار للمجلد الواحد، و «الأدوية المفردة» لابن سماجون بدينار، كما بيع كتاب اقليدس في القرن الثاني عشر بربع دينار وكذلك «المدخل الصغير» لأبي معشر البلخي، أما «الأمثلة من المواليد» لعلي بن إسحاق ابن قيسون فبسدس دينار. وتعود إلى عام ١٢٢٣ الأسعار التالية: المؤلف الفلكي لأبي الرضاء من الإسكندرية ١٩ درهماً، والمجلد بمؤلفات الفارابي بـ ٢٠ درهماً، و «كليات» لابن رشد بـ٤٠ درهماً، وأربع نسخ «حكم أبقراط» بتعليقات جالينوس بـ٣٠ درهماً، وستة كتب طبية مع «حكم أبقراط» بـ٢١ درهماً، وخمسة مجلدات مجموعة الأعمال الطبية لأبقراط بـ ١٣ درهماً ، ومجلدين «الصناعات الصغيرة»

---

(١) ابن خلكان، ٢، ص ٣٥١.

(٢) نفس المصدر، ١، ص ٣٣٧؛ Brockelmann, Gal, SBI,S.١٧٨

(٣) Eche, 1967,p.192

(٤) االمقريزي، خطط، ٢، ص ٣٦٧.

(٥) ياقوت، معجم البلدان، المجلد الأول، ص ٦؛ المجلد الرابع، ص ٥٠٩-٥١٠.

(٦) Ashtor, 1969, p.213-215

مع «تقدمة المعرفة» لجالينوس بـ ١٢ درهماً، و «الميامر» لجالينوس بـ٨٧٥. ٠ دينار و«العشر مقالات في العين» لحنين ثلاثة دنانير ونصف، «علل والأعراض» لجالينوس بـ ١٢ درهم، ومؤلفه عن «الأدوية المفردة» بـ ١٨ درهماً، و «تقدمة المعرفة» أربعة دراهم، وكتابين لأبي الرضاء من الإسكندرية حول العين ثمانية دراهم ونصف، أما تعليقاته لمؤلف ابن زهر «حول الخاصيات» فخمسة عشر درهماً، وأجزاء «إرشاد» بـ ٤٣ درهماً، وفي الربع الأول من القرن الثالث عشر دفعوا على «الكافي في الطب» بـ ٥٢ درهماً، وفي عام ١٢٢٩ كان ثمن مؤلف جالينوس «الصناعات الصغيرة» أحد عشر درهماً.

في عام ١٤٨٤م اشترى والي مكة تعليقات ابن حجر العسقلاني «فتح الباري» الصادرة حديثاً بمئة وخمسين ديناراً أشرفياً[1]، وفي نفس الوقت تقريباً دفعوا على نسخة الكتاب نفسه ثلاثمائة دينار وكانوا يشترون في تلك الآونة غيره من الكتب بمئة دينار وأكثر[2]، يفترض أشتور أن أسعار الورق والكتب ارتفعت كثيراً في القرن الخامس عشر، كما بيعت مخطوطة «طبقات الفقهاء» لابن قاضي شهبة-التي نسخت سنة ١٤٤٢م ومؤلفها لا يزال على قيد الحياة – في عام ١٥٥٨ بأربعمائة درهم «قديم»[3]، استناداً إلى هذه المعطيات المتناثرة والعائدة إلى مختلف الأزمنة والمناطق يعسر توضيح الثمن التجاري العادي للكتب في الأسواق، يتحدث الكثير منها عن الخروج عن الأعراف وعن أسعار الكتب في الحالات الطارئة أو عن أسعار النماذج الغالية والنادرة والبارزة بصورة خاصة.

---

(١) بافقيه الشهري، الورقة ١٤أ.

(٢) Ashtor, 1969, p. 366

(٣) Rosen, 1881, p. 157-158.(وذلك على أساس تسجيل الشاري على النسخة وحالياً في فرع سانت بطرسبرغ من معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا ٦٣٠).

لذا فإنّ محاولات تحديد السعر العادي للكتب تحمل في طياتها طابعاً تقريباً، برأي أ. غرومان كان الدينار الذهبي الواحد سعراً وسطياً للمخطوطة الواحدة[١]، ويفترض يوسف العش أن السعر الوسطي للكتب العادية كان يعادل عشرة دراهم (أي حوالي نصف دينار) أما الذي أنجز منها على أكمل وجه وبدقة فمائة درهم[٢]، يفترض إ. أشتور مستنداً على باحثين آخرين أن سعر الكتاب الوسطي كان معدله نصف دينار، أما الكتاب العلمي فربع دينار[٣]، آخذين بالحسبان أن سعر العملة لم يكن مستقراً لذا ينبغي الاعتبار أن السعر الوسط للكتاب المخطوط كان يتقلب بين حدين معينين أي من ربع دينار إلى دينار واحد.

كانت أسباب ارتفاع أسعار الكتاب المخطوط فيما عدا العوامل الاقتصادية العادية أو العوامل الإضافية منها: علوّ قيمة المادة التي كانت تصنع منها الكتب ومهارة وسمعة الكاتب وندرة المؤلّف وشهرة المؤلف وأخيراً غرور الإقطاعيين أو غيرها من الدوافع العاطفية لدى الشاري، ويقولون عن أبي المطرف ابن فطيس المذكور أعلاه أنه لما كانت تصل إلى مسمعه تقريظات عن كتاب ما، كان يبذل قصارى جهده للحصول عليه معرضاً ثمناً غالياً حدّ الإفراط[٤]، في عهد الخليفة المستنصر (١٢٢٦-١٢٤٢) هاوي. الكتب ارتفعت أسعار الكتب في بغداد[٥]، وبالطبع كانت تقيم أكثر من غيرها منها الكتب التي احتفظت جيداً بغلافها، يخبرون عن هواة الكتب الصحاح أنهم كانوا في بعض الأحيان يلتجئون إلى الحيل بغرض التخفيض من أسعار الكتب فيقطعون عنها أغلفتها ويثقبون صحائفها فيكسبون لها بشكل من أشكال مظهراً غير صالح

---

(١) Grohmann, Aronold, 1929,S.37

(٢) Eche, 1967, p.65.

(٣) Ashtor,1969,p.215.

(٤) ميتس، ١٩٧٣، ص ١٥[illegible].

(٥) Eche, 1967, p.173

للبيع، كانت أسعار الكتب تنخفض في ظل الأحوال الدافعة الناتجة عن هزيمة حربية أو كارثة اجتماعية أو في حال البيع الطارئ أو غير قانوني.

كانت عملية نسخ الكتب تتضاءل مع كثيرة وانتشار المطابع، ولكن كان يتم إصدار الآثار الكتابية بطباعة الحجر (في الغرب وإيران والهند) وكان النساخون يعدون نسخاً تطبع منها مطبوعات الحجر، فدُعِمُ في فترة ما الطلب على منتجات النساخين المستعربين وجماع المخطوطات، فكان النساخون ينسخون بطلبهم الأصول غير المعرضة للبيع، وفي بعض أرجاء العالم الإسلامي – حيث بقي الكتاب المطبوع صعب المنال للأكثرية الساحقة – فكانت الكتب حتى وقت ليس ببعيد تنسخ باليد.

لقد تأقلمت تجارة الكتب مع الظروف الجديدة بسهولة وحافظت طويلاً على صورتها التقليدية رغم إبدال البضاعة المخطوطة بالمطبوعة.

الفصل السادس
المؤلَّف والمخطوطة

يتألف المؤلَّفُ العربي في الآداب العربية العائدة إلى القرون الوسطى من عناصر عادية، هي: العنوان ومقدمة المؤلف والنص الأساسي والخاتمة.

يعود تركيب النص الأساسي إلى موضوع المؤلف والتقاليد الراسخة في الفرع العلمي الذي يتم بحثه والمواد المضمومة إليه وإقبال المؤلف الفردي.

سبق وأن تكلمنا عن التركيب الفريد للكتاب العربي الأول وهو القرآن الكريم الذي رتبت أجزاؤه ليس طبقاً للفحوى أو الترتيب الزمني – التاريخي وإنما وفقاً لحجمها، وقد اتخذ نفس المبدأ عند ترتيب بعض الدواوين الشعرية، لا بد من الاعتراف بأن طريقة الإقبال هذه طبيعية ومريحة علمياً، وذلك لما كان نص الأدب الشفهي يستخرج من الذاكرة ويدوَّن، لأول مرة، ولما كان ينتقل من التقاليد الشفهية إلى كينونته الجديدة ألا وهي الكتابة، ويستند المبدأ الثاني إلى توحيد المواد الشعرية المرتبط كذلك مع جهاز الحفظ والاستحداث بالذاكرة على القافية، وبما أن قافية الشعر العربي تحدد في الكلمة الأخيرة، تحول ذلك المبدأ عند تدوين الأشعار إلى الحرفي حيث كانت الأحرف والقوافي ترتب ترتيباً أبجدياً، وقد تأصلت طريقة الترتيب هذه للمواد الشعرية، وباتت تستخدم على نطاق واسع.

ظهرت الإمكانيات المحتملة لتنظيم المواد اللغوية والأدبية الممثلة بنظام العلامات الحرفية، كأي الأبجدية في فجر الآداب العربية الكتابية، واستخدمت في إنشاء المعاجم اللغوية، ومؤخراً انتشرت على أعمال أخرى من الطراز المعجمي، ولو أنَّه أتضح أنَّ الطريقة الأبجدية ليست سهلة وواضحة كما كانوا يظنون، إذ لم تكن لديها طريقة واحدة للتحقيق، كما أرشدت أولوية نظام القوافي إلى إمكانية إحصاء الحروف

الجذرية من نهاية الكلمة، ومع ذلك استخدم إحصاء الحروف من بداية الكلمة كذلك، ومع ذلك استخدم كذلك إحصاء الحروف من بداية الكلمة وصارت واصلة الإحصاء متنوعة كالانتقال إلى الحرف القادم وفقاً للنظام الشائع، أي الانتقال من النهاية إلى البداية أو عدم مراعاة أي نظام في ذلك، أدى الحرفان الواو والياء – اللذان يقرآن إما ساكنان وإما صوتيان طويلان - وكذلك التضارب في كتابة الهمزة، أدى ذلك إلى ترددات إضافية، كما أن نظام الأحرف المتعارف عليه لم يكن يرضي الجميع، فأجريت محاولة جادة لمراجعة عملية إنشاء المعاجم المعرّفة (انظر الفصل الثاني) كما أتضح أن حساب الأصوات الساكنة التي هي في أصل الكلمة وما يناسبها من أحرف غير كاف وغير مريح عند ترتيب أسماء العلم والمصطلحات والأسماء الجغرافية، إذ كانت في بعض الأحيان تتصادف من ضمنها أسماء أعجمية، من جراء هذه الأسباب نجد تغيرات كثيرة في النظام الأبجدي في المعاجم اللغوية والمصطلحية والجغرافية والسيرية وكذلك في الفصول المرتبة ترتيباً أبجدياً في الأعمال من المناهج الأخرى، كذلك لأن القاعدة المختارة لم يكونوا يعرفونها أو يريدون التزامها بتتابعها ودقتها، فكانوا يغلطون مما أدى إلى تجنبها عن عمد.

أما المبدأ الآخر الأهم لترتيب المؤلفات فهو تركيب الموضوع، وكان ذلك المبدأ سائداً في أعمال الفقه ومجموعات المنتخبات والدواوين الأدبية المختلفة، والأعمال العلمية ذات طبيعة وصفية، وبعض مجموعات الأحاديث، إذ كان التقسيم الموضوعي في المؤلفات في الطب وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم المعادن موروثاً بالأرجح من التقاليد اليونانية القديمة والهلنستية، ففي المؤلفات في مجال علم المعاجم والنحو والفقه والأدب يمكننا أن نفترض أنه كان هنالك إعداد مستقل للمبدأ نفسه أو فصول المواضيع المحددة بالمواد العربية.

يتمثل النظام الزمني للسرد طبيعياً في الأعمال التاريخية، كمدونات التاريخ والرسائل العلمية في موضوع واحد حول الأحداث أو الشخصيات المعينة ومجموعات

السير (أي سير الأجيال ابتداء من معاصري النبي محمدﷺ وكذلك بالطبقات) والمدونات التاريخية حول الأسر الحاكمة وغيرها.

أما التتبع الفراغي (المناخات والمناطق والأحياء والمساكن فجدير بالأعمال الجغرافية والطبوغرافية.

دخل نظام الترتيب المنطقي للسرد بالأدلة والبراهين إلى الثقافة الكتابية العربية مع ظهور تراجم المؤلفات في الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب، وفيما بعد بات ذلك النظام يستخدم على نطاق واسع في أصول الفقه وعلم الحديث والنحو والفلك وعلم الأخلاق وعلم تدوين التاريخ.

استخدمت في الأدب الفني التراكيب الإطارية والدورية لكن في نطاق ضيق من الآثار (مثل «كليلة ودمنة»، و «ألف ليلة وليلة» والسير الشعبية، كسيرة عنترة وسيرة بني هلال، وذي يزن والمقامات) ساد هنا التتبع المحوري — الروائي للسرد، بالإضافة إلى التراكيب غير المتناسبة وتداعي الأفكار وكذلك التراكيب الحرة.

يتلاقى اختلاط مختلف الأساليب والمبادئ في الأعمال المكرسة لمختلف فروع المعارف والأنواع الأدبية، ونتيجة ذلك ظهرت مؤلفات متراخية التركيب (حتى ولو كانت بعض أجزاء النص متينة)، وهذا ما ساعد على تنوع أطرزتها والتكبير والتصغير من حجمها، وتبديل أماكن بعض أجزائها وإضافة مواد جديدة إليها، لكن الكثير كان يعود إلى طريقة العمل والمواهب الفردية لدى المؤلف ووظيفة الكتاب (اختصاصي أو استعلامي دليلي أو شعبي أو تعليمي)، تتخذ المؤلفات المستخدمة في الأدب العربي العائد إلى القرون الوسطى، ولكن عند الشرح والتعليق أو إعادة الحكاية كانت تظهر تغيرات جديدة في التراكيب المعروفة على حساب قطع أو توصيل النص الأساسي.

ينقسم نص غالبية المؤلفات على قطعات وبالعادة طبقاً لمبدأ بنيته، وتحدد هذه القطعات بمختلف المصطلحات كالمؤلفات نفسها.

كان المصطلح الأساسي لمؤلف أو مخطوطة ما هو «كتاب»، وهذا المصطلح شامل من حيث المعنى والاستخدام، وتعني كلمة «كتاب» ليس فقط أي كتاب من أي قياس أو حجم أو اختصاص، وإنما أي نص مكتوب سواء أكان مسنداً أم رسالة أم وثيقة. وكثيراً ما كان يعني فصل أو باب مؤلف لا سيما في مجال علم المعاجم والفقه والحديث وكان يسبق عناوينها، وإذا كانت هذه الكلمة معرفة أي«الكتاب»، فهذا كان يعني القرآن الكريم ومؤلف سيبويه الأساسي في مجال علم النحو العربي.

إلى جانب مصطلح«كتاب» كان في مرحلة تشكيل الكتاب العربي يستعمل مصطلح «صحيفة»)في صيغة الجمع «صحف» و «مُصحف» و «مَصحف» و «مِصحف» وفي صيغة الجمع «مصاحف» و «كراسة» (في صيغة الجمع «كراريس» و «دفتر» (في صيغة الجمع «دفاتر») و «جزء» (في صيغة الجمع «أجزاء»)، ولكن فيما بعد فقدت هذه المصطلحات واكتسبت معان خاصة أكثر ضيقاً، فكلمة «صحيفة» كانت تعني اللفائف ومؤخراً صارت تعني الصفحة والورقة أما المصطلحات الأربعة الباقية، فكانت تعني الكتاب المحبوك: ثبتت كلمة «مصحف» بمعنى نسخة من القرآن الكريم (أو جزء منه)، وكانت كلمات «كراسة» و «دفتر» و «جزء» تعني مجموعة من الأوراق المخيطة ببعضها، وبقيت تعني الأغلب جزءاً من الكتاب المخطوط.

استبدلت مرادفات كلمة «كتاب» بمعنى «مُؤلَّف» أو «عمل كتابي» بكتابات مثل: «تأليف، مؤلف، تصنيف، مصنف، جمع، تحرير»، ولكنها تستعمل بالعادة فقط أمام اسم مؤلف(مصنف)، كما استبدلت كلمة «كتاب» بالعديد من المصطلحات الأخرى الدالة على معنى «الجمع»، كطريقة إنشاء كتاب وهي «ديوان» (وتدل غالباً على المجموعات الشعرية)، «جامع»، «مجموعة»، «مُجَمَّعْ»، (انظر كذلك الفصل الثالث).

بقي مصطلح «رسالة» على معناه الأول أي «مكتوب»، و«جواب» وتعني كذلك المؤلفات الأدبية من الفن الرسائلي، كما أن هذا المصطلح يطبق على الأعمال العلمية واللاهوتية صغيرة الحجم بمعنى«مبحث»، إن تعليم أنواع الفنون الأدبية ملحقة كذلك بالمؤلفات المناسبة إما بمعنى الجمع وإما بالمعنى المعين: «تفسير» يخص غالباً القرآن الكريم ونادراً كتباً أخرى «القصيدة» تخص فقط الشعر، وقصة تعني حكاية، وأخبار، وسيرة و «زيج» و «شرح، حاشية، تعليق»، و «مختصر، ملتقط، خلاصة، زبدة، تلخيص، ملخص، منتخب، مختار، مجتبى، منتقى، نبذة، مقتضب» و «ذيل، تكملة، تتمة، مستدرك، زيادة».

لم نحصِ هنا كل المصطلحات الدالة على المؤلفات من النوع المعين، ولكن أكثرها ميزة، تدرج الكثير منها إلى عنوان مؤلف بمثابة كلمة أولى نيابة عن مصطلح «كتاب» (وتارة «رسالة») أو مقترنة معها، وبعض هذه المصطلحات لم تستقر تماماً فبقيت صيغتها النحوية متنوعة، وبالأخص فهي تستعمل في بعض الأحيان في صيغة الجمع، مثل «قصص»، «حكايات»، و «سير»، «مقامات»، و «تواريخ»، «حواشي»، و«تعاليق (أو تعليقات)»، و«ملتقطات».

كانت الأجزاء التركيبية للمؤلفات العربية تسمى «كتاب، سفر، جزء، قسم، باب، فصل، مقالة، جلد، مجلد» كما تتلاقى تسميات أكثر ندرةً منها التي أدخلت خصيصاً لمؤلف واحد أو لنطاق معين من المؤلفات مثل «فن» أي النوع(في الأعمال الفلسفية والببليوغرافية)، «حكاية»، «مقامة»، «ذكر»، «منزلة»، وغيرها، كان لكل جزء تركيبي للمؤلفات رقمها المتسلسل أو عنوانها المستقل أو هذا وذاك. لم يكن هنالك نظام صارم للتقسيم، فكان كل مؤلف حرٌّ في اختيارها وتنويعها وترتيبها، ومع ذلك بقيت الكتب والمجلدات وحدات كبيرة أما سائر وحدات التقسيم فصغيرة ودقيقة.

يمتاز كل فرع من فروع العلم بمجموعةٍ من المصطلحات للدلالة على الوحدات التركيبية للمؤلفات، وطرائق رسم الحدود بين قطعات النصوص الصغيرة،

فمثلاً ينقسم القرآن الكريم إلى سور وآيات، أما المؤلفات الموضوعة في الحديث والفقه فإنها تنقسم إلى كتب، وفي المدونات التاريخية يستخدم الرقم المتسلسل للسنة كفاصل النص الروائي، وفي المعاجم يشكل كل حرف من الحروف الأبجدية كتاباً، أما الكلمة (الأصل والمصطلح واسم العلم والتسمية الجغرافية وما إلى ذلك) فتستخدم كعناوين فقرة أو بند، وللمؤلفات المركبة بطريقة موضوعية فصول أو أجزاء موضوعية (جزء، قسم، باب وفي بعض الأحيان فصل) وفي المؤلفات الجدلية والتعليقات على الأعمال النظرية فتبدأ مقاطع النصوص بكلمة «قال» و «أقول»: وكانت عناوين التقسيمات التركيبية الأكثر تنوعاً تتلاقى في المنتخبات والمجموعات، والمثال على ذلك منتخبات ابن عبد ربه (القرن التاسع في الأندلس) «العقد الفريد» التي تحمل فصولها الخمسة والعشرين أسماء الأحجار الكريمة المرتبة بالتماثل حول الفصل الأوسط الثالث عشر.

يبدأ المؤلف مؤلفه بالعبارة الراسخة «بسم الله الرحمن الرحيم» التي تسمى بصورتها المختصرة «البسملة» بعد ذلك يأتي تمجيد الله تعالى ورسوله محمدﷺ، ولهذا العنصر الضروري في المؤلف كذلك اسمه المختصر «الحمدلة»، كان كل مؤلف ينوع الحمدلة بحذاقة مضيفاً إليها في بعض الأحيان تمجيد الإسلام والمسلمين واللغة العربية، وذلك الفرع من العلم الذي كرس له المؤلف، بعد ذلك تأتي عبارة «وبعد» تبدأ بها مقدمة ذلك المؤلف[1]، في بعض الأحيان تكون الحمدلة قصيرة جداً أو غير موجودة، عندئذ يبدو أن البسملة قد وضعها ناسخ.

تبين المقدمات (وتدل عليها كذلك المصطلحات «مقدِّمة»، « مقدَّمة»، «خطبة»، «ديباجة»، «ترجمة»، «فاتحة»، «مُدخل»، « مَدخل ») غالبية الأعمال التأليفية الفردية تلك الدوافع التي كانت ترشد المؤلف عند إنشائه ذلك العمل، كسعي وراء توسيع المعارف المفيدة، أو عدم الارتياح من المؤلفات الموجودة والرغبة في توسيعها أو

---

(١) فلهذا عندما يريدون وصف مؤلف ما ببدايته (في فهارس المخطوطات مثلاً) يستشهدون بالمقطعين: الكلمات الأولى من الحمدلة وأول الكلمات بعد عبارة " وبعد" (وكذلك "أما بعد").

تكملتها أو دحضها، أو بطلب من الأصدقاء أو التلامذة أو الشخص المعين (بالعادة حام العلوم والفنون) والشخص الذي أهدي له العمل، أو الذي عزم المؤلف تقديم عمله هدية له ويسمونه باسمه أو يوصفونه بواسطة الاستعارات والإيهاءات، ولكن في كلتا الحالتين يبجلونه ويمدحونه[١]، وقد يدرج استدلال عقلي موسع بشكل أو بآخر حول فائدة العلم (وغالباً كتتمة الفكرة التي بدأت في الحمدلة) ولا سيما في مجال العلم الذي اختاره المؤلف، بعد ذلك يأتي عادة عنوان المؤلف (بالصيغة «وسميته») فتقسيمه (في بعض الأحيان يعدد المؤلف أجزاءه وفصوله) فاسمه، هذا وقد كان المؤلف يشرح كيف عمل هو في تأليف مؤلفه وكيف جمع المواد ومتى أنهى عمله[٢]، وإذا كان يكتب في موضوع سبق بحثه عندئذ يتفقده ويقدره بصورة انتقادية، مؤشراً على أفضاله وعيوبه ويشير كذلك إلى أفضليات مؤلفه، إذا كان مؤلف ما يكتب تعليقات (تكملة أو خلاصة وما إلى ذلك)، فهو يمجد العمل الذي يعلق عليه مفسراً الأسباب الداعية إلى إجزاء التعليق (تكملة، اختصار، تحويل وما إلى ذلك) على ذلك العمل.

بالطبع كانت مقدمات المؤلفات متنوعة جداً فكانت إما مختصرة تخلو من الكثير من العناصر سبق التنويه عنها (وهذه العناصر قيمة بالنسبة للباحثين المعاصرين بمعطياتها الواقعية وتعليلاتها) أو مطولة على حساب التجارب البلاغية أو غزارة الاستدلالات العقلية، وقد لوحظ ذلك عند مقارنة عملين في مجال اللغة لمؤلفي القرن

(١) تكتب مقدمات المؤلفات بأسلوب أنيق وفي بعض الأحيان يصعب تفسيرها، حدث حادث طريف مع ب.غ. بولغاكوف الذي أنجز نشراً علمياً للأصل مع الترجمة الروسية المعلقة لكتاب "تحديد نهايات الأماكن" للبيروني الذي كتب في المقدمة أنه من واجبه إعراض للشخص المبجل لكونه يمتاز " الفائز بعظم الأخلاق والحائز مزّية الفضل بالإضافة والإطلاق" (البيروني، تحديد، النص، ص ٢٢). فبدلاً من كلمة " الشيخ " اقترح ب.غ بولغاكوف قراءة مختلفة علناً "الشبح" وهذا ما يجعله يقهر النحو ويحرف مضمون مقطع كامل في ترجمته باللغة الروسية.

(٢) مثلاً ملأت مقدمة المقري المفصلة لكتابه "نفح الطيب" مع معطيات ترجمة حياته بقلمه والاستشهادات الأدبية في النشر ثمانين صفحة.

التاسع: «أدب الكاتب» مقدمة من غير كتاب، أما «إصلاح المنطق» فكتاب من غير مقدمة، ولو أن ابن خلكان – الذي استشهد بهذا – القول تحفظ بأن المقدمة الطويلةلـ «أدب الكاتب» لا تمنعه من أن يكون كتاباً قيماً.

كانت بعض المقدمات تتوسع لتصبح مؤلفات مستقلة تندرج تحت اسم «مقدمة الأدب»، وقد كتبت بطريقة «مقدمة» العديد من الكتب ومن أشهرها «مقدمة الأدب»للزمخشري (ت١١٤٤) و عمل في مجال متن اللغة يُقَارَنُ فيه اللغة العربية مع الفارسية واللغات التركية، و «مقدمة» عبد الرحمن ابن خلدون (ت١٤٠٥) وهي مقدمة لعمله في مجال التاريخ العمومي، حيث سرد نظرية كاملة في سنة التطور التاريخي للحضارة الإنسانية.

تتكون خواتم المؤلفات - أغلب الأحوال - من عبارة أو عبارتين مثل«والله أعلم» أو «انتهى»، وما إلى ذلك، نادراً ما يتلاقى زمان الانتهاء والأندر من ذلك مكانه، وثمة حوادث فريدة حين كان المؤلف يعتذر أمام قارئه على الأخطاء المحتملة كما هو عند ابن خلكان المستشهد أعلاه)الفصل الثالث).

العنوان هو العنصر الأهم ينفرد به المؤلف ويعرفه به الجميع. تبدأ الغالبية الساحقة للمؤلفات العربية بالكلمات والمصطلحات المحددة أعلاه، ولكثرة استخدامها تحتاج إلى تخصيص النوعية، فكان يكفي لأجل ذلك إضافة كلمة واحدة مثلاً «كتاب الموطأ»، «كتاب الحيوان»، «كتاب الخراج»، «كتاب الفصيح»، «كتاب المعارف»، «كتاب الأغاني»، «رسالة الغفران»، ويمكن أن تكون تلك الكلمة الإضافية اسم المؤلف مثل: «ديوان جرير»، «مسند ابن حنبل»، أو اسم شخص الذي أهدى له المؤلف (على شكل نسبة): «الزيج الحاكمي»، «القانون المسعودي»، «كتاب الفخري»، «الفوائد الضيائية»، أو اسم بلد أو مدينة «تأريخ دمشق»، أو الإشارة إلى النوع الأدبي: «كتاب التفسير»، «كتاب التاريخ»، «كتاب السنن»، «كتاب الآداب»، «كتاب النوادر»، «كتاب

الطبقات»، «كتاب القراءات»، «كتاب الفضائل»، وما إلى ذلك، غالباً ما كانت العناوين موسعة وطويلة.

يمكن أن ينوه العنوان بصورة مباشرة إلى فرع العلم أو الموضوع أو النوع الأدبي أو محور أو تركيب المؤَلف، وهذا بائن في بعض الأمثلة المتقدمة، يمكن أن يعبر العنوان عن نوايا وطموحات المؤلِّف في أن يبحث في مادته بصورة واسعة (مستفيضة) وأن يسرد بوضوح (بدقة) بالتفصيل أو بإيجاز وأن يكشف عن أسرار (أعماق) العلم (المعرفة الحقيقية) وأن يتوصل إلى الحد (النهاية، الغاية، الكمال)، وأن يمنح قارئه إعانة (إرشاداً، نصيحة، عظة) مفيدة، وأن يوصله إلى أفضل (أصفى، أعلى) المعارف وأكثرها عظمة، وأن يوقظ فيه العقل (الإحساس، الانتباه، القلب، السريرة) الذي يطلب العلم، وأن يطفئ ظمأه (تعطشه) ويخلصه من الجهل (الظلام، الضلال) وأن يجلب له النور والفرح والطمأنينة والمساعدة والإنقاذ وما إلى ذلك. إن مجموعة هذه الكلمات والعبارات المعبرة عن هذه الأفكار في العناوين واسعة فحسب بفضل تطور المرادفات والاستعارات والنعوت، ومع ذلك فهي قابلة للاستعراض[1]، ثمة تقاليد متبعة

---

(١) كثير ما تتلاقى في العناوين الكلمات التالية: علم، إعلام، تعريف، معرفة، حِكَم، حقائق، تحقيق، تصحيح، كشف، إظهار، تجريد، بيان، تبيين، تبيان، إبانة، تصريح، إنباء، بحث، فتح، فتوح، مفتاح، مفاتيح، سر، أسرار، إيضاح، توضيح، تبصير، تبصرة، إشارة، إشارات، تذكرة، إذكار، تحذير، تقريب، ترتيب، مراتب، محيط، بحر، نهر، عيون، منهل، نهج، طريق، طريقة، طرق، مسالك، هادي، هداية، غاية، نهاية، منتهى، كافي، كفاية، كافية، اكتفاء، حاوي، بلوغ، بلغة، بغية؛ شامل، كامل،مطالب، شفاء، شافي، وافي، منية، مقنع، نيل، نور، أنوار، تنوير، ضوء، ضياء، لمعة، لمع، لوامع، مشارق، سراج، مصباح، مصابيح، مشكاة، شمس، كوكب، كواكب، نجم، نجوم،مطلع، مطالع، طوالع، شهاب، بهجة، ابتهاج، قرة، سلوى، سلوان، نزهة، روض، بستان، حدائق، زهر، أزهار، ريحانة، ثمار، ثمارات، نفحة، نفحات، نصرة، تيسير، إسعاف، غيث، زاد، عدة، عمدة، سيف، سيوف، طراز، عمل، تدبير، سياسة، تحفة، إتحاف، صلة، مواهب، منحة، منح، هدية، بذل، فيض، غرة، غرر، شرف، لطائف، فرائد، أسنى، أبكار، نفائس، محاسن، كنز، ذخيرة، خزانة، جوهر،جواهر، در، درة، درر، لآلئ، نثر،، نظم، عقد، عقود، قلادة، قلائد، زينة، أساس، لب، لباب، عين، عنوان، قانون، وسيلة، نتيجة، نتائج.

وعناوين متكررة أو شبيهة بعضها لا تفرقها إلا أسماء المؤلفين، وعناوين أنيقة وشاعرية[١]، وبهية وفخمة رنانة، صار النوع المفضل من العناوين هي العناوين المقفاة، وفي بعض الأحيان إيقاعية بكلمات موازنة ونهايات توقيعية مع التكرر النحوي[٢].

من الصعب إيجاد أية قواعد ثابتة في هذا التنوع العملي لعناوين الكتب، كان الكثير يعود إلى الأفكار والقيم السائدة و «الموضة» المؤقتة والتقاليد الراسخة وخيال المؤلف وذوقه، تلحظ كذلك حالات الاستعارة المباشرة للعناوين، إذ يقولون مثلاً أن الفقيه الشافعي أبو إسحاق الشيرازي (ت١٠٢٧) قد استعار عناوين مؤلفات عالم اللغة ابن جنّي (ت١٠٠٢) «المهذب»، «التنبيه»، «التبصير» وغيرها[٣]، أما الغزالي(ت١١١١) فاستعار من الواحدي (ت١٠٧٦) عناوين«البسيط» و «الوسيط» و «الوجيز»[٤]، صارت عناوين الشروح والحواشي والتعليقات والموجزات والتكميلات مركبة، إذ أنه كان عليها أن تأخذ بالحسبان عنوان المؤلف الأساسي واسم مؤلفه، وقد استخدمت مثل هذه العناوين في أشكال كثيرة، بيد أن العناوين الموسعة فوق الحد كانت تستعمل في الحياة اليومية بصورتها المختصرة، وتارة كان يقتصر ذلك الاختصار بكلمة مميزة واحدة أو عنصر مختصر لاسم المؤلَّف، فيؤدي ذلك إلى ظهور شيء شبيه «بأحجية الصورة».

أحدثت الظواهر المنوه عنها مشكلة التعرف على عناوين المؤلفات وإثبات هويتها (وكذلك أسماء النصوص)، فليس من قبيل المصادفة أن حاجي خليفة قد كتب في القرن السابع عشر عملاً ببليوغرافياً بعنوان نموذجي ألا وهو «كشف الظنون عن

---

(١) "مصارع العشاق"، "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" وما إلى ذلك.

(٢) انظر مثلاً العناوين الطويلة للمؤلفات الحضرمية واليمنية المتأخرة: خالدوف، ١٩٧٩، ص ١٨٦-٢٠١.

(٣) ابن خلكان، ١، ص ٣١٣.

(٤) نفس المصدر، ص ٣٣٣.

أسامي الكتب والفنون»، في فهارس المخطوطات العربية والأبحاث في مجال الثقافة الكتبية العربية والتي أولت لهذه القضية إهتماماً كبيراً.

والمشكلة نفسها مع أسماء المؤلفين، وهنا تتعقد الحالة لعدم تساوي انتساب المؤلّف إلى مؤلّفه، أي وجود المؤلفين في المرحلة ما قبل الكتابية والمحدثين الشفهيين ورواة من مختلف المراحل والأزمنة، ومؤلفي المؤلَّفات المترجمة والمترجمين أنفسهم (انظر الفصل الثالث) وكذلك أسماء النساخ التي توجد في الكتب وكذلك أسماء المغُفَلِين وأصحاب الطلب والملاك ناهيك عن أبطال وشخصيات المؤلفات.

فيما عدا غزارة الأشخاص والأسماء ينبغي الأخذ بالحسبان أنّ في الأسماء العربية كثرة الطبقات تختصر في الحياة اليومية بصورة ليست مماثلة.

لكل إنسان اسمه الذي منحه إياه والده ولو أنه في المراحل المتأخرة – لاسيما عند المسلمين من أصل غير عربي – تتلاقى أسماء مركبة. إنّ تبديل الاسم ظاهرة نادرة الحدوث، وتتلاقى عند الانتقال من دين إلى دين آخر، ينال الإنسان في كهولته الكنية باسم ابنه الأكبر الذي ولد أو يترقبون ولادته (أو كلقب أو تلبية للعادات). الكنية عند الرجل هي عبارة عن تركيب الاسم مع «أبو» و «أبي» في حالة غير حالة الرفع)، وعند المرأة «أم»، والعنصر التالي من هو النسبة: (وهي تبرز بوضوح بفضل دليلها الصرفي ألا وهو «ي» بمكان الولادة أو الإقامة مثل «البغدادي » (أي من أهل بغداد)، أو نسبة إلى القبيلة (السلالة أو العشيرة) مثل «الأزدي»، ولكن قد تكون النسبة من أصل آخر أي لقباً شخصياً أو موروثاً منسوباً إلى حرفة ما مثل «الثعالبي» أو نسبة إلى مذهب ما (المالكي، الحنفي) أو الصوفية (القادري القشبندي)، أو لأي حجة أو دلالة صدفية، وكان من الممكن أن يحمل إنسان ما عدة أنساب، زد إلى ذلك قد يكون لإنسان ما لقب

مهين أو مبجل، شخصي أو عائلي[١]، اللقب بصورته متنوع فيشبه الكنية تارة والنسبة تارة أخرى وكثير ما يكون مركباً، مؤخراً كان للمؤلفين الفرس والأتراك الكاتبين باللغة العربية «تخلص» أي الاسم الأدبي المستعار، فمما ينبغي أخذه بعين الاعتبار هو أن المؤلفين من أصول عرقية مختلفة كانت لهم أسماء وألقاب بلغاتهم الأم، وأن الألقاب الجليلة كانت «موضات» على الأسماء والخواص الإقليمية لمجموعات من الأسماء.

لما يجري الكلام عن إنسان ظفر بمنزلة عالية وشهرة (مثلاً مؤلف ما) فعندما يذكرونه يسمونه باسمه الكامل مع تعداد كل عناصره، ولكن ليس هذا كل شيء، فيضاف أنه «ابن» فلان (أو بنت)، زد إلى ذلك قد يكون اسم أبيه أيضاً مصاحباً بالكنية أو اللقب، كان تعداد أسماء العلم، وفي الحياة اليومية إذا كان يذكر اسم شخص ما في سير الحديث كانوا يسمونه بصورته المختصرة فيسمون الإنسان في مثل هذا الحال بكنيته (التي تحمل في طياتها التبجيل) أو باسمه أو بنسبته أو باقتران العنصرين (ونادراً ثلاثة). إن اختصارات الاسم الكامل متنوعة، فأحياناً كان لإنسان مشهوراً بعدّة أسماء مختصرة[٢].

إن أسماء علم السلالات البشرية العربية المتصلة بالصفات غير الأصلية الأجنبية وتشوش الأسماء وتحريفها في الكتابة مدار ليس غريباً في الكتاب العربي المخطوط، وإنما جزء لا يتجزأ عن مضمونه (لأن أسماء الناس تحتل في المخطوطات مكاناً كبيراً وتستخدم كثيراً كعلامة مميزة) كانت مسألة أسماء العلم بكافة عناصرها تهم حتى علماء النسب الرواة، وفيما بعد اهتم بذلك كل علماء الحديث واللغويون

---

(١) كتب عن" الشغف للألقاب" وعن كنيات القرنين العاشر والحادي عشر ا.ميتس (١٩٧٣، ص٨٦، ١٢٣-١٢٤) مؤخراً ازدهر ذلك الشغف ولم يترك جانباً للكثير من المؤلفين.

(٢) والأمثلة النموذجية على الأسماء المختصرة: مجرد اسم: ماسويه، مسلم؛ مع إضافة "ابن" واسم أبيه : حسين بن إسحاق؛ سلف: أسامة بن منقذ، أو نسبة سفيان الثوري؛ ابن مع اسم أب: ابن مجرد كنية: أبو حنيفة، أو مع الاسم: أبو يوسف يعقوب؛ النسبة: المدائني؛ لقب ذو الرمة، أبو نواس، المبرد، المركبة من عنصرين أو ثلاثة: أبو العلاء المعري، الخطيب البغدادي، سعد الدين التفتازاني.

والمؤرخون وكتّاب السِّير ، كما نوه أعلاه كانت هنالك مؤلفات كثيرة في مجال علم أسماء الأعلام، وقد اضطر الاستعراب أن يهتم بهؤلاء الأعلام وخاصة عند دراسة المخطوطات وتحديد المؤلفين وذلك لضرورة التفريق بين الناس الذين تتشابه أسماءهم، أو الذين لهم نفس الأسماء.

فيما عدا اختصار أسماء الأعلام (الذي كان يصل تارة إلى الحروف الأولى من الاسم فقط) وعناوين المؤلفات كانت هنالك أيضاً اختصارات تكنيكية، فكانوا يوسمون نهاية الاقتباس باختصار «هـ» أي «انتهى»، والاستشهاد بالرأي «نا» (أخبرنا) أو «ثنا» (حدثنا)، وكانت هنالك اختصارات عبارات كثيرة الاستعمال والصيغ، وما إلى ذلك، وفي النصوص الرياضية كانت تستعمل الرموز الحرفية، كانوا يكتبون الأعداد بالأرقام أو بالأحرف التي حافظت على معناها العددي منذ زمن الساميين القدماء، وغالباً بالكلمات من أجل الأمانة، وعند كتابة المصطلحات والأسماء الأجنبية كانوا يستعملون الرموز الحرفية للأصوات من اللغات الأخرى[1]، كانت المصطلحات التكنيكية وإعطاء الشكل النهائي التكنيكي للنصوص تفرق بالطبع حسب فرع العلم.

كان الترابط بين المؤلفِ والمخطوطة في الغالب على ثلاثة أشكال: المؤلف يطابق المخطوطة؛ وتضم المخطوطة جزءاً من المؤلف، أي أنها عبارة عن أحد مجلداته، وينضم المؤلف إلى تركيب المخطوطة إلى جانب النصوص الأخرى الكاملة والمتقطعة.

في الحالة الأولى تتشكل المخطوطة من كل عناصر النص الموجودة في المولَّف وتحتوي على ما أضافه الناسخ.

ينبغي الاعتراف بأن تطابق المؤلَّف والمخطوطة نزعة إبداع رئيسة، ومن الظاهر أنه سعى وراء ذلك المؤلفون أيضاً، طالما أن نصف الكتب العربية على الأقل تضم نص

---

(١) مثلاً كما هو عند البيروني حين كان يمثل الأصوات السنسكريتية: Sachau, 1887, XXII-XXVII؛ خالدوف، إيرمان، ١٩٦٣، ص ٤١-٤٤.

مؤلَّف واحد كامل، مثلاً كان ديوان شاعر يملئ غالباً مجلداً واحداً وهذا ما تشهد عليه المخطوطات[١]، وفهارس المخطوطات[٢]، وما تفيده المصادر[٣]، والشيء نفسه في مؤلفات كثيرة ومختلفة المواضيع.

إنّ الثقافة الكتبية العربية من القرون الوسطى غنية كذلك بالمؤلفات الكبيرة الحجم التي تملأ مئات الأوراق والتي تربو عن الألف، فكان من الصعب وضعها في مجلد واحد، حدث وأن المؤلفين أنفسهم كانوا يجزؤون مؤلفاتهم إلى مجلدات وعندئذ يغدو المجلد عنصراً تركيبياً للمؤلَّف، في مثل هذه الحال كانوا يحاولون نسخ المؤلفات وتغليفها بالمجلدات، وكانوا يفعلون الشيء نفسه إذا كان الجزء التركيبي لمؤلَّف (نصف أو فصل أو جزء أو باب) يطابق المجلد، وكانت المجلدات في مجال التاريخ أو اللغات، غالباً ما تكون كثيرة وكذلك مجموعات ومنتخبات وموسوعات ومجموعات الأحاديث والتفاسير وأحياناً ديوان شاعر واحد ما يكون كذلك[٤].

---

(١) مثلاً توجد مجموعة فرع سانت بطرسبورغ من معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا دواوين بمجلد واحد لجرير (٦، الورقة مع الفراغات)، وأبي تمام (C٩، الورقة ١٤٨، و B١٧، الورقة ١٦١)، والمتنبي (١١، الورقة ٢٢٩، و C١٢، الورقة ١٨١ و C٧٧١الورقة ١٨١ و B١١٠٢الورقة ٢٤٢، و B١١٠٣الورقة ١٤٤)، وابن هانئ الأندلسي (C٣٣ الورقة ١٣٥)، وابن خفاجة (B٦٨ الورقة ٧٥)، وابن قزمان (B٨٦الورقة ٧٤) وغيرها.

(٢) Pertsch، ٤ العدد ٢٢٢٩ و٢٢٤١ _ دواوين المتنبي وابن حيوص)؛ Rieu، ١٨٩٤ العدد ١٠٧٥ (ديوان البهاء زهير) وغيرهما.

(٣) يقيم ابن النديم بصورة محترفة حجم تراث الشعر لدى الشعراء (ص ١٥٩٠١٧٠) ويؤشر في أوراق "سليماني" عشرين سطراً على الصفحة، وكانت أشعار غالبية الشعراء تملئ مائة ورقة والبعض منها ١٥٠-٢٠٠ ورقة أي مجلد واحد كبير أو صغير القياس، أما شهادات سائر المؤلفين فغير محددة تماماً؛ كانت دواوين الشعراء التي أجرى بحقها ابن خلكان تمثل غالباً مجلداً واحداً.

(٤) وهكذا – استناداً إلى ابن النديم (ص ١٦٨-١٧٠) – كانت دواوين بعض شعراء القرن العاشر تملئ ٣٠٠ أو ٤٠٠ أو ٥٠٠ ورقة، وكذلك يشير ابن خلكان إلى الدواوين التي تتكون من مجلدين (١، ص ٣٦١: لمهذب الدين علي بن سعد الموصلي المتوفى سنة ١٠١٩) أو أربعة (٢، ص١٤٩: لمعيار الديلمي المتوفى سنة ١٠٣٧) وحتى عشرة (١، ص ١٥٥: لابن الحجاج المتوفى سنة ١٠٠١).

إنَّ إدخال مؤلَّف ضمن مجلد واحد أو عدمه كان يعود ليس لإرادة المؤلف فحسب بل إلى النساخين ومغلفي المخطوطات، فمثلاً كانوا يدخلون القرآن الكريم كله عادة في مجلد واحد، ولكن ثمة نسخ بمجلدين وكذلك «رباعية» أي بأربعة مجلدات و «العشرية» أي بعشرة مجلدات، وكذلك بثلاثين مجلد حيث قسم النص القرآني إلى أجزاء متساوية، كان الدافع على ذلك الأصوبية العملية لأنه كثير ما كانوا يقرأون القرآن الكريم وينسخونه ويحفظونه عن ظهر قلب ويتلونه بالأحزاب (كل حزب نصف جزء من القرآن) وجدت نسخ «الصحاح» للجوهري بأربعة مجلدات، ولكن في ذلك الوقت كان أحد ناسخي القرن الثالث عشر يفضل نسخه أي نسخ«صحاح» الجوهري بمجلد واحد أو مجلدين [١]، أو من ضمن مجموعة واحدة سميكة، وخصوصاً أنّ المؤلَّفَ الكبير كان من الممكن تجزئته إلى مجلدات بمختلف الأشكال دون النظر إلى أجزائه التركيبية [٢].

تجدر الإشارة إلى أنه عندما نقدّر حجم المؤلفات المذكورة في المصادر فقط بعدد المجلدات و«الكتب» والأجزاء والأبواب وما إلى ذلك، فإن تقديرنا لها يبقى مبهماً، فاولاً: إن المصطلح «كتاب » وغيره كثير المعاني، وثانياً إن أحجامها تتراوح بين حدين متباينين، ومع ذلك فهذه المعطيات مهمة لوصف أحجام المؤلفات والنتاج الأدبي الإجمالي لدى المؤلفين، وحتى المجموعات المخطوطية الكاملة (انظر الفصل الثامن)،

---

(١) مثلاً يوجد شرح الواحدي على ديوان المتنبي في فرع سانت بطرسبورغ من معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا في ثلاثة مخطوطات منها اثنين بمجلد واحد (C١٣،٠ الورقة ٢٨٢، و C٧٦٦ الورقة ٣٢٤)وواحدة بمجلدين (B١٩الورقة ٣٣٠، ٢٣٠).

(٢) كان منتخب أبي سعيد منصور بن الحسين الآبي (ت١٠٣٠) " نثر الدر" مكوناً من سبعة فصول يبدأ كل منها بخطبة مستقلة، وفي المخطوطة كان من الممكن أن يحتوي على أربعة أو خمسة أو سبعة مجلدات كانوا يسمونها في بعض الأحيان بالأجزاء، تمثل مخطوطة سانت بطرسبورغ في معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا تحت دالة كتاب C٦٧٩ المجلدان الناقصان الثاني والسادس لنسخة بسبعة مجلدات، أنظر: خالدوف: ١٩٦٠، ص ٣٣-٣٧؛ خالدوف، ١٩٦٠ أ.

إنّ تقدير حجم مؤلف بعدد الأوراق مقبول أكثر من غيره ولكن غالباً ما تنتهي هذه الأرقام بالصفر أي أنها تقريبية، أما تحديد قياس الصحيفة وعدد الأسطر التي فيها فتصوّبه بشكل لا يستهان به المعطياتُ في الأوراق، لكن هذه التحديدات نادرة جداً.

إذا كان المجلد يحتوي على أكثر من مؤلف واحد فإنّ الأشكال تصبح كثيرة العدد، ولكن هنا للكتاب أهمية مستقلة، فالمؤلفات المكملة والمقاطع التي تنضم إليه تقع في الحالة التابعة، كان من الممكن أن تتشكل كل المجموعة بمجلد واحد لمؤلف واحد أو مؤلفين مختلفين قريبين أو بعيدين من حيث الموضوع، باللغة العربية أو بالتمازج مع النصوص المكتوبة بلغات أخرى، ومن هذه النماذج للغات: العربية واليونانية والقبطية والسريانية في المخطوطات المسيحية، العربية – العبرية والعربية – الأسبانية والعربية– الفارسية – التركية؛ تتصادف نادراً وتنتمي إلى مراحل متأخرة في مخطوطة واحدة نصوص باللغة العربية والأوردية والملاوية والبربرية ولغات الشعوب الإفريقية وداغستان واللغة البيلوروسية وهلم جرا، يمكن أن تمثل النصوص المكتوبة بلغة أجنبية ترجمة أو تعليقات للمؤلف الأساسي المكتوب باللغة العربية، أو مؤلفات مستقلة أو مدونات مختلفة الأنواع، غالباً ما كان لهذه المجموعات غرض عملي يستعملها كل يوم الأطباء أو الفقهاء أو اللاهوتيون أو المدرسون أو التلاميذ، وتارة كانت هي عبارة عن تحضيرات مسودة كاقتباساتٍ تتخلل النصوص مع صفحات فارغة.

إن الربط الميكانيكي لنصوص مختلفة المراحل والأصول ضمن غلاف واحد لا تجدر – على وجه العموم – بالكتاب العربي في القرون الوسطى، وخصوصاً اقتران النصوص المخطوطة مع المطبوعة أو نسخ النصوص من المنشورات المطبوعة، وسبب هذه الظاهرة هو تأخر تطور طباعة الكتب باللغة العربية ومفاضلة التقاليد المخطوطية عنها، وتنسب هذه الأحداث المنفردة إلى القرنين التاسع عشر، العشرين.

تحتاج الأبجدية العربية المكونة من الأصوات الساكنة إلى النقاط التي تميزها (ثلاثة عشر حرفاً من أصل ثمانية وعشرين) لأجل التفريق بين الأحرف المطابقة كتابياً، وتحتاج كذلك إلى العديد من العلامات ما فوق السطرية وما تحتها لتمثيل الأحرف الصوتية القصيرة وبعض الشرطيات الإملائية، بما أن الكتابة العربية مترابطة على وجه العموم فالاثنين والعشرين حرفاً منها اكتسبت ثلاثة أشكال حسب الموقع فيما عدا حالة الانعزال، أما الأحرف الستة الباقية والالتحام بين الحرفين اللام والألف (لا) فشكلاً واحداً، بما أن الأحرف من المجموعة الأخيرة لا ترتبط إلا مع الأحرف التي تسبقها فهي تخالف نظام اتصال الكلمات، وتقطعها إلى أجزاء يتكون كل منها من عدة أحرف مرتبطة برباط حروف أو من حرف واحد، إن الفاصل بين أجزاء كلمة واحدة غير مرتبطة مع بعضها لا يكاد يختلف عن الفاصل بين الكلمات، وهذا ما يجلب المزيد من الصعوبات للقارئ، ويحتمل كذلك وجود رابطات أخرى وانقطاعات بين الأحرف، ونقل أجزاء كلمات إلى السطر التالي الممنوع قواعدياً وهلم جرا.

عند الإعكاس المتتابع للأحرف الصوتية القصيرة في الكتابة يجب وضع رموزها عند كل حرف، عندئذ تشكل مع سائر العلامات الإضافية صفاً فوق السطر الأخف منه تحت السطر، من البديهي أنه لكتابة نقطة أو أية علامة ينبغي رفع القلم عن الصفحة وإجراء حركة يد منفردة، وطبقاً لهذا تظهر مصادر جديدة للأخطاء والتحريفات المحتملة، تبدو الكتابة العربية وما تحتويه من نقاط وإشارات كتركيب جسيم كثير الطبقات، وتحتاج إلى التركيز على تفاصيلها سواء في الكتابة أو في القراءة، ويظهر فيها تجاوز التحميل والفيض، ومقابل هذا فهي تؤمن القراءة الصحيحة للنص حتى لو من غير فهم فحواه، لقد كانوا يستعملون هذا النوع من الكتابة نادراً بصورةٍ نسبية في الحالات الخاصة، كالنسخ الرئيسية للمؤلف، وفي أغلبية المصاحف القرآنية والكتب المدرسية أو في الكلمات والجمل والاقتباسات المنفردة.

بالعادة كانوا يهملون جزءاً لا يستهان به من الحركات والعلامات الإضافية عن قصد، وكذلك كانوا يهملون النقاط على الحروف ولكن في حالات نادرة، تتناسب مع عدد العلامات المهملة في كتابة تنوع قراءة النص وفهمه وتفسيره، ولكن لم تكن هنالك أية قواعد لوضعها أو إسقاطها، وإنما كان يعود ذلك إلى إرادة الكاتب وشعوره بالحدود، وتارة كان يعود ذلك إلى «موضة» وأساليب الكتابة، وفي بعض الأحيان كانت الكتابة «العمياء» تستخدم كغطرسة بـ «سعة العلم» غير العادية ومهارة اللغة، وكانت الاحتمالات الشكلية لبعض الشعراء والمولعين بالكتب مستندة على هذه الخواص للكتابة العربية.

في معظم الكتب المخطوطة نلاحظ تغيّر النقاط والإشارات من حيث وفرتها بين حدين متباينين، ونادراً ما يصل الأمر أنه لا يبقى في الكتابة إلا الهيكل الكتابي الواحد ورباط الأحرف.

بمقتضى الظروف المؤشر عليها إن القراءة العربية مصحوبة بحل الرموز، لقد أدرك علماء اللغة العرب بوضوح عدم كمالية نظام الكتابة العربية، فوضعوا مصطلحات خاصة تساعد على اكتشاف وجود لدى الحرف كنقطة أو علامة حرف صوتي قصير أو عدم وجودها، وقد كانوا يلتجئون إلى هذه المصطلحات في كل مرة بغية منع الأخطاء التي قد ترتكب عند نسخ النص، مع الإشارة الحرفية إلى الكتابة الصحيحة لكلمة أو لأخرى كالأعمال النحوية والمعاجم والشروح المدرجة مع سير السرد إلى مختلف النصوص، كانت مثل هذه الإحتياطات تساعد القراء ولكنها لم تلتزم على وجه الدوام.

إن المستشرقين الأوربيين المعتمدين على تجربة الأبجدية اللاتينية والأبجديات التي نشأت على أساسها، يختلفون في تقييم نظام الكتابة العربية، فيبتهجون بتماسكها تارة ويتكلمون عنها بشك تارة أخرى، مثلاً: «إن الكتابة العربية آلة متخلفة متبقية، وكل النصوص المدونة بواسطتها تجلب الكثير من الغموض في القراءة وتؤدي إلى

اختلاف في حل رموزها»[١]، «لا يحتوي النص العربي إلا على الخمسة والسبعين بالمئة من المعنى، أما الخمسة والعشرين بالمئة الباقية فيجب أن يُكْمِلُها القارئ بنفسه، وبالتالي يمكن التعرف على معنى كل كلمة في الجملة وفهم تركيبها النحوي، ومع ذلك تبقى الحالة متقلبة بين مفهومين متباينين... عدا ذلك ينبغي الأخذ بالحسبان الصعوبات المعجمية الطبيعية، والأخطاء النصيّة الصادرة عن جهل أو غفلة الناسخين الذين تقع بأيديهم الآثار العربية – نظراً لمميزات الكتابة العربية – أكثر من الآثار المخطوطية من الآداب الأخرى»[٢].

كل ما تم سرده يساعدنا على توضيح دور الناسخ الذي كان شخصية هامة في التقاليد المخطوطية ومشتركاً فيها بكامل الأهلية، كل عملية نسخ كادت أن تكون مرحلة هامة في مصير أي مؤلَّف، وذلك إذا كان النقل المستطرد للنص المدوَّن فيها يعود إلى هذه النسخة أو إذا بقيت هذه النسخة كما هي حتى إجراء طبعتها العلمية المحققة.

كانت الخبرة الفنية لدى الناسخ ومستواه التعليمي والثقافي وظروف عمله ومدى شعوره بالمسؤولية تجاه عمله تقرر الكثير، كاختيار الأصل وتقديره حق التقدير واستخدام عدّة مخطوطات لمقارنتها (وتيرة ودقّة العمل والتعمق في مضمون النص ثم إعادة قراءة النص المنسوخ لمراجعته، وفي بعض الأحيان بمساعدة ومشاركة أشخاص آخرين) ونتيجتها هي كيفية النسخة التي أعدّها، فكان من الممكن أن يسوء أو حتى يخفِّضَ من أهمية نص المؤلف[٣]، وكان كذلك بمقدرة الناسخ أن يحسنه إذا نسخ بدقة على المبيضّة من المسودّة غير الواضحة أو كتابة اليد السريعة، فيقوم بضبط الأصل[٤]،

---

(١) Blachere, 1952, p.64.

(٢) غيب، ١٩٦٠، ص ١٦-١٧.

(٣) إشارة إلى التحريف،نحو: "مسخ" بدلاً من "نسخ" النص التوحيدي (ياقوت، إرشاد، ٥، ص ٣٨٤) والبيروني (الصيدلية، ص ٣٩، كراتشكوفسكي، المجلد الرابع، ص ٢٥٥) وغيرهما من المؤلفين البارزين.

(٤) ياقوت، إرشاد، ٥، ص ٤٢٠ حيث كتب عن ابن عصره الذي كان عارفاً بعلم النحو واللغة حسن الفهم جيد النقل حريصاً على تصحيح الكتب لم يضع قط طرسهُ إلا ما وعاه قلبه وفهمه لبه. وقارن ما يقول

بما أن التدخل الفعال من جهة الناسخ كان يؤدي تارة إلى نتائج عكسية، فحدث تارة أن النسخ الحرفي للنص غير المفهوم كان أفضل من «التصحيح» قليل الخبرة، ولو أنه كان من الصعب التوقع من الناسخ الموقف الحيادي الكامل تجاه النص.

ينبغي الأخذ بالحسبان أن الباحثين المعاصرين كنقاد ناسخي القرون الوسطى ينطلقون من تخيل النص المثالي الذي يجب أن يكون موجوداً حتماً (والذي «يعيد إنشاءه» عالم النصوص) لكن هذا التخيل يكاد يكون وهمياً؛ لأن نص مؤلف ما كان من الممكن أن لا يكون كمالياً لسبب أو لآخر، إذا كان مستنداً إلى مصادر ليست جيدة، أو لم يكن جميلاً من حيث البلاغة والتركيب، أو غير مكمل ومكتوب بخط يدوي رديء من غير نقاط وحركات ومليء بأخطاء لغوية حقيقية أو خيالية، أو منحرف عن الأعراف الأدبية وما شابه ذلك، كان النساخون المحترفون الخادمون للمؤلفين- وهم بالعادة كانوا من عداد تلامذتهم أو معجبيهم -يقدمون نسخاً موثوقة بها أكثر من غيرها، فكانوا يحولون «مسودة» أو «تسويد» مؤلف إلى «تبييض، مبيضة، بياض» أي أنهم كانوا يقومون بنفس الأعمال التي قام بها فيما بعد في مرحلة المطابع المنضدون والمصححون للأخطاء المطبعية، في بعض الأحيان كان يقوم بهذا العمل المؤلفون بأنفسهم، أو كانوا يقرأون التبييض ويصححونه[1].

فيما عدا نسخ وتغليف المخطوطة (انظر عن ذلك في الفصل السابع) كان الناسخ يضيف إليها من نفسه نقشة التذييل على شكل «كولوفون»، تحتوي الكولوفونات الأكثر تفصيلية على البيانات الآتية: ما هو المؤلَّف الذي تم نسخه، ومن

التوحيدي في نفس المصدر ص ٣٨٤: صحة نقلي وتقييد خطي وتزويق نسخي وسلامته عن التصحيف والتحريف.

[1] والمثال على ذلك مخطوطة فرع سانت بطرسبورغ من معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا ٦٥١ التي تضم "فاكهة الخلفاء" لابن عربشاه مع العلامة التي وضعها مؤلفها للدلالة على أنه قد أعاد مطالعتها.

أي أصل وحتى من الذي قام بذلك وبطلب من، ومن ثم تمجيد الله ورسوله وآله وأصحابه ومباركة كل المسلمين، وفي بعض الأحيان توجد البيانات حول النسخة التي تم منها النقل، وقد تكون هذه البيانات مفصلة جداً فتخبر عن اسم المؤلّف ومؤلّفه، ويدون الناسخ اسمه عادة بصورة كاملة، أما اسم الملتمس (صاحب الطلب) فمصحوبٌ بكلمات مدح تجاهه، ويحتوي على زمان النسخ كالتاريخ والشهر واليوم الأسبوع والسنة الهجرية بالكلمات ونادراً بالأرقام، أما فيما يتعلق بمكان النسخ فيذكرون اسم المدينة والحي والمدرسة أو المؤسسة – حيث جرى النسخ فيها – مع ذكر اسم مالكها (مؤسسها)[1]، وبالطبع توجد كذلك الكولوفونات المكتوبة بإتقان، ولكن في الغالب هنا ينتقل الناسخ إلى خط اليد السريع ويسجل التواريخ والأسماء والتسميات الجغرافية بخط مختلف لايكاد يُقرأ ومن غير نقاط على الحروف والحركات، محولاً كولوفونه إلى لغز ومخفضاً من قيمته الإعلامية، وأخير قد يكون الكولوفون خالياً من أي عنصر من العناصر المذكورة، وقد يحتوي على الحد الأدنى من المعطيات، أو قد يصل إلى درجة الصفر، في هذه الحالة الأخيرة تكتب غالباً بعد نص المؤلف كلمة " تم" وتكرر في بعض الأحيان ثلاث مرات أو على شكل مثلث، وبعض الكولوفونات عبارة عن صورة عن الكولوفون الموجود في الأصل الذي نسخت منه المخطوطة (عندئذ تظهر مشكلة تحديد تاريخه الحقيقي).

تخضع سائر الإضافات التي قد يدرجها الناسخ في المخطوطة فيما عدا نص المؤلف وصفحة العنوان، والكولوفون أقل من غيره للوصف العام، ومن ضمن هذه

---

(١) نقدم على سبيل المثال كولوفون مخطوطة "تهافت الفلاسفة" للغزالي (B٢١٦٧في مجموعة فرع سانت بطرسبورغ من معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا): " تم هذا الكتاب بعون الله وحسن توفيقه ضحوة يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة في حصن سنواجرد من قرى سرخس في دار الشيخ الرئيس جمال الدين محمد بن أحمد بن خالد سعلمه الله على يدي أبي الحسن علي بن ناصر الحسيني"، يوافق التاريخ ٥نيسان عام ١١٦٠، انظر: كراتشكوفسكي (١٩٢٥)، ص٤٦٦ وكراتشكوفسكي (١٩٢٥)أ.

الإضافات تصحيح الأخطاء الكتابية، أو سد الفراغات التي تبينت في غصون النسخ، أو عند المقابلة المكررة بين النسخة والأصل (وفي بعض الأحيان مع نسخة ثانية) وتسجل هذه الإضافات بين الأسطر أو على الهامش ويصدق عليها بكلمة «صح»، بعد ذلك يرقم الناسخ (مع الأسف ليس على وجه الدوام) الأوراق (ولكن ليس صفحات) أو الدفاتر ويضم «صلة» أو «نظام التعقيبة» أو «حافظ» ترتيب الأوراق، ويوضع الأخير في الزاوية اليسرى السفلى من الوجه الآخر للصحيفة، ويحتوي على كلمة أو كلمتين لا أكثر التي تبدأ بها الصفحة القادمة، وعلى هامش مخطوطات القرآن الكريم يعلِّم الناسخ في بعض الأحيان قطعات القراءة أي «الجزء» و «الحزب»، وأخيراً قد يسجل الناسخ أنه قرأ نص المؤلف في هذه المخطوطة تحت إشراف أستاذه، أما فهرس المؤلَّف فقد يضعها الناسخ إمَّا على الصفحات الأولى وإمّا على الأخيرة من المخطوطة.

يمكن أن يزود مجلد واحد من مجلدات المؤلف بكولوفون مستقل، ولكن في الغالب تعلم نهاية المجلد وبداية المجلد الذي يليه بعبارة إيضاحية قصيرة.\

أما التدوينات الإضافية الجانبية – التي قد تظهر على الأماكن الفارغة من الكتاب المخطوط على الهامش أو صفحة العنوان أو أوراق غفل أو الوجه الداخلي للغلاف، وحتى بين سطور النص الأساسي – فلا تخضع للتنبؤ أبداً، فبعد أن يعد الناسخ المخطوطة تقع المخطوطة بأيدي مختلف الناس، أو تنضم إلى مجموعات خاصة أو مكتبات عامة، فأي قارئ كان بوسعه أن يضيف إليها أية ملاحظة أو تسجيل مختلفة النحوى، كالوقائع أو التواريخ (تاريخ الحصول على المخطوطة أو قراءتها أو مالا يتعلق بالمخطوطة قط(أو الأفكار والعبارات التي أعجب بها، أو مقاطع النصوص أو الصلوات أو الأدبيات أو الإخباريات عن أحداث حياته الأسرية أو سلاسل النسب أو ظواهر الطقس أو الكوارث الطبيعية وما إلى ذلك.

من المهم أن البيانات التي كانت تدرج ضمن المولوفونات والأماكن الفارغة من المخطوطة كانت منذ مراحلها المبكرة جداً تقوم بدوران، مكرر فتضم إلى تركيب النص عند نسخه، وتنقل إلى مؤلفات جديدة حرفياً أو بصورة محررة، فمثلاً استخدم ابن النديم (ت٩٩٥) مدونات الإجازات بمثابة مصدر: « كتب ابن بابويه علي بن الحسين بن موسى القمي أو جعفر محمد على جزء:" قد أجزت لفلان بن فلان كتب أبي علي بن الحسين وهي مائتا كتاب وكتبي هي ثمانية عشر كتاباً"»[١]، وقد وجد على ظهر الجزء بخط عتيق مكتوب تسمية من خرج إلينا اسمه من مفسري كتب الفيلسوف في المنطق[٢].

كما أخبر ابن خلكان، كتب العماد الأصفهاني في «الخريدة»: «أعطاني القاضي الفاضل" كتاب الحديقة"، وفي أخرها مكتوب أنه (يعني مصنفه) قد توفي في المحرم سنة 546»[٣]، وهو استشهد غير مرة بالملاحظات السيرية وسير الذات من هذا السبيل التي وجدها على ظهر المخطوطات[٤]، وفي بعض الأحيان يستشهد بأشعار وجدها بنفسه على ظهر مخطوطة[٥]، أو وجدها غيره[٦]، كل ما تم جمعه من الحواشي كان يدفع على تصنيف مؤلفات مستقلة كاملة، من البديهي أن المدونات والملاحظات الإضافية تعطي للباحثين المعاصرين مواداً في تاريخ المخطوطة المعينة، وتسجل بدقّة في الفهارس الأكثر تفصيلية.

---

(١) ابن النديم، ص ١٩٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٥٥.

(٣) يشير ابن خلكان (١، ص ٨٠) – الذي استخدم بدوره هذا البلاغ المدوّن في الكولوفون – إلى التاريخ وينسب في الحقيقة إلى أنه مصنف الكتاب.

(٤) ابن خلكان، ١، ص ١٥٦، ٢٦٧، ٤٢٠؛ ٢، ص٧٦.

(٥) نفس المصدر ١، ص ٣٠٣؛ ٢، ص٢٢١.

(٦) نفس المصدر، ١، ص٣٣٧.

وهكذا فخلال التاريخ الطويل التي عايشته الثقافة الكتابية العربية كانت التصانيف والمخطوطات توجد مع بعضها في وحدة لا تخضع للتجزئة وتتعلق ببعضها؛ وكانت سبل تأثيرها على بعضها البعض تتقاطع غير مرة.



الفصل السابع
العناصر المادية للمخطوطات العربية وميزاتها الفنيّة

فكم قد حوى من فضل قول محبر ومن نثر مصقاع ومن نظم ذي فهم
ومن خبر حلو طريف جمعته على قدم الأيام للعرب والعجم
يرنح أعطافي إذا ما قرأته كما رنحت شُرَّابَهاابنةُ الكرم
ولو أنني أنصفته في محبتي لجلدّتُهُ جِلدي وصندقْتُه عظمي
ياقوت بن عبد الله الحموي

نركز جُلَّ اهتمامنا في هذا العمل على البحث اللغوي لمخطوطات القرون الوسطى وبعض النواحي التاريخية – الأدبية والاجتماعية – الثقافية للتقاليد المخطوطية، ولكن ينبغي عدم إغفال عن الطريقة الأخرى وهي دراسة المخطوطات من ناحيتها الفنية – الجمالية والنتاجية، وأن نراها كموضوع فني ونتاج عملي حرفي، وفي هذه الطريقة من الإقبال خطورة عملية كبيرة؛ لأنها تقدم المعرفة عن المخطوطات في حقيقتها الماديّة مع كثرة جزئياتها، وتنوع خواصّها الإقليمية والتاريخية، إنه بحث مستقل وكثير المواضيع، ويعمل في حلّها عادة علماء الفن والمؤرخون في مجال الثقافة، وليس من الممكن طرح هذه المسألة كاملاً، وتبيينها بصورة مفصّلة على قدر اللزوم، فلذا سنتناولها على قدر ما يلزمنا في بحثنا الموضوعي هذا.

لأجل مساندة التقاليد الكتابية لا تكفي الظروف السياسية والاقتصادية المواتية والمتطلبات الاجتماعية للنتاج الروحاني وبلوغ المستوى المعين من تطوره، وإنما يحتاج هذا إلى القاعدة المادية، ولا سيما إذا كان الأمر يتحدث عن غزارة الآداب الكتابية واستقرار تدعيمها خلال فترة طويلة من الزمن، نقصد بالقاعدة المادية للأدب المخطوط (بالمعنى الأوسع للكلمة) ما يكتبون عليه وما يكتبون به (أي: المواد الخام

الطبيعية التي تصنع منها مواد الكتابة ولوازم الكتابة والأغلفة وأدوات العمل والأساليب الفنية التي تصنع تبعاً لها هذه المواد).

لنتحدَّث في البداية إلى المواد الكتابية ولوازم الكتابة، من حيث كميتها وكيفيتها وثمنها وحتى المواد الخام التي نقف عليها، تلك هي العوامل التي تعود إليها على قدر معرفة حجم الكتب المخطوطة، ومنظرها الخارجي، وإمكانية تكثير نسخها، وتخطيط وإنجاز أعمال كثيرة المجلدات.

لأجل تدوين النصوص باللغة العربية كانت تستخدم مختلف المواد طبقاً للزمان والمكان، لكن المواد الأساسية التي كانت تستخدم للنصوص الطويلة هي البردي والرق والكاغد، وكانت هذه المواد الكتابية معروفة منذ غابر الزمن عند شعوب الشرق، ومستوعبة من قبل العرب منذ مرحلة ما قبل الإسلام أو في المرحلة المبكرة من تاريخهم الإسلامي.

لعب الرّق دوراً معيناً في تاريخ الآداب الكتابية العربية بمثابة مواد الكتابة الذي ذكر حتى في الشعر القديم، كانوا يستعملونه في مرحلة صدر الإسلام الإسلام لتدوين القرآن الكريم، وقد كانوا يصنعونه من جلود الغنم والماعز والعجل، وفي بعض الأحيان من جلود الغزلان وغيرها المدبوغة بإتقان وبطريقة خاصة، على الرغم من الندرة وغلاء الثمن كان الرقّ يُستَخْدَمُ على نطاق واسع في القرون الأولى من الهجرة، وانتشر الرق والجلود على نطاق أوسع في شمال إفريقيا، حيث نعثر على مصاحف كاملة للقرآن الكريم ومئاتٍ من صحائف النصوص الأدبية المكتوبة على هذه المواد من مختلف المراحل. كان من المعروف أن النص المكتوب على الرق قابل للإزالة بالغسل أو الحكّ، فيمكن بذلك استخدام الرق مرة ثانية لإجراء التدوينات الجديدة، بيد أن صحائف الرق التي أجريت عليها تدوينات بالعربية غير مرة نادرة جداً، حتى الآن لم يتم إحصاء صحائف الرق العربية التي بقيت (من الألف إلى الألفين؟) إنها موجودة في مجموعات كثيرة من المخطوطات العربية تحوي كل منها وحدات أو عشرات من

الصحائف، وتدخل النصوص العربية المؤرخة المكتوبة على الرق في الحدود الزمنية ما بين ١٦٨هـ/ ٧٨٤م و ٤٩٨هـ/ ١١٠٥م[١].

من المفترض أن البردي المصري أو النيلي كان معروفاً في الجزيرة العربية في عصر ما قبل الإسلام، وكان يستخدم كمادة كتابية أساسية لمنتجات الأدب العربي خلال القرنين الأولين للهجرة، وكان يتواجد مع الكاغد الصيني والتركستاني الشرقي المستورد وسائر مواد الكتابة، وكان يحتل مكانة سائدة إلى آخر القرن الثامن، وفي بداية القرن التاسع كان يتنافس مع الكاغد السمرقندي، ومن ثم أزيح إلى مكانة ثانوية ولو أن استخدامه قد استمر حتى أواخر القرن العاشر، وفي مصر حتى عام ١٠٨٧ على الأقل[٢].

كان أ. غرومان – الباحث والعلامة الأول الذي اشتهر بدراساته حول ستة عشر ألف مخطوط[٣]، وهي بصورة عامة عبارة عن صحائف أو لفائف أو كتيبات صغيرة، لذا نجد كل النصوص المدونة على البردي تقريباً من التي بقيت كان أصلها من مصر، أما في البلدان الباقية مثل: (الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام) التي كانت تستخدم البردي، فاندثرت.

لقد كانوا يكتبون الوثائق والرسائل على البردي بصورة عامة ، وأما الأخبار حول تدوين النصوص الأدبية عليها، فلم يصل إلينا منها إلا القليل، وليس من بينها إلا كتاب واحد كامل مكوّن من مئة صحيفة ونيف ألا وهو «جامع في الحديث» لعبد الله بن وهب بن مسلم (٧٤٣-٨١٣)[٤]، ومع ذلك فإنّ لدراسة النصوص العربية الأدبية المدوّنة على البردي- ولو كانت قليلة ومكونة من قطع- أهمية علمية كبيرة،

---

(١) Grohmsnn, 1954, p. 71- 72, 247, ،Grohmann,1967p. 111.

(٢) Grohmsnn.1967.p.73.

(٣) نفس المصدر، ، ص٢٦.

(٤) نشر ج.دافيد فايل عام ١٩٣٩-١٩٤١ (ابن وهب)

لأنها تطلعنا على التاريخ المبكر للآداب الكتابية، وتساعدنا على البحث بصورة انتقادية في المعطيات التي تحتوي عليها المؤلفات والمخطوطات المتأخرة، بيد أن قراءة وفهم وتشبيه النصوص المكتوبة على البردي (النصف الممحية والمتقطعة) مصحوبة بصعوبات كبيرة يحتاج حلّها إلى جهود متفانية[١].

عندما يتكلمون عن المؤلفات الأدبية لا يذكرون عادة المادة التي استخدمها مؤلف هذا أو ذاك في الكتابة، أما البيانات القليلة أو غير المباشرة حول هذا فهي تحمل أكثر من مدلول إذ أن نفس المصطلحات كانت تطبق بالتوالي على البردي والرق والورق (انظر عن تسمياتها أدناه) وقد تضلل القارئ أو تجعله يتحير من كثرة التفاسير لهذه المصطلحات.

لقد كان البردي يصنع[٢] ويباع على شكل لفائف (يصل طولها إلى ١٤.٥ متراً) كانوا على يقطعونها فيجعلون منها صحائف حسب الحاجة ، وكان من الممكن أن يخيطوا أو يلصقوا عدة صحائف ببعضها، ويجعلون منها دفاتر. استمرت صناعة أوراق البردي التقليدية في مصر في عهد العرب، وتم ذلك في ورشات خاصة، وهناك ثمة خبر يفيد عن فتح مثل هذه الورشة في سامراء سنة ٨٣٦ فقد كانوا ينمون مادته الأولية (أي نبات الكولان)، والتنويهات عن ثمن لفائف البردي متباينة، إذ كان يتراوح ثمنها من الجزء الثاني والثلاثين من الدينار إلى دينار ونصف، وهذا ما يشهد على غلائه الكبير[٣]، ورغم ذلك كانوا يصنعونه ويستهلكونه بكميات كبيرة إلى حد ما.

---

(١) انظر سلسلة المنشورات والبحوث أ.غرومان وخاصة، أبية عبود ورايف خوري (Abbottm 1957, 1967, 1972)

(٢) إن سير عملية قطع قشور الجذع وإيثاقها مدروس ومجرب وموصوف من قبل الكثيرين، أنظر: غرومان، ١٩٦٧، ص ٧٥-٧٩ مع الاستشهادات بالمصادر والبحوث..

(٣) Grohmann.1954, P. 63-71. Grohmann. 1967.P.93.

عرفت إيران الساسانية الورق الصيني المستورد منذ أواخر القرن السادس عشر، وفي القرون الأولى للهجرة كان يستخدم في الخلافة العربية إلى جانب الرق والبردي، كان ابن النديم ينوه على الكتب المصنوعة من الورق الصيني ويذكرها[١]، ومع ذلك فإن إنتاج الورق المحلي فقط هو الذي وفّر للدولة المواد الكتابية الممتازة وبكميات قادرة على إرضاء كل الطلبات.

كتب الثعالبي (ت١٠٣٨) عن ظهور إنتاج الورق في الخلافة العباسية ما يلي: «ومن خصائص سمرقند الكواغيد التي زاحمت البردي المصري والجلود التي كان القدماء يكتبون فيها، لأنها أحسن وأنعم وأرفق، ولا تكون إلا بها وبالصين، وذكر صاحب كتاب «المسالك والممالك» (الجيهاني؟) أن إنساناً وقع من الصين إلى سمرقند في عداد الأسرى الذين أسرهم زياد بن صالح واتخذ الكواغيد بها، ثم كثرت الصنعة واستمرت العادة حتى صارت متجراً لأهل سمرقند، فعمّ خيرها والإرفاق بها في الآفاق»[٢]، وقعت الحادثة الموصوفة هنا – المعركة الطلاسية المشهورة بين مفارز النائب العربي بسمرقند والصين الثانية– في تموز سنة ٧٥١[٣]، وقد انتصر الجيش العربي بقيادة زياد بن صالح في المعركة وأسر حوالي عشرين ألف، فأخذوا جميعهم إلى سمرقند، على أية حال كان من الممكن أن يستقر صناع الورق من تركستان الشرقية في هذه المدينة أي سمرقند قبل الحادثة المنوه عنها، وليس ثمة تأكيدات أخرى أنهم كلهم كانوا من عداد الأسرى. على أية حال كان سر الإنتاج مكشوفاً ومقتبساً وكانت العواقب هائلة من ذلك مؤثرة على التاريخ الثقافي في الشرق الأدنى وأوروبا، فقد بدأ عصر الورق المستمر حتى أيامنا، وبدأ ينتشر الورق نحو الغرب رويداً رويداً، فظل إنتاج الورق وتجارته حكراً على سمرقند خلال قرنين من الزمن، فكانوا يسمونه بالورق «السمرقندي» أو

(١) ابن النديم، ص٢١، ٤٠، ٤١.

(٢) الثعالبي، لطائف، ص ١٢٦.

(٣) بولشاكوف، ١٩٨٠، ص١٣٢.

«الخراساني»، أما أنواعه فباسم نواب هذه الناحية[١]، يظهر أن التسمية للبردي فرعونية[٢]، ففي تلك الآونة كان الورق يستخدم غالباً في الشطر الشرقي من الخلافة، أما في الشطر الغربي فكانوا لا يزالون يستعملون البردي[٣]، ولم تظهر طواحين الورق إلا في النصف الثاني من القرن العاشر في دمشق وطبريا وحماه وطرابلس الشام وربما في بغداد أيضاً، كما وجدت في الحقبة الممتدة ما بين القرن الحادي عشر والثالث عشر مصانع للورق في تبريز والقاهرة (مصر) وشاطبه(الأندلس)[٤].

وقد انطبق استيعاب عملية الإنتاج الجديدة مع ازدهار الآداب والعلوم العربية، وهناك علاقة مباشرة وترابط بين الظاهرتين: إنتاج بالجملة لمواد الكتابة الجيدة النوع والرخيصة الثمن نسبياً، وإنتاج بالجملة للكتب المخطوطة، بين الابتكار التقني والنجاحات في تطور الآداب والعلوم، والورق وحده كمادة كتابة متنوعة الاستخدامات ومريح في التداول فتح إمكانية تأليف الكتب كبيرة الحجم ومعقدة البنية، والتي تتألف من عدة مجلدات وبنسخ عديدة.

إنّ صناعة الورق على الطريقة الصينية – السمرقندية – الذي احتفظ بوصف له في مبحث القرن الحادي عشر في شمال إفريقيا المنسوب إلى ابن باديس (حكم ما بين (١٠١٦-١٠٦١) أو إلى ابنه تميم (ت١١٠٨)[٥] – احتيجت بمثابة مادة خام رئيسة إلى الخرق الكتانية أو القنبية وإلى الكلس والنشاء القمحي، وكذلك إلى مجموعة من الأدوات غير المعقدة كالطاحونة أو الجرن وإلى خابية أو إطار (قالب)، من الظاهر أن

---

(١) "سليماني، جعفري، طلحي، طاهري، نوحي، فرعوني" ابن النديم، ص٢١.

(٢) Grihmann, 1967, P.99.

(٣) الثعالبي، لطائف، ص٩٧، مع الاستشهاد بالجاحظ.

(٤) Grohmann، ١٩٥٤، ص ٧٢-٨٠؛ نفس المصدر، ١٩٦٧، ص ٩٨-١٠١؛ قارن مع ميتس، ١٩٧٣، ص ٣٧٢.

(٥) Endress، ١٩٨٢، ص ٢٧٦، التعليق ١٩.

طريقة الصناعة لم تتعرض لأية تغيرات ملحوظة خلال عدة قرون[١]، وكانوا يلوّنون الورق بمختلف الألوان وهو مجهز.

لقد كتبت على هذا الورق السمرقندي أو «الشرقي» الغالبية الساحقة من كتب المخطوطات العربية التي نعرفها، وذلك من القرن التاسع وحتى الرابع عشر، فيما عدا القليلة منها التي كتبت على البردي أو الرق، وتظهر منذ نهاية القرن الرابع عشر وخاصة منذ القرن الخامس عشر مخطوطات عربية مدونة على ورق أوروبي الصنع[٢]، من البندقية ومن مناطق مختلفة، وتراجع الورق الشرقي بالتدريج عن مواقعه وتسوء نوعيته من جراء تدهور الحرفة والتجارة، كما يبدو.

تعود المصطلحات العربية المتعلقة بالمواد الكتابية غالباً إلى منشأ لغوي غير عربي، فنبات الكولان كان يسمى بالبردي (الأبردي) أو الخواص، أما المصنوعات الجاهزة للكتابة كـ«ورق القصب» و«اللفافة» فكانت تسمى «القرْطاس» أو «القرطس» مع اختلاف الحرف الصوتي الأول من الكلمة، أما «الشهادة» و «الرسالة» و «قطعة اللفافة البردية» فكانت تسمى «طومار»، وكان مصطلح «ورق» و «قرطاس» يطبقان على الرق مثله مثل الورق، ولو أنه كانت هنالك إشارات خاصة لها، فكلمة «رِق» (رَق) كان يستعمل لها مصطلح «جلد»، وللورق الكلمة السعدية (المستعارة من الصينية ومحولة طبقاً لنظام أصوات اللغة التي استعارت الكلمة) «كاغد» (كاغذ) وفي بعض الأحيان «طومار»، وكثيراً ما يؤدي تعدد معاني المصطلحات إلى التشويش الذي لا يمكن إزالته إلا عن طريق التعمق في سياق الحديث.

---

(١) من المفترض أن الورقة كانوا يصنعونه في الصين فقط مع المواد الخام النباتية، أما الخرقية فأول من اخترعها هم المسلمون (Karabacek، ١٨٨٧، ص ٢٩؛ ميتس، ١٩٧٣، ص٣٧٢) كتب عنه الآن (Grohmann، ١٩٦٧، ص٩٩، ١٠١).

(٢) وقد ذكر عنه حتى المصري السخاوي (ت١٢٤٥) (Grohmann، ١٩٦٧، ص ١٠١).

فيما عدا المواد الكتابية اللازمة لإنشاء الكتب المخطوطة والوثائق كانت هنالك حاجة إلى لوازم الكتابة ومن أهمها القلم (أصل الكلمة يونانية) وهو عبارة عن عود من القصب يقطع في إحدى نهايته، وكانوا يسمونه أحياناً بـ«المزبر» أي «أداة الكتابة»، ونفس الأداة المصنوعة من القصب كانوا يسمونها بـ«اليراع».

وقد امتدح القلم بأشكال عديدة وذلك القلم في إحدى السور القرآنية: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق، الآيتان 4-5)، أي أن الله عز وجل علم الإنسان بواسطة القلم، وقد اعتبروا القلم إحدى الأشياء الأولى التي خلقها الله واستفاد منه الأنبياء الأقدمون، كان القلم يسمى بـ«إحدى اللغتين» و «طبيب الكتابة» و «سراج الإسلام» وقارنوه بالسيف، وقد مجد الكتبة والخطاطون القلم مؤكدين أن جودة الخط ونوعية الكتابة مرتبطتان به بنسبة الربع أو الثلث أو النصف وحتى بشكل كامل، وقد أعيرت إلى نوعية القلم أهمية كبيرة وهي متعلقة بالاختيار الحاذق للقصب (من حيث السماكة والصلابة واللون ومكان إنباته) وحتى بقدمه وحفظه وتشذيبه، وكان على القلم القصبي أن يناسب النماذج المتبعة، وأن يكون مطواعاً للإمكانيات الخصوصية لأسلوب كتابي محدد وأذواق الكاتب الشخصية، فلهذا كان بري القلم يحتاج إلى مهارة، واعتبر شأن للشرف الحرفي وأحيانا سرٌّ للكاتب.

فيما عدا القلم استخدمت بمثابة لوازم الكتابة قطعات الخشب المفلطحة وريش الطائر وأغصان النخيل (للحروف الكبيرة).

كانت هناك أداة كتابية هامة للناسخ ألا وهي علبة الحبر «الدواة»، وكانت في الحقيقة عبارة عن طاقم محبري كامل شبيه بالمقلمة أو بصندوق صغير مستطيل الشكل، مع غطاء يحتوي الحبر والقلم، وحين تتحدث المراجع العربية كيف كان الخليفة أو

الأمير في المراحل المبكرة يملون أو يكتبون أوامرهم، فإنها تستخدم عبارة «دعا بقرطاس ودواة»[1]، وفيما بعد اغتني هذا الطاقم البسيط ببعض لوازم الكتابة الأخرى.

كان ينبغي أن يصنع الحبر بإتقان تام إذ أن الطلبات على نوعيته كانت عالية، ولا سيما كثافة لونه الأسود وبريقه، وكانت هناك أنواع مختلفة من الحبر الذي كان يسمى حسب مكان المنشأ أو التصنيع (البلد أو المدينة)، وقد بقيت وصفات كثيرة لتحضيره، ولكنها كانت على نوعين أو مجموعتين: الحبر الجوزي المشرّب بأملاح الحديد الذي يتحول مع مرور الزمن من خلال تفاعله مع الورق من أسود ضارب إلى الزرقة، إلى بني ضارب إلى الحمرة، والحبر المصنوع من قبل النساج الشبيه بالحبر الصيني الذي يحافظ على اللون الأسود الكثيف بثبات، وهناك كلمتان عربيتان مختلفتان للدلالة عليهما وهما «الحبر» و «المداد».

عرفوا كذلك صناعة الحبر الملوّن كالأحمر والأصفر والأزرق والبنفسجي بالتدريجات اللونية المختلفة، ولو أن الحبر الملون كان يستعمل بكمية أقل، وقد استخدمت لذلك المواد الخام ذاتها وطرق صباغة المحاليل ذاتها التي كانت معروفة منذ المرحلة الهيلينستية واليونانية القديمة وحتى العهد السومري – البابلي.

وهكذا نجد أنّ تحضير المواد الكتابية وأدوات الكتابة كان بحاجة إلى العديد من الأشياء والمواد المختلفة الموجودة في الطبيعة أو مصنعة مسبقاً وكذلك مساهمة الحرفيين من مختلف الاختصاصات، وقد استفاد العرب وشعوب الخلافة الأخرى من طائفة من الأجيال السابقة، فجمعوا من الأجيال السابقة، فجمعوا وطوروا ودعموا هذه التجربة بمستوى عال خلال عدة قرون.

---

(١) مثلاً قصة خالد بن الوليد حين سلم في آذار عام ٦٣٥ شهادة سكان دمشق استعملت فيها هذه العبارة (بلاذري، ص ٢١؛ Grohmann، ١٩٦٧، ص ٧٠).

يمتاز الكتاب العربي المخيط والمخطوطة على الورق في القرون الوسطى بمظهر متواضع وبسيط، وفي بعض الأحيان نجد عليه أغلفة فخمة، وهو لا يختلف كثيراً من حيث حجمه عن الكتب المطبوعة الحالية، فلعلّه يعبر عن معيار ما ظهر تلبية للراحة العملية، تتراوح قياسات المخطوطات عادة من ١٨ إلى ٣٥ سم طولاً ومن ١٣ إلى ٢٥ سم عرضاً، ولكن توجد بعض المخطوطات القليلة صغيرة الحجم جداً وبعضها كبيرة القياس، ونادراً ما تتلاقى المقاسات حيث يزيد العرض على الطول.

الهامش في المخطوطات عريض من ٤-٥ سم إلى ١٠-١١ سم، يوزع النص على الصفحة ضمن إطار مستطيل الشكل والأسطر متساوية ومستقيمة، وتبعد عن بعضها بمسافة واحدة، إذ أن الناسخين ولاسيما المحترفين منهم كانوا يقيسون ويخططون ذلك مقدماً، ويمكن أن يتشكل الإطار على الصفحة تلقائيا من النص نفسه أو يخطط بخط أو خطين أو أكثر، من السماكة الواحدة أو المختلفة، بالحبر الأسود أو الملون أو الذهبي بمختلف التمازجات. ثمة مخطوطة خططت صفحاتها بصورة معقدة حيث حوصرت مختلف أجزاء وأنواع النص (العناوين الفرعية أو الأشعار على شكل عمود) ضمن إطارات خاصة، وتتلاقى هذه الحالات على الأغلب في المخطوطات المتأخرة (من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر) باللغة العربية، أما في البلدان غير العربية فيظهر أسلوب عمل الناسخين الفرس والهنود والأتراك وآسيا الوسطى.

إن المخطوطات العربية القديمة كالكتب المتأخرة وعلى وجه الخصوص المعدّة للاستخدام، وكذلك التعليمية والدينية بسيطة ودقيقة من حيث مظهرها الخارجي، فهي عبارة عن مستطيلات متزنة من النص على خلفية من الورق الأبيض (المسود أو المصفر) فقط لا غير، تمتاز العناوين الرئيسة والفرعية بالخط الكبير والخط الموضوع أعلاها والحبر الملون (في الغالب الأحمر) أو بمزيج من هذه العناصر، إلى جانب العناوين الرئيسة تبرز في المؤلفات المختلفة الاستشهادات الشعرية أو القرآنية، وعناوين النقرات في المعاجم، وأسماء العلم والتسميات الجغرافية في أعمال تراجم الحياة

والأعمال الجغرافية من التركيب الأبجدي، والنص المعلق في التعليقات، والتواريخ في الأعمال التاريخية، والرموز الحرفية في النصوص الرياضية وما إلى ذلك.

لا يعرف الكتاب العربي المخطوط العناصر مثل حروف التاج والتقسيم إلى الفقرات، يوضع العنوان واسم المؤلف على الصفحة الأولى المنفردة أو قبيل النص، وفي بعض الأحيان يكتب ذلك بيد المالك أو الكتبي على الغلاف على حافة الكتاب، وفي أغلب الأحيان يكتب العنوان فقط من غير اسم المؤلف.

يبرز عنوان الجزء أو الفصل أو الباب أو غيرها من الوحدات التركيبية للمؤلف عادة بخط عريض، ويكتب على سطر منفرد وفي بعض الأحيان على صفحة منفردة، قد تستخدم هذه العناصر كوسيلة لزخرفة المخطوطة، إذ أنها تكتب بحبر ملوّن بدقة خاصة أو بأناقة أو حيلة، وتحصر ضمن إطار يمكنه بدوره أن يكون مزخرفاً.

تستخدم علامات الترقيم في الكتابة العربية قليلاً ونادراً جداً، فتستخدم الدوائر الصغيرة والبيضاوية والقليبات والمثلثات والنجوم بنقطة في وسطها ومن بمثابة علامات الترقيم دونها، وتكتب أحادية أو ثنائية أو ثلاثية وتوضع في آخر الكتاب أو الفصل أو الباب أو مقطع النص، بما أن مفهوم« الجملة » لم يكن موجوداً في علم اللغة العربية، فلم يكن يعرفها كذلك الناسخون، فلذلك كانت علامات الترقيم تستعمل للفصل بين وحدات المدلول التي كان النص يجزئ إليها في أكثر الأحيان حسبب إرادة المؤلف، وعندما يكون النص واضحاً طبقاً لما أردهُ المؤلف ومجزءاً بشكل دقيق إلى بنودٍ (الفقرات، المقاطع) كانت علامات الترقيم تستخدم بالتوالي وبصورة منتظمة، فكانت على هذا الشكل المصاريع الشعرية التي كانت تفصل عن بعضها بمجرد فراغ أو بإحدى العلامات المذكورة وفي الغالب النجمة، تستخدم علامات الترقيم والتفصيل في أحيان كثيرة كعناصر زخرفية، وتكتب بالحبر الملون أو الذهب وما شابه.ذلك.

إنَّ أقدم طريقة لتقدير الحجم الكميّ للمخطوطة العربية هي الكراسة أو الجزء أو الدفتر أو المجلد، تتكون من عشر صحائف وفي بعض الأحيان من ثمان أو اثنتي عشرة صحيفة، أو بكلمة أخرى من خمس أو أربع أو ست صحائف مزدوجة، يكتب الرقم المتسلسل للكراسة في بدايتها في الزاوية العليا اليسرى من الصفحة الأولى، ونادراً ما يتلاقى ترقيم الصحائف في المخطوطات المتأخرة، أما ترقيم الصفحات فظاهرة جديدة تماماً، في غالبية الأحوال تخلو المخطوطات من ترقيم الصفحات، وإذا لم يوضع فيها عقب أو صلة (حافظ) عندئذ يصبح تحديد التركيب الصحيح للصحائف المتبعثرة أو إيجاد المكان الصحيح للساقط منها عسيرٌ جداً، فيحتاج ذلك إلى مقارنة نسخ مختلفة من المؤلفات.

كانت الزينة الرئيسية للكتاب العربي المخطوط هي الكتابة نفسها، إذ كانت لجودتها أهمية كبيرة، يتبين التنوع الموجود للخطوط التي كتبت بها الكتب على الأغلب في تخطيط الأحرف ورباطاتها وشكلها وسماكة خطوطها والتنسيق المتبادل بين الأحرف والكلمات والأسطر، وبالطبع إن كثافة النقاط الموضوعة وسائر العلامات الكتابية ووضعها الثابت إما فوق الحرف أو تحته أو بالانحراف إلى جنب وبعدها عن الحروف المزخرفة تؤثر كذلك على رسم الكتابة على وجه العموم وعلى هيأة الخطوط المختلفة، وتختلف الخطوط حسب المراحل والأقاليم ومجالات الاستعمال والأساليب، كما لعبت دوراً هاماً في تنوع الخطوط مواد الكتابة ونمط الكتابة الفردي لدى الناسخ، وكانت هذه التوقعات تؤثر على بعضها فغدت صورتها العامة معقدة جداً وغير موصوفة من قبل باحثي المخطوطات المؤرخة.

ففي النقوش العربية منذ القرن السادس وضعت الإمكانيات المحتملة لظهور نوعين من الكتابة، ألا وهما: الفخم والمائل، تغلب على الأول الخطوط المستقيمة التي تنحني بزاوية قائمة، وتهيمن على الثاني الخطوط المدورة التي تنحني بصورة منسجمة، يوجد في النقوش العربية المبكرة والمصاحف القرآنية الأسلوب الفخم، أما الثاني

فيوجد في الوثائق وكان سائداً في المخطوطات، وخلقت الكتابة الفخمة مجموعة كاملة من الخطوط التي سميت حسب التقاليد الراسخة بالكوفي (نسبة إلى مدينة الكوفة)، ولو أنها تشكلت ليس في جنوب العراق فحسب (الكوفة والبصرة) بل وفي الحجاز أيضاً (مكة والمدينة)[١].

تتصف الخطوط المستديرة المائلة المسجلة على أوراق البردي المؤرخة اعتباراً من سنة ٢٢هـ/ ٦٤٣م قبل كل شيء بسمتها الوظيفية، بمقتضى «الفهرست»[٢] منذ زمن الأمويين (٦٦١-٧٥٠) «اخترع» الناسخ والخطاط قطبة «ت٧٧١» أربعة خطوط الكتابة الرئيسية وهي الجليل والطومار الكبير والنصف الثقيل والثلث الكبير، وقد تفرع وتطور منها أكثر من عشرين خطاً.

كان هناك ترابط مباشر بين حجم الصحائف – التي تدوّن عليها النصوص- وحجم وأشكال الأحرف: كل ما كان الموضوع مهماً أكثر كانوا ينتقوْن صحائف أكبر وكان رأس القلم أعرض والخط أكبر، وكانت الأحرف ورباطاتها في الخطوط الكبيرة أسمك وحناياها ذات زوايا، وفي الخطوط الصغيرة رفيعة وأكثر استدارة، لذا باتت علاقة الخطوط المستقيمة (العمودية) تجاه المنحنية أساساً لتسمية الخطوط «ثلث» «وثلثان»، وليس هنالك داع لحسم هذا الترابط وإنما ينبغي النظر إليها وكما أنها نزعة.

إلى جانب التناسب العكسي بين حجم واستدارة الأحرف من حيث تصنيف الخطوط لوحظت قاعدتان إضافيتان: في الخطوط الكبيرة ينتهي عمود الألف واللام بعسلوج على شكل شوكة (ترويسة) في أعلاها من الجهة اليمنى، وفي الخطوط الصغيرة يكتب هذان الحرفان من دونه، وفي المتوسطة حسب رغبة الناسخ، تكتب في الخطوط

(١) عرضت نابية عبود تشبيهاتها ببعض هذه الخطوط على مثال المصاحف القرآنية المكتوبة على الرق والبردي: Abbott، ١٩٣٩، ص ١٩-٣٣.

(٢) ابن النديم، ص ٧.

الكبيرة «أنشوطات» الأحرف العين والجيم والفاء والميم وغيرها مفتوحة، وفي الصغيرة مغلقة، وفي المتوسطة على اختيار الناسخ.

كتبت نابية عبود: «لا داعي للظن أن هذه المبادئ قد وضعها شخص واحد أو جيل واحد أو أنها قد تشكلت خلال قرن واحد من الزمن، أو أن هذه القواعد تشكلت وباتت راسخة ثابتة لا تتغير يلتزمها الجميع على وجه الدوام»[١].

بيد أن التقاليد العربية تعرف الكثير من الخطوط المستقيمة وترتبط مع أسماء الخطاطين البارزين معلنة إياهم مخترعين هذا الخط أو ذاك، ولو أنه يبدو بأنهم كانوا يحاولون فقط وضع قواعد متينة للخطوط، وكذلك ضبط الخطوط التي باتت في ذاك الوقت موجودة وبدأت تتنوع. إلى جانب قطبة المذكور أعلاه شهد فن الخط العربي إسحق بن حماد مخترع خط الجليل، والأخوين إبراهيم ويوسف السجزي المتوفيان سنة ٨١٥و٨٢٥)، وتلميذهم الأحول الذي صنف الخطوط واضعاً في المرتبة الأولى الثقيلة منها، والريحاني (ت ٨٣٤) مخترع خط الريحاني، واخترع الأخوان ابن مقلة خط النسخ وغيره، واخترع ابن البواب (ت١٠٢٢) الريحاني والمحقق، ومحمد ابن خازن (القرنان التاسع والعاشر) الرقاع والتوقيع، وياقوت المستعصمي (١٢٢١-١٢٩٨) الياقوتي، وابن الصائغ (ت١٤٤١) الرقاع وغيرها، كما نرى كان «اختراع» نفس الخط ينسب إلى أشخاص مختلفين عاشوا أزمان مختلفة، وبقي مجهولاً ما أضاف كل واحد منهم إلى تطور الخط العربي أو مبهما بكلمات المجاملة تجاههم، هكذا كان بالنسبة لأبي علي محمد ابن مقلة الذي لم تصل إلى أيامنا نماذج خطه ولو أن أوصاف القلقشندي ومؤلفين أخرين من القرن الخامس عشر ألقت بعض الضوء على دوره الذي لعبه، إنَّ كشف

(١) Abbott. 1939, P.33.

ودراسة مبحث ابن مقلة – الذي بقي في مخطوطتين متأخرتين[١]- وضعت كل شيء في مكانه، وسنذكر بضع وقائع من حياة هذا رجل الدولة من القرن العاشر والتي وصفت من قبل طائفة من كتاب سيرة حياته.

كان أبو علي محمد بن علي بن الحسن ابن مقلة (٨٨٦-٩٤٠) بالظاهر أبرز الخطاطين العرب، في غضون ترقيّة العام والمتقلب في المناصب الحكومية في عهد ثلاثة خلفاء، بلغ ابن مقلة منصب الوزير غير مرة، واغتنى – كما كان مألوفاً في تلك الآونة- باستحواذ دخول بيت المال، وشارك في دسائس وانقلابات القصر، وبعد سقوطه المتعاقب سنة ٩٣٦ أجبروه على أن يعيد إلى بيت المال مليون دينار وصادروا منه كل أملاكه وعقاراته تقريباً، وحتى بعد هذه الصفعة عاد ابن مقلة إلى حالته الأولى بمساعدة ومساندة عشيرة جبارة من الوجهاء التي كان ينتمي إليها، ولكن في عام ٩٣٨ استذنبوه في الدسائس من جديد وقطعوا يده اليمنى حتى لا يقدر على كتابة وشايات كاذبة، يزعمون أنه حتى بعد هذا استأنف الكتابة بنفس المهارة، فكان يكتب إما بيده اليسرى وإما بربط القلم إلى جذمة يده اليمنى، وسرعان ما انهزم ابن مقلة من جديد في النزاع وراء الكواليس مع قائد الخليفة الحربي، عندئذ تعرض ابن مقلة لقطع اللسان، ومن ثم ألقي به في الزنزانة حيث لقي مصرعه في انعزال تام متعذباً عذاباً شديداً من الجوع والعطش[٢].

كان ابن مقلة مصلحاً كبيراً لفن الخط العربي فأدخل «الخط المنسوب» والذي ينحصر مبدأه في قياس طول الخطوط المُشكِّلة للأحرف بواسطة عدد محدد من النقاط

---

(١) في تونس (معروف وجوده فقط)، وفي القاهرة (الصحيفة ١٩أ -٢٣ب في المخطوطة المركبة العائدة إلى سنة ١١٠٧هـ/ ١٦٩٦م بدار الكتب، صناعة، الرقم ١٤؛ أجرى تصوير الصحيفتين: Grohmann، ١٩٦٧، ص١٦).

(٢) مسكويه، المجلد الأول، ص١٨٣، ١٨٥-١٨٧، ١٨٥-١٨٧، ٢٠٣-٢٠٥، ٢٦١-٢٦٤، ٢٩٢-٢٩٥، ٣٠٩-٣١٠، ٣٢٠-٣٣٧، ٣٨٦-٣٩٣؛ ابن خلكان، ٢، ص ٦١-٦٢؛ Abbott، ١٩٣٩أ؛ Grohmann، ١٩٦٧، ص١٣-١٨.

على شكل معين موضوعة رأساً برأس، تتشكل هذه النقطة بطرفيها المعادلين لعرض خط الحرف، في هذا الخط يتصل القلم القصبي بالورقة بضغطةٍ واحدة، ينطلق ذلك من الحرف الأول الجذري في الأبجدية العربية وهو الألف، أما سائر الأحرف أو أجزاؤها فتحول إلى أشكال هندسية تطابقها وتتناسب بحجمها على طول حرف الألف المستقر في أي خط من الخطوط (من خمس إلى عشر نقاط على شكل معين)، عندئذ ينتج أن الخط العمودي والأفقي في حرف الباء يعادلان إجمالاً طول حرف الألف، أما الراء والنون فيعادلان بأجزاء محيطها وقطرهما حرف الألف الواحد وهلم جرا. لقي نظام كتابة ابن مقلة الكثير من المقلدين ممن أتى بعده، وإن تأثيره في كل مدارس الخط المتأخرة الباقية حتى أيامنا.

إنَّ الأحرف المخططة والمتناسبة مع أنواع كثيرة من الكتابة ولاسيما حيث كان ميل الأحرف بدرجة ثانية من الأهمية أو لم تكن لها أية أهمية (الكتابة العبرية والسبأية المربعة) كان من الصعب جعل الكتابة العربية متناسبة طالما أنّ مبدأها الأساسي هو الارتباط وما ينتج عنه من تنوع الحروف حسب موقعها من الكلمة، لذا بقيت نظرية ابن مقلة مثالاً أعلى لا يجسدها ويستخدمها إلا الناس الموهوبون موهبة خاصة، كأمثال الخطاطين البارزين، ولم يستطع التزام هذه النظرية الإنسان المتعلم البسيط أو الناسخون العامون، كانت قواعدها معقدة والانحرافات غير ملحوظة ولا تراقب.

لم يتوقف تطور فن الخط العربي عند هذا الحدّ، فقد أضاف ابن البواب الذي جاء بعده إلى الكتابة عناصر الأناقة واللباقة[1]، يقولون أن مبارك بن المبارك قد تفوق علي ابن البواب بجمال الحروف، وقد سمّاه الكثيرون بالخطاط الرئيسي والوحيد في عصره الذي أعلاه مجد أسلافه وما إلى ذلك، ولكن الآن صار واضحاً أنَّ جميعهم ومؤسسين للمدارس المحلية لفن الخط دون أن يضيفوا شيئاً جديداً إلى فن الخط العربي فيما عدا ابن مقلة منهم.

[1] لقد بقيت بعض نماذج فن خطه ولكن الأكثر من ذلك ما قلّده المقلدون (Rice,1955)

ليس واضحاً تماماً نشوء خط «النَّسْخ» ذلك الخط الأكثر انتشاراً في الكتب المخطوطة، بيد أن هذا الخط ذكر لأول مرة باسم «قلم النُّساخ أو النَّساخ (أي الذي يكتب كثيراً)»، وفي سياق الحديث كان هذا الخط يذكر بصورة غير حميدة أبداً، لقد برز النسخ كأسلوب مستقل للكتابة منذ أواخر القرن الثامن وانتشر في أواخر القرن الذي يليه، ظهر «النسخي» أو «النسخ» كخط واضح ومفتوح ومستدير، تعرض لتأثير إصلاح ابن مقلة وبات أكثر أناقة وخصوصاً لما صار يستعمل لكتابة المصاحف القرآنية والمخطوطات الفخمة لمؤلفات أخرى، في عهد المماليك بلغ الخطان النسخ والثلث الممزوجان في نفس المخطوطات درجتهما الكمالية التي لم يعد يتفوق عليهما أحد.

فيما بعد ظهرت تعديلات جديدة للخطوط العملية والكتبية التي كانت في كل مرحلة وإقليم تكتسب ميزات خاصة.

تشكل خطوط إفريقيا الشمالية وأسبانيا مجموعة خاصة من الخطوط المغربية، وقد تشكلت هذه الخطوط على أساس الخط الكوفي وحافظت على صفاته المعروفة، وبالتدريج سادت هناك نزعة نحو الخط المائل المستدير الذي لم يتعرضّ لإصلاح ابن مقلة لهذا لم نجد فيه ما يشبه الرسم الهندسي وتناسبية الأشكال.

أضيفت إلى الخصائص الفردية في مهنة الكتابة طلبات عالية، وكان هذا يخص الناسخين المحترفين لا سيما موظفو الدوائر، وفي البيئة العلمية كان يسود رأي آخر بأن الإفراط في تزيين الكتابة والسعي وراء أناقة الخط يلهي رجال العلم عن هدفهم الحقيقي ألا وهو اكتساب العلم والمعارف، قال في ذلك أحد الوزراء المشهورين بحكمته: «إذا كان لإنسان ما خط رديء فهذا يعني أن الحظ قد حالفه، لإنه لن يضيع وقته على الكتابة وإنما سيستغله للحفظ والتفكير»[1] يؤكد بذلك العلماء أن لابدّ وأن يكون خطهم رديئاً، أما الناس ذوو خط حسن فسعداء طالما أنهم لا يضيقون أنفسهم

(١) الماوردي، آداب، الصحيفة ٧٤ ب.

بالعلم، وكما لاحظ متأملاً الماوردي أحد القضاة البغداديين من القرن الحادي عشر «إن الخط الرديء لا يجلب السعادة من تلقاء نفسه» إذ من المهم أن لا يكون هنالك أي عائق في عمل العالم[١].

من الواضح أن تاريخ الكتابة العربية قد جرى في ظل اصطدامات بين هذين التركيبين والنزعتين الواقعتين المستجيبتين لهما، فمن جهة حاولوا وضع قواعد ثابتة لرسم الأحرف طبقاً لمثال كمال الكتابة الجميلة والمضبطة، ومن جهة أخرى كانوا يدافعون عن حقوق كل إنسان بأن يكتب كما يعرف، ولو كان خطه غير جميل، ولكن يجب على الأقل أن يكون واضحاً ومقروءاً وكتابته صحيحة تخلو من الأخطاء الإملائية.

يظهر أن مفهوم الجمال فيما يتعلق – على أية حال– بالكتابة مفهوم نسبي، فالكثير يعود إلى العادة والتربية، وفي الثقافة العربية غدا تمجيد الخط وإطراء أفضاله الجمالية نوعاً من الخرافة وإدراكاً معتاداً ينتقل من جيل إلى جيل ورمزاً لتأكيد الذات، مثل تبجيل اللغة العربية والإسلام والشعر العربي والعلم العربي وما شابه ذلك، يكفي أن نتذكر كيف كانوا يشبهون في الشعر جمال المحبوبة وبهاء شكلها وأناقة جسدها بالأحرف المختلفة من الأبجدية، على أية حال من الحق أنه عند نسخ المؤلفات وتزيين الخط كانوا يبذلون جهوداً كبيرة على امتداد أجيال كثيرة، وفي الكتابة كانوا يسعون ليس فقط إلى أهداف نفعية وإنما كانوا يبحثون فيها عن الانسجام النفسي.

ذلك هو السبب أن أفضل المخطوطات العربية تسرّ العين وتؤثر ليس بكتابتها المرتبطة والدقيقة، وإنما بتناسق ممتاز للخطوط وتماثل كل عناصرها، وقد انفعل من التأثير الفني للآثار الكتابية العربية الكثير من باحثيها، وقد قال أحدهم بأن الكتابة العربية «من حيث فحواها الفني وتنوع أشكالها وقوة تأثيرها الجمالي في عداد الكتابات

---

(١) نفس المصدر.

الأكثر كمالاً من التي أنشأتها يد الإنسان وقدرة الإنسان على الكتابة... كل هذا لا يخضع للمقارنة مع أية كتابة من كتابات الأمم الأخرى»[١].

إن ما يلعب دوراً هاماً في زخرفة المخطوطات العربية هو العنوان الذي يُرسم بالألوان ويحتل نصف أو ثلث أو ربع صفحة، ويغلب عليه اللون الأزرق والأحمر والذهبي والأخضر، والعنوان على شكل قبة بيضوية أو نصف دائرية أو مستطيل الشكل، وينقسم هامش العنوان بالخطوط أو الأقواس إلى أجزاء تلون بمختلف الألوان أو تبقى بيضاء، كما تضاف إليه الزخارف الموضوعة بالتماثل بأشكال هندسية أو على شكل نباتات مختلفة التمازجات، ويحاط الهامش كذلك بإطار من جهاته الأربع أو الثلاث (بغير الجهة العليا) أو من جهته السفلى فقط، ونادراً ما يكتب العنوان على صحيفة كاملة، أو يكتب العنوان على الصفحة الأولى ثم يكرر على الثانية، والأندر من ذلك عندما يظهر العنوان في وسط المخطوطة في بداية الفصول، أو يسبق المؤلفات المختلفة وذلك إذا كانت المخطوطة عبارة عن مجموعة، وأخيراً يمكن أن يوضع العنوان في بداية كل مجلد مؤلف كبير، بالعادة يخلو العنوان من الكتابات ولكن في بعض الأحيان يوضع فيه اسم المؤلف.

يمكن أن تظهر في النسخ الفاخرة المصنوعة حسب الطلب إلى جانب العنوان الصفحة الأولى المزينة بالنمنمة والبراويز الملونة والزخارف، ويكتب عليها اسم صاحب الطلب والمالك وفي بعض الأحيان اسم الناسخ مع إضافة التمنيات الطيبة، وعنوان المؤلِّف، ويمكن أن تواجهها على الصفحة القادمة زينات من غير كتابات.

كانت المخطوطات القرآنية تُزَيَّنُ أكثر من سائرها من المخطوطات، وقلما تتلاقى الكتب العربية المصورة، ومهما فسر لنا المؤرخون سبب عدم المراعاة في العالم العربي — الإسلامي عادة تصوير الكائنات الحية وسبب عدم وجود فن النحت وبقاء

---

(١) Grohmann، ١٩٧١، ص ٣-٤. بولشاكوف، ١٩٦٩.

فن الرسم نجد أن ذلك كان ضعيفاً من حيث تطوره: هل كان سبب ذلك تأثير الحركات الناصرة للأيقونات في العالم المسيحي (بيزنطيا والكنائس الشرقية)؟ أم الكفاح ضد تصوير كل ما هو موجود في الطبيعة[1]؟، يبقى الواقع واقعاً، فالخطر على ذلك كان فعالاً، تجدر التقلبات في هذا فقط بالمراحل المبكرة (القرنان الثامن والتاسع)، وهذا ما تشهد به اللقايا في الفيوم في مصر، أما الرسم في المراحل الأخرى بما في ذلك النمنمات في الكتب فهي استثناءات أكثر مما هي قواعد.

كانت أنواع محدودة من المؤلفات تزود بالصور، ونذكر منها مقامات الحريري وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والفصول في مجال علم النبات والطب، وبعض الأعمال العلمية، ومجموعات الحكايات والأمثال مثل «كليلة ودمنة» و «أمثال لقمان الحكيم»، والأعمال في المجال الحربي في مصر ودور الأمراء المماليك. تظهر الصور من النوع «الرخيص الشعبي» بالألوان في بعض المؤلفات العربية المبسطة المنسوخة في الحقبة الممتدة ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر وخصوصاً في إيران والهند وآسيا الوسطى.

أما التصميمات والتخطيطات والخرائط والجداول فبصفتها رسوم تحمل في ثناياها طابعاً تجريدياً فلم تتعرض للخطر المباشر، فلهذا نجدها في الكتب العلمية بصورة منتظمة، ولو أنه من المعلوم أن البيئات اللاهوتية كانوا يتجنبونها ويستنكرونها ويعيقون انتشارها، وهنا بدا التأخر العام لفن الرسم، وكان فن رسم الخرائط الجغرافية العربية متدنياً من حيث الدقّة أمام الأوصاف العملية من قبل الجغرافيين والرحالة لسطح الأرض وخطوط الطرق التجارية وطبوغرافيا المدن والقرى والمواقع المبادلة للجبال والأنهر والسهول والبحيرات والبحار والصحارى وهلم جرا. إن خرائط النجوم للبتاني وعبد الرحمن الصوفي مفصلة ودقيقة جداً، أما الرسومات التخطيطية لبروج الفلك فبدائي، وكانت التخطيطات الهندسية ترسم بحذاقة، ولكن لم تكن كل

[1] بولشاكوف، ١٩٦٩.

الأعمال في مجال الرياضيات تزود على قدر الكفاية، والحسابات العملية للكثير من المنشآت المعمارية والهندسية الفائقة لم تقع قط على صفحات الكتب.

كان الارتباط بين عالم الثقافة المادية والفن والحرفة من جهة، والكتابة من جهة أخرى يفصح عن نفسه بأن آثار الثقافة المادية في المؤلفات الأدبية تسمى في بعض الأحيان بنعوتها، ولكن نادراً ما توصف ولو بقليل من التفاصيل، أما التأثير المعاكس للكتابة على آثار الثقافة المادية، فبرز في استعمال الكتابة للنقوش والمواضيع التخطيطية كوسائل الزخرفة.

إن التخطيطات والجداول الواضحة بسيطة من حيث رسمها، ففي بعض الأحيان نجد صف المواد بشكل عمودي، وتحصر هذه العواميد ضمن إطارات وتزود بالعناوين وتفسر في قلب النص (وليس في الحواشي)، ونجد في المخطوطات المتأخرة الفهارس التخطيطية للمؤلفات ضمن إطار أو من دونه، وتوضع إما قبل المؤلف وإما في نهايته بعد النص.

كما تعرّف العرب على الأغلفة وصناعتها مع ظهور الكتب المخطوطة الأولى، ويزعمون أن المصدر المباشر لاقتباس هذه التجربة كانت إفريقيا المجاورة، يتشابه الكتاب المكبر مع الكتاب القبطي الذي تعرض بدوره للتأثير القوي من الكتاب اليوناني – الروماني القديم من حيث المقاييس والغلاف وزينتهِ. إن مصطلح «مصحف» وأخبار المؤلفين العرب تعود إلى الحبشة التي كانت الطائفة الإسلامية المبكرة على علاقات وطيدة بها، يزعمون أنه في عهد النبي ﷺ كانت الصحائف القرآنية تخزن بين لوحين خشبيين[1]، طبقوا إلى التدوينات القرآنية الكلمة الإثيوبية

(١) كانت الكلمتان "اللوح" و "الدف" تعنيان فيما بعد غطاء الغلاف بغض النظر عن المواد التي صنعت منها.

«مَصحف» التي ثبتت في اللغة العربية (مع تغيير حركة حرفها الأول) كمصطلح يخص غالباً كتاب القرآن[١].

يسمى الغلاف بـ «الجلد»، أما عمل التغليف فالتجليد أو التسفير (في المغرب) ويسمى الكتاب المغلف بالمجلد الذي اكتسب معنى كتاب واحد من مؤلف كثير الكتب.

من الواضح أن دباغة الجلود في منطقة تربية الحيوان كالجزيرة العربية كانت متطورة منذ القدم، وهذا ما يفسر السهولة والسرعة اللتين استطاع العرب بهما استيعاب التغليف، وقد اشتهرت مدن جنوب الجزيرة العربية بشكل خاص بالمدابغ والجلود المدبوغة، كما أخبر الجغرافي والرحالة المشهور المقدسي أنه كانوا هناك يقدرون الأغلفة المصنوعة بحذاقة ويدفعون عليها ثمناً غالياً، وبما أنه كان يعمل في التغليف كان يتقاضى لقاء غلاف جيد دينارين وخاصة نفذ طلب أمير عدن[٢]، وصنّعت في الطائف أغلفة رائعة، ويذكر أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت١١٠٨) كتاباً من الرق الكوفي بغلاف من الطائف[٣].

واشتهرت خارج حدود الجزيرة العربية بالجلود الجيدة كل من مصر والمغرب والأندلس، ولعل من الصعب ذكر أية مقاطعة من مقاطعات الخلافة، حيث كان إنتاج دبغ الجلود شيئاً يعجز عن توفير المواد الأساسية للناسخين، وكانت الكتب المجلدة غالية الثمن[٤]، وانتسب المغلفون إلى الفئة المزدهرة من الحرفيين، وكان زبائنهم من الأثرياء والوجهاء ومُلَّاك مجموعات المخطوطات، وكان لدى كلواحد منهم (بغداد

---

(١) Grohmann,Arnold, 1929, P. 35.

(٢) المقدسي، ص ١٠٠.

(٣) راغب الأصفهاني، ١، ص ٧٠.

(٤) ذكر حادث أن أحد الجامعين الشاغفين من القرن الثاني عشر كان ينتزع الأغلفة من المخطوطات كي يشتريها بثمن أرخص (Eche، ١٩٦٧، ص ٢٥٠).

القرن العاشر) الكتب المصنَّفة حسب الموضوع بأغلفةٍ مختلفة الألوان كي يتمكن خادمه من إيجاد وإحضار الكتاب المطلوب.

قلما تتلاقى أسماء المغلفين على المصادر أو على الأغلفة نفسها، ولكن كان هنالك أشخاص اشتقت أسماء عائلتهم من كنيتهم «الصحّاف»، وذكر مؤلف «الفهرست» أسماء مجلدي القرنين التاسع والعاشر: كابن أبي الحريش العامل في خزانة المأمون، وشفة العُجيفي، وأبو عيسى بن شيران، ودميانة الأعسر ابن الحجام وغيرهم[١]، وفي حالات أخرى يتكلمون عن المغلفين بشكل عابر من دون ذكر أسماءهم[٢].

وفي القرون المبكرة احتفظت الأغلفة بأسماء عدد قليل من المغلفين، وبما أن الأغلفة خصصت لتزيين المخطوطات وحفظها، كان الضرر والإتلاف يلحق بها قبل غيرها، وقد كانت الأغلفة تفنى بطبيعة الحال مع المخطوطات والمكتبات، وفي معظم الكتب لا تتزامن أغلفتها مع المخطوطة نفسها، وهذا ما يرتبط مع الميزة الفنية للكتاب الشرقي بحيث يوجد لدى الغلاف كعب مسطح، أما الغطاءان فمساويان من حيث القياس للصحائف، ولم يكن الاتصال بين كعب الغلاف والدفاتر المكونة للمخطوطة متيناً لدرجة كافية، فلذا سرعان ما كانت الأغلفة تتخلخل فتنقطع فتستبدل بغيرها[٣].

تعود أقدم الأغلفة العربية التي وصلتنا إلى القرنين التاسع والعاشر، وترجع بأصولها إلى مصر والمغرب، وقد أفصح د.جيمس عن رأيه أنه في الشرق العربي الإسلامي قد تشكل تقليدين عظيمين في فن التغليف ألا وهما المصري والإيراني، وقد

(١) ابن النديم، ص ١٠.

(٢) مثلاً بصدد عملهم لدى الحكام المعتنين بمكتباتهم (انظر الفصل الثامن).

(٣) كازييف، ١٩٧٧، ص ٢٧.

انتقل هذان التقليدان بسلام إلى تركيا العثمانية واستأنفا فيها[١]، ولم يكن المغرب العربي مأخوذاً بعين الاعتبار، ولعلّ سبب ذلك الشك في صحة تاريخ الأغلفة المنحدرة منها، ويحتفظ الغلاف الأقدم العائد إلى عام ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م في مجموعة تشستر بيتّي بدبلن وعرض في المعرض سنة ١٩٨٠ بلندن، وقد صنع هذا الغلاف من الجلد البني وله زينات مشكلة[٢]، والغلاف الخشبي الشهير يعود تاريخه تقريباً إلى القرن التاسع أو العاشر محتفظ به في برلين، وقد درسه ونشر بحثه ف. زارّيه[٣]، وهذا الغلاف الفاخر للقرآن الكريم بقياس كبير (٤٩.٣×٦٧سم) مصنوع من خشب أرز لبنان ومرصع بعاج الفيل وبقطع خشبية مختلفة الألوان. عموماً إن أغطية الغلاف الخشبية ذات نفع قليل بالنسبة للمخطوطات العربية، فكان لها عادة إما غلاف جلدي طري، إما غلاف جلدي قاسي على الأساس الكرتوني المصنوع من البردي المضغوط أو الورق، فمثل هذا الغلاف كسا أقدم مخطوطة للقرآن الكريم المكتوبة على الورق والمؤرخة سنة ٣٦١هـ/ ٩٧٢م ويحتفظ كذلك عند تشستربيتّي، وقد احتفظت مصر بكمية لا يستهان بها من الأغلفة من العهد المملوكي (القرنان الثالث عشر والرابع عشر) التي تدرس بها الميزات الفنية للأغلفة العربية.

الخاصية المميزة للغلاف الإسلامي هي امتداد الغطاء الأيسر على شكل «صمام» أو «لسان» يتألف من جزأين، أحدهما مستطيل الشكل يتوافق من حيث الطول والعرض مع حافة الكتاب، والآخر له خمسة أطراف ويدخل تحت الغطاء الأمامي اليميني، ويحمي اللسان أطراف الصفحات الظاهرة ويضمن حفظاً جيداً للكتاب في وضعيته المغلقة، ويتوافق اللسان مع غطاء الغلاف من حيث مادته وزخرفته توافقاً تاماً

---

(١) BSOAS, vol.45,1982, 2, p.360-361، مقالة غ. فهرواري الانتقادية على د. جيمس ١٩٨٠، ١٩٨١ في سانت بطرسبورغ.

(٢) نفس المصدر.

(٣) Sarre. 1923.

تقريباً، وقد حُفِظَتْ الألسنة بأعداد كبيرة وكانت بحالة أفضل من بقية أجزاء الغلاف حتى أيامنا هذه وأدّت خدمة حسنة أثناء دراسة الأغلفة، على أننا نصادف بالحقيقة مخطوطات ذات ألسنة متلفة أو مضاعفة.

إلى جانب الغلاف الأساسي تعد بعض المخطوطات بغلاف كرتوني (صندوق) يُغَلَّف في بعض الأحيان بالجلد كاملاً أو يكون في الأطراف فقط. ثمة قصة عن غلاف شاذ جداً والسنادة المتحركة الخاصة اللذين تم صنعهما لمصحف القرآن الكريم الكبير القياس بقرطبة في القرن العاشر، وقد ضاعت آثار ذلك المصحف في تلمسان في القرن الثالث عشر[1]، وكثير ما كانت المخطوطات العربية – المسيحية وبالأخص المكتوبة على الرق تزود ببكلات عظميَّة أو خشبية وما يقابلها من العرى الجلدية، وتناسبه في هذا المجال التقاليد البيزنطية.

وقد حفظ المؤلَّف المذكور من القرن الحادي عشر في شمال إفريقيا (انظر أعلاه الصفحة ١٦٤) ومبحثان متأخران في وصف أدوات وأساليب عمل المغلفين (إلى جانب وصفٍ لبعض عمليات دباغة وصبغ المجلد التقنية، وتصنيع الصمغ والحبر والمواد الكتابية)[2]، ويؤكد على عملية صنع الأدوات من مواد حسنة النوع وأن تكون مناسبة من حيث الأشكال والأحجام ومريحة في العمل وما شابه ذلك.

وارتبط مظهر الغلاف الخارجي قبل كل شيء بنوعية الجلد ولونه، ويسُودُ اللونان البني والأحمر في مجموع الألوان للأغلفة الجلدية بتدريجات مختلفة، وتبدو الألوان الفاتحة والصفراء والخضراء والسوداء أقل استخداماً، وكانت الأغلفة ذات السطح الأملس دون أية تزيينات نادرة جداً حتى بالنسبْة للكتب المخطوطة البسيطة

(١) المقري، ص ٣٩٨ ومايليها؛ .Dessus Lamare

(٢) .Levey، ١٩٦٢؛ عمدة الكتّاب.

الدارجة، وعلى وجه الإجمال كان غلاف المخطوطة العربية نتاجاً حرفياً من نوعية عالية وجدارة فنية حقة[١].

كان في كل غلاف تقريباً كلا الغطاءين واللسان محاطين من أطرافهما بخطوط وأشرطة وتشكيل بالختم، ويمكن أن يكون الهامش المحاط بالإطار مزخرفاً كله أو فقط في وسطه وفي الزوايا، فلهذا يبرز على خلفية السطح المزين الزخرفة المركزية، في كل الحالات كان من الأهمية الكبيرة تقسيم الهامش البارز إلى أشكال هندسية (نجوم أو معينات أو دوائر أو لوزات أو مضلعات مختلفة الأشكال) وانتقائها واقترانها وارتباطها والقدرة على إبرازها والتشديد على جزئياتها وجعلها متماثلة من حيث وضعية الأشكال وقطعات الهامش التي تشكلها، وأخيراً ملءُ هذه القطاعات الفارغة (بالتشكيل بالختم أو النقاط والدوائر الذهبية).

يبدو سطح اللسان من حيث زخرفته كنصف غطاء أو نموذجه المصغر، تتلاقى بعض الأشكال فقط على الألسنة مثل دائرتين شاذتين أو جزء من معين كبير بثنايا وحيود عمقية ومسنونة بطول الأطراف أو نجم مكوَّن، من مثلثين أو مربع مشكل من زخرفة وجداول.

ونادراً أيضاً يتلاقى ذلك الجزء من الغلاف – الموصل بين الغطاء الأيسر واللسان ومغطى لحافة الكتاب – من غير زخرفة، وفي بعض الأحيان كانوا يحيطون ذلك الجزء بالخطوط ويزودونه بزخرفة صغيرة في وسطه، وفي حالات أخرى كانوا يقسمونه إلى قطعات بخطوط عرضية أو كانوا يزخرفونه عمودياً برمته، ويلصقوا الوجه الداخلي للغطاء بالورق، وفي بعض الأحيان يغلفونه بالجلد الذي يضعون عليه زخرفة مشكلة بالختم، ونادراً ما كانوا يزينوها بصورة أبسط من الوجه الداخلي.

---

(١) Weisweiler؛ خالدوف ١٩٨٢أ، ص ٣٠٢-٣٠٥.

يمكن أن نتصور أهمية حرفة التغليف في حياة وثقافة المجتمع العربي في القرون الوسطى إذا أخذنا بعين الاعتبار هذا الدور الهائل الذي لعبته الكتب المخطوطة، إذ أن كمية الأغلفة لم تقل عن كمية المخطوطات إلا قليلاً، كما أن الغلاف هو الدليل الأهم للأذواق الفنيّة ومهارة وموهبة الحرفيين والفنانين العرب، وطبقاً لهذا غدت الأغلفة موضوعاً غنياً للبحث.

يظهر بكل وضوح في فن التغليف التكنيك والعناصر المادية لإنتاج الكتاب المخطوط أن فقد تقبل العرب منجزات الحضارات القديمة والشعوب المجاورة، فوحدوا التقاليد المختلفة وضاعفوها ورفعوها إلى مستوى عال خلال مرحلة طويلة[1].

(١) إنّ التبعية الكتنيكية لغلاف الكتاب الأوروبي للشرقي (ولا سيما – الإسلامي) ليس بها شك (Sarre، ١٩٢٣، ص٩) وهذا ما كان دافعاً رئيسياً لدراسة تاريخ حرفة التغليف في الشرق العربي في العديد من الأبحاث العلمية المكتوبة بأقلام العلماء الغربيين (انظر بيلوغرافيا: Ettinghausen, Creswell, Gratzl، ١٩٥٦؛ الإضافات: Endress، ١٩٨٢، ص ٢٧٧ – ٢٧٨، ٣٠٨-٣١٠) مع الأسف إلى الآن لم تتم دراسة أغلفة المخطوطات العربية في مجموعات سانت بطرسبورغ وغيرها من مجموعات بلادنا من قبل علماء الفن، إلا من خلال في مبحث علمي واحد – حيث ألقي بعض الضوء على المواد الإقليمية من أذيربيجان – الذي أعار شيئاً من الاهتمام للأغلفة (انظر: كازييف، ١٩٧٧).


مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
خدمة متميزة ... وعطاء مستمر

الفصل الثامن
مجموعات المخطوطات والمكتبات

يرتبط ظهور ونمو عدد مجموعات المخطوطات العربية مباشرة مع تطور الآداب الكتابية وتزايد كمية نسخ المخطوطات الفريدة.

كان بحوزة صحابة الرسول ﷺ المتعلمين صحائف منفردة بفحواها وهي مقاطع من القرآن الكريم، وعلى ما يبدو كان من ضمن ممثلي الجيل الإسلامي الثاني والثالث أناس توجد بحوزتهم مجموعات (اللفائف والصحائف والدفاتر والمخطوطات المكونة من عدة دفاتر)، وتشير التنويهات على هذه المجموعات في المصادر المتأخرة بأن أصحابها – وهم أول العلماء والأدباء في الطائفة الإسلامية – كانوا يخزنونها على شكل حزم ورزم في حقائب وربطات وأضابير وعلب وأسفاط وصناديق وسلات وأواني فخارية وقناطر وأكياس (ويُدعى الخرج) (أو الزغائب)[١]، فلذا كان بمقدور أصحاب هذه «المكتبات» الخاصة حملها بأنفسهم أو على حيوانات في أسفارهم.

تتلاقى كثيراً في الأخبار عن مجموعات المخطوطات الخاصة لدى علماء المرحلة الأموية المتأخرة والعباسية المبكرة (من عشرينات إلى سبعينات القرن إلثامن) والإفادات عن بضع صناديق أو علب أو رِحَال الجمال المليئة بالمخطوطات (عند عالم اللغة البصري أبو عمرو بن العلاء المتولد سنة ٦٨٧ والمتوفى سنة ٧٧١)[٢].

---

(١) امتازت الكلمات الدالة على الأشياء – التي كان يخزن فيها جماع من المراحل المبكرة كتبهم – بتنوع كبير، انتقت نابية عبود من المصادر سبع وعشرين من هذه الكلمات، منها دستجة، جوالق، جراب، دمامة، إضبارة (ضبارة)، عدل، قطيفة، قوسرة، قمطر، كيس، قفة، مضارة، نمط، روزمة، سُفط، صندوق، صنارة، سفن، طبق، تابوت، تلس، حقيبة، خريطة، حبّ، حزمة، خرج (Abbot، ١٩٦٧، ص ٤٣).

(٢) ياقوت، إرشاد، ٤، ص ٢١٧، ابن خلكان، ١، ص ٣٨٦؛ ك. عواد، ١٩٤٨، ص:١٩١.

وكان للوجهاء العرب إمكانيات كبيرة على جمع الكتب وبالأخص قادة الطوائف والدولة، بيد أن البيانات حول مكتبات الخلفاء من بني أمية مبهمة جداً، يظهر أن التذكيرات في المصادر عن «بيت الحكمة» للخليفة معاوية (٦٦١-٦٨٠) الموجود في قصره «الخضراء» تحمل في طياتها طابعاً أسطورياً، ولو أنه من الجائز أنَّ مجموعة مخطوطات كانت موجودة لديه، وليس من المعروف ماذا كانت تمثل هذه «المكتبة» التابعة لحفيده خالد بن يزيد[١]، ثمة أخبار عن مكتبة الوليد بن يزيد (٧٠٥-٧١٥)[٢]، والخلفاء بعده، بعد سقوط الحكم الأموي سنة ٧٥٠ اختفت آثار مكتبتهم البلاطية، ولم تصل إلى أيامنا حتى نسخ النصوص مع الاستشهادات المباشرة على النصوص التي تم منها النسخ.

ينسب إلى نفس المرحلة المبكرة ظهور المجموعات الكتبية في المساجد، ويبدو أن هذه المجموعات كانت مكونة في بادئ الأمر من المصاحف القرآنية، فمنذ منتصف القرن السابع وضعت النسخ الأولى من التحريرات المجملة للقرآن الكريم- المرسلة في عهد الخليفة عثمان (قتل سنة ٦٥٦)- في المساجد الكبيرة بمكة والكوفة والبصرة ودمشق، لكن الفقهاء من ذوي النفوذ طرحوا مسألة حول إباحية تخزين المخطوطات في المساجد، وكان الحل لهذه المسألة إيجابياً بالاستشهاد على مرسوم الخليفة عثمان كسابقة.

ترتبط المرحلة الأكثر أهمية في تاريخ تشكيل المكتبات العربية مع بغداد، وبالدرجة الأولى مكتبة الخلفاء العباسيين القائمة أكثر من قرنين من الزمن، وقد بدأت

---

[١] يعتبر يوسف العش أن البيانات حول ((بيت الحكمة)) لمعاوية و((مكتبة)) خالد بن يزيد صحيحة: Eche، ١٩٦٧، ص:١١-١٣.

[٢] على أية حال كان في عهده شخص مسؤول عن المصاحف القرآنية (صاحب المصاحف) أو المخطوطات على وجه العموم يدعى سعد، انظر: ابن النديم: ص ٦؛ سمعاني، أنساب، الصحيفة ٥٣١؛ Eche، ص ١٨.

تتكون المجموعة الكتبية في ظل بلاط العباسيين القائمة أكثر من قرنين من الزمن، وقد بدأت تتكون المجموعة الكتبية في ظل بلاط العباسيين في غضون حكم الخليفة الثاني المنصور (٧٥٤-٧٧٥)، وبعد استكمالها التدريجي انتقلت بالوراثة إلى المأمون (٨١٣-٩٣٣).

وباتت في عهده أساساً لـ«بيت الحكمة»، وبقيت البيانات الإحصائية عن كمية الكتب المحتواة في تلك المكتبة مجهولة.

وبعد انتقال مقر الخلافة إلى سامراء في عهد المعتصم (٨٣٣-٨٤٢) لم يبق من بيت الحكمة في بغداد إلا المكتبة التي فضلوا منذ ذاك الحين تسميتها بـ«خزانة المأمون»، وقد وصلت أخبار أنه في القرنين التاسع والعاشر استخدم بعض المخطوطات عدد من العلماء، ومن ضمنهم ابن النديم[١]، وبعد القرن العاشر توقفت المصادر عن ذكر هذه المكتبة، وقد شاهد عدداً من كتبها ابن أبي أصيبعة الذي كتب في حلب كتابه في تاريخ الأطباء والطب وأنهى عمله هذا سنة ١٢٤٥[٢].

وقد أعطت مكتبة الخلفاء – المنظمة بدعم مباشر من السلطة والممولة على حساب بيت المال – حافزاً كبيراً لظهور مكتبات عربية أخرى ولتطور الحركة الكتبية، وغدت أنموذجاً أصيلاً للمكتبات البلاطية والعامة اللاحقة المؤسسة من قبل الحكام والإقطاعيين والعلماء المسلمين.

وتأسست في القرن التاسع في بغداد وغيرها من المدن عدد من المكتبات تحمل تسمية «بيت الحكمة»، عندئذ تظهر بحوزة الكثير من علماء اللغة والمؤرخين والفقهاء واللاهوتيين والفلاسفة والفلكيين والأطباء مجموعات كبيرة من المخطوطات، تجدر الإشارة بأن كل من أظهر نفسه في الأدب والعلم العربيين في مختلف المراحل بمثابة

(١) ابن النديم، ص١٩.

(٢) ابن أبي أصيبعة، ١، ص١٨٧.

مؤلف (مترجم أوشارح) كان دون شك يقتني ولو القدر الأقل من مجموعات المخطوطات، تُؤَكِّدُ هذه الافتراضات - غير المبنية على التجربة ومع ذلك ضرورية- بشهادات غير مباشرة من المصادر، وثمة كمية كافية من التذكيرات المباشرة لكي تسمح على كتابة تاريخ عشرات آلاف من المجموعات المخطوطية - الكتبية الخاصة، إننا نجد إخبارات كثيرة من علماء الحديث المبكرين من القرنين الثامن والتاسع الذين كانوا يعودون من رحلاتهم «في طلب العلم» برحال كاملة على الجمال أو عدة ملاك الكتب المؤلفون فحسب، فقد كان استحواذ الكتب ظاهرة مألوفة لدرجة أن قلتها كانت تثير إرتيابات مثل قلة كمية الكتب (قمطر واحد فقط) في بيت شاعر مثقف ألا وهو أبو نواس إذ اكتشف ذلك بعد وفاته (بين ٨١٣ و٨١٥)[١].

في القرن الثامن وبالأخص في القرن التاسع راحت الكتب تنتشر على نطاق واسع في المناطق المركزية للخلافة (العراق، بلاد الشام، الجزيرة العربية، مصر) إلى أنأى المقاطعات، وما وراء القوقاس وشمال إفريقيا وأسبانيا.

وإلى نهاية القرن التاسع تخبو «بيوت الحكمة»، ويمتد بعد ذلك عصر من ألف سنة لمكتبات الأوقاف، وسبب نشوء هذا النوع الجديد من المكتبات هو التثبيت للشكل الخاص للملكية الإقطاعية ألا وهي ملكية الأوقاف، وكانت الممتلكات العقارية هي التي تتحول إلى الوقف، على أن شكل الملكية هذا قد شمل بعد بعض التأرجحات أنواع الممتلكات المنقولة بما فيها الكتب، وتغير حال المكتبات، فإذا كانت سابقاً ملكية خاصة للحاكم أو الإقطاعي، اكتسبت بعد ذلك شكل ملكية ممنوحة «للأبد» تحت تصرف الجماعة الإسلامية لا تُنْزَعُ منها.

في نفس الوقت بقيت ونمت المجموعات المخطوطية - الكتبية في ممتلكات خاصة، وتنامى بصورة خاصة عدد المكتبات التابعة شخصياً للحاكم (الخليفة،

---

(١) ابن خلكان، ١، ص ١٣٥.

السلطان، الأمير)، ويمكن أن نسميها بمكتبات القصر (أي نسبة إلى مكان تخزينها) أو مكتبات الأسر السلالية الحاكمة طالما أنها كانت تنتقل بالوراثة، ونجد في عواصم جميع الدول تقريباً – التي ظهرت إثر انفصالها عن الخلافة – مكتبات ضخمة إلى هذا الحد أو ذاك، ويغدو هذا الأمر مع تزايد التفتت الإقطاعي مألوفاً حتى بالنسبة للمتلكات العربية الإقطاعية الصغيرة ذات السلالات التي لم يطل أمدها، وكذلك بالنسبة للدول الإسلامية التي سكانها من غير العرب، وكان كل سلطان أو أمير يطمح إلى مكانة سياسية بمثابة حاكم متنور يقوم بتنظيم مكتبة في قصره أو يعمد إلى توسيع مكتبة سلفه، وقد عكس ذلك أحياناً النزعات الشخصية لهذا العاهل أو ذاك، إلا أنه كان في معظم الأحيان عملاً سياسياً هادفاً إلى الرفع من سمعته، ونفس الحوافز كانت تقود أفعال كبار الوجهاء والأثرياء القائمين بجمع المكتبات.

لم تكن هناك حدود فاصلة بين مكتبات الأوقاف والمكتبات الخاصة ومكتبات القصر، فقد تأسس الوقف من قبل الحاكم والأشخاص غير الرسميين، وشكلت الكتب من مجموعاتهم رصيد مكتبة الأوقاف، والتي استكملت فيما بعد بالهبات الجديدة أيضاً، على أن مكتبة الأوقاف لم تبق دوماً ملكية لا تنزع كما أعلن عنها، فقد كان المتغلّب ينظر إلى ملكية الأوقاف كغنيمة أيضاً، وكثير ما كانت إرادة صاحب الوصية – الذي أوصى بكتبه إلى الأوقاف- تخالف من قبل الجيل اللاحق، وعرضت حوادث قام فيها مؤسس الوقف نفسه، وهو على قيد الحياة بإلغاء وصيته فيبيع كتب الوقف، وهذا هو سبب وقوع المجموعات الوقفية من جديد تحت تصرف الأشخاص العاديين فتنتقل من مدينة إلى أخرى، أو تتعرض للبيع وإعادة البيع، أو توضع في قصر المنتصر بمثابة مكتبته الخاصة أو تسلم إلى الأوقاف من جديد، ولكن باسم مؤسس آخر في هذه المرة، ومع ذلك فقد كانت مكتبات الأوقاف هي الأكثر ضخامة وغنى والأقل تعرضاً لتقلبات الدهر والأكثر أمناً وصوناً عن المصادرة والنهب من المكتبات الخاصة ومكتبات القصر.

في غضون الاستقرار العام للعلاقات الاجتماعية – الاقتصادية والتغيرات الطفيفة لأشكال الحياة الثقافية لمظاهر الإنتاج الأدبي والحفاظ المستمر للتقاليد الكتبية، فإن الكتب والمكتبات في غضون كل ذلك كانت كثيراً ما تبدل مواضعها ومالكيها عاكسة بذلك التغيرات في الظروف السياسية وصعوداً أو سقوط أصحاب المناصب الراقية والانتصارات والهزائم في الصراعات الإقطاعية الداخلية ومجيء فاتحين جدد.

ثم تأسست في القرنين العاشر والحادي عشر عدة مكتبات سميت بـ«دار العلم»، وقد ميّزها يوسف العش عن طراز المكتبات الوقفية المتأخرة[1]، وكانت دار العلم قائمة بذاتها كمؤسسة مستقلة خصص لها بناء خاص، عمل فيها العلماء وأجري فيها التدريس، ومن الجدير بالاعتبار أن القراء المنتظمين ولا سيما النزلاء وغير الأغنياء منهم لم تكن الكتب في خدمتهم فحسب، بل وفرت لهم كذلك لوازم الكتابة والورق، وحتى منح لهم حق المبات فيها والحق في الدعم المادي.

اعتباراً من النصف الثاني من القرن الحادي عشر بدأت دور العلم تندثر (إذا لم تقض بقية عمرها القديمة منها) فاسحة مكانها للمكتبات الوقفية الملحقة لدى مؤسسات الأوقاف كالمساجد والمدارس والمشافي والأضرحة، وبالطبع بقيت مكتبات القصر والخاصة، وجدت إلى جانب المكتبات الكبيرة الكثير من المكتبات الصغيرة، إجمالاً لم تكن – على ما يبدو – غلطة أو مبالغة إذا قلنا بأن كل الأراضي التي ينطقون عليها بالعربية، وحيث انتشر الإسلام كانت اعتباراً من القرن الحادي عشر وما بعده مغطاة بشبكة من مكتبات الأوقاف الصغيرة والكبيرة، وإذا لم تكن كل الكتب فيها مكتوبة بالعربية فمعظمها.

سبق وأن تناولنا مسألة طابع التعليم الإسلامي (الفصل الرابع) وثيق الصلة مع الكتاب، فإلى جانب تعلم القراءة والكتابة كان العلم ينحصر في القراءة المشتركة

---

(١) Eche. 1967, P. 67- 161.

للنصوص مع العلم، وكذلك تحليلها وتفسيرها وحفظها عن ظهر قلب، كان من الممكن أن يتم التعليم في أي مكان كان: في داخل أي منزل أو في الفسحة أو على عتبة الدار أو في السوق، ولكن المسجد كان دائماً هو المكان المفضل، وفعلاً إذا أخذنا بعين الاعتبار هندسة بناء المسجد (بناء على شكل مربع برواق متجهة إلى الداخل وأسوار التي تحيط بفناء مربع الشكل)، وخصائص مناخ الشرق العربي، ومعظم العالم الإسلامي الذي يسمح بإجراء الدروس في الهواء الطلق طوال العام تقريباً، نعترف أن المسجد كان بناء عاماً صالحاً للاجتماعات والمعاشرات في غير ساعات الصلوات، ولهذا غدت المساجد في كل مكان تقريباً مدارساً ابتدائية، وأضحت المساجد الكبيرة مع توافر كمية كافية من المدرسين والكتب فيها أمكنة حيث أجري التعليم على مستوى أعلى.

كثير ما كان الدارسون في مثل هذه المدارس يسكنون في الخانات الواقعة بالقرب منها، وقد سبقت وحدة المسجد والخان – المعلنة عن تبعيتها للجماعة الإسلامية على شروط الأوقاف – ظهور المدرسة الوقفية أي الممولة فقط بالهبات، والتي كانت تضمن للدارسين فيها المسكن والمُؤَن في مبنى المدرسة ذاتها[1]، وكانت دور المعرفة – ذلك النوع المبكر من المكتبات الوقفية في المباني المستقلة حيث أقام العلماء العاملين فيها على وجه الاستمرار حلقاتهم ومجالسهم التدريسية أي الطريقة المألوفة للتدريس في الشرق العربي – الإسلامي- كذلك مؤسسات سبقت نشوء المدارس.

ظهرت أولى المدارس في العالم الإسلامي في مدن ما وراء النهر وخراسان، وقد أشار ف.فز بارتولد في جملة أعماله بأن داخلية الدير البوذي كانت أنموذجاً أصلياً لمدارس آسيا الوسطى[2]، ويتعلق أقدم خبر بمدرسة فرجك ببخارى التي احترق بناؤها إبان حريق عام ٩٣٧، وتمكن ناجي المعروف إجمالاً من جمع المصادر والبيانات

---

(١) المقدسي، ١٩٨١، ص ٢٧-٣٢، ١٧١-١٨٧.

(٢) بارتولد (١٩١٦)، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص ٤٣١-٤٣٢؛ نفس المؤلف (١٩١٨أ)، المجلد السادس، ص١١٢؛ نفس المؤلف (١٩٣٠)، المجلد السادس، ص ٦٢١.

حول ثلاث وثلاثين مدرسة مؤسسة على الأغلب في نيسابور، وكذلك في بخارى وغزنة وبوشنج قبل أن تظهر المدرسة البغدادية الأولى[1].

يحتمل أنه لما نضجت فكرة إمشاء المدارس الوقفية، لعبت المؤسسات السابقة مختلفة الأنواع دور قاعدة معدة لذلك، على أن المدرسة البغدادية بالذات- التي أسسها نظام الملك الوزير الذي له نفوذ كبير في عهد السلجوقيين وسميت باسمه النظامية – هي التي أضحت أنموذجاً احتذت به المدارس العربية في القرن الحادي عشر والقرون اللاحقة.

تم تأسيس المدرسة النظامية أعوام ١٠٦٤-١٠٦٦، وخصص لها مبنى خاص لـ «دار الكتب» أي للمكتبة، وقد أسس نظام الملك المدارس مع مكتباتها في العديد من المدن الكبرى للدولة السلجوقية الواسعة في السبعينات، وحتى التسعينات من القرن الحادي عشر (بلخ، نيسابور، هراة، أصفهان، مرو، آمل، الموصل، جزيرة ابن عمر)، وانتشرت مدارس من هذا النوع مع مرور الزمن في كل الشرق العربي- الإسلامي بأسره.

وارتبط ظهور المكتبات التابعة للخانكاهات والترب الصوفية على الأغلب بظرف إجراء التدريس فيها للتلاميذ الشباب والكهول وبكونها شكلت مجمعاً واحداً مع المدرسة أو مع المدرسة والمسجد في آن واحد، أما المكتبة كمكان لحفظ الكتب؛ حيث يؤمها القراء فكانت ظاهرة نادرة جداً بل استثنائية تقريباً.

أما كتب الطوائف المسيحية في الشرق الأدنى المترجمة إلى اللغة العربية فتمركزت وخزنت على الأغلب في الأديرة حيث لقيت حماية أمينة بين جدارها المتينة، إذ يجدر بالأديرة استقرار الموقع بالاقتران مع تتابع التقاليد، فلذا على الرغم من أن الأديرة كانت أيضاً تتعرض للكوارث الطبيعية والاغتصابات الحربية والاجتياحات،

---

[1] ناجي معروف، ١٩٧٢ص ٦٧-٦٨.

تظهر من بين المخطوطات العربية – المسيحية كذلك في الكنائس ومباني البطاركة الإدارية وبحوزة ممثلي الروحانية بمثابة أملاك خاصة.

وتمركزت المخطوطات العربية – اليهودية والعربية – السامرية في كنيس لدى البيع ومجموعات خاصة يمتلكها العلماء اليهود والسامريين على الأغلب من ضمن الكهنة.

قبل انتقالنا إلى البحث في المكتبات المعينة والمجموعات الخاصة تجدر الإشارة أنه لا بدّ وأن نسلك سبيل المبدأ التاريخي – الزمني، ولكن سنضطر في ذلك أن نتراوح بين أشياء كثيرة، وذلك لسعة مساحة انتشار الكتب العربية المخطوطة، وشدة امتداد المرحلة التاريخية المعرضة للبحث، فلذا سنتمسك بالخارطة السياسية المعاصرة دون أن نهمل في ذهننا مجرى التاريخ وما نقل واختفى من المجموعات الخاصة والمكتبات مختلفة الأنواع ضمن حدود إقليمية. من البديهي أننا لا نستطيع أن نلقي شعاعاً إلا على عدد محدود من المجموعات المعروفة والمميزة، طالما أن البيانات المقتبسة من المصادر لا يدركها البصر ولو أنها ليست مكتشفة ومعروفة كاملاً.

لنبدأ بالعراق وعاصمتها بغداد التي أجرت مجرى معيناً في المرحلة الحاسمة من تطور الثقافة العربية، بعد ذلك سنبحث في البيانات حول الأقاليم الكبيرة التي تشمل في معظم الأحوال العديد من الدول المعاصرة وفقاً للتسلسل الآتي: الإقليم السوري – الفلسطيني (وفي القرون الوسطى بلاد الشام وفلسطين أو مجرد بلاد الشام) الذي يضم حالياً سوريا ولبنان وفلسطين وأقطار شبه الجزيرة العربية، ومصر، وإفريقيا الشمالية والبلدان الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، وأسبانيا والبرتغال وإيطاليا وتركيا وبلدان شبه جزيرة البلقان، وإيران وأفغانستان، ورابطة الدول المستقلة، والهند وباكستان وبنغلاديش، وإندونيسيا والصين وبلدان حوض المحيط الهندي، طبعاً لن يدور الكلام أبداً في موضوع انتظام إيضاح كل المراحل والمناطق، سوف نعير جل اهتمامنا عند بحثنا لكل بلد (كل إقليم) للقرون الوسطى، ولكننا سنكرس بعض

الجمل والفقرات الختامية للمخازن المعاصرة للمخطوطات العربية، وبصورة خاصة بقيت دراسات مرحلة القرون الوسطى إلى وقتنا الحالي. إنّ البيانات حول بعض البلدان والأقاليم ليست بحوزتنا أو ضئيلة، وهذا يخص المكتبات التي نشأت في فترة ليست ببعيدة، والتي تحتوي على الكتب المكتوبة بالعربية، وليس فقط بالعربية، وليست مخطوطة فحسب.

العراق

بعد تشييد بغداد سنة ٧٦٢م بقليل ظهرت في العاصمة الجديدة مجموعات خاصة؛ لأن أرباب الأدب العربي أخذوا يلجؤون إليها من المدينة ودمشق والبصرة والكوفة وغيرها من المدن، فيأتون بكتبهم الموجودة عندهم، ويمكن أن نذكر أنَّ من جُمَّاع الكتب الكثير من البغداديين في أواخر القرن الثامن، وحتى أوائل القرن التاسع، ولا سيما المرتبطين منهم مع الترجمين إلى اللغة العربية (حنين بن إسحاق وأبناء موسى بن شاكر وغيرهم)، وتشكل علم الفلسفة ورائدهُ (الكندي وغيره)، وعلم الحديث، وعلم تدوين التاريخ، والفقه، والأدب الفني، وعلم اللغة، فيخبرون مثلاً أنه بعد وفاة الواقدي سنة ٨٢٣ بقي بعده ستمائة قمطر من الكتب كل قمطر منها حمل رحلين[١]، ثم انتقلت هذه القماطر إلى أربعة أشخاص، ومن ضمنهم تلميذه محمد بن سعد الذي كانت بحوزته مجموعة كبيرة من الكتب[٢]، وقالوا عن أبي عبيدة (ت٨٢٦) بأن «له علم الإسلام والجاهلية، وكان ديوان العرب في بيته»[٣]. يحتمل أن الكتب كانت عنده كثيرة، وكان لدى يحيى بن معين (٨٤٨) ١١٤ قمطر وأربع حباب شرابية مملوءة كتباً (يحتمل بلفائف البردي)، وكان بحوزة ابن عصره بشر الحارث ثمانية عشر قمطر

(١) ابن النديم، ص ٩٨.

(٢) ابن خلكان، ١، ص ٥٠٧.

(٣) ابن النديم، ص ٥٣.

وسلة[1]، واحتيج لنقل كتب أحمد بن حنبل (ت ٨٥٥) إلى اثني عشر ونصف رحل جمل[2].

إلى جانب مكتبة الخلافة – التي تناولنا موضوعها سابقاً – كانت «دار الحكمة» في بغداد (أو سامراء) في منتصف القرن التاسع تابعة لأبي الحسن علي بن يحيى (ت ٨٨٨) أحد أفراد بلاط المتوكل(٨٤٧-٨٦١) المعروف كأديب وشاعر ومغني، وقد أسس ذلك الوجيه المتنور (كان والده الفارسي المجوسي فلكياً في مدرسة جنديسابور، اعتنق الإسلام وعمل بنشاط في عهد المأمون) في قصره في الضاحية مكتبة، حيث كان بمقدور العلماء السكن فيها وإجراء دروسهم مستلمين الإنفاق اللازم ومتصرفين بالكتب، وعلى وجه الخصوص لقد توقف جامع الأحاديث أبو معشر البلخي في بغداد وهو في طريقه من خراسان إلى مكة، ولما عرف عن هذه المكتبة استقر فيها لدراسة علم النجوم حتى آخر حياته[3]، ومؤخراً اشتهر كفلكي ومنجّم، من المعلوم أن علي بن يحيى قد ملأ مكتبته بكتب عالم الحديث والمؤرخ عمر بن شبه (ت٨٧٦) التي اشتراها من ابنه أبي طاهر[4].

كما غدا علي بن يحيى مؤسساً ثانياً لدار أو لخزانة الحكمة هذه المرة بمحض إرادته، وعلى موارد الفتح بن خاقان (ت٨٦١) الأمير المشهور، وقد نقل علي بن يحيى جزءاً من كتبه التي زاد الفتح بن خاقان من عددها بالنسخ التي طلبها، فنشأت في بيته مكتبة «التي لم يُر أعظم منها كثرة وحسناً، وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفيين والبصريين»، كان السليل البعيد للملوك الترك الفتح بن خاقان يرعى الأدباء

(١) ابن خلكان، ٢/ ص٢١٥؛Abbott، ١٩٦٧، الصفحتان ٤٧، ٥١.

(٢) نفس المؤلف.

(٣) ياقوت، إرشاد، ص، ٥٦٧؛ ميتس، ١٩٧٣، ص١٥٠؛ كراتشكوفسكي، المجلد الرابع، ص ٧٣، Eche، ١٩٦٧،ص ٥٨.

(٤) ابن النديم، ص ١١٢.

واعتبر- حسب مقتبس من مصدر ابن النديم - واحداً من أكبر عشاق الكتب الثلاثة في تلك الآونة[١].

تنسب إلى النصف الثاني من القرن التاسع جملة من الأخبار حول المجموعات الكتبية في العراق، كان القاضي المتنور أبو حسان الحسن بن عثمان الزيادي (ت٨٥٨) يعمل الكتب بنفسه وتعمل له، وكانت له خزانة حسنة كبيرة[٢]، ونذكر خزانة الكتب عند الوزير محمد بن عبد الملك ابن الزيات (ت٨٤٨)[٣]، وكان هاوياً كبيراً للكتب وممتلكاً مجموعة كبيرة منها. وكان أبو حاتم السنجستاني (ت٨٦٤)[٤]، وكذلك أبو العباس جعفر بن أحمد المروزي «أحد المؤلفين للكتب في سائر العلوم» أول من ألّف «في المسالك والممالك كتاباً ولم يتمه وتوفي في الأهواز»، وحملت كتبه «العزيزة جداً» إلى بغداد، وبيعت في طاق الحراني سنة ٢٧٤هـ/ ٨٨٨م[٥]، ونعلم أيضاً التنويه إلى مكتبة الخليفة المعتضد(٨٩٢-١٩٠٢)[٦].

بعد ذلك ننتقل مع «جماعة للكتب» الحسن بن موسى النوبختي (المتوفى بعد ٩١٢)- الذي نسخ بيده شيئاً كثيراً وألّف حوالي أربعين من «مصنفات وتأليفات» -

(١) فأما الجاحظ ((فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفي قراءته كائناً ما كان حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويثبت فيها للنظر))، أما الفتح بن خاقان: ((فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل، فإذا أرد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمه أو خفه وقرأه في مجلس المتوكل إلى عوده إليه حتى في الخلاء)) أما القاضي إسماعيل بن إسحاق فمتى ما جاء أحد إليه ((يجده ينظر في كتاب أو يقلب كتباً أو ينفضها))، (انظر ابن النديم، ص ١١٦، ١٤٣؛ ميتس، ١٩٧٣، Eche؛١٤٩، ١٩٦٧،ص ٥٩-٦٠.

(٢) ابن النديم، ص ١١٠.

(٣) ابن خلكان، ١، ص ١.

(٤) السيرافي، ٩٤؛ ابن النديم، ص ١٥٠.

(٥) ابن النديم، ص ١٥٠.

(٦) نفس المصدر، ص ٦١.

إلى القرن العاشر، ويظهر أنه ورث كتب كل عائلة النوبختي التي عمل أعضاؤها بنشاط خلال القرن السابق[١].

نجد كذلك أمثلة نموذجية للمكتبات المسماة بدار العلم في المدن العراقية الأخرى في القرنين العاشر والحادي عشر، وكانت أولها من حيث الزمن المكتبة في الموصل التي أسسها أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الشحام (٨٥٤-٩٣٤)، ويحتمل في نهاية القرن التاسع؛ لأنه عاش مؤخراً في بغداد، وفي دار العلم هذه كانت مفتوحة دوماً للجميع وكانوا يمدون الزوار المحتاجين بالزاد والورق في حال إذا درسوا الآداب، كان صاحبه محاطاً دوماً بالراغبين في سماعه، فيقرأ لهم الشعر ومؤلفاته[٢]، وكان هنالك جماعاً للكتب من أهل الموصل - الذي كان فاضلاً يقصده الناس للاستفادة منه ويأتي إليه الطلبة من البلاد للقراءة عليه - العالم بالحسبا والهندسة علي بن أحمد العمراني (ت٩٥٥)[٣].

واشتهر كحائز على إحدى مجموعات الكتب في الكوفة أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الحمداني الملقّب بابن عُقْدة (٨٦٣-٩٤٤) الذي ورث عن أبيه هواية جمع الكتب[٤].

أُسّستْ في البصرة في القرن العاشر مكتبة من قبل الكاتب أبي علي ابن سوار، وقد زارها الجغرافي المقدسي، وأخذ ابن النديم الخبر من صاحبها، كما أخبر الأول، كان يمدُّ في هذه المكتبة بالدعم المالي كلُّ من كان يمارس نشاط القراءة وترجمة المؤلفات،

---

(١) نفس المصدر، ص١٧٧؛ بروزوروف، ١٩٧٣، ص ٦٣-٦٦.

(٢) ابن النديم، ص ١٤٩، ياقوت، إرشاد؛ ٢ ص ٤١٩-٤٢٩؛Eche، ١٩٦٧، ص ٩٨-٩٩.

(٣) ابن القفطي، ص٢٣٣؛Eche ، ١٩٦٧، ص ١٣٧-١٣٨.

(٤) بروزوروف، ١٩٨٠، العدد ٦٨؛ وحسب إخبارات مدوني التاريخ الشيعيين المبالغة بوضوح، احتج لنقل كل مجموعنه من الكتب إلى ستمائة رحل جمل.

وكان يلزمها دوماً الشيخ للتدريس وفقاً لمذاهب المعتزلة[١]، واعتبرها الكثير من المؤلفين (ومنهم ابن الجوزي، وابن الأثير) مكتبة وقفية أولى في الإسلام، ويُشبِّهُها الباحثون المعاصرون مع إحدى المكتبتين اللتين احترقتا إبان الغارة البدوية على المدينة سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م[٢].

خلّف الحاجب بن نصر (ت٩٢٤) بعده في بغداد «كتباً بأكثر من ألفي دينار»[٣]، وكان من جماعة الكتب كذلك إبراهيم بن محمد بن سعداد بن المبارك[٤]، وكانت لدى أبي بكر محمد بن يحيى الصولي (٩٤٦) بيت مملوء كتباً وقد صفّها وجلّودها مختلفة الألوان[٥]، ينضم إلى عداد كبار جُمّاع الكتب أبو الحسن بن محمد بن الزبير الأسدي ابن الكوفي (٨٦٨-٩٦٠) الراوي والعالم الصادق، فقد احتوت مكتبته على مخطوطات قيمة جداً رتبها وفقاً لمواضيعها؛ واعتبرت المؤلفات المكتوبة بخطه ضماناً للأمانة، واستخدمت من قبل الكتاب المشهورين من القرن العاشر وحتى الثالث عشر[٦]، في عام ٩٦٧ صودرت من ابن معز الدولة في البصرة – وذلك لمحاولته إيثار التمرد – خمسة عشر ألف كتاباً مجلداً سوى الأجزاء والكتب غير المغلفة[٧]، وكان من بين الأدباء المتعلمين وجماع الكتب القيمة أبو سعيد وهب بن إبراهيم بن طازاد الذي

---

(١) المقدسي (كتب سنة ٩٨٥) ص ٤٢٣؛ ابن النديم، ص ١٣٩؛ Eche، ١٩٦٧، ص ١٠٠-١٠٢.

(٢) ابن الأثير، ١٠، ص ١٢٢؛ Eche، ١٩٦٧، ص ١٠١.

(٣) عريب، ص ١٢١، مع الاستشهاد بالصولي؛ ميتس، ١٩٧٣، ص ١٥٠.

(٤) ابن النديم، ص ٩٧، الاستشهادات بخطه: الصفحتان ٨٨، ٩٤.

(٥) نفس المصدر، ص ١٥٠؛ ابن خلكان، ١، ص ٥١٠.

(٦) ابن النديم، ص ٧٩؛ الخطيب، تأريخ بغداد، ١٢، ص ٨١؛ ياقوت، إرشاد؛ ٥، ص ٣٢٦-٣٢٨((وهو صاحب الخط المعروف بالصحة المشهور بإتقان الضبط وحسن الشكل فإذا قيل نقلت من خط ابن الكوفي فقد بالغ في الاحتياط))؛ محفوظ، ١٩٦١.

(٧) مسكويه، المجلد الثاني، ص ٣٤٦-٢٤٧؛ ابن الأثير، المجلد الثامن، ص ٤٣١؛ ميتس، ١٩٧٣، ١٥٠ (والعدد عنده محرف سبعة عشر ألف).

شاهده ابن النديم[١]، واحتوى بيت الكاتب واللغوي المشهور أبي عبد محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت٩٩٤) على خمسين سرير للضيوف المهتمين بالعلم والمبيتين عنده، وكان يلجأ إليه الكثيرون بغية دراسة الكتب بطريقة «السماع» و «القراءة»[٢].

اشتهرت في بغداد دار العلم التابع لسابور بن أردشير الكاتب الأسبق، ومن ثم الوزير بهاء الدولة، في عام ٩٩٣ اشترى ذلك الوجيه الثري بيتاً في إحدى أحياء بغداد المكتظة بالسكان، وهو مسند الشيعيين بالكرخ، ثم صلحه وأمر بالإيراد إليه بأفضل الكتب التي نسخها أشهر الخطاطين والعلماء، ويزعمون أنها تحصى بـ١٠٤٠٠ مجلد، وقد وضع سابور فهرسها المزود بمقدمة كتبها بنفسه، وكان رصيد المكتبة ينمو كذلك بفضل التقدمات الطوعية من المؤلفين، ولاسيما جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع (١٠٠٥) الذي قدم كهدية دليله الطبي «الكناش» بخمسة مجلدات[٣].

بعد وفاة مؤسس هذه المكتبة بوقت انتقلت الإدارة إلى الشريف المرتضى (ت ١٠٤٤) رئيس الشيعة الإماميين الذي كان مولعاً بالكتب، كما احتفظت أسماء طائفة من العلماء الخازنين وغيرهم من خدمة المكتبات التي كان ملاكها مكوناً من مجلس رعاة العلم (ثلاثة أشخاص)، وهم المدير ومعاونه والخادم وربما بعض النساخين، وكانت المكتبة مؤسسة بمثابة مؤسسة وقفية مدعومة مادياً من مداخيل العقارات وورشة الحياكة التي أوصاها المؤسس، وقد لقي فيها ترحيباً حراً أبو العلاء المعري في غضون مكوثه في بغداد حيث جاء طالباً للعلم سنة ١٠٠٨ أو ١٠٠٩، وكان فيما يتذكر هذه المكتبة بحرارة ويراسل العاملين فيها، وأجريت في هذه المكتبة نقاشات العلماء، وكذلك تم فيها التدريس، ومن جراء هذا سمت بعض المصادر هذه المكتبة بالمدرسة

---

(١) ابن النديم، ص ١٣١.

(٢) ابن النديم، ص ١٣٢-١٣٤، ابن الجوزي، منتظم؛ ٧ ص ١٧٧؛Eche، ١٩٦٧، ص ١٣٨.

(٣) ابن أبي أصيبعة، ١، ص ١٤٦؛Mackensen، ١٩٣٢، ص ٢٨٨-٢٩٣؛Eche، ١٩٦٧، ص ١٠٢-١١٧.

الأولى، معروفٌ كذلك أسماء أمناء المكتبة (الخازنين): عالم اللغة أبو أحمد عبد السلام بن الحسين بن محمد البصري (٩٤٠-١٠١٤)، وأبو منصور محمد بن علي بن إسحاق بن يوسف (المتوفي سنة ١٠٢٣ أو ١٠٢٧)، وأبو منصور محمد بن أحمد بن طاهر بن حمد، وهلكت المكتبة إثر الحريق سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م الذي نشب إبان إحدى الاشتباكات بين السنة والشيعة، وقد أفادت إحدى الإخباريات بأنّ الكندري وزير السلطان السلجوقي تغرل قد أمر بتفريق الحشد الذي بدأ ينهب «دار العلم» وهي تحترق، وبعد ذلك اختار بنفسه أفضل الكتب وأرسلها إلى وطنه خراسان، ولم يصل إلينا أي كتاب حُفِظَ في هذه المكتبة.

وتعود الإخبارية عن «بيت العلم» في بغداد - المؤسس - كما يزعمون - من قبل الشريف الرضي (ت١٠١٦) لصالح تلاميذه- إلى المراجع القليلة وتحوي خللاً زمنياً، وتعتبر لهذا مشكوك في صحتها[١]، لم يطل وجود «بيت العلم» (أو «بيت الكتب») الذي أسسه عام ١٠٦٠ أبو الحسن محمد بن هلال الصابي الملقب بغرس النعمة، طامحاً بذلك أن يبدل المكتبة المحترقة التي أسسها سابور، وتختلف المراجع في تقدير عدد الكتب التي وجدت في هذه المكتبة والتي تربو على أربعمائة إلى ألف، ويرى أحد الباحثين المعاصرين أن الإخبارية المنطلقة يجب أن تقول «ألف مجلد لأربعمئة مؤلف (كتاب)»[٢]، وكان ابن الأكساسي العلوي[٣]، لكن غرس النعمة سرعان ما امتنع عن فكرته الطامحة هذه فعزل سنة ١٠٦٦ أمين المكتبة ومسح عن كتبها علامات الأوقاف وباعها[٤].

---

(١) Eche، ١٩٦٧، ص ١٢٤-١٢٦؛ قارن مع ميتس، ١٩٧٣، ص ١٥٢.

(٢) م. عواد، ١٩٦٤، ص٢٤.

(٣) وبالظاهر أبو محمد يحيى، انظر: م. عواد، ١٩٤٨، ص ٢٣٩؛ غريازنيفيتش، ١٩٦٧، ص ١٧، والتعليق ٥٦.

(٤) وقد صرح تبريراً لأفعاله أنه بعد تأسيس النظامية لم تعد لمكتبته أية حاجة وأنه وزع الأموال التي كسبها من بيع الكتب للفقراء، وحسب إخبارية أخرى أنه في بيع الكتب قد سبقه أمين المكتبة (انظر/ م.عواد، ١٩٦٤، ص ٢٤-٢٥؛Eche، ١٩٦٧، ص ١٣٨-١٤١).

لننوه كذلك إلى الخبر عن المجموعة الخاصة التابعة للفقيه البيكاني (١٠٣٣) وقد احتيج لنقل الكتب عند تغيير مسكنه إلى ثلاث وستين سلة وصندوقين[١].

كما ذُكِرَ أعلاه غدت أكبر مكتبة ببغداد في القرن الحادي عشر مكتبة المدرسة النظامية، ولو أنه لم تصل إلينا بيانات حول عددها؛ لأن كتب الوقف كانت تصل إليها من نظام الملك نفسه وطائفة من الخلفاء والسلاطنة وكبار الموظفين والإقطاعيين، وكذلك العلماء مثل الفقيه أبي جعفر محمد بن علي الأزدي الطبري (ت١١٢٤).

كان أمناء النظامية ببغداد خلال فترة طويلة من الزمن من عداد العلماءالمشهورين، ومنهم أبو يوسف يعقوب بن سليمان بن داود الإسفراييني (ت١٠٩٥)، وأبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني الخطيب التبريزي (١١٠٩)، وأبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردي (ت ١١٦٢)، وأكرم الدين أبو سهيل، في عام ٥١٠هـ/ ١١١٧م تعرض مبنى النظامية للحريق، لكن الكتب أنقذت من قبل الدارسين فيها من الفقراء[٢]، وفي عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م شيّد لهذه المكتبة بناء جديد من قبل الخليفة الناصر (١١٨٠-١١٢٥)، فأطلقوا عليها تسمية بعدئذ الناصرية، بقيت إعالة أرصدتها على حساب الهبات الجديدة، فضمّت إليها مجموعة كتب المؤرخ ابن النجار (ت١٢٤٥)، ومؤلف عمل في مجال سيرة حياة وعالم الحديث والشاعر ابن الساعي (ت١٢٧٥)، وعمل فيها بمثابة أمناء طائفة من العلماء الآخرين[٣]، عاشت المكتبة دمار بغداد أثناء احتلالها من قبل هولاكو خان سنة ١٢٥٨، ولو أنها ربما تعرضت لبعض الضرر، وليس من المعروف كذلك متى تهدّمت المكتبة بشكل نهائي،

---

(١) ميتس، ١٩٧٣، ص ١٥٠-١٥١

(٢) ابن الجوزي، منتظم؛ ٩ ص ١٨٤.

(٣) Mackensen, 1932. P. 293- 297. Eche. 1967, P.166-172.

على أننا نصادف بعض المجلدات المنفردة في المجموعات المعاصرة للمخطوطات تم إنجازها في المدرسة النظامية في بغداد، ويبدو أنها كانت من مكتبتها[١].

في نفس الوقت تم تأسيس سنة ١٠٦٦ المدلاسة الحنفية خلافاً للنظامية الشافعية، وقد شيدت بالقرب من ضريح أبي حنيفة في الوقت نفسه، وقد سلم الطبيب يحيى بن عيسى بن جزلة قبيل وفاته (ت١٠٩٩) للوقف مجموعته من الكتب[٢]، ظهر بين الكتب المقدمة لوقف الضريح نفسه «تفسير» لعبد السلام بن محمد بن يوسف القزويني (ت ١٠٩٥) رئيس المعتزلة في تلك الآونة، وذلك في ثلاثمائة أو سبعمائة مجلد، وكانت مجموعته – كما يزعمون – تزيد عن أربعين ألف مجلد، فقد أحضر الكتب من مصر وحدها(التي اشتراها أغلبها في عام قاحط جداً) على عشرة جمال بما فيها تفسير الطبري بأربعين مجلد وتفسير طائفةمؤلفي المعتزلة، وقد قدم هدية لنظام الملك أربعة مؤلفات كتابية نادرة جداً، ومن ضمنها نسخة من عشرة مجلدات «غريب الحديث»، لإبراهيم الحربي بخط أبي عمرو بن حيويه التي سلمها الوزير لوقف المدرسة البغدادية (ويحتمل التي كانت لدى المدرسة النظامية)[٣]، وانضمت كذلك إلى هذه الوحدة (وحدة الضريح والمدرسة والمكتبة) كتب الزمخشري[٤]، أما سبط ابن الجوزي (ت١٢٥٦) فوجد هنا معظم مؤلفات الجاحظ، فقد قام بمراقبة الكتب أحد مدرسي

---

(١) توجد مثلاً في مجموعة سانت بطرسبورغ في معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا مخطوطة ((الألفاظ الكتابية)) لعبد الرحمن بن عيسى الحمداني، دالة كتاب A١٩٩ المؤرخة بـ ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦-١٠٨٧م، وصحيفة أخيرة من مخطوطة أخرى مع الكولوفون، دالة كتاب C١٦٠١ المؤرخة بـ ٥٩٠هـ/ ١١٩٣-١١٩٤م.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم ٩، ١١٩..

(٣) ابن الجوزي، المنتظم ٩، ٨٩-٩٠، السبكي، ٣، ص ٢٣٠؛ قارن مع ميتس ١٩٧٣، ص ١٥١.

(٤) من المحتمل أنه قد نظم الوقف أثناء زيارته لبغداد، وبقي جل مجموعته في الجرجانية، حيث توفي سنة ١١٤٤.

هذه المدرسة[١]، ومؤخراً كانت هذه المؤسسة تهدم من جراء التنافس الشيعي - السني، ويُعاد بناؤها من جديد.

ترك الخطيب البغدادي (ت١٠٧٠) في الوقف كل مؤلفاته ومجموعاته الكتبية «ليستخدمها المسلمون»، فسلمها لأبي الفضل بن خيرون (ت١٠٩٥) الذي كان يسلمها للقراء لقاء رهينة، بعد ذلك انتقلت إلى أولاد صاحبها، لكنها احترقت في بيته[٢].

نسخ المحدث والأديب والفقيه محمد بن فتوح الحميدي (ت١٠٩٥) كثيراً من الكتب، وقدّم مجموعته للوقف[٣].

كما بنى أبو الفرج محمد بن عبيد الله بن الحسن البصري المعروف بابن البقاء (ت١١٠٥) قاضي القضاة البصري، وعالم لغوي واسع الاطلاع «بيت العلم» وزينه بشكل ممتاز ووضع فيه اثني عشر ألف مجلد للوقف[٤]، من الظاهر أن هذه هي المكتبة التي وصفها الحريري (ت١١٢٢) في مقاماته[٥]، والتي يصورونها في النمنمات التي تبين هذا النتاج[٦].

---

(١) Eche. 1967, 1967. P192-194.

(٢) نفس المؤلف، ص ١٩٥.

(٣) نفس المؤلف،.

(٤) نفس المؤلف، ص١٢٨-١٢٩.

(٥) ((حضرت دار كتبها التي هي منتدى المتأدبين، وملتقى القاطنين منهم والمتغربين)) (الحريري، المقامات، المجلد الأول، ص ٢٦-٢٧).

(٦) مثلاً في مخطوطات فرع سانت بطرسبورغ من معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا، C٢٣، الصحيفة ٧ب.

أسس المكتبة في البصرة كذلك الوزير أبو منصور بن شاهمردان حيث خزنت كتب قيمة جداً[١]، كلتا المكتبتين احترقتا ونهبتا – كمكتبة ابن سوار المذكورة أعلاه في القرن العاشر – سنة ١٠٩٠ لما استولى البدو على المدينة، ونهبوا ثرواتها بوحشية.

وفي القرن الثاني عشر أسست في بغداد جملة الأرصدة والمكتبات الوقفية.

أسس أبو الحسن منتخب بن عبد الله الدارمي المستظهري (ت١١١٥) الوقف لصالح المحدثين من بعض المخطوطات، ومن ضمنها نسخة «مسند» لأحمد بن حنبل[٢].

وبنى المدرسة الجيلية الفقيه الحنبلي أبو سعد المبارك بن علي المحرمي في حي باب الأزج، وسلم إليها مجموعته الغنية من الكتب، سميت هذه المدرسة باسم الصوفي المشهور عبد القادر الجيلاني (ت١١٦٥) الذي كان تلميذ المؤسس ووسع مبنى المدرسة، وسكن فيها، كما التحقت بها مجموعات المحدث والأديب أبي الفضل محمد بن ناصر السلمي (ت١١٥٥)، وأبي الحسن علي بن عساكر البطائحي (ت١١٧٦) عالم الحديث والنحو[٣].

ليس من المعروف وقت بناء رباط المأمونية والمدرسة التي لديه، يخبرون أنه احتوى على مؤلفين كثيري المجلدات للفقيه واللاهوتي الحنبلي ابن عقيل (ت١١١٩) الذي يربطون معه بداية ما يسمى بالنهضة السُنيّة، وقد اشتراها عبد الله بن المبارك النبال (ت١١٣٣) بالموارد التي كسبها من بيع بعض أملاكه وسلمها للوقف، أما سبط بن الجوزي فرأى حوالي سبعين مجلد لإحدى المؤلفات في المأمونية، كما وضع في هذا المستودع جزء من مجموعة عالم اللغة والحديث عبد الله بن أحمد بن الخشاب (ت١١٧١) الذي نسخ مؤلفات كثيرة وحصل على أكثر منها، وإذا مات عالم ما كان

(١) Eche.1967, 143.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ٩، ص ١٨٣؛ Eche، ١٩٦٧، ص ١٩٦.

(٣) Eche.1967, 180-181.

هو يسرع ليشتري كتبه التي خلفها، روى أنه اشترى مرة كتباً فأنفق عليها خمسمائة دينار بيوم واحد بعد أن باع جزءاً من بيته، وقد أوصى كتبه للوقف، لكن معظمها بيعت، ولم يلحق بالمأمونية إلا الجزء العاشر منها[١]. وترتبط مع هذه المكتبة إخبارية بأن أمينها قد أزال بالغسل مؤلف أبي العلاء المعري لكونه - برأيه - تَمَرُّدِيٌّ، وذلك لأن مؤلفه قد قلد فيه أسلوب القرآن[٢].

في عام ٥٥٧هـ/ ١١٦١م بدأ الوزير عون الدين بن هبيرة بن محمد ببناء مدرسة في حي باب البصرة، بعد ذلك سلم إلى هناك للوقف جزءاً من مجموعته الكتبية، وبعد وفاته أخذ خليفة الوزير يلاحق أولاده وأنصاره، أما كتبه فبيعت بالمزاد العلني[٣].

خلف الطبيب المسيحي الأصل موفق الملك أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء سعيد بن إبراهيم ابن التلميذ (ت١١٦٥) «نعماً كثيرة وأموالاً جزيلة وكتباً لا نظير لها في الجودة» فورث جميع ذلك ولده الطبيب، وبعد اغتياله نقلت الكتب على اثني عشر جملاً إلى دار المجد بن الصاحب[٤].

أفنى عالم النحو أبو محمد سعيد بن المبارك ابن الدهان البغدادي (١١٠١-١١٧٤) عمره في جمع الكتب، بيد أنها أتلفت بعد أن تشبعت بالرطوبة والنتن من المدبغة المجاورة لها لما أغرق الفيضان بيته في بغداد، بهذه الحالة أجلبت الكتب إلى الموصل إلى حيث انتقل صاحبها، وقد أفرط في تبخير كتبه بالآذن، الأمر الذي أضعف بصره لكثرة استنشاقه[٥].

---

(١) نفس المؤلف، ص ١٨٦-١٨٨.

(٢) ياقوت إرشاد، ٦، ص ٢٣٥؛Eche، ١٩٦٧، ص ١٨٨-١٨٩.

(٣) Eche.1967, 181-182.

(٤) ابن أبي أصيبعة،١، ص ٢٦٤.

(٥) ابن خلكان،١، ص ٢٠٩.

سلم إلى رباط الشونيزي الواقع في بغداد الغربية الصوفي أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الأصفهاني البلخي (كان على قيد الحياة سنة ١١٧٤) مجموعته من الكتب للوقف، وبعد ذلك استقر في هذا الرباط[١].

حدث ذات مرّة أنه نال الشريف أبو الحسن علي بن أحمد الزيدي (ت١١٨٠) ألف دينار من كل من الوزير والخليفة كهدية، فاشترى بيتاً في درب دينار الصغير، حيث بنى مسجداً، واشترى بالأموال التي بقيت كتباً وسلمها لوقف المسجد، وأضاف إليها الكثير من الكتب التي نسخها، والتي حصل عليها، وانضمت إلى مسجد الزيدي من يد المؤرخ ابن الأثير مجموعة كتبية أوصاها هاوي الكتب والرحالة والجغرافي المشهور ياقوت الحموي (ت١٢٢٩)، كما سلم لهذا الوقف عالم الحديث جعفر بن الأسعد بن أبي القاسم الخياط (ت١٢٣٤) مجموعته الكتبية، كما أنه نسخ بنفسه مؤلفات كثيرة، وكان أميناً لهذه المكتبة كغيرها من المكتبات العديدة ببغداد في تلك الآونة عفيف الدين عبد العزيز بن دلف الناسخ (ت ١٢٣٩)[٢].

أسس الأديبُ فخر الزمان أبو الفضل مسعود بن علي ابن الصوابي (ت١١٨٢) المدرسة الفخرية في حي المأمونية بالقرب من عقد المصطنع وزودها بكتب «في جميع أصناف العلم»[٣].

حصل عبد السلام بن عبد القادر بن أبي صالح جنكيدوست بن أبي عبد الله الجيلي البغدادي الركن على كتب كثيرة «في علوم الأوائل» ، وحدث ذات مرّة أنه في عهد حكم الخليفة الناصر (١١٨٠-١٢٢٥) قد قاموا بإحراق الكتب الفلسفية،

---

(١) Eche.1967, 189.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، المجلد الأول ٢٠٩، المجلد الثاني، ص ٥١٨؛ابن الأثير، المجلد الحاي عشر، ص ٣٠٥، ابن خلكان ،٢، ص٢١٤، Eche، ١٩٦٧، ص ١٨٥-١٨٦.

(٣) Eche.1967, 182.

وكانت من ضمنها كتب من مجموعة عبد السلام المذكور آنفاً الذي حبس في السجن وأطلق سراحه سنة ١١٩٣، وعاش بعد ذلك طويلاً، ألقى الخطبة الخرابية الفقيه الحنبلي عبيد الله ابن المارستانية (انظر عنه أدناه)، وقد أشهد يوسف السبتي الإسرائيلي – الذي راقب ما حدث – أنه تم إحراق المؤلفات الفلكية لابن الهيثم «كتاب الهيئة» مع نموذج «للدائرة التي مثّل بها الفلك»[١].

ينتمي رباط الحريم الطاهري إلى الأبنية الكثيرة التي شيّدها الخليفة الناصر، بدأ تشييده سنة ١١٩٤ على الشط الغربي من نهر دجلة، بعد ذلك أوردوا إلى هناك الكثير من المخطوطات البهية[٢]، وقد نسخ رئيس هذا الرباط فخر الدين أبو سعد المبارك بن يحيى بن المحرمي البغدادي (ت١٢٤٦) بيده المصاحف القرآنية وسلّمها لوقف أضرحة المدينة[٣].

عُين علي بن أحمد بن علي الحسن[٤]،أميناً لمكتبة رباط الزوزني سنة ١١٩٥ وفي عام ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م توفي علي بن محمد بن إبراهيم الزوزني أبو الحسن الذي نسب إليه رباط الزوزني مقابل جامع المنصورة[٥].

يخبر ابن الجوزي (ت١٢٠٠) أنه في سور الحلويين كانت توجد مكتبة غنية احتوت على اثني عشر ألف مجلد[٦].

---

(١) ابن القفطي، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٢) Eche، ١٩٦٧، ص ١٨٩-١٩٠، وقد أدار هذه المكتبة مؤخراً عفيف الدين الذي سبق ذكره..

(٣) Eche.1967, 195.

(٤) نفس المؤلف، ص ١٨٩.

(٥) ابن الأثير، المجلد العاشر، ص ٦.

(٦) Eche.1967, 197.

وقد أسس ابن الجوزي نفسه مدرسة الجوزية في حي درب دينار وسلم للوقف مخطوطات مؤلفاته إلى جانب كتب أخرى[١]، وكما هو معروف كان مؤلفاً مثمراً خارقاً للمألوف ومؤرخاً وفقيهاً.

كان الفقيه الحنبلي المذكور أعلاه عبيد الله بن علي بن نصر المعروف بابن المارستانية (١١٤٦-١٢٠٢) يدرس الأدب والطب والمنطق والفلسفة، كما نسخ بيده كتباً كثيرة، وحصل على مخطوطات موثوق بها (الأصول) لجملة من المؤلفات، أسس في حي درب الشاكرية مكتبة وقفية وسماها «دار العلم»، ولكن لما أعزل نصيره الوزير اتهموه بعدم أمانته في منصب راصد لأرصدة الوقفية لمستشفى «العضدي» فحبسوه، ووضعوه لفترة في مارستان بين المجانين (ومن هنا جاء لقبه)، أما مكتبته وما تحتويه من كتب وأملاك تابعة لها فباعوها، ومؤخراً بلغ هو رفاهيته من جديد وجمع عدداً كبيراً من الكتب[٢].

بدأ تشييد رباط المرزباني (أو المستجدّ) سنة ١٢٠٢، ويفيد الخبر غير المباشر عن المكتبة أن أمينها كان فخر الدين سليمان بن أحمد الذي استقر في بغداد سنة ١٢٤٨[٣].

وشُيّد رباط الخاتوني المكوّن من المدرسة والضريح من قبل الخليفة الناصر، وذلك إكراماً لأمه زمرد خاتون (ت١٢٠٢)، وهو الذي كلّف مبشّر بن أحمد الرازي بأن يختار كتباً من مكتبته بالقصر ويضعها في الوقف بالرباط الخاتوني السلجوقي، ومن الواضح أن هذا ما كان يقصده ياقوت الحموي حين كتب أنه رأى في «الوقف السلجوقي» ثلاثين مجلداً لنسخة غير كاملة من «كتاب الدول في التأريخ» لأبي الحسن علي بن عيسى الربعي[٤].

---

(١) نفس المؤلف، ص ١٨٢-١٨٣.

(٢) نفس المؤلف، ص ١٢٩-١٣٠.

(٣) نفس المؤلف، ص ١٨٩..

(٤) ابن القفطي، ص ٢٦٩؛ Eche، ١٩٦٧، ص ١٩٠، قام بإدارة تخزين المكتبة عفيف الدين الذي سبق ذكره.

سلم الوزير أبو المظفر علي بن علي بن روزبهار البغدادي (ت١٢٠٤) – الذي نسخ بيده مؤلفات كثيرة – مجموعته الكتبية إلى وقف مشهد موسى بن جعفر بشر أن لا تستعار الكتب للقراء؛ يخبر ابن النجار أنه رأى في هذا المشهد القرآن الكامل المكتوب بيد الملك المعظم علي بن أحمد الناصر (ت١٢١٥)، وكان موقع المشهد في المقبرة القريشية ويسمى الآن بالكاظمية[١].

جمع الطبيب أبو الخير بن أبي البقاء بن إبراهيم النصراني النيلي ابن العطار (ت١٢١٢)-الذي- كما قال عنه ابن القفطي (ت ١٢٤٨)- «يطاء في زمننا بساط الخليفة» - جمع ذلك الطبيب كتباً كثيرة في الحكمة، وما يتعلق بها، بحيث خرجت في الكثرة عن الحصر، واشتهر كمولع بالكتب وكان شحيحاً«وقيل إنه كان إذا وقعت في يده نسخة من كتاب وخشى المزايدة يخرمه لينقص قيمته ويبتاعه، على أن ابنه الطبيب كذلك» «لم يكن رشيداً ولا محمود الطريقة»، ففسد حاله واستنفذ أكثر ماله « وأذهب ذخائره»[٢].

تم بناء المدرسة لدى مشهد عبيد الله من قبل الخليفة الناصر الذي أمر باستيراد المصاحف والمخطوطات القيمة، دمر هذه المدرسة فيضان سنة ١٣٢٤، والذي ألحق أضرار بالكتب المقدرة بألفين دينار[٣].

تم بناء رباط الأخلطية – الذي كان أمين مكتبته عز الدين أحمد بن محمد – بأمر الخليفة مثل تربة عون ومعين[٤]، كما أنه سلم للوقف خمسمائة مجلد كذكرى عن عبده المعتق أبي اليُمن نجاح بن عبد الله الحبشي (١٢١٨)[٥].

---

(١) Eche.1967, P.194

(٢) ابن القفطي، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٣) Eche. 1967, P. 184

(٤) نفس المؤلف، ص١٩٠-١٩١ و ١٩٤.

(٥) نفس المؤلف، ص١٩٦-١٩٧.

أعطى الحسن بن محمد بن أبي سعيد الكاتب (ت١٢١٨) المثل الأخير لسلالة أدباء بني حمدان الجزء الأعظم من مجموعته الكتبية للوقف[١].

وعلى الضفة الغربية من نهر دجلة مقابل رباط البسطامي بدأ سنة ١٢٢٨ بناء مسجد المستجدّ المعروف بالقمرية، وألحقوا بالمكتبة التي لديه كتباً كثيرة[٢].

شُيّدت مدرسة فخمة مع مكتبة – تهدف إلى إخماد مجد النظامية والرفع من سمعة الخليفة – بجوار دار الخلافة بأمر المستنصر (١٢٢٦-١٢٤٢)، وعند إتمام بنائها سنة ١٢٣٣ أُقيم حفل افتتاحها، فأورد الخليفة إلى مكتبة مدرسته المستنصرية مجموعة غنية احتيج لنقلها إلى ١٦٠ رحل جمل، كانت من ضمنها كتب بخط ابن مقلة وابن البواب، وكتب قيمة في مختلف العلوم، وقدر أحد المؤلفين المتأخرين العدد الإجمالي للمخطوطات الموجودة في المستنصرية بثمانين ألف مجلد، وكتب مؤرخ القرن الرابع عشر «وخزانة كتبها عديمة المثل»[٣]. وطلب الخليفة من عفيف الدين عبد العزيز بن دلف وابنه أحمد أمين مكتبته الشخصي تنظيم الكتب وترتيبها حسب مواضيعها وعين شمس الدين علي بن الكتبي مديراً، بيد أنه لما زار المكتبة سنة ١٢٤٢ وجد فيها إخلالاً بالنظام، وكان مجد المستنصرية عالياً، وعدَّ ضيوف بغداد سواء من العلماء أو الحكام العظماء زيارتهم لها واجبة، بقيت أرصدتها تمتلئ على حساب التبرعات الطوعية والهبات إلى الأوقاف، ثمة بيانات عن بعض نسخ المخطوطات الرائعة والنادرة المخزونة بها، وقد سلمت المكتبة حتى بعد دمار بغداد سنة ١٢٥٨، وفي عام ١٢٩٦ زارها غازان خان، وعمل بمثابة أمناء المكتبة المستنصرية ابن الساعي وياقوت

---

(١) نفس المؤلف.

(٢) نفس المؤلف، ص١٨٦.

(٣) الذهبي، دول الإسلام، ٢، ص ١٣٦.

المستعصمي (ت١٢٩٨) وأخيراً ابن الفوطي (ت١٣٢٣) الذي حفظت أعماله بيانات حول تاريخ المكتبة ذاتها[١].

امتلك شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد الأربلي (ت١٢٣٩) والبغدادي أحمد بن جعفر بن أحمد الدبيثي المتوفى في العام نفسه الكثير من الكتب القيمة[٢].

أعاد الأمير أبو المظفر بتكين بن عبد الله الرومي الناصري (ت١٢٤٢) تشييد جامع البصرة الذي احترق ووضع فيه الكتب[٣]. ويروون عنه أنه بنى رباطين ووضع في واحد منهما مجموعة من الكتب وأسس أوقاف الكتب في مختلف المدارس[٤]، ويظهر أنّ هذا الخبر أيضاً يجب أنينسب إلى البصرة.

تم تأسيس المدرسة في شارع ابن رزق الله ببغداد الغربية من قبل أم الخليفة المستعصم (١٢٤٢-١٢٥٨)، وتشهد على ذلك المدونات الوقفية بمجلدين متفرقين بقيا من نسخة كثيرة المجلدات لتعليق أبي الحسن الماوردي «العيون والنكت»[٥]، وكتب عن عادة ذلك الخليفة الضعيف الإرادة الأخير في سلالة العباسيين ابن عصره الأصغر منه أنه «في بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة»[٦]، اقتنى مؤيد الدين أبو طالب محمد بن أحمد العلقمي (ت١٢٥٨) – الوزير المثقف وواسع الاطلاع لدى الخليفة نفسه- كتباً كثيرة نفيسة، وتذكر عناوين العديد منها في رثاء ابن

(١) Mackensen. 1932, P.297-299. Eche.1967. P.172-182.

(٢) ابن خلكان، ١، ص ٤٤٤؛ عب العزيز المنيع في مقالته الانتقادية في مجلة معهد المخطوطات العربية، ٢٦، ١٩٨٢، ص٨٢٢.

(٣) Eche.1967, P. 200.

(٤) نفس المؤلف، ١، ص١٩١، تنسب الإخبارية إلى بغداد.

(٥) نفس المؤلف، ص١٨٣.

(٦) ابن الطقطقي، ص٣٨٣.

أبي الحديد بمناسبة موته، كانت بين الهدايا التي أرسلها حاكم الموصل إلى الوزير بدر الدين لؤلؤ الكتب، وفي عام ١٢٤٦ أقام هو افتتاحاً حافلاً للمكتبة في مقره، وكما أخبر ابنه الذي أخبر عنه ابن الطقطقي اشتملت هذه المكتبة على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب، وكان يرعى المؤلفين الذين كانوا يهدون أعمالهم له، مثلاً صنف الصنعاني له معجماً كبيراً للغة العربية «العباب» أما ابن أبي الحديد فشرحاً على «نهج البلاغة» بعشرين مجلد[١].

في عام ١٢٥١ فتح عز الدين الحسين بن محمد النيار الرباط الذي شيّده بجوار بيته، وأسكن فيه الصوفية الذين كان يعيلهم على حسابه، وأسس مكتبة قيمة، وكان ينبغي أن يديرها الأكبر من بين القاطنين في الرباط[٢].

وكانت مجموعة كبيرة من الكتب بحوزة الفقيه الحنبلي المكفوف العينين زين الدين علي بن أحمد الآمدي (ت١٣١٣) المدرس الأسبق في المستنصرية، وكان يسترشد بشكل ممتاز بين كتبه، فيجد بسرعة الكتاب الذي يحتاجه بالتلمس ويعرف عدد الأسطر ويحدد الأماكن المكتوبة بحبر أحمر أو بخط آخر[٣].

عرفت المدسة البشيرية بذكرها، وذلك بصدد أن أمين مكتبتها فخر الدين إبراهيم بن حسن ابن البواب الكاتب قد نسخ مؤلفات كثيرة وأنهى في عام ١٣١٤ تصنيف فهرست مكتبته[٤].

---

(١) نفس المؤلف، ص٣٨٨-٣٨٩؛Eche، ١٩٦٧، ص١٩٨-١٩٩ (الرقم الدال على عدد المخطوطات في المكتبة خاطئ: سبعة آلاف مجلد)..

(٢) Eche.1967, P. 184.

(٣) الصفدي، نكت، ص ٢٠٦-٢٠٨؛Meyerhof، ١٩٢٩، ص٢٨٩-٢٩٠.

(٤) Eche.1967, P. 184.

سلم محمد بن محمد بن حارث (ت١٣٢٢) الفقيه واللغوي للوقت مخطوطات يقدر ثمنها بألف دينار، أما شمس الدين محمد بن داود الموصلي (ت١٣٢٧) فأسس أوقافاً في بغداد ودمشق من مجموعته الكتبية[١].

وأسس المدرسة المسعودية الخواجة مسعود بن سديد الدولة منصور (ت١٣٨٣) على غرار المستنصرية لأربعة مذاهب ملحقاً بها الكثير من الأرصدة الوقفية، وكان معظمها مكوناً من الكتب المكتوبة بيده بخط جميل[٢].

تعود معظم البيانات حول المجموعات الخاصة والمكتبات في العراق إلى المرحلة ما قبل المغولية، وقد وصف المؤرخون استيلاء جيوش هولاكو على بغداد سنة ١٢٥٨ بصورة ضئيلة جداً دون أن يخبروا شيئاً عن مصائر مكتبات المدينة، أما ابن خلدون فكان يتمتع فقط ببيانات التي سمعها من أشخاص آخرين، فأخبر: «واستولوا التتر من قصور الخلفاء وذخائرها على ما لا يبلغه الوصف ولا يحضره الضبط والعدّ وأُلقيت كتب العلم التي كانت تخزّن بخزائنهم جميعاً في دجلة، وكان شيئاً لا يعبر عنه مقابلة»[٣].

بيد أن جزءاً من المكتبات البغدادية والكتب قد سلمت (انظر أدناه عن مكتبات إيران) من المحتمل أن الكثير منها قد نُهب وأُخرج، ولا نعرف عن التقاليد المخطوطية والمكتبات العائدة إلى الحقبة الممتدة من القرن الرابع عشر إلى التاسع عشر (في عهد الخانات والسلالات التركمانية، والصفويين الإيرانيين، والنواب الأتراك) إلا القليل القليل، وربما أيضاً بسبب عدم إجراء أبحاث مفصلة بالمصادر، على أية حال فإنّ أساس رفاهية البلاد ألا وهو نظام الري قد تدهور، أما المركز الرئيسي للحياة الثقافية أي بغداد فتعرّضت غير مرة لدمار رهيب (سنة ١٤٠١ من قبل تيمورلنك، وفي عام

(١) نفس المؤلف، ص ١٩٧.

(٢) نفس المؤلف، ص ١٨٤.

(٣) ابن خلدون، العبر، ٣، ص ٥٣٨.

١٦٢١ من قبل الشاه عباس، وفي عام ١٦٣٨ من قبل السلطان مراد الرابع، وكذلك سنة ١٨٣١ وغيرها)، ومن جراء هذه الأحداث بالإضافة إلى العوامل الطبيعية انخفض عدد سكان المدينة إلى خمسين ألف نسمة، كما أبيدت الكثير من السلالات والأسر، فلم يعدّ هنالك أحد تقريباً من يستأنف التقاليد الثقافية[1]، في نيسان عام ١٨٠٢ احتل ونهب الوهابيون كربلاء آخذين معهم علاوة على كل شيء الكتب القيمة[2].

فلذا ليس من باب الدهشة أنه في العراق حالياً لا يوجد شيء شبيه بهذه المجموعات الخيالية الغنية من المخطوطات العربية التي تفيد عنها المصادر العائدة إلى القرون الوسطى، في حين أنّ المخطوطات العراقية من حيث المنشأ توجد في كل المخازن المعاصرة تقريباً. بدأ جرد ووصف المخطوطات الموجودة في البلاد منذ زمن ليس ببعيد، ففي نهاية القرن التاسع عشر سجلت ٤٧ مكتبة ببغداد وكركوك والموصل والسليمانية ٩١٣٣ مخطوطة، وفي العشرينات تم نشر فهرسين، واعتباراً من الخمسينات بدأت تصدر أعمال طائفة من العلماء العراقيين في مجال المخطوطات، في عام ١٩٧٢ بدأت تصدر مجلة المورد كمنظمة لدارسة التراث الكتابي.

في الوقت الراهن توجد أهم مخازن المخطوطات في بغداد والموصل والبصرة والنجف، وأكبرها في العاصمة، وهي مكتبة الأوقاف الموحدة التي انضمت إليها مخطوطات من جملة من المساجد والمدارس والأشخاص غير الرسميين (في كل رصيد أكثر من سبعة آلاف وحدة) ومكتبة مديرية الآثار العراقية (المتحف العراقي سابقاً) التي تسعى إلى تقيد كل المخطوطات الموجودة في البلاد، وأن تحصل عليها على قدر الإمكانية (دون أن تمس مجموعات الأوقاف والجامعات)، ولقد ازداد رصيدها بفضل

---

[1] انظر عن مصائب العراق في تلك الآونة: سيتون الُويد، ١٩٧٢، ص ١٨٤-٢٠٤.

[2] فاسيلييف، ١٩٦٧، ص١٤٤-١٤٧.

إيرادات جديدة فوصل العدد إلى ٢٣ ألف مجلد[١]، يمكن أن نحدد العدد الإجمالي للمخطوطات العربية في البلاد بأربعين ألف مجلد[٢].

سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين

إنَّ الإقليم السوري – الفلسطيني من أهم مناطق تطور الكتابة العربية منذ نشأتها وحتى وقتنا الحاضر، كانت دمشق والقدس وحلب وحمص وحماه وبيروت وطرابلس ونابلس وعسقلان وحيفا وغيرها من مدن هذا الإقليم مركزاً هاماً للتقاليد الكتابية المتواصلة (ليست الإسلامية فحسب، بل والمسيحية أيضاً، وكذلك العربية – اليهودية، والعربية – السامرية). احتشد في هذه المناطق الكثير من هواة الكتب، ومنها كانت المخطوطات العربية تنتشر في جميع أرجاء العالم، وفي الوقت الحاضر يعثر على المخطوطات السورية – الفلسطينية من حيث المنشأ في كل مكان وفي كل مخزن كبير.

فيما عدا المكتبة الأموية من أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن – التي اندثرت كلها بلا أثر – كان الجامع الأموي الشهير (أو الجامع الدمشقي) مكاناً هاماً لحفظ الكتب، وبقي التاريخ المبكر لمكتبة ذلك الجامع مجهولاً، وذلك لأنّ كل الكتب والوثائق المجمعة والمحفوظة في ذلك الجامع هلكت – على ما يبدو – إبان الحريق عام ١٠٦٨، لم يبق إلا مقطع (الجزء الثلاثون) من المصحف القرآني الكامل المكتوب على الرق مع علامات الأوقاف عليه عن تموز (يوليو) سنة ٩٢٢ عن التحاقه به وذلك من شخص يدعى عبد المنعم بن أحمد[٣]. بعد ذلك أُعيد إنشاء المسجد بالتدريج وأخذوا يسلمون للوقف مجموعات كتبية، يبدو أن أحمد بن علي بن الفضل بن الفرات (ت

(١) نقشبندي، ١٩٧٦، ص ٦٤.

(٢) ك. عواد، ١٩٤٨؛ محفوظ، ١٩٥٨؛ مكتبة المخطوطات العربية، ص ١٠٩-١٢٤، ٣٢٩-٣٣٢ (وفقاً لإحصاءات عام ١٩٧٤ وصل العدد إلى ثلاثين ألف مجلد).

(٣) ويوجد حالياً في متحف دمشق الوطني (Eche، ١٩٦٧، ص ١٣٦-١٣٧)

١١٠٠) كان الأول من أسس المكتبة في المسجد بعد الحريق[١]، سار على نهجه عالم النحو أبو الحسن علي بن طاهر بن جعفر السلمي (١٠٣٩-١١٠٦)[٢]، وأبو المعالي عبد الله بن عبد الكريم ابن الطويل (ت١١٢٠) الذي أقام الوقف لكتبه في الزاوية الغربية، وقد وصلت إلى هذه الزاوية من الوقف الأبكر مخطوطة واحدة ١٠٦٨[٣].

تعد شهادة غير مباشرة عن أهمية هذه المكتبة عند الأمير سيف الدولة الحمداني (٩٤٥-٩٦٧) بحلب التي تذكر بأن أمناء المكتبة عنده الأخوان الشاعران الخالديان، وهما: أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد، لا يذكر شيء عن مكتبة حلبية أخرى من القرنين العاشر والحادي عشر إلا بصدد إهلاكها، فقد أشرف على حفظ الكتب فيها الشيعي أبو الحسن ثابت بن أسلم بن عبد الوهاب الحلبي الذي أخذه الإسماعيليون إلى مصر وأعدموه سنة ١٠٦٧ بصفته نصيراً متهاوناً لدعوتهم أو حتى عدوها، أما المكتبة وما تحتويه من المجلدات التي يصل عددها إلى عشرة آلاف التي سُلّمتْ للوقف من قبل سيف الدولة وغيرها فأحرقوها[٤].

وكانت المكتبة الثانية من القرن الحادي عشر في المسجد الجامع بحلب، ولما كان أبو العلاء المعري على قيد الحياة (ت١٠٥٧) اندلع نزاع بين الشيعة والسنة نهبت إبانها هذه المكتبة، وبعد ذلك أُعيد إنشاؤها، وأسس وقف الكتب فيها أبو النجم هبة الله بن بديع وزير رضوان (١٠٩٥-١١١٣) وغيره، وأدار المكتبة الشاعر والعالم محمد بن نصر ابن القيسراني (١٠٨٤-١١٥٣)[٥].

---

(١) Eche.1967, P. 202.

(٢) السيوطي، بغية، ص ٣٣٩؛ Eche، ١٩٦٧، ص ٢٠٢-٢٠٣

(٣) Eche.1967, P. 203.

(٤) ك. عواد، ١٩٥١، ص ٢٥؛ Eche، ١٩٦٧، ص ١٣٠ و١٣١.

(٥) Eche.1967, P. 132-134.

ثمة بيانات مباشرة جداً عن «دار العلم» في القدس التي تأسست في مبنى كنيسة القديسة آنّا اليونانية الأسبقية، ولما استولى الصليبيون على المدينة سنة ١٠٩٨ أعادوا بناء الكنيسة ودمروا – على ما يبدو – «دار العلم»[١].

وقف الفقيه أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي (ت١٠٩٦) على بيت المقدس كتبه، حيث وجد ابن القفطي (ت ١٢٤٨) من بينها مؤلفاً مترجماً من اليونانية[٢]. وسمي مكان حفظ هذه المجموعة بالناصرية (باسم صاحبها)، ومن ثم بالغزالية.

ينوه في طرابلس في القرن الحادي عشر كذلك إلى المكتبات الوقفية (في وصف سيرة أبي العلاء المعري الذي زارها) و«دار العلم» التي أسسها سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد جلال الملك من السلالة العمارية المحلية. إنَّ القصة الحماسية التي رواها ابن الفرات عن مجاهدات هواة الكتب من العماريين في الحصول على المؤلفات وتكثيرها محرفة من حيث البيانات الإحصائية البالغة عن عدد من النساخين العاملين هناك (١٨٠)، والكتب التي تحتويها دار العلم (ثلاثة ملايين)، حتى لو كان عدد المجلدات أكثر من مئة ألف (حسب بيانات النويري) في مكتبة مثل هذه المدينة فهذا كثير، من المعروف أن الأديب الحسين بن بشر بن علي الطرابلسي كان أحد أمناء هذه المكتبة، وأدارها في مدة من الزمن القاضي أبو الفاضل بن أبي دوح، وانقطع وجود هذه المكتبة الغنية بعد استيلاء الصليبيين على المدينة سنة ١١٠٩[٣].

بالإضافة إلى كل هذه البيانات غير الوافرة كثيراً حول مكتبات المنطقة حتى بداية القرن الثاني عشر ينبغي الأخذ بالحسبان وجود المجموعات الكتبية الشخصية لدى الفقهاء وعلماء الحديث (الزهري والأوزاعي وغيرهما) وعلماء اللغة والأدباء

---

(١) نفس المؤلف، ص١٢١– ١٢٤.

(٢) ابن القفطي، ص ١٥؛ Eche، ١٩٦٧، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٣) Eche، ١٩٦٧، ص ١١٧– ١٢١؛ ابن خلكان، ٢، ص ١٢٨؛ وتقول الأسطورة أن الصليبيين قد أحرقوا المكتبة بعد أن قال لهم أحد القسيسين أنها لا تحتوي إلا على المصاحف القرآنية.

(مثلا من عداد مقربي سيف الدولة)، والأطباء وممثلي الأشراف، ويظهر أنَّ ظهور المكتبات عند الدروز يعود إلى بداية القرن الحادي عشر، وصارت تنمو المجموعات الكتبية باللغة العربية عند المسيحيين واليهود، بدءاً من منتصف القرن الثاني عشر اتصفت المنطقة بمرحلة «النهضة» السنية المصحوبة ببناء المدارس والمساجد والتكايا الصوفية والترب (الأضرحة)، وكلّها تقريباً احتوت على المجموعات الكتبية على الأغلب - الوقفية، وقد جمع المعلومات حولها يوسف العش، وسوف نلخصها هنا بإيجاز مع إضافة بعض البيانات حول المجموعات الخاصة.

تم تأسيس طائفة من المكتبات في عهد نور الدين محمود بن زنكي (١١١٨ - ١١٧٤) الذي يروون عنه أنه كان مولعاً بالقراءة، ويتمتع بخط جميل ويحصل على الكتب وينسخها، وقد شيد في حلب سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨-١١٤٩م المدرسة النورية ذلك الجامع الذي حوّل من كنيسة إلى مسجد عام ١١٢٣، وخزن فيها الكثير من الكتب، وانضمت إلى مكتبتها مجموعات الفقيه أبي بكر بن أحمد الظاهر (ت١١٥٨)، ومجموعات علماء الحديث كأبي بكر محمد بن شريح الرعيني (ت١١٦٧)، وأحمد بن محمد بن إبراهيم الجوهري (ت١٢٤٥) جامع الكتب والخطاط في عهد ابن شداد (ت١٢٨٥) إلا أنه لم يعد للمكتبة وجود[١]. شيد نور الدين في دمشق «دار الحديث» المسماة بالنورية، وعين أميناً للمكتبة، احُفِظَ بثلاثة مقاطع قرآنية مع العلامات الوقفية عليها من تلك المكتبة، انضمت إليها مجموعات شمس الدين أبي سعيد عبد الله بن أحمد بن الحلوانية (ت١٢٧٦) ومجموعات أخرى[٢]، كما أنه سلم كتبه إلى مستشفى النوري التي بناها ووضعها في كوتين مقابل المدخل إلى الصالة حيث درس الأطباء وأقاموا مشاراتهم الطبية[٣]. بدأ نور الدين ببناء المدرسة في دمشق التي أكمل بناءها الملك

---

(١) Eche، ١٩٦٧، ص ٢٤٢ - ٢٤٣؛ Elisseeff، ١٩٦٧، المجلد الثالث، ص ٧٥١-٧٧٩، ٩١٤-٩٣٥، والمدرسة لا تزال موجودة حتى اليوم وتسمى بالحلاوية.

(٢) Eche.1967, P. 211-214.

(٣) نفس المؤلف، ص ٢٣٥-٢٣٦؛ Elisseeff، ١٩٦٧، المجلد الثالث، ص٨٣٨-٨٤٣.

العادل، فلذا سُميت بالعادلية، انضمت إليها مجموعة قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري (ت١١٨٢)[١].

كانت هناك مكتبة صغيرة بدمشق في عهد ابن عساكر (ت١١٧٥) في المسجد الواقع في درب المدنيين[٢].

وكانت لدى أسامة بن مرشد (ت ١١٨٨) من آل منقذ حكام شيراز مجموعة كتبية مكوّنة من أربعة آلاف مجلد وقعت بأيدي الصليبيين وأُتلفت، وقد تحسر أسامة كثيراً من لفقدانه هذه المكتبة[٣].

في عهد صلاح الدين وسلطانه حدث انتقال الكتب وبناء مكتبات جديدة وترميم القديم منها؛ ولما دخل صلاح الدين حلب سنة ١١٨٣ نزل محمد بن عبد الرحمن المسعودي (١١٢٨-١١٨٨) «إلى جامع حلب وقعد في خزانة كتبها الوقف واختار منها جملة أخذها لم يمنعه منها مانع»، وقد رأى صاحب هذا الخبر: «وهو يحشوها في عدل» فحصل «كتباً كثيرة نفيسة غريبة»، وسلمها مؤخراً إلى وقف مكتبة دمشق الشميساطية[٤]، بعد أن طرد صلاح الدين الصليبيين من القدس سنة ١١٨٧ أسس المدرسة للشافعيين، ويحتمل مع المكتبة، مبنى الكنيسة حيث كان سابقاً «دار العلم»[٥].

---

(١) Eche.1967, P. 209.

(٢) نفس المؤلف، ص٢٠٨.

(٣) أسامة، كتاب الاعتبار، ص ٨٢؛ كراتشكوفسكي ١٩٤٥، المجلد الأول، ض ٧٣.

(٤) ابن خلكان، ١، ص ٥٢٠؛ Eche، ١٩٦٧، ص١٣٤.

(٤) Eche.1967, P. 123 -124

امتلك الطبيب المسيحي من دمشق موفق الدين أبو نصر أسعد بن أبي الفتح إلياس بن جرجس المطران (ت١١٩١)، مجموعة رائعة من الكتب وكتب عنه ابن أبي أصيبعة: «كانت لموفق الدين ابن المطران همّة عالية في تحصيل الكتب، حتى أنه مات وفي خزانته من الكتب الطبيعية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجاً عمّا استنسخه، وكانت له عناية بالغة في استنساخ الكتب وتحريرها، وكان في خدمته ثلاثة نسّاخ يكتبون له أبداً، ولهم منه الجامكية، والجراية، وكان من جملتهم جمال الدين المعروف بابن جمالة، وكان خطه منسوباً، وكتب ابن المطران أيضاً بخطه كتباً كثيرة، وقد رأيت عدّة منها، وهي في نهاية حسن الخط والصحة وحيث الإعراب، وكان كثير المطالعة للكتب لا يفتر من ذلك أكثر أوقاته، وأكثر الكتب التي كانت عنده توجد وقد صححها وأتقن تحريرها وعليها خطه بذلك، وبلغ من كثرة اعتنائه بالكتب وشغفه وغوايته فيها أنَّ الكثير من الكتب الصغار والمقالات المتفرقة في الطب – وهي في الأكثر توجد مجموعة في مجلد واحد – استنسخ كلاً منها بذاته في جزء صغير قطع نصف ثمن البغدادي بمسطرة واضحة، وكتب بخطه أيضاً عدة منها واجتمع عنده من تلك الأجزاء الصغار مجلدات كثيرة، فكان أبداً لا يفارق في كمه مجلداً يطالعه على باب السلطان أو أين توجه، وبعد وفاته بيعت جميع كتبه، وذلك أنه ما خلف ولداً.[وحدثني] الحكيم عمران الإسرائيلي أنه لما حضر بيع كتب ابن المطران وجدهم وقد أخرجوا من هذه الأجزاء الصغار ألوفاً كثيرة أكثرها بخط ابن الجمالة، وأن القاضي الفاضل بعث يستعرضها فبعثوا إليه خزانة صغيرة منها على ما وجدت كذلك فنظر فيها ثم ردها، فبلغت في المنادات ثلاثة آلاف درهم واشترى الحكيم عمر أكثرها، وقال لي بأنه حصل الاتفاق مع الورثة في بيعها وأنهم أطلقوا بيع كل جزء منها بدرهم»[1].

---

[1] «أقول: وكان ابن المطران كثير المروءة كريم النفس، ويهب لتلامذته الكتب ويحسن إليهم»، هذا ما أضافه مؤلف القصة ابن أبي أصيبعة (المجلد الثاني، ص ١٧٨-١٧٩)؛ كما انظر: Meyerhof، ١٩٢٩، ص٢٨٩.

أخذ الجامع الأموي اعتباراً من القرنين الثاني عشر والثالث عشر يُحاط بأبنية لاحقة، فتحوّل إلى مجموعة معمارية كبيرة أسست في مختلف أركانه حوالي عشر مكتبات منفردة.

وضع القاضي الأشرف أحمد بن عبد الرحيم بن علي البيساني (ت١٢٤٥) - ابن هاوي الكتب الشهير الفاضل (انظر أدناه في فصل عن مصر)، وجامع الكتب- مجموعَتَهُ في المقصورة المبنيّة من قبل والده في الجهة الشمالية وباتت تسمى بـ «المكتبة الفاضلية»، وقد سلم عالم الحديث تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني (ت ١٢٥٧) إليها معظم كتبه ومجموعاته المنسوخة بيده[١].

بنيت في نفس الجهة تربة الملك الأشرف الأيوبي (١١٨٢-١٢٣٧)، ووضع فيها كثيراً من الكتب الرائعة، وقد استعمل المكتبة الأشرفية هذه ابن خلكان، واستمر بقاؤها مؤخراً كذلك، قام بإدارتها القاضي الأعلى صدر الدين بن الآدمي (ت١٤١٦)[٢].

أسس شرف الدين محمد بن عروة الموصلي (ت١٢٢٣) مكتبته في مستودع المسجد المعاد بناؤه، فباتوا يسمونها بـ «مشهد (أو مقصورة) ابن عروة»، وسلّم عالم الهندسة أبو الفضل محمد بن عبد الكريم الحارسي (ت١٢٠٢)، كتبه التي أوقفها لتلك المقصورة وأضاف عليها مختصر «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني المكتوب بخطه في عشرة مجلدات صغيرة، ووجد ابن فضل الله العمري (المتوفي سنة ١٣٤٨) في هذا المشهد خزائناً كثيرة مليئة بالكتب الوقفية[٣].

---

(١) ابن خلكان،١، ص ٢٨٦ Eche،١٩٦٧، ص ٢٠٣- ٢٠٤.

(٢) رأى فيها ابن خلكان ديوان الشاعر من القرنين الحادي عشر والثاني عشر أبي السعادة أسعد بن يحيى السلمي السنجاري في مجلد واحد كبير (١، ص٦٩)، وديوان ابن سكرة الواسطي (٢، ص١٤)؛ Eche،١٩٦٧، ص ٢٠٤.

(٣) ابن أبي أصيبعة، ٢، ص١٩١؛ Eche،١٩٦٧، ص ٢٠٤-٢٠٥.

كانت في الصالة الرئيسة من المسجد في حرم حلقة الحنبليين خزانتان من الكتب؛ وكانت لدى الملك المحسن أحمد بن صلاح الدين غرفة بجوار الفاضلية فألحقت بها مجموعة المحدث تقي الدين أبي طاهر إسماعيل بن عبد الله الأنماطي (ت١٢٢١) الذي حصل ونسخ عدداً لا يُستهان به من الكتب[١].

أضحت المقصورة في الزاوية الشمالية الشرقية مكاناً لخزن المجموعة القيمة للشيخ تاج الدين زيد بن الحسن الكندي (ت١٢١٦) التي سلمها للوقف عبده المعتق، ويكتب عند اصطفاءكتبها مختلف المؤلفين، ومن ضمنهم ياقوت الحموي، بيد أنه اكتسبها بطريقة غير قانونية، فحين كان يصحب عز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين إلى مصر أخذ من مكتبات تلك المنطقة أكثر الكتب قيمة ثم عاد إلى دمشق حيث استقر[٢]، احتوى فهرست المالك الأسبق- الذي شاهده أبو شامة -٧٦١ مجلد ومن بينها ١٢٣ «في مجال علوم الأولين» كالطب وغيره، بعد ذلك سرعان ما تشتت جزء من هذه المجموعة وتم بيع كتبٍ كثيرة، لكن ابن فضل الله العمري رأى في هذه المقصورة مكتبة، كما شاهد في الزاوية الشرقية في مشهد أبي بكر العديد من الخزائن كتباً وقفية فيها[٣]، أوصى محمد بن عمر بن عبد الكريم الشافعي (ت١٢٤٥) بخزانة كاملة من الكتب وضعت مقابل «محراب الصحابة»[٤].

جمعت المجموعات المختلفة المتبعثرة في مختلف أرجاء ذلك المسجد الجامع في «مشهد ابن عروة» في عهد الملك المعظم (ت١٢٥٨)، واستمر نقلها مؤخراً أيضاً، وفي القرن الذي بعده أسس هناك الحسن بن محمد بن إسماعيل بن الطحان (١٣٤٦)، وقفاً

---

(١) Eche.1967, P. 205.

(٢) ياقوت، إرشاد، ١، ص٢٢٣؛ خلكان، ١، ص١٩٦.

(٣) Eche.1967, P. 206-208.

(٤) نفس المؤلف، ص ٢٠٧-٢٠٨.

للكتب وهكذا شكلت الإيرادات المختلفة إلى الجامع الأموي أكثر من عشرين خزانة أو أكثر من خمسة آلاف مجلد.

تشكلت لدى الخانكاه الشميساطية الكبيرة بدمشق مكتبة بأرصدة كبيرة من الكتب، انضمّت إليها مجموعة محمد بن عبد الرحمن المسعودي البنجدهي التي أخذ جزء منها – كما قيل أعلاه – من مسجد حلب، ومجموعة الصوفي صفي الدين محمود بن محمد الأرموي القرافي التي ضمت مسودة تحريره لمعجم الأزهري «تهذيب التهذيب» بخمسة مجلدات، وكتب العلاء صلاح الدين أبي سعيد خليل الكيكلدلي (ت١٣٥٩). احتوت هذه المكتبة على مخطوطات طائفة من مؤلفات كثيرة المجلدات مثل «التذكرة الكندية» بخمسين مجلداً تقريباً، وأسماء بعض أمناء المكتبة، معروفٌ وكان أخرهم علي بن سيف بن علي الأبياري (١١٤١١) الأديب وعالم اللغة الذي جمع مجموعة حسنة نهبت إبان غزوة تيمورلنك[١].

أسس المدرسة في حلب الملك الظاهر الأيوبي لأبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي (ت١٢١٤)، وكانت هنالك غرف للكتب، وقد سلم شقيق المؤسس إلى ذلك الوقف مجموعة كبيرة من المؤلفات الرئيسة[٢].

أسس المدرسة الأشرفية الشافعية الملك الأشرف الأيوبي في البيت الذي اشتراه هو خصيصاً بدمشق وأمر بإيراد الكثير من الكتب القيمة، ويقدم السبكي بيانات حول الكتب المخزنة فيها ويسرد بنفسه وثيقة الوقف الشيقة جداً، فقد فرض على الناظر إنفاق موارد الوقف على تصليح وتغليف ومقابلة تحسين الكتب، وعلى منح مواد الكتابة وركائز للكتب لمن ينسخ في الصالة مؤلفات في مجال الحديث والتفسير، ويسجل بالإملاء النصوص والإجازات ليس لأجل أغراضه، وإنما سعياً وراء

(١) السيوطي، بغية، ص ٢٢٨؛ Eche، ١٩٦٧، ص ٢٣٦-٢٣٩.

(٢) Eche،1967, P. 243-244.

المعارف، وشراء الكتب واستئجار النساخين، والتحقت بهذه المدرسة مجموعات ابن الصلاح بن عبد الرحمن (ت١٢٤٥)، ومحيي الدين النووي (ت١٢٧٧) الذي كان يشتري الكتب منفقاً عليها كل أجوره، وأمين الدين أحمد بن عبد الله الأشتري (ت١٢٨١)، والشهاب بن مزهر محمد بن عبد الخالص الأنصاري (ت١٢٩٢). نكبت المدرسة سنة ١٢٩٩ إبان دمار دمشق من قبل هولاكو، ولكن سرعان ما أعاد إنشاؤها الشيخ زين الدين الفاروقي، بعدئذ سلم للوقف كتبه عالم اللاهوت الشافعي الأرموي (ت١٣١٥)، وجلال الدين محمد بن عبد الرحمن العجلي (ت١٣٣٨)، وصفي الدين جوهر الظاهري التفليسي، أسماء طائفة أمناء المكتبة، مثلاً أبو علي الحسن بن محمد بن إسماعيل القليوبي (ت١٢٣٥) الذي نسخ بيده ألفي مجلد وغير ذلك[1].

أضحت أغنى مكتبات دمشق المكتبة لدى المدرسة الضيائية التي شيدها ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت١٢٤٥) عند حضيض جبل قاسيون، لقد نسخ عالم الحديث هذا كتباً كثيرة بنفسه، وحاز على كمية كبيرة من المخطوطات وسلمها للوقف في مدرسته الخاصة بعلم الحديث، وقد وصفت فيها مجموعات كل من عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي (ت١٢٠٣)، وموفق الدين عبد الله بن محمد بن قدامة المقدسي (ت١٢٢٣)، وبهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي (ت١٢٢٦) وعز الدين بن عمر بن محمد بن منصور ابن الحاجب (ت١٢٣٢)، وأحمد بن عيسى بن قدامة (ت١٢٤٥) وشمس الدين محمد بن عبد المنعم بن حامل (ت١٢٧٢)، وشمس الدين محمد بن عبد الهادي المقدسي (ت١٢٧٦)، وعلي بن مسعود بن نفيس بن عبد الله الموصلي سنة ١٢٦٩، وفي عام ١٢٩٩ (تغلب هولاكو) تعرضت الضيائية للنكبة، ولكنها لم تهلك، فقد اعتنى بها على أحسن وجه أمناؤها الوارثون من أسرة بني المحبإلا أنها، بدأت تندثر بعد الدمار الذي أحدثه في دمشق تيمورلنك سنة ١٤٠٠، وعند ذلك قام عدد من الوجهاء والعلماء أمثال ابن حجر العسقلاني وغيره – بأخراج منها عدّة

(١) السبكي، ٣، ص ٧٦، ١١٥؛ Eche، ١٩٦٧، ص ٢١٤-٢١٧.

رحال- واختار القاضي ناصر الدين ابن زريق (ت١٤٩٤) أكثر قيمة مما بقي، وبفضل مجاهدات محمد بن طولون وأمين المكتبة موسى الكتاني الحنبلي تمت استعادة بعض المسروقات إليها في القرن السادس عشر، وبعد ذلك تم نقل المكتبة إلى المدرسة العمرية وأدمجوها مع مكتبتها، ومؤخراً وفي سنة ١٨٧٩ دمجت معالمكتبة الظاهرية حيث تخزن حتى الوقت الحالي، وقد استكشف يوسف العش خمسين مجلداً و ٤٨٦ كراسة سلمت بعد هلاك الضيائية السابقة، وحدد أسماء عشرات الناس الذين سلموا الكتب إلى وقف هذه المكتبة[١].

مما أثار الاهتمام أن شيخ الأطباء المهذب عبد الرحمن بن علي الدحور (١٢٣٠) حول بيته بدمشق إلى مدرسة طبية سنة ١٢٢٤، وقد سلم المجموعة التي تحوي أكثر من مئة كتاب في الطب وغيره من العلوم - بما فيها المنسخة بيده- إلى وقف هذه المدرسة كي يستفيد منها الأطباء[٢]، وتجمع عند الطبيب من أسرة الأطباء اليهودية أوحد الدين عمران بن صدقة (ت١٢٣٠) كتباً بكمية لا تكاد تكون عند شخص آخر[٣].

عدا ذلك برزت في دمشق في القرن الثالث عشر المكتبات الوقفية والمجموعات الكتبية في كل من المدرسة الحنفية التابعة لشبل الدولة كافور بن عبد الله الحسامي (ت ١٢٢٦)[٤]، والمدرسة الشافعية للتاجر ابن رواحة (ت١٢٢٦) إلى حيث انضمت مجموعة برهان الدين السويدي (ت ١٢٥٨)، وضريح قرب جبل قاسيون الذي بناه المجد البهنسي وزير الملك الأشرف إلى حيث أوصى بكتبه، وعند زين الدين محمد بن

---

(١) Eche.1967, P. 217-235.

(٢) نفس المؤلف، ٣، ص ٢٣٦.

(٣) ابن أبي أصيبعة، ٢، ص ٢١٣؛ وكما قيل أعلاه إنه قد حصل على كتب ابن المطران.

(٤) احتفظ في المكتبة الظاهرية المجلد الحادي عشر من ((حلية الأولياء))، لأبي نعيم الأصفهاني المؤرخ بسنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م المنسخ في هذه المدرسة (Eche،١٩٦٧، ص ٢٠٩.)

(٤) Eche.1967, P. 210, 239, 241.

محمد الكوفاني (المتوفى بعد ١٢٤٢، والمدرسة الشافعية لنجم الدين أبي محمد عبد الله بن أبي محمد البدرائي (١١٩٧-١٢٥٧) الذي أشرف على مكتبتها مؤخراً جمال الدين محمد بن علي بن صالح المصري (ت ١٣٠١)، وعند المحدث أبي إسحق إبراهيم بن عيسى بن يوسف المرادي الأندلسي (ت١٢٦٨) الذي كلّف ابن الصائغ علاء الدين محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق[1] بمجموعته القيّمة، وعند التاجر والمؤرخ أبي بكر محفوظ بن معتوق ابن البزوري الذي وقف كتبه في الضريح قرب حضيض جبل قاسيون[2].

كانت في حلب كذلك في القرن الثالث عشر مجموعات من الكتب في كل من المدرسة السلطانية ومدرسة شرف الدين عبد الرحمن العجمي (ت١٢٥٩)[3]، وغيرها[4]، وأوصى القاضي الأكرم جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيباني القفطي (١١٧٢-١٢٤٨) لسلطان حلب بمكتبته حيث انضمت كذلك مؤلفات من تأليفه إليها[5].

أقام الملك المعظّم (ت١٢٥٨) بالقدس زاوية بالناصرية (انظر أعلاه)، وأسس المجموعة التي تضم «إصلاح المنطق» لابن السكيت، أما مجد الدين الحنبلي (ت١٥٢٠) فشاهد فيها كراسة منسخة من قبل ابن الخشاب (ت١١٧١) بتأريخ وقفي عليه ألا وهو ٦١٦هـ/ ١٢١٤م[6].

---

(١) نفس المؤلف، ص ٢٣٩-٢٤٠، يتم ذكر مكتبة ابن البزوري من بين المكتبات المنهوبة سنة ١٢٩٩ (نفس المؤلف، ص٢٢٩)، ومع ذلك فقد احتفظت بعض مخطوطاتها في المكتبة الظاهرية.

(٣) Eche،١٩٦٧، ص ٢٤٤-٢٤٥، وكان هنالك ملف فحواه قائمة كتبه الذي ضاع سنة ١٢٥٩ إبان هجوم المغول علية المدينة...

(٤) مثلاً وسم ابن العديم (ت١٢٦١) النسخة الوقفية من ((كتاب البدائع)) بسبعة مجلدات النسخة من قبل شمس الدين نجا بن سعد في القرن الثاني عشر (Eche،١٩٦٧، ص ٢٤٥).

(٥) انظر: Lippert، ١٩٠٣، ص ١٠-١١.

(٦) Eche.1967, P. 249.

تنسب إلى القرن الرابع عشر بيانات حول مجموعات الكتب بدمشق: للمحدث عماد الدين أبي المعالي محمد بن علي النابلسي الدمشقي (ت١٣١١)، والتاجر شمس الدين محمد بن داود بن محمد الموصلي (ت١٣٢٧)، وعالم الحديث والمؤرخ علم الدين القاسم بن محمد البرزالي الشافعي (ت١٣٢٨)، والفقيه شهاب الدين داود بن سليمان الكوراني (ت١٣٣٣) في المدرسة السيفية التي أسسها سيف الدين بن بيكتمير (ت١٢٢٦)، وشيخ الإسلام هبة الله بن عبد الرحيم البارزي الشافعي (ت١٣٣٧) الذي قُدِّرت كتبه بمئة ألف درهم، وفي المدرسة الجوزية، الفقيه واللغوي وهاوي الكتب محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية (ت١٣٥٠)، وحمزة بن موسى بن شيخ السلامة (ت١٣٦٧) في الضريح الذي بناه في حي الصالحية، وإبراهيم بن عيسى الحلبي الشافعي (ت١٣٨٤)، وفي المدرسة الناصرية، وفي ضريح خواجة أبي بكر بن العيني[١].

في عام ١٣٠١ قتل شرف الدين علي بن محمد اليونيني في مكتبة بعلبك، وفي عام ١٣١٧ أدرك الفيضان في هذه المدينة المسجد حيث أتلف على أثره الكثير من الكتب في مجال الحديث والمصاحف القرآنية[٢].

بنى المؤرخ وحاكم مدينة حماه أبو الفدا (١٢٧٣-١٣٣١) في مدينته مسجداً ووضع فيه مجموعة «لا نظير لها» من الكتب في كافة العلوم، وقد بذل جهوداً هائلة لجمعها من جميع البلدان، فاحتوت مجموعته على سبعة آلاف مجلد، ولما كان هو على فراش الموت وزّع كتباً كثيرة، وسلم بعض الكتب للوقف، وينسب إلى عهد حكمه خبر تشييد خانكاه في حماه سنة ١٣٢٤ حيث أرسل الكتب كهدية[٣].

(١) نفس المؤلف، ص ٢١٠-٢١١، ٢٤٠-٢٤٢.

(٢) نفس المؤلف، ص ٢٤٨.

(٣) نفس المؤلف.

وفي القرن الرابع عشر في حلب حوّل الأمير صلاح الدين يوسف الداودار الناصري سنة ١٣٣٦ بيته إلى مدرسة لأربعة مذاهب، ووضع فيها مجموعة قيمة؛ وفي عام ١٣٦٥ بنى منكلي بغا مسجداً باسمه وأسس فيه وقف الكتب القيمة، ثمة خبر عن المجموعة في المدرسة لدى مسجد السفاحية (بني وأسس وقف الكتب أبو العباس أحمد سبط بن السفاح الأشرف، أما ابنه فباع الكتب)[١].

وأخيراً سنقدم بعض الإخباريات عن المعرة: فقد نسخ بعض مؤلفات أبي العلاء المعري حفيدُ أخيه منافر بن زيد بن عبد الواحد المعري، وأسس منها وقفاً في هذه المدينة؛ وسلم إبراهيم بن عيسى بن عبد السلام (ت١٣٣٨) مجموعته إلى الزاوية وسائر الأماكن بالمعرة[٢].

في الوقت الراهن تخزن معظم المخطوطات في سوريا بمكتبتين وهما: الظاهرية بدمشق حيث يحصى عددها إحدى عشر ألف مجلد، والأشرفية (أو مكتبة الأوقاف) بحلب حيث يوجد ٥٥٦٠ مجلداً، عدا ذلك توجد في سائر مدن الجمهورية العربية السورية طائفة من المجموعات الخاصة، وتُقَدَّر المخطوطات المسيحية- العربية في البلاد - على ما يبدو - إلى عشرين ألف.

توجد المخازن الرئيسة للمخطوطات في الجمهورية اللبنانية ببيروت: (المكتبة اللبنانية) (حوالي ألف مخطوطة ووثيقة عربية)، ومكتبة جامعة القديس يوسف (١٣٨٣ وحدة وفقاً للفهرست المنشور)، ومكتبة الجامعة الأمريكية (٩٨٢ وحدة في عام ١٩٥٥)، يضم مجموعات الكثير من المؤسسات المتبعثرة في البلاد والأديرة وأصحاب المكتبات الخاصة، منها فهرست ج. نصر الله (صدر في ١٩٥٨-١٩٧٠، وفي

---

(١) نفس المؤلف، ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٢) ابن خلدون، العبر، ٣، ص ٥٣٨.

المجلدات ١-٣ تم جرد ١٣٣١ وحدة) وتخزّن في البلاد إجمالاً ٥٥٠٠ مخطوطة عربية (وحوالي نصفها مسيحية، أما عدد المخطوطات الدرزية فغير معروف).

والبيانات المطبوعة حول المخطوطات العربية في المملكة الأردنية الهاشمية ضئيلة جداً، تم جرد ٣٣٧ مخطوطة ومعظمها مسيحية.

وتكاد تكون معدومة البيانات تلك المخطوطات العربية التي بقيت على الأراضي الفلسطينية أو أن التوصل إليها صعب[1].

أقطار شبه الجزيرة العربية
(المملكة العربية السعودية، الكويت، قطر، البحرين، سلطنة عمان، الإمارات العربية المتحدة، اليمن

غدا موطنا الأدب العربي والإسلام مكة والمدينة مركزان رئيسان، حيث احتشدت المخطوطات، فقد عاش وعمل فيها العلماء والشعراء فترة طويلة، وكان بعض الحجاج يستقرون هناك في خريف عمرهم رغبة في الابتعاد عن الأعمال، فيقضون نهارهم في نسخ الكتب، كما كان رجال الدولة والأشخاص غير الرسميون من مختلف البلدان والمراحل يبعثون إلى مسجد الحرام والكعبة بمكة ومسجد النبي بالمدينة المخطوطات بمثابة الهبات، وليس المصاحف القرآنية فحسب، بل ومؤلفات أخرى، وبالعادة على شكل أوقاف، بيد أن هاتين المدينتين لم تستطيعا أن تحافظا على كنوزهما، ففي غضون الحروب الأهلية في القرون الأولى الإسلامية وغزوات القرامطة في القرن التاسع الميلادي تعرضت مكة والمدينة للدمار والحرائق والاجتياحات غير مرة، وإبان ذلك كانت تهلك مع المكتبات، وما تحتويه من مخطوطات، وأدّى كذلك إلى الاجتياح الدوري لهذين المركزين المبجلين تنافس الحكام المسلمين على الاستيلاء

(١) انظر بالتفصيل: مكتبة المخطوطات العربية، ص ٩٣، ١٠٧-١٠٩، ١٧٩-١٨٥، ٢١٥، ٢٢٠-٢٢٠، ٣٢٩، ٣٣٤، ٣٣٦-٣٣٧.

عليهما، وكذلك غزوات القبائل البدوية المجاورة الطامعة بالغنائم، كما أشير إلى هلاك المخطوطات إثر حادث صدفي، ففي عام ١٢٣٧ اندلع الحريق في المكتبة المدنية على أثر لهب الشمعة التي سقطت فاحترقت المكتبة بأسرها[١].

غدت مدن اليمن مراكزاً أخرى للثقافة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية، ولكن غير معروف منذ أية فترة؛ في القرنين الثامن والتاسع جاء إلى هناك جماع الحديث محمد بن إدريس الشافعي، ومعمر بن راشد، وابن حنبل وغيرهم، لكنهم كانوا يدوّنون الروايات الشفهية الشافعية في القرن التاسع؛ وأظهر نشاط الهمذاني في القرن العاشر ولادة علم تدوين التاريخ المحلي والوصف الجغرافي للجزيرة العربية، أما تسرب الزيديين فأدّى إلى ظهور المواد العلمية الدينيّة؛ وكانت عاقبة الدعوة الإسماعيلية في القرن الحادي عشر هو إيراد المؤلفات لهذه الطائفة من مصر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وأدّى ترسيخ مواقع السُنّيين بعد الفتح الأيوبي في نهاية القرن الثاني عشر إلى تدفق المخطوطات السنيّة من سوريا ومصر، فقد أشار المقدسي[٢] في القرن العاشر أنه كانت الجلود عالية الكيفية بصعدة، وكذلك نوّه إلى حب اليمنيين للكتب المغلفة، لم تتم الإشارة إلى المكتبات اليمنية الكبيرة في القرون الوسطى، ولو أنه في زبيد وصنعاء عمل المؤلفون المشهورون الذين استندوا دون شك على المصادر الكتابية، حتى الآن لم يتم اختطاف بيانات حول مجموعات صغيرة من المخطوطات الماضية، مثلاً تم تأسيس المكتبة الوقفية بتعز سنة ١٤٨٩، ومنذ ذاك الحين تحتفظ على المؤلِّف المكتوب بخط مؤلِّفه الريمي (ت١٤٨٧) في مجال الفقه ومن الجائز مخطوطات أخرى كذلك[٣].

في العصر الحديث ساهمت الحركة الوهابية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على انخفاض عدد المخطوطات في شبه الجزيرة العربية، إذ أن الحركة كانت

---

(1) Arnold, Grohmann.1929, 38.

(٢) المقدسي، ص ٨٧، ١٠٠.

(٣) المورد، ١٩٧٦، ص ١٠١.

مصحوبة بإهلاك عمدي للمؤلفات «الهرطوقية» بما فيها المناطق اليمنية والحضرمية التي استولى الوهابيون عليها، بيد أن كمية من المخطوطات قد أخرجها من الجزيرة العربية النواب والموظفون الأتراك والمصريون والتي مازالت موجودة حالياً في استنبول والقاهرة.

إنّ الوضع الراهن للمجموعات المخطوطة في بلدان شبه الجزيرة العربية لا تخضع للوصف الواضح والكامل لعدم كفاية المواد المنشورة.

تخزن المخطوطات في السعودية في الرياض وجدة ومكة وبريدة والإحساء وشقراء وعنيزة، توجد أكبر المجموعات في مكتبة جامعة الرياض (حوالي ثلاثة آلاف) وفي مكتبة المسجد الحرام بمكة (حوالي ثلاثة آلاف)، وفي مكتبة عارف حكمت (حوالي أربعة آلاف مخطوطة عربية)، والمكتبة العمومية (٣٨٠٠)، وفي المدينة كذلك عدّة مكتبات عمومية أخرى ومجموعات خاصة، يمكن أن نقدر بصورة تقريبية العدد الإجمالي للمخطوطات في البلاد بـ١٨-٢٠ ألف[١].

في حقيقة الأمر لم تتم حتى الآن فهرسة المخطوطات في الجمهورية اليمنية، وفي عام ١٩٢٥ تم إصدار قائمة الكتب الموجودة في الجامع الرئيسي بمدينة صنعاء الذي بات كذلك مكتبة حكومية، وفي عام ١٩٩٥، وصف فؤاد السيد في مقاله[٢] أربع مكتبات عمومية بصنعاء ومكتبات تعز وزبيد وجبلة وإب وخوص، وكذلك عدد ست عشرة مجموعة خاصة في مختلف المدن، حسب معطيات عام ١٩٧٦ يصل عدد المخطوطات في مكتبة العاصمة المذكورة إلى ٧٢٠٠ مجلد، أما عددها الإجمالي فيزيد بالتأكيد عن عشرة آلاف[٣].

(١) نفس المصدر، ص ٤٦-٥١؛ مكتبة المخطوطات العربية، ص ٢٠٩-٢١٤، ٣٣٦.

(٢) فؤاد السيد، ١٩٥٥.

(٣) المورد، ١٩٧٦ص ١٠٠-١٠٥؛ مكتبة المخطوطات العربية، ص ١٧٤-٣٣٤، ١٧٨.

يحتوي المنشور الوحيد عن دولة قطر على قائمة موجزة من ٣٧٥ مخطوطة عربية في مكتبة قطر[١]، وظهرت إخباريات موجزة أنه توجد في الكويت ٢٤٧ مخطوطة[٢]، وفي البحرين حوالي العشرين[٣]، وفي عمان طائفة من مجموعات المخطوطات الاباضية[٤].

تمكن مؤلف هذه السطور أن يدرس مجموعات المخطوطات في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بنفسه في نيسان وأيار من عام ١٩٧٤، وذلك في غضون رحلته إلى هناك بصحبة ب.أ. غريازنيفيتش، وبالتحديد تم البحث من بين المحافظات الست – التي تنقسم إليها الجمهورية – في المحافظة الخامسة الأكثر غنى بالمخطوطات التي تطابق تقريباً الإقليم التاريخي حضرموت حسب مراقبات البعثة والمدونات المحررة، وعند دراسة المنشورات الموجودة يمكننا القول بأن المخطوطات تخزن في المكتبات الوقفية الخاصة في كل من تريم والمكلاّ وغيرها، وتضم إجمالاً حوالي أربعة آلاف مجلد، لا شك أنه في سائر محافظات الجمهورية، وفي العاصمة عدن سوف تظهر مخطوطات أخرى، وتنقسم هذه المخطوطات من حيث منشؤها ومكان نسخها إلى مجموعتين وهما: الحضرمية والآتية من أماكن أخر؛ تشكل المحلية منها الأكثرية والقليل منها تعود إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، أما الباقية فتنسب إلى الحقبة الواقعة ما بين القرن الثامن عشر والعشرين؛ وتوجد من بين المستوردة مخطوطات القرنين الثالث عشر والرابع عشر وأُرّختِ العشرات منها بالقرن الخامس عشر، أما الباقية فأكثر تأخراً؛ ويحتوي الجزء الأكثر متعة من هذه المجموعات مؤلفات في مجال الأدب

---

(١) صقر الأعظمي، ١٩٦٣-١٩٦٤؛ مكتبة المخطوطات العربية، ص ١٩٧٩.

(٢) المورد، ١٩٧٦ ص ٧٣-٧٤.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٦-٣٨.

(٤) مكتبة المخطوطات العربية، ص ٣٣٥، العدد ١٦١٥.

التاريخي- السيري والأخلاقي - القانوني والشعري غير المعروفة تقريباً في حضرموت[١].

على الرغم من أن شبه الجزيرة العربية كانت صعبة المنال للأوروبيين، كان من الصعب إخراج المخطوطات منها، أمّا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلى حد ما، فقد أورد ك. لاندبيرغ وإ.غلازير وأيدريآنس وج. كابروتّي وغ. أنسالدي وإ. روسّي إلى أوروبا - وبالأخص إلى إيطاليا والأراضي المنخفضة (نيدرلاند) أكثر من ألفي مخطوطة[٢].

مصر

لقد تركز جلّ النشاط السياسي - الإداري والحياة الثقافية في هذه البلاد في عهد العرب في فسطاط القاهرة الغنية بمكتباتها، ترتبط التذكيرات عن المجموعات الكتبية الخاصة الأولى هنا مع أسماء علماء الحديث والفقهاء من القرنين الثامن والتاسع، ومن ضمنهم عبد الله بن لهيعة (ت٧٩٠)، والليث بن سعد (٧٩١)، وعبد الله بن وهب (ت٨١٢)، وأشهب بن عبد العزيز (ت٨١٩)، ومحمد بن إدريس الشافعي (ت٨٢٠)، وكذلك تلاميذهم وأتباعهم[٣]، استخدمت في بادئ الأمر المساجد كأمكنة خزانة الكتب وللاستخدام العام، وثمة خبر يفيد بأن أحمد بن طولون (حكم ما بين ٨٦٨-٨٨٤) كان يسلم المصاحف القرآنية إلى مساجد القاهرة مثلما فعل ذلك مؤخراً بعض الخلفاء الفاطميين[٤].

---

(١) Sergeant، ١٩٥٠؛ نفس المؤلف؛ خالدوف؛ ١٩٧٩؛ مكتبة المخطوطات العربية، ص١٩٥-١٩٦، ٣٣٥.

(٢) مكتبة المخطوطات العربية، ص ١٦٣، ١٦٨-١٦٩، ١٧١-١٧٢، ١٧٤-١٧٥، ١٩٨.

(٣) Abbott، ١٩٦٧، ص ٥٠، ٥٤، ٦٣، ١٢٥، ١٢٧-١٢٨، ١٦٣-١٦٤، ١٦٨، ١٧٦-١٧٧، ٢٢٠، وغيرها؛ يوبكو، ١٩٨٣، العدد ١٨ (ص ٨٨ والتعليقات ١٤ و١٥ على الصفحة ٩٢)، ٢٠، ٢٤.

(٤) ابن خلكان، ٢، ص ١٢٧؛ ك. عواد، ١٩٥١، ص١٤-١٧؛ Eche، ١٩٦٧، ص ١٣٧، ٢٦٣.

جمع الدعائيون والحكام الإسماعيليون كتباً كثيرة في شمال إفريقيا وأوردوها — على ما يبدو — إلى القاهرة، على أية حال فقد كانت حتى لدى الخليفة الفاطمي العزيز (٩٧٥-٩٩٦) مكتبة كبيرة، وقد أشرف عليها الأديب الشابشتي (ت٩٩٨) الذي كان كذلك يلهي سيده بقراءة الكتب له[١]؛ وشاءت الأقدار بأن ينافس مكتبات بغداد والعراق «بيت العلم (أو الحكمة)» للفاطميين المؤسس من قبل الحاكم، وتم حفل افتتاحه في نيسان عام ١٠٠٥، وقد تم بناء المكتبة بفخامة، وقد أوردت إليها مختلف الكتب بكميات كبيرة في مختلف فروع العلم بما فيها المكتوبة من قبل خيرة الخطاطين بالكتابة التناسبية؛ وفتحت المكتبة أبوابها لكل الراغبين الذين كانوا يزورنها بغية المطالعة ونسخ الكتب، وكانوا يمنحون فيها النزلاء ورقاً وحبراً وأقلاماً وكان يعطي العلماء فيها من مختلف الاختصاصات الأجور من الخليفة[٢]، يصف أو يذكر بيت العلم هذا الكثير من المؤلفين، لكنهم لا يقولون شيئاً عن كمية الكتب المحتوية فيه، إذ يحتمل أنها كانت كبيرة جداً، على أية حال كان ينفق سنوياً لإعالة هذه المكتبة مبلغاً زهيداً من المال قدره ٢٥٧ دينار[٣]، في عام ١٠٦٨ تعرضت المكتبة للاجتياح فاحترقت

---

(١) سميت وظيفته بكلمة فارسية ((دفترخان)) (ابن خلكان، ١، ص٣٣٨)، أما وظيفة أمين المكتبة فخازن الدفاتر (المقرلايزي، خطط، ١، ص٤٠٨)، يحدد عدد الكتب في هذه المكتبة بأرقام مختلفة وأكبر الاحتمال مبالغة: ١٢٠ ألف، ١٦٠ و٢٠٠ وحتى ٦٠١ ألف مجلد بما فيها عشرين (أو حتى ١٢٠٠!) مخطوطة ((تاريخ الرسل والملوك)) للطبري (ومنها ضمنها بخط المؤلف) وثلاثين مخطوطة ((كتاب العين)) للخليل (ومن ضمنها بخط المؤلف) ومئة مخطوطة ((الجمهرة)) لابن دريد (المقريزي، خطط، ١، ص٤٠٨ -٤٠٩؛ ميتس ١٩٧٣، ص ١٤٩؛ البحث الجديد الخاص بالبيانات حول هذه المكتبة: Khoury، ١٩٨١).

(٢) ابن خلكان، ١، ص ٣٠٥.

(٣) بارتولد (١٩١٨ب)، المجلد السادي، ص ١٧٢؛ نفس المؤلف (١٩٣٠)، المجلد السادس، ص ٦٢٢؛ Eche، ١٩٦٧، ص٨٥-٨٦؛ يوجد التنويه على كمية الكتب الموجودة في مكتبة الفاطميين — إذا كان الأمر فعلاً يجري عنها (يحدد ذلك كمحتمل جداً) في قصة أحد أهل القاهرة يدعى ابن السنبدي الحاذق في صنع الاصطرلابات وغيرها من الأدوات العلمية (وقد رأى ابن القفطي بعينه ((وقد رأينا من عمله آلات حسنة الوضع في شكلها صحيحة التخطيط في بابها))): في عام ٤٣٥هـ/ ١٠٣٣-٣٤م قرر الوزير أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني ((باعتبار خزانة الكتب بالقاهرة، وأن يعمل لها فهرست ويرمم ما أخلق

فيها كتب كثيرة، في بادئ الأمر كانت هذه المكتبة – كما يفترض يوسف العش – تحمل طابع المؤسسة السنّية، وفي عام ١١١٩ بعد حدوث الاضطرابات في المدينة، وبعد نهب جزء من المكتبة أغلقت المكتبة أبوابها، وفي عام ١١٢٣ فتحت من جديد (ولكن هذه المرّة بمثابة مركز الدعوة الإسماعيلية)، واستمر بقاؤها إلى عام ١١٧١ أي سنة إلغاء الخلافة الفاطمية من قبل صلاح الدين الأيوبي[١].

تعود إلى مصر الفاطمية الإخباريات حول طائفة من المجموعات الخاصة، ومن ضمنها مجموعات ضخمة جداً، وكان أبو الفتوح برجوان الذي تولى مناصباً إدارية عالية في عهد العزيز وبداية عهد الحاكم (٩٩٦-١٠٢١) قد قتل سنة ١٠٠٠، وترك أملاكاً كثيرة كانت من ضمنها كذلك الكتب «ما لا يحصى كثرة»[٢]، بيعت مجموعة كتب ابن يونس (ت١٠٠٩) الفلكي المشهور من قبل ابنه[٣]؛ وأقبل الشاعر أبو الحسن علي بن محمد التهامي (قتل سنة ١٠٢٥) إلى مصر بكتب كثيرة من حاكم الرملة[٤]؛ كما أن بلمظفر نصر بن محمود بن المعرف الفيلسوف والطبيب والشاعر تلميذ ابن العينزربي (ت١١٥٣) كان «حسن الخط جيد العبارة، وكان مغرى بصناعة الكيمياء والنظر فيها والاجتماع بأهلها، وكتب بخطه من الكتب الطبية والحكمية، وكانت له همّة عالية في تحصيل الكتب وقراءتها [وحدثني] الشيخ سديد الدين المنطقي عنه أنه كان في داره مجلس كبير مشحون بالكتب على رفوف فيه، وأن بلمظفر لم يزل في معظم أوقاته في ذلك المجلس مشتغلاً في الكتب وفي القراءة والنسخ. [أقول]، ومن

من جلودها وأنفذ القاضي أبا عبد الله القضاعي، وابن خلق الوراق ليتوليا ذلك، وحضر القصر وحضرتُ أُشاهد ما يتعلق بصناعتي، فرأيت من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ٦٥٠٠ جزء))، وهذا العدد واقعي تماماً يسمح بأن نحكم عن الجزء الباقي من المكتبة؛ انظر: ابن القفطي، ص٤٤٠.

(١) Eche.1967, P. 74-79.

(٢) ابن خلكان، ١، ص ٨٨.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٥٧.

(٤) نفس المصدر، ص ٣٥٨.

أعجب شيء منه أنه كان قد ملك ألوفاً كثيرة من الكتب في كل فن وأن جميع كتبه لا يوجد شيء منها إلا وقد كتب على ظهره ملحاً ونوادر تتعلق بالعلم الذي قد صنف ذلك الكتاب فيه» وقد رأى الكثير منها بنفسه[١].

أما الأمير المبشر بن فاتك (النصف الثاني من القرن الحادي عشر)، فكان مؤلفاً لـ«تصانيف جليلة في المنطق وغيره من أجزاء الحكمة، وهي معروفة فيما بين الحكماء، وكان كثير الكتابة، وقد وجدت بخطه كتباً كثيرة من تصانيف المتقدمين، وقد اقتنى المبشر بن فاتك كتباً كبيرة جداً، وكثير منها يوجد وقد تغيرت ألوان الورق الذي له بغرق أصابه، [وحدثني] الشيخ سديد الدين المنطقي بمصر قال كان الأمير ابن فاتك محباً لتحصيل العلوم، وكانت له خزائن كتب، فكان في أكثر أوقاته إذا نزل من الركوب لا يفارقها، وليس له دأب إلا المطالعة، ويرى أن ذلك أهم ما عنده... فلما توفي نهضت زوجته وجوار معها إلى خزائن كتبه وفي قلبها من الكتب، وأنه كان يشتغل بها عنها، فجعلت تندبه، وفي أثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هي وجواريها، ثم شيلت الكتب بعد ذلك من الماؤ وقد غرق أكثرها، فهذا هو سبب أن كتب المبشر بن فاتك يوجد كثير منها وهو بهذه الحال[٢].

في النصف الثاني من القرن الحادي عشر أخرج أبو يوسف عبد السلام بن محمد القزويني (انظر أعلاه في فصل العراق) من مصر إلى بغداد الكتب على عشرة جمال[٣]، ويروى أن بين تخوم القرنين الحادي عشر والثاني عشر إخبارية عن مجموعة أفرائيم ابن الزفان الطبيب اليهودي: الذي كانت له همّة عالية في تحصيل الكتب وفي استنساخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها، وكان أبداً عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم منه ومن جملتهم محمد بن سعيد بن هشام

---

(١) ابن أبي أصيبعة، ص ١٠٨؛ Meyerhof، ١٩٢٩، ص ٢٨٨-٢٨٩.

(٢) ابن أبي أصيبعة، ٢، ص ٩٩؛ Meyerhof، ١٩٢٩، ص ٢٨٦-٢٨٧

(٣) السبكي، ٣، ص ٢٣٠.

الحجري، وهو المعروف بابن ملساقة ووجدت بخط هذا عدّة كتب قد كتبها لافرائيم وعليها خط افرائيم، وحدثني أبي أن رجلاً من العراق كان قد أتى إلى الديار المصرية ليشتري كتباً ويتوجه بها وأنه اجتمع مع أفرائيم واتفق الحال فيما بينهما أن باعه أفرائيم من الكتب التي عند عشرة آلاف مجلد، وكان ذلك في أيام ولاية الأفضل ابن أمير الجيوش فلما سمع بذلك أراد أن تلك الكتب تبقى في الديار المصرية ولا تنتقل إلى موضع آخر، فبعث إلى أفرائيم من عنده بجملة المال الذي كان قد اتفق تثمينه بين أفرائيم والعراقي، ونقلت الكتب إلى خزانة الأفضل، وكتبت عليها ألقابه، ولهذا فإنني قد وجدت كتباً كثيرة من الكتب الطبية وغيرها عليها اسم أفرائيم وألقاب الأفضل أيضاً وخلف أفرائيم من الكتب ما يزيد عن عشرين ألف مجلد ومن الأموال والنعم كثيراً جداً »[١].

يوجد خبر عن الكتب الوقفية في المسجد الواقع في ثغر الإسكندرية التي أشرف عليها في القرن الحادي عشر الأديب أبو عبد الله محمد بن الحسن بن زرارة الطائي[٢]، وبنفس المقدار تبقى غامضة البيانات عن «مكتبة أرسطو» بالإسكندرية حيث حبس أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الداني (ت١١٣٤) الأديب والعالم المشرف على تلك المكتبة، وذلك، لأنه قد وعد بإخراج السفينة من المياه بعد غرقها في الخور، ولم يستطع الإيفاء بوعده، وأخذ يدرس في معتقله الكتب في الفلسفة والطب، وكان يزوره التلميذ أبو عبد الله الشامي الذي تنسب إليه الإخباريات حول هذا من المصادر[٣].

في عهد الأيوبيين والمماليك في الحقبة الواقعة ما بين القرن الثاني عشر والرابع عشر تم تأسيس حوالي خمس وعشرين مكتبة الوقف في القاهرة (ومكتبة واحدة فقط في

---

(١) ابن أبي أصيبعة، ٢، ص ١٠٥؛ Meyerhof، ١٩٢٩، ص ٢٨٨.

(٢) السيوطي، بغية، ص٣٣؛ Eche، ١٩٦٧، ٢٦٤.

(٣) Eche؛ 1967, P. 141-142.

مدينة أخرى)، وأضحت الأشهر منها الفاضلية والمحمودية والأشرفية والمكتبة لدى مستشفى المنصوري.

وكان القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم بن علي بن محمد اللخمي البيساني العسقلاني (١١٣٥-١٢٠٠) الأديب وهاوي الكتب المشهور قد استفاد من انتصارات صلاح الدين وهو وزيره لإغناء مجموعته الكتبية، لقد استحوذ على خيرة الكتب من مكتبات الفاطميين واشترك في بيع الجزء الباقي[(١)]، كما حمل الكتب على سبعين حماراً من مكتبة آمد الغنية سنة ١١٨٣، وكان يشتري كتباً بكميات كثيرة عبر السماسرة والتجار من كل أرجاء العالم الإسلامي، وقد عمل عنده النساخون والمغلفون، وقد سعى بأن يصطفي أفضل نسخة من أي مؤلف، وكانت لديه بعض المؤلفات بعدة نسخ، تحدد المصادر كمية الكتب في مجموعته بمختلف الأرقام: ١٠٠، ١٨٠، أو ٢٠٠ ألف، ويقدم ابن الساعي رقماً أدنى: ٣٠ ألف، أما الصفدي فيقدرها بمليون، ويعتبر يوسف العش التقدير التقريبي لهذه الكمية «أكثر من خمسين ألف»[(٢)]، وقد سلم مجموعته الضخمة كلها أو جزءاً منها إلى وقف المدرسة التي أسسها بنفسه سنة ١١٨٤ المسماة باسمه الفاضلية، لكن بقاء هذه المكتبة الغنية الوافرة بالكتب الثمينة النادرة[(٣)]، لم يستمر طويلاً فاندثرت في عهد المقريزي (١٣٦١-١٤٤٢)؛ لأنه في عام ١٢٥١ سنة

---

(١) وتقول رواية أخرى أنه انتقى أفضل الكتب فقطع عنها أغلفتها كي يجعل منظرها حقيراً فاشتراها بثمن رخيص (Eche، ١٩٦٧، ٢٥٠).

(٢) Eche.1967, P. 251.

(٣) ويذكر من ضمنها المعجم كثير المجلدات لأبي عبد الله محمد بن جعفر القزاز (ت١٠٢١)، وتفسير أبي بكر محمد بن علي الأضفاوي(ت٩٩٨) و ((الاستغناء)) بمئة وعشرين مجلداً، والمصحف القرآني المكتوب – كما يزعمون- بيد الخليفة عثمان بن عفان (ﷺ) (٦٤٤-٦٥٦)، وقد تم شراؤه بثلاثين ألف دينار ووضع في محراب خاص.

(٣) Eche.1967, P. 249-254.

المحل أخذ التلامذة يبيعون المجلدات مقابل قطعة خبز، أما سائر الكتب فسرقت[1]، ويظهر أن جزء من هذه المجموعة التحقت عبر ابنه بالفاضلية بدمشق (انظر أعلاه).

كانت في قصر حاكم مصر الملك العزيز الأيوبي مجموعة الكتب التي سلّمت بعد وفاته سنة ١١٩٨ للوقف[2].

وتنسب إلى القرن الثالث عشر البيانات حول وجود المجموعات الكتبية والمكتبات في القاهرة: في المدرسة الصاحبية التي أسسها الصاحب صفي الدين عبد= الله بن علي بن شاكر (١٢٢٥)[3]؛ وفي «دار الحديث» التي تأسست سنة ١٢٢٤ من قبل الملك الكامل، وكان أمين المكتبة الكاملية عالم الحديث والنحو محمد بن إبراهيم بن عنان الميدومي (ت١٢٨٤)[4]؛ وفي المدرسة الصباحية البهائية اليت أسسها سنة ١٢٥٦ الوزير الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا؛ وفي المدرسة الظاهرية المبنية سنة ١٢٦٣ والمساة باسم الحاكم في ذلك الوقت الظاهر بيبرس، وفي عهد المقريزي كان أمين مكتبتها محمد بن محمد الجمال (ت ١٤٧٢)؛ وعند رشيد الدين بن علي النابلسي (ت١٢٦٣) الذي سلم جزءاً من كتبه؛ وعند زين الدين محمد بن أحمد الأنبوراي الصوفي الشافعي (ت١٢٦٨) الذي سلم مجموعته للوقف؛ وفي مشفى المنصوري مع المدرسة اللذان بناهما المنصور بن قلاوون (١٢٩٠)، وعين أجره لأمين المكتبة قدرها أربعون درهماً شهرياً، احتوت هذه المكتبة على كتب كثيرة في مختلف مجالات المعارف، وقد سلم إلى وقفها بيته وكتبه الطبيب المشهور والعامل فيها الذي يدعى ابن النفيس علاء الدين علي بن أبي الحرم (ت١٣٨٩) بما فيها «الشامل في الطب» بثلاثمائة مجلد التي كمل منها على وجه التحديد ثمانين، وكما أخبر المقريزي بأن معظم

---

(٢) نفس المؤلف، ص٢٦٢.

(٣) نفس المؤلف، ص ٢٦٢.

(٤) السيوطي، بغية، ص٥؛ Eche، ١٩٦٧، ص ٢٥٤-٢٥٥.

كتبه قد توزعت على مجموعات خاصة، ومؤخراً في القرن الثامن عشر احترقت الكتب والوثائق الباقية؛ وأخيراً في المدرسة المنكوتمرية التي بناها سنة ١٢٩٦ صفي الدين منكوتمر الحسامي، والحجازية التي أسسها خوانده تتر ابنه الناصر بن قلاوون وزوجة الأمير بكتمر الحجازي(١).

حكي ابن القفطي (ت١٢٤٨) أنه رأى في قفط كتاب «قوت المفيم» للطبيب القيرواني من القرن العاشر ابن الجزار بعشرين مجلداً(٢).

في القرن الرابع عشر ذكرت المكتبات والمجموعات الكتبية في القاهرة (فيما عدا استثناء واحد): في رباط الأسارى الذي بناه الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين محمد (ت١٣٠٧)؛ كانت في مدينة قوص (الصعيد المصري) خزانة كاملة من مؤلفات الفقيه سليمان بن عبد القوي الطوفي (ت١٣١٩)؛ وفي المدرسة الطبيرسية التي بناها الأمير علاء الدين طيبرس الخازانداري (ت١٣١٩)؛ في خانقاه البكتمرية المبنيّ؛ سنة ١٣٢٥ من قبل الأمير بكتمير الساقي، وقد تبعثرت كل محتوياتها من الكتب والأملاك في عام الجوع سنة ١٤٠٣؛ وفي المدرسة البشيرية التي بناها في إحدى ضواحي القاهرة الطواشي سعد الدين بشير الجامدار الناصري سنة ١٣٥٩؛ وفي المدرسة اللكلانية التي أسسها الأديب والموظف الحسين بن محمد اللكلاني (ت١٣٦٠)؛ ةفي المدرسة الوقفية المؤسسة سنة ١٣٦٦ من قبل صفي الدين ايلجي مدير مشفى المنصوري؛ وفي المدرسة السبيكية التي بناها سبيك الدين مثقال (ت١٣٧٤)؛ وفي المدرسة الأشرفية التي بناها الملك الأشرف شعبان بن الحسين بن محمد بن قلاوون (ت١٣٧٦) احتوت مجموعة الوقف هذه – التي احتيج لنقلها إلى عشرة رحال – كذلك على المكتوبة بخطوط مؤلفيها للخطاطين العراقيين المشهورين كابن البواب وياقوت المستعصمي؛ باع ابن المؤسس الملك الصالح كل الكتب بستمائة دينار للأمير جمال الدين الاستدار يوسف

(١) Eche.1967, P. 255 – 256, 260-263.

(٢) ابن أبي أصيبعة، ٢، ٣٨.

الذي وضعها سنة ١٤٠٨ في مدرسته، ولكن في العام القادم أعدم من قبل الملك الناصر، وقد أعاد الأخير جزءاً من الكتب إلى المدرسة بمثابة وقف عن لسانه، وأخذ الجزء الآخر إلى القصر؛ وفي خانكاه الصلاحية حيث كان أمين المكتبة جمال الدين عبد الله بن علي بن أحمد الأنصاري ابن حديدة (ت١٣٨١)؛ وفي مسجد الخاطري الذي أسسه سنة ١٣٨٦الأمير عز الدين آيدمر الخاطري[١]؛ وفي المدرسة التي بناها سنة ١٣٩٤ جمال الدين محمود بن علي الاستدار (ت١٣٩٦)، وتسمي المصادر هذه المدرسة بالمحمودية تارة وبالجمالية تارة أخرى[٢]، ولكنها تخبر عن مكتبة واحدة غنية جداً التي أسسها ذلك صاحب العمل الماهر، وقد اشترى على وجه الخصوص مجموعة قيّمة لابن جماعة (ت١٣٨٨)، ويحتمل أن كتب هذه المكتبة قد استخدمها المقريزي، فكان يعتبرها أفضل مكتبة في مصر وسوريا[٣].

تعود إلى القرن الخامس عشر بيانات حول مجموعات الكتب في الخانقاه الشيخوتية التي قتل أمينها الشيخ امتعلم وواسع الاطلاع سعد بن خليل بن سليمان الرومي المرزباني على يد اللصوص سنة ١٤١١؛ وفي المدرسة العثمانية التي بناها الملك الأشرف أبو المحاسن يوسف العثماني، وقد خصّص القلقشندي (ت١٤١٨) لهذه المدرسة مؤلفه عن القبائل العربية؛ وفي المدرسة الملكية المؤسسة من قبل سيف الدين الملك الجكندار، وقد اعتبر المقريزي مجموعاتها الكتبية قيّمة جداً[٤].

---

(١) Eche.1967, P. 256, 260- 256.

(٢) فلذا نسب يوسف العش بيانات المصادر إلى مكتبات مدرستين مختلفتين اللتان أسسهما نفس الشخص (Eche، ١٩٦٧،٢، ص ٢٥٧-٢٥٨، ٢٥٩-٢٦٠)

(٣) لقد وصل إلى أيامنا هذه من هذه المكتبة المجلد التاسع والعشرين من نسخة مؤلف مكون من ثلاثين مجلد((نهاية الأرب)) للنويري، ويخزن ذلك المجلد في المكتبة الوطنية بباريس (دالة كتاب ١٥٧٠ .ar) والمجلد الأخير من ((تجارب الأمم)) لمسكويه النخزون في مكتبة آياصوفيا باستنبول صورة طبق الأصل (GMS,vol, VII,6.Leyden-London,1917)

(٤) Eche.1967, P. 258, 260,262.

في عهد الأسر المملوكية الحاكمة ارتفعت قيمة الأزهر – الذي هو عبارة عن مجموعة من المدرسة والمسجد والمكتبة – إلى مكانة الجامعة الدينية لعموم المسلمين، ويكتب عن المكتبات والمخطوطات لدى الخلفاء العباسيين بالقاهرة خليل الظاهري[١]، في عام ١٤٧٥ تم تأسيس مكتبة بدمياط، بقيت المجموعات الكتبية والمكتبات الجديدة في الحقبة الممتدة من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر تغذي النشاط الأدبي العنيف الذي دفع مصر (وسوريا كذلك) إلى أن تحتل المواقع الرئيسة، وفي الحقيقة لقد وصلت إلينا من تلك المرحلة الكثير من المخطوطات الرائعة.

بعد هزيمة قانصوه الغوري على يد السلطان العثماني سليم الأول سنة ١٥١٧ لم يتغير الوضع في البلاد كثيراً، ولقد حدث توجه المخطوطات إلى استنبول؛ إذ أنَّ البيانات حول مكتبات الحقبة الواقعة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ضئيلة جداً.

تم تأسيس معظم المكتبات المصرية الحديثة – التي تحتوي على أرصدة المخطوطات – في القرنين التاسع عشر والعشرين، وأكبرها دار الكتب المؤسسة سنة ١٨٧٠ بفضل مجهودات العالم المشهور علي مبارك، وأضمت هذه المكتبة الكثير من المجموعات، وإلى عام ١٩٥٤ بلغ عدد مجلدات المخطوطات فيها ٣٨٥٨٣، ويوجد المخزن الثاني من حيث الحجم لدى الأزهر حيث تخزن حوالي ٢٤ ألف مخطوطة، انضمت إلى مكتبة جامعة القاهرة سنة ١٩٢٨ خمسة آلاف مخطوطة؛ توجد أكثر من ستمائة مخطوطة مسيحية في المتحف القبطي، وفي مكتبة البطريركية، توجد المجموعاتالمخطوطية خلف نطاق العاصمة المصرية في كل من الإسكندرية (في المكتبة البلدية: أكثر من أربعة آلاف)، ودمياط (في المتحف الديني:٣٣٢٥)، وطنطا (أكثر من ١٥٠٠ في مسجد الأحمدية و ٢٩٢ في المكتبة البلدية)، والزقازيق (٢٣٣)، والمنصورة

---

[١] بارتولد (١٩١٢)، المجلد السادس، ص ٢٤١.

(٣٤١) وصهاج (١٠٤٣) شبين الكوم (١٩٩)، وفي دير القديسة كاترين بسيناء حوالي سبعمائة مخطوطة مسيحية، وإجمالاً أكثر من مائة ألف[1].

البلدان العربية في شمال القارة الإفريقية
المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا

أقدم مكتبات المنطقة هي مكتبات المسجدين الكبيرين في كل من القيروان بتونس وفاس بالمغرب (جامع القرويين)؛ كلا المكتبتين أنشئتا في القرن التاسع فيمتد تاريخهما الزمني أحد عشر قرناً، لكن أرصدتها- مع الأرسف — لم تبق سالمة إذ أنها تعرضت غير مرة للاجتياح، ومع ذلك فقد بقيت فيها كمية صغيرة من المخطوطات والوثائق العائدة إلى الحقبة الواقعة ما بين القرن التاسع والحادي عشر، ووصل إلينا كذلك جرد المكتبة القيروانية من القرن الثالث عشر[2]، كانت هاتان المدينتان وكذلك قسنطينة بالجزائر مراكز الثقافة الكتبية العربية منذ القدم، لكن البيانات عن المجموعات القديمة لم يتم تحديدها من المصادر كاملةً، نشير فقط إلى المقالة القيمة لحسن حسني عبد الوهاب الذي قدم بعض البيانات عن مكتبات القصر لدى الأغلبيين والفاطميين والزيريين، وعن المجموعات الخاصة لدى العلماء والنساخين[3].

أنشأ الأغلبي إبراهيم الثاني(٨٧٥-٩٠٢) «بيت الحكمة» في المقر من قبله برقاد إلى حيث جذب العلماء من مراكز أخرى، وحيث كانت مكتبة كبيرة على ما يبدو، كان الفاطميون الإفريقيون الأوائل كذلك جامعين غيورين للكتب المخطوطة، فسلبزا خزائن الأغلبيين بما فيها خزائن الكتب، وكانت مكتبتهم في بادئ الأمر في المهدية، ومن ثم في الكنصورية، وفيما بعد انتقلت إلى الفسطاط (انظر أعلاه في فصل مصر)،

---

(١) انظر مكتبة المخطوطات العربية، ص ٨٠-٩٢، ٣٢٨-٣٢٩؛ عواد، ١٩٨٤؛ World Survey IM, 1993.

(٢) شبوح، ١٩٥٦.

(٣) عبد الوهاب، ١٩٥٥.

باعوها بألف ومائتين دينار، كانت عند عيسى بن مسكين (ت٩٠٣) غرفة مليئة بالكتب؛ اقتنى مجموعات لا يستهان بها من الكتب المخطوطة هواة الكتب والمؤلفون من القرن العاشر الذين نسخوا بأنفسهم كثيراً، ومنهم محمد بن بسطام بن رجاء الضبي وحمدون بن مجاهد الكلبي، وأحمد بن محمد القصري، وابو العرب محمد ابن أحمد التميمي، وعبد الله بن أبي هاشم بن مسرور التجيبي وغيرهم[١]، احتفظت في مكتبة مسجد القيروان القديم المخطوطات التي وضعت عليها مدونات وعلامات بعض الأشخاص المذكورين من النساخين أو الملاك أو الأوقاف، وكانت أغنى مكتبة من المكتبات الخاصة التابعة للأطباء الوراثيين بني الجزار: خلف أبو جعفر أحمد الممثل الأخير لهذه الأسرة (ت٩٨٠) كتباً وزنها عشرون أو خمسة وعشرون قنطاراً (حوالي ٨٠٠ أو ١٠٠٠ كغ)[٢].

كان «العصر الذهبي» لازدهار الثقافة الكتبية في إفريقيا – برأي حسن حسني عبد الوهاب – في مرحلة حكم الزيريين الذين برز من ضمنهم بمثابة راعي العلماء وجامع المكتبة المعز بن باديس (١٠١٦-١٠٦٢) الذي عمل عنده الكثير من النساخين والطّلائين بالذهب والفنانين والمغلفين (انظر عن مؤلَّف خاص في فن صناعة الكتب التي صنفت خصيصاً لهذا الحاكم أو لابنه ونسب إلى أحدهما في الفصل السابع)، يخبرون أنه أهدى للعالم التقي الفقير أبي بكر عتيق السوسي كتباً قيّمة التي أوصلت إليه على عشرين دابة، أما هو فسلمها للوقف ليستخدمها «طلاب العلم»، وقد وصل بعض هذه الكتب إلى أيامنا هذه في مكتبة المسجد الجامع بالقيروان[٣].

كانت المخطوطات العربية تُوَرَّدُ إلى شمال إفريقيا من مصر وغيرها من بلدان الشرق الأدنى، وكان الكثير من علماء وأدباء هذه المنطقة مرتبطين مع الأندلس، فكانوا

---

(١) نفس المؤلف.

(٢) ابن أبي أصيبعة، ٢، ص٣٨؛ Meyerhof، ١٩٢٩، ص ٢٨٩.

(٣) عبد الوهاب، ١٩٥٥، ص ٨٧.

ممن درسوا هناك أو انحدروا منها، فيحصلون على الكتب فيها؛ وكان حكام إفريقيا الشمالية أيضاً يستوردون أحياناً مكتبات كاملة من الأندلس إلى مقراتهم، وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر ومؤخراً استقر في بلدان المغرب العربي الكثير من المسلمين المهاجرين من الأندلس أو المضطرين علياالهجرة منها، وكان البعض منهم يملكون مجموعات مخطوطية.

حتى هذه الآونة لم يتم جمع البيانات عن مكتبات المغرب والجزائر وتونس من القرون الوسطى المتأخرة، ويقدم بعض البيانات عن بداية القرن السادس عشر ليون أفريكانو الذي أصدر مؤلفه المترجم منذ فترة وجيزة إلى الروسية، وذلك عن مكتبة القصر المهجورة ودكاكين الكتب المتروكة في مراكش واجتياح المدرسة «هيأة الطلبة» في منطقة جبل بني يرزو وفي محافظة الريق حيث تم العثور على الكتب ثمنها أربعة آلاف دوكات، وعن نساخي مدينة فاس، وفي منطقة جبل مستازة في محافظة حوض، وعن الكتب في مجال السحر والسيمياء، وعند «المرابط الناسك» الثري في مدينة بطحا بمملكة تلمسان، وعن ثلاثة آلاف كتاب التي اشتراها في الشباطبة وأخذها إلى مدينة الجزائر «إنسان نبيل»[1].

تلاحظ في المغرب في الوقت الراهن النزعة نحو مركزة المجموعات المخطوطية في البلاد وحشدها نحو المكتبة العمومية في العاصمة الرباط، وكما صرح مديرها بلغ عدد المخطوطات فيها سنة ١٩٧٢عشرة آلاف مجلد الذي يضم حوالي ٢٥ ألف نسخة مؤلف مخطوط، منذ ذاكك الحين نمت أرصدتها بفضل ورود المجموعات الخاصة التي كانت في السابق كثيرة في فاس ومكناس وطنجة وساليه والرباط ومراكش، تخزن مجموعة ثمينة من المخطوطات في مكتبة المالك، وتخزن المخطوطات في مكتبتين، وفي مجموعة شخصية واحدة بتطوان وفي كلية ابن يوسف بمراكش، وفي مكتبة مدينة مكناس، وكذلك في زوايا ومساجد وزان وطمغروت وتنغيملت وتازه وزاغورا

(١) ليون أفريكانو، ص ٧٦، ٨٠، ١٣٧، ١٩٩، ٢٢٢، ٢٣٧، ٢٤١.

مجموعة شخصية واحدة بتطوان وفي كلية ابن يوسف بمراكش، وفي مكتبة مدينة مكناس، وكذلك في زوايا ومساجد وزان وطمغروت وتنغيملت وتازه وزاغورا وغيرها؛ يمكن أن نقدر العدد الإجمالي للمخطوطات في المغرب على وجه التقريب بثمانِ مائة وسبعة وأربعين ألف، وأكثر من نصفها مسجلة في الفهارس والمقالات الاستعراضية[١].

وبحزم أكثر أجريت مركزة المجموعات المخطوطية في تونس الحالية، وذلك بقرار الحكومة الصادر سشنة ١٩٦٧، نقلت إلى المكتبة الوطنية بمدينة تونس ٢٣٠٠ مخطوطات مسجد القيروان و٥١٣٠ من العبدلية و٦٤٣٤ من الأحمدية، وكلتا المكتبتين كانتا في السابق ضمن مجموعة مكونة من المسجد والجامعة الدينية الزيتونة، تم تأسيس العبدلية في القرن السادس عشر واستوعبت الأحمدية مخطوطات مدرسي الزيتونة وتبرعات الحفصيين، لكنها تعرضت للاجتياح غير مرة؛ و٥٦٤من مسجد عقبة بالقيروان، ١٥٨ من مكتبة الجمعية الخلدونية، و٦٣٧ من المكتبة العمومية بالقيروان، و١٣٧٢ من صفاقس، و ٩٥١ من مجموعة حسن حسني عبد الوهاب وغيرها، ويظهر أنه مؤخراً انضمت إليها مجموعات أخرى؛ إجمالاً تحتوي المكتبة الوطنية على حوالي ٢٥ ألف مجلد مخطوطات عربية، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار المجموعات الشخصية عندئذ قد يصل عددها إلى ٣٧٥٠٠[٢].

لم يتم تخطيط عملية جمع وجرد وتخزين المخطوطات بالجزائر بصورة مقبولة تماماً، فلذا بقيت في البلاد حوالي إحدى عشر ألف ونصف مجلد، ويخزّن معظمها في

---

(١) المورد، ١٩٧٦، ص ٩٦-٩٩؛ مكتبة المخطوطات العربية، ص ١٨٧-١٩٤، ٣٣٤-٣٣٥.

(٢) المورد، ١٩٧٦، ص ٣٩؛ مكتبة المخطوطات العربية، ١٩٨٢؛ عواد، ١٩٨٤؛ World Survey IM, 1993.

كانت التقاليد الإسلامية في ليبيا ضعيفة التطور، فرغم ذلك عدد المخطوطات العربية فيها أكثر من سبعة عشر ألف[1]، وتعود من حيث زمن نسخها- على الأغلب - إلى الحقبة الواقعة ما بين القرنين الثامن عشر والعشرين.

البلدان الإفريقية جنوبي الصحراء الكبرى

إن لانتشار الإسلام واللغة العربية في قلب القارة الإفريقية تاريخ يمتد أكثر من ألف سنة، ولكنه لم يترك آثاراً على شكل مجموعات مخطوطات (وربما يعود ذلك إلى الظروف المناخية)، والبياناتا حول المخطوطات العربية في هذه المنطقة تعود إلى فترة ليست قبل القرن السابع عشر كما أنها غير واضحة وغير كاملة؛ تخزن كميةٌ لايستهان بها حالياً في موريتانيا وغانا ونيجريا والسودان ومالي وساحل العاج والنيجر والسنغال وبروكينافاسو وغينيا ومالاوي وغامبيا وكينيا[2].

إسبانيا، البرتغال، إيطاليا

نجد في شبه جزيرة بيرنيه في مرحلة الحكم العربي – الإسلامي (القرن الثامن – القرن الخامس عشر) المكتبات الخاصة والبلاطية والوقفية بكثرة وهواة جمع الكتب، ثمة رأي عائد إلى المصادر الإسبانية- العربية أن الأندلسيين كانوا يتفوقون بحبهم للكتب على سكان بلدان أخرى[3]، وكانت سيادة المسلمين القصيرة على صقيليا وجزر أخرى في البحر المتوسط (من القرن التاسع إلى الحادي عشر) مصاحبة لظهور مراكز الثقافة الكتبية قصيرة الأمد كذلك.

---

(١) المورد، ١٩٧٦، ص ٧٥؛ مكتبة المخطوطات العربية، ١٩٨٢؛ عواد، ١٩٨٤؛ World Survey IM, ١٩٩٣.

(٢) انظر: المورد، ١٩٧٦، ص ٥٢ - ٥٤؛ مكتبة المخطوطات العربية، ١٩٨٢؛ عواد، ١٩٨٤؛ World Survey IM, ١٩٩٣.

(٣) المقري، ١، ص١٣٦؛ Ribera، ١٩٢٨.

من بين أولئك الأشخاص المئة - الذين كما أثبت الآن[1]-أظهروا عن أنفسهم في مجال علم تدوين التاريخ اعتباراً من القرن الثامن وإلى الثلث الأول من القرن الحادي عشر- وكان الكثيرون منهم يمتلكون مجموعات كتبية لا يُستهان بها، وإذا أضفنا إليهم الأدباء واللغويين واللاهوتيين والفقهاء والأطباء والفلاسفة من هذه المرحلة والمراحل التي تليها عندئذ سيصبح عدد المؤلفين الممتلكين للمخطوطات عدة آلاف، وكان الأدباء والعلماء الأندلسيون في المرحلة الواقعة ما بين القرنين الثامن والعاشر إما منحدرين من الشرق الأدنى، وإما من إفريقيا الشمالية، وإما أندلسيون قاموا برحلات إلى الشرق طلباً بالعلم وعادوا بكتب معهم، وكان رجال الأدب والعلم المتأخرين مرتبطين بسلسلة من التقاليد المتوالية مع مؤسسي الثقافة الكتبية في الأندلس، وقد قام الكثيرون منهم برحلة إلى الشرق في سبيل العلم أو أداء فريضة الحج، واستقر بعضهم هناك حتى آخر حياتهم، وكذلك كان الشعراء والعلماء يقبلون إلى الأندلس من الدول الإسلامية الأخرى بحثاً عن النجاح والرعاة الكرماء، وغالباً ما كانوا يحضرون معهم الكتب، وبهذا يكون قد وقع بين الشطر الأوروبي والأفروآسيوي من العالم العربي - الإسلامي تبادل مستمر بين الناس من المنتجات الكتبية.

غدت قرطبة عاصمة الأمويين الأندلسية قلب الحياة الثقافية ومكان تحشد الكتب في بادئ الأمر (٧٥٦-١٠٣١)، وكانت هناك المكتبة الكبرى - على ما يبدو- مكتبة الخلفاء التي تشكلت على الأغلب في عهد عبد الرحمن الثالث (٩١٢-٩٦١) والحكم الثاني (٩٦١-٩٧٦)، وقد اشتهر عبد الرحمن بحبه للكتب وجمعها بكميات كبيرة، وقد شغف ولده الحكم ومحمد بجمع الكتب فكانا يتبادلا في ذلك مع بعضهما مشجعان العلم والأدب ويرعيان العلماء، وبعد وفاة الوالد والأخ تمكن الحكم من توحيد كل المكتبات الثلاث في واحدة التي ضاعف محتوياتها كثيراً.

---

[1] بويكو، ١٩٧٧.

مشجعان العلم والأدب ويرعيان العلماء، وبعد وفاة الوالد والأخ تمكن الحكم من توحيد كل المكتبات الثلاث في واحدة التي ضاعف محتوياتها كثيراً.

عمل لدى الحكم خيرة المغلفين والفنانين- المنمنمين والنساخين[١]، أما المقارنة وتصحيح نصوص المخطوطات فعنلت بها طائفة من العلماء المستلمين أجوراً عالية، ومنهم محمد بن يحيى بن عبد السلام النحوي الرباحي، ومحمد بن الحسين الفهري ومحمد بن معمر الجياني وغيرهم، واعتبرت وظيفة أمين المكتبة مهمّة جداً في البلاط؛ فكان الخليفة ينفق كثيراً لأجل ملء مكتبته، فكان يحصل على الكتب عبر السماسرة والتجار من الشرق (من الفسطاط وبغداد وغيرهما) لاسيما في مجال الفقه المالكي والأدب، ويزعمون أنه دفع لأبي الفرج الأصفهاني ألف دينار على نسخة المؤلف من «كتاب الأغاني»[٢]، وبما أن الرعايا كانوا على علم بشغف خليفتهم نحو الكتب فكانوا يظفرون منه بعطفه عليهم بتقديم هدايا له من المخطوطات النادرة ومؤلفاتهم الخاصة[٣]، حسب الخبر العائد إلى أمين المكتبة تليد كان عدد الكتب فيها أربعمائة ألف مجلد، وقد ملأ فهرسها المكون من العناوين للدواوين (أو المؤلفات أو المجموعات) أربعة وأربعين دفتراً في كل منها عشرون صحيفة[٤]، وقلما كان أي كتاب في أي فرع من فروع العلم لم يقرأ أو ينظر من قبل الحكم، ولا يحتوي على ملاحظته حول سلسلة

---

(١) مثلاً الوراق الصقلي عباس بن عمرو بن هارون الذي نسخ كتباً كثيرة للخليفة المقبل (ابن الفرضي، العدد٨٨٤)، وظفر البغدادي، ويوسف البلوطي، والنساختان لبنى وفاطمة ابنة زكريا (Rubera، ١٩٢٨، ص ١٩٢، والترجمة إلى العربية، ١٩٦٨، ص ٨٧).

(٢) المغرب،١، ص١٨١؛ المقري، ١، ص ٢٥٠.

(٣) مثلاً أهدى له أحد الأساقفة القرطبيين تقويم الأعياد المسيحية الذي احتفظ وتم نشره.

(٤) افترض خ. ريبيرا أن هذه الإخبارية ليس مبالغ فيها (Ribera، ١٩٢٨، ص١٩٣)، ولن لنلفت نظرنا إلى الخلل: إذا افترضنا أن كلّ عنوان يأخذ سطراً في دفتر الفهرس، فهذا يعني أن كل صفحة الفهرس تتسع لـ ٢٢٧ سطراً، فيخيل لي أن العدد مقبول به إذا اختصرناه بعشر مرات أي ((حوالي أربعيْن ألف مجلد)).

نسب وتاريخ ولادة المؤلف، لما تنامت المكتبة، ولم تعد يتسعُ في البناء المخصص لها نقلت إلى مبنى آخر، استغرق نقل الكتب ستة أشهر[١].

ولكن في عهد الخليفة هشام الثاني (٩٧٦-١٠٠٩) نهب مكتبة والده الحكم الثاني محمد ابن أبي عامر المنصور (ت١٠٠٢) الذي كان في واقع الأمر يحكم البلاد، فأتلفت كتباً كثيرة والتحق جزء منها بمكتبات أخرى؛ الحقّ أنه وجد من بين مقربي المنصور العلماء والأدباء والشعراء المادحون ومدونوا التاريخ الذين كانوا يكرّسون مؤلفاتهم له ويقدموها كهدية له؛ وكانت لديه مكتبة كبيرة أشرف عليها أبو الوليد محمد بن معمر اللغوي[٢]، العلامة الكبير للكتب والخطوط.

يخبرون عن هشام أنه جمع مكتبة كبيرة اشتراها منه الخليفة الذي تلاه (حكم سنة ١٠٠٩ وفي فترة ١٠١٣-١٠١٦)[٣].

وجدت المجموعات الخاصة بقرطبة من القرن العاشر إلى الثاني عشر البارزة بشكل خاص، وكان هاوي الكتب محمد بن حزم (ت٨٩٥)[٤]، عالم الأدب والمدوّن التاريخي يمتلك مع والده وشقيقته مدرسة لعامة الشعب، حيث كانوا يُدِّرسُون، وتلك المبالغ الضئيلة من المال التي أدخرها كان ينفقها على الكتب، أما ساعات الفراغ فكان يقضيها في نسخ الكتب المستعارة من اصدقائه، ولما صار من أكثر الناس اطلاعاً بقرطبة صنف مجموعات في الأدب والتاريخ كما نقد وصحح مؤلفات غيره.

---

(١) المقري، ١، ص٢٤٩-٢٥٠، ٢٥٦؛Ribera، ١٩٢٨، ص١٩١-١٩٤.

(٢) بويكو، ١٩٧٧، العدد ٤٥.

(٣) Ribera، ١٩٢٨، ص ٢٠٧(ترجمة إلى العربية، ١٩٥٩، ص٧٦).

(٤) ابن الأبار، العدد ٣١٢ - Ribera 1928 p197 ؛ بويكو، ١٩٧٧، ص ٣١، ٦٣-٦٤..

كان أبو محمد قاسم بن سعدان بن إبراهيم بن عبد الوارث (ت٩٥٨)[١]، يتمتع بخط جميل فمارس حتى آخر حياته نسخ وتصحيح مؤلفات المؤلفين الآخرين، وقد ترك مجموعة من الكتب في الوقف للطلاب؛ حفظت في بيت محمد بن محمد ابن أبي دليم.

اشتهر الولوع بالكتب أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى ابن فطيس (ت١٠١٢)[٢] الفقيه والمحدث القرطبي، ويروون أنه امتلك أكبر مجموعة في الأندلس من الكتب القيمة في مختلف مجالات المعارف، وقد بنى لمكتبته مبنىً خاصاً بزينة وأثاث، ومن عمل فيها على وجه الاستمرار ستة نساخين، كان أمين مكتبته الأديب أبو عبد الله محمد بن عيسى الحضرمي الذي كفل له تصنيف الفهرس ونسخ الكتب الأكثر أهمية؛ وكان ابن فطيس بصفته صاحب ثروة كبيرة مستعداً لأية نفقات لأجل الحصول على مخطوطة جيدة مقدماً عليها ضعف أو ضعفين ثمنها، وإذا لم يتمكن من شراؤها عندئذ كان يلجأ إلى السماسرة، وإذا لم ينجح في ذلك أيضاً كان يطلبها بحجة استنساخ النسخة منها أو مقارنتها مع النسخة المماثلة الموجودة عنده، ولكن إن حدث وحصل على الأصل أو نسخة بخط المؤلف فلم يكن يعيرها لأحد، وفي أقصى الحالات إذا ألحَّ أحد بشدة عليه كان يأمر بعمل نسخة منها ومنحها للطالب، واتضح بأنَّ ثمن الكتب التي جمعها هو فقط بعد وفاته، أربعين ألف دينار حين أقام ورثته المزاد العلني في مسجد الحي وباعوها خلال سنة.

---

(١) Ribera، ١٩٢٨، ص ١٩٦، بويكو، ١٩٧٧، العدد ٥٩.

(٢) ابن بشكوال، العدد ٦٧٩؛ الضبي، العدد ٩٧٦؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ١٩٥-١٩٦؛ بويكو، ١٩٧٧، العدد ٩٤.

وكان مؤلف «تأريخ علماء الأندلس» وطائفة من المؤلفات الأخرى عالم الأدب والفقه والأحاديث أبو الوليد عبد اللهبن محمد الأزدي ابن الفرضي (٩٦٢-١٠١٣) «جامعاً نشيطاً للكتب فجمع منها أكثر من كل علماء البلاد»[١].

كان أبو القاسم مسلمة بن سعيد الأنصاري (ت١٠١٦) من استحبه القاطن بقرطبة قد جدَّ بجمع الكتب في المشرق، فجلب ثمانية عشر حملاً من الكتب من كل فن من العلم منفقاً مبلغاً كبيراً من المال[٢].

كان محمد بن يحيى ابن الموصول الغافقي (ت١٠٤٢) يجمع الكتب بحب ودقَّة منذ صغره، وكان عارفاً بخطوط ناسخي الكتب، فكانوا يلجؤون إليه بغية معرفة أسمائهم، وكان يفضل الكتب عن كل الملذات، فتجمعت عنده كمية لم يكن عند أحد مثيلها سوى الخليفة الحكم الثاني، كانت لديه مؤلفات مكتوبة بخطوط مؤلفيها من خيرة العلماء والخطاطين ؛ باع وَرَثَتُهُ الكتب بثمن غالٍ فحصلوا على ربع مثقالٍ من كل صحيفة[٣].

أعدّ أحد أهالي القرطبة أبو حفص عمر بن عبد الله الذهلي الزهراوي (٩٧١-١٠٦٢) في بيته ثمانية أخراج من الكتب لينقلها إلى مكان آخر، وقد سلبهاالبرابرة الذين اغتصبوا المدينة إبان النزاعات الداخلية[٤].

فيما عدا هؤلاء كان ملاك المجموعات الكبيرة من الكتب بقرطبة: الشاعرة المثقفة بشكل ممتاز والمشهورة بين الأشراف عائشة (ت١٠١٠)[٥]، والمؤرخ أحمد

---

(١) ابن بشكوال، العدد ٥٧٢ (يروي عن ابن حيان)، بويكو، ١٩٧٧، العدد ٩٦.

(٢) ابن بشكوال، العدد ٥١٣؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ٢٠٧ (الترجمة إلى العربية ، ١٩٥٩، ص٧٦).

(٣) ابن الأبار، العدد ٤٢٧؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ٢٠٦-٢٠٧؛ (الترجمة إلى العربية ، ١٩٥٩، ص٧٥).

(٤) ابن بشكوال، العدد ٨٦٢؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ٢٠٧ (الترجمة إلى العربية ، ١٩٥٩، ص٧٧)؛ بويكو، ١٩٧٧، ص ١٠٨.

(٥) ابن بشكوال، العدد ١٥٣١؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ١٩٩.

الرازي، وابنه عيسى (القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر)[١]، وأبو الوليد هشام بن عبد الرحمن الصابوني (١٠٣٢)[٢]، والأديب اللاهوتي الشهير أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم (١٠٦٤)[٣]، وأبو بكر محمد بن عبد الله ابن ذكوان (ت ١١٠٢)[٤]، وعالم الحديث واللغة واسع الاطلاع أبو علي الحسين بن محمد الجياني الغساني (ت١١٠٥)[٥]، وأبو عبد الله محمد بن عون المعافري (ت ١١١٨)[٦]، والوزير أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكي القيسي اللغوي (ت١١٤٠)[٧]، وأبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النوالة[٨]، وغيرهم ...

كانت في مختلف المدن الأندلسية ولا سيما في مرحلة الملوك[٩] في القرن الحادي عشر مكتبات أشهرها: الخاصة والبلاطية.

كانت إشبيليا مدينة ثانية من حيث الأهمية كمركز للكتب في أسبانيا العربية، اعتبرت الأفضل في البلاد مكتبة العبادين (١٠٢٣-١٠٩١)، وعلى وجه الخصوص كان شرف الدين محمد بن المعتمد (١٠٦٩-١٠٩١) يجمع المخطوطات ويهوى نسخ دواوين الأشعار ويتمتع بخط بديع[١٠]؛ وأعطى أبو مروان الباجي (ت١٠١٠)

---

(١) بويكو، ١٩٧٧، العددان ٢٥، ٤٤.

(٢) ابن بشكوال، العدد ١٤٢٨؛Ribera، ١٩٢٨، ص ٢٠٧(الترجمة إلى العربية، ١٩٥٩،ص٧٦).

(٣) ابن خلكان، ١، ص ٣٤٠.

(٤) ابن بشكوال (في مجموعة ابن الفرضي)، العدد ١٧٢٤؛Ribera، ١٩٢٨، ص ٢٠٧(الترجمة إلى العربية، ١٩٥٩،ص٧٦).

(٥) ابن بشكوال، العدد ٣٢٩؛Ribera، ١٩٢٨، ص ٢٠٦(الترجمة إلى العربية، ١٩٥٩،ص٧٥).

(٦) ابن بشكوال، العدد ١٢٦٠؛Ribera، ١٩٢٨، ص ٢٠٧(الترجمة إلى العربية، ١٩٥٩،ص٧٧).

(٧) ابن بشكوال، العدد ٢٩٧؛Ribera، ١٩٢٨، ص ٢٠٧(الترجمة إلى العربية، ١٩٥٩،ص٧٥).

(٨) المغرب، ١، ٧١.

(٩) بورسفورت،١٩٧١، ص ٤٠-٤٤.

(١٠) المقري، ٢، ص ٤٨٧.

مجموعاته الكتبية لتلميذه – الذي بات مؤخراً خطيباً في المسجد الجامع للمدينة – ابن الحجاج اللخمي [١]؛ كان أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللخمي المعروف بابن الأحدب جامعاً للمخطوطات، ولا سيما الأصول منها[٢]؛ كان هواة جمع الكتب الذين كرّسوا جهودهم لدراسة مخطوطاتهم والعناية بها التي جمعها الإشبيليون هم محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي[٣]؛ ومحمد بن خير بن عمر بن خليفة[٤]؛ وأبو بكر محمد بن أحمد بن البناء الإشبيلي[٥]؛ ثمة خبر عن مؤرخ من القرن الحادي عشر محمد بن مزين أنه وجد في المكتبة الإشبيلية بالذات في عام ٤٧١هـ/ ١٠٧٨-٧٩م مجلداً لمؤلف محمد بن موسى الرازي «كتاب الرايات»[٦].

مِنْ مشاهير جماع الكتب الوزير أبو جعفر بن عباس الذي احتوت مكتبته- كما يزعمون – على أكثر من أربعمائة ألف مجلد[٧]، وأبو عمر ميمون بن ساسين الصنهاجي اللمتوني (ت١١٣٦ بإشبيليا)[٨].

وفي مقالة امتلك خطيب الجامع عيسى الرندي مكتبة من المخطوطات الواردة من الشرق[٩]، كما تزوج الطبيب والفيلسوف والفقيه عصمان بن مندور المالقي – المنحدر من الأسرة الإشبيلية النبيلة – من ابنة الفقيه أبي علي بن حسان الذي أورث

---

(١) ابن الأبار، العدد ١٦٢٦.

(٢) ابن الفرضي، العدد ١٧٣٠.

(٣) الضبي، العدد ١٧٩.

(٤) ابن الأبار، العدد ٧٨٠.

(٥) المغرب، ١، ص٢٤٩.

(٦) بويكو، ١٩٧٧، ص ١٥٩.

(٧) المقري، ٢، ص٣٥٩؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ٢٠٩-٢١٠، ومن الظاهر أن البيانات حول كمية الكتب مبالغة.

(٨) ابن الأبار، العدد ١١٣٧؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١٠(الترجمة إلى العربية ، ١٩٥٩،ص٨٠).

(٩) Ribera.1928, 210.

لابنته مكتبته فاستخدم زوجها كتبها[١]؛ وسلم ابن لوبة المالقي الجزء الأعظم من مكتبته إلى وقف المسجد الجامع بمالقة[٢].

عاش في لوش محمد بن أحمد الذي ورث مكتبة غنية عن جده أبي الفضل عياض[٣].

بات محمد بن الحكم اللخمي من رونده الذي بات جامعاً شهيراً للكتب[٤].
وصنف حاكم الإمارة الصغيرة بطليوس محمد المظفر ابن الأفطس (ت١٠٦٨) موسوعة (ومن المحتمل بمعاونة العلماء الآخرين) المظفرية من خمسين مجلداً مستنداً إلى الكتب من مكتبته الكبيرة[٥].

كان أبو القاسم محمد بن عبد الله القنطري القاطن بالسوس جامعاً جاهداً للدواوين وسائر المخطوطات[٦].

كانت طليطلة مركزاً كبيراً للثقافة الإسلامية، حيث قطن الكثير من عشاق الكتب؛ فقد جمع أبو الوليد هشام بن عمر بن محمد الأموي ابن الخشني عدداً كبيراً من المخطوطات الجيدة من الشرق وأحضرها إلى هذه المدينة[٧]؛ وقد اشتهرت مكتبة أبي جعفر أحمد بن محمد ابن ميمون الأموي (ت١٠١٠) بحسن إنتقاء المخطوطات التي اندفع الناس لإنقاذها إبان الحريق الذي نشب[٨]؛ أسس القرطبي أبو القاسم حاتم بن

---

(١) نفس المؤلف، ص ٢١١.

(٢) نفس المؤلف، ص ٢١٧.

(٣) نفس المؤلف، ص ٢١١.

(٤) نفس المؤلف.

(٥) ابن الأبار، العدد ٤٥١؛ المقري، ٢، ١٣٠؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١١.

(٦) ابن الأبار، العدد ٧٣٤؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١١.

(٧) ابن بشكوال، العدد ١٣٢١.

(٨) ابن الأبار، العدد ٣٠.

محمد التميمي ابن الطرابلسي مكتبة كبيرة من المخطوطات المنتقاة بدقة تامة[١]؛ وتذكر الأخبار أنه أقبل إلى طليطلة بجزء من الكتب من مكتبة الحكم الثاني المجتاحة؛ وكان الحكام من الأسرة الحاكمة المحلية ذو النونين (القرن الحادي عشر) يملؤون مكتبتهم، ملتجئين في بعض الأحيان إلى مصادرة مكتبات غيرهم (انظر أدناه)؛ لذا نجد أبو عامر محمد بن أحمد بن إسماعيل (ت١١٢٩) جمع بشغف مؤلفات مكتوبة بخطوط مؤلفيها من أشهر علماء طليطلة[٢].

كان ممثلوا أسرة الهوديين (١٠-٣٩-١١٤٢) بسراقسطة يرعون الشعراء والأدباء، أما أحمد المقتدر (١٠٤٦-١٠٨١) فكان بنفسه فلكياً، ورياضياً، وفيلسوفاً، ومنهم أيضاً عالم الحديث- الذي نسخ الكثير من المؤلفات والدواوين – أبو محمد عبد الله بن محمد بن سندور التجيبي (المتوفي قبل ١١٠٧)[٣].

قطن في المدن الجنوبية والجنوبية - الشرقية من الأندلس أصحاب المجموعات المخطوطية الذين نزحوا من الشمال بعد تقدم الجيوش المسيحية، وكان من ضمنهم هواة الكتب المحليون، يخبرون أنه بفالنسيا حزموا مجموعة عبد الله بن حيان الأروشي (ت١٠٩٤) – التي صادرها حاكم طليطلة من أسرة ذو النونين وأخذها إلى قصره- في مئة وأربعين وثلاثة خرج[٤]؛ اشتهر جماع الكتب الفالنسيون أمثال أبو الوليد سليمان بن عبد الملك بن رويبل العبدري (ت١١٣٦)[٥]، وأبو الحسن علي بن محمد البلنسي (ت١١٦٩)[٦]، وأبو مروان عبيد الله بن عبد الله ابن عيشون المعافري (ت١١٧٨)[١]،

---

(١) ابن الأبار، العدد ٣٥١؛Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١٢(الترجمة إلى العربية ، ١٩٥٩،ص٨٣).

(٢) ابن الأبار، العدد ٤٤٣؛Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١٢.

(٣) ابن الأبار، العدد ١٣١١؛Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١٣(الترجمة إلى العربية ، ١٩٥٩،ص٨٤).

(٤) الضبي، العدد ٩٢٠، ابن بشكوال، العدد ٦٢٩؛Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١٤(الترجمة إلى العربية ، ١٩٥٩،ص٨٥).

(٥) ابن بشكوال، العدد ١٤٣٠؛Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١٤(الترجمة إلى العربية ، ١٩٥٩،ص٨٦).

(٦) ابن الأبار، العدد ١٨٥٨؛Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١٢(الترجمة إلى العربية ، ١٩٥٩،ص٨٥).

وأبو عمر يوسف بن عبد الله بن سعيد الليري (ت ١١٧٩)[٢]، وأبو الحسن علي بن محمد الغافري (ت١٢٥١)[٣].

وممن قطن في شاطبة: أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة (ت١١٧١) الذي ورث كتباً قديمة ومخطوطات قيّمة من ابن سكرة وامتلك مكتبة غنية[٤]، وأبو عيسى لب بن محمد البلنسي (ت١٢٣٤) الذي امتلك الأصول[٥]، وعالم النبات ابن الرومية الجامع الثري للكتب في مختلف المجالات[٦].

يذكر بمثابة أصحاب المجموعات المخطوطية القيّمة سكان مورسية، ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن الفرج الأنصاري الخزرجي (ت١١٧٢)[٧]، وأبو بكر محمد ابن غلبون الأنصاري صديق ابن الأبار[٨].

احتشدت في غرناطة – المأوى الأخير للمسلمين الأندلسيين – الكثير من مجموعات المخطوطات العربية، وكانت من أشهر مكتباتها: مكتبة يوسف بن إسماعيل اليهودي وزير باديس بن حبوس[٩]؛ وجمع النصريون مكتبة كبيرة جداً، (١٢٣٠–١٤٩٢) وكان أمينها في زمن مت الخطاط والفنان ابن سكران؛ كان من أصحاب المجموعات المخطوطية الجيدة أبو عبد الله الطراز وابن فرحون، كما كتب

---

(١) ابن الأبار، العدد ١٥١٢؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ٤٢(الترجمة إلى العربية، ١٩٥٩، ص٨٥-٨٦).

(٢) ابن الأبار، العدد ٢٠٨١؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١٤(الترجمة إلى العربية، ١٩٥٩، ص٨٦).

(٣) ابن الأبار، العدد ٣٥١؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١٢(الترجمة إلى العربية، ١٩٥٩، ص٨٣).

(٤) الضبي، العدد ٣٠٨؛ ابن الأبار، العدد ٧٤٦؛ المقري، ١، ٦٠٧؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١٥(الترجمة إلى العربية، ١٩٥٩، ص٨٧).

(٥) ابن الأبار، العدد ٢٩٦؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١٥(الترجمة إلى العربية، ١٩٥٩، ص٨٨).

(٦) Ribera. 1928, 215.

(٧) ابن الأبار، العدد ٧٥٠؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١٥(الترجمة إلى العربية، ١٩٥٩، ص٨٨).

(٨) ابن الأبار، العدد ١٠٣٩؛ Ribera، ١٩٢٨، ص ٢١٥(الترجمة إلى العربية، ١٩٥٩، ص٨٩).

(٩) Ribera. 1928, 202.

ورث لسان الدين ابن الخطيب (١٣١٣-١٣٧٤) عن معلميه المكتبات الكبيرة، وابن الأشيب كتباً قيّمة من أبي عبد الله العابد فاسي الأصل؛ وأخيراً كان جامع الكتب الغرناطي ابن رشيد المتوفي في فاس الذي تم العثور على مؤلفاته المكتوبة بخطه في اسكوريال[١].

حاول خ. ريبيرا أن يحدد الكمية الإجمالية للمخطوطات التي أنشأها العرب في إسبانيا خلال الحقبة الممتدة من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر، فتوصل إلى نتيجة مفادها أن كميتها كانت كحد أدنى «حوالي مليونين»، لقد رسم ريبيرا صورة مؤثرة، لكنه اتخذ البيانات الرقمية منالمصادر بصورة ليست انتقادية، وقام علاوة على ذلك بإحصاءات، أظن أن التقدير الأقرب إلى الحقيقة هو نصف مليون مخطوطة (انظر التعليل على ذلك أدناه) كما أشار الباحث نفسه إلى الأسباب الأساسية لهلاك المخطوطات العربية - الأندلسية كإتلاف الورق واستخدامه بمثابة الكرتون للأغلفة وتصدير المخطوطات وإحراقها الجماهيري الذي بدأ منذ أواخر القرن العاشر، وتكرر بصورة دورية عند تغير الأسر الحاكمة، كما أجري ذلك على وجه الخصوص من قبل المعذبين في غضون حركات التحرر ضد العرب وبعدها (من المعلوم أن القضاء على التراث العربي - الإسلامي الفكري والمخطوطي كان من أهم وظائف حركة المعذبين)، وبعد الاستيلاء على غرناطة سنة ١٤٩٢ صودرت من السكان العرب عدة آلاف من المخطوطات وأحرقت كلها على ساحة «الرملة».

نقل جزء من التراث الكتابي الأندلسي إلى المغرب من قبل المسلمين النازحين إليها، ووصل جزء صغير منها إلى أيامنا، أما استكشاف وإحصاء وتحديد أصحاب المخطوطات السابقين الأندلسية، فلم يتم ذلك إلى الآن بصورة واسعة.

---

(١) نفس المؤلف، ص ٨٩-٩١ (الترجمة إلى العربية، ١٩٥٩، ص٨٣).

في منتصف القرن التاسع بدأ الفتح العربي لصقليا (من قبل الأغلبيين الحاكمين في شمال إفريقيا) وانتهى سنة ٨٧٨، فأضحت الجزيرة لفترة تزيد على قرنين مجالاً لانتشار الثقافة العربية – الإسلامية؛ نشأت في صقلية طائفة من الشعراء والأدباء العرب، وقد تواجدت فيها مجموعات الكتب العربية ولاسيما عند الملك روجير الثاني بعد الاحتلال النورماني في القرن الثاني عشر، بعد ذلك بقي مصير تلك الكتب مجهولاً.

إنّ المجموعات المعاصرة من المخطوطات العربية بإيطاليا وإسبانيا هي الأقدم في أوروبا؛ والمشهور منها في إسبانيا مجموعة الأسكوريال حيث انضمت إليها عدة مجموعات خلال القرن السادس عشر، وكذلك مكتبة ملك المغرب مولاي زيدان (أكثر من أربعة آلاف مجلد) التي سلبت عند نقلها بحراً سنة ١٦١١؛ وبعد حريق عام ١٦١٧ بقيت منها حوالي ١٩٥٠ وحدة تخزين، وتوجد في ثلاث مكتبات بمدريد وبعض المدن الإسبانية الأخرى ما يزيد على ألف وحدة تخزين، وفي كل البلاد حوالي أربعة آلاف وستمائة مخطوطة عربية وإسبانية – عربية.

تخزن في البرتغال في مكتبتين بلشبونة وواحدة بإيفورا مئة مخطوطة عربية.

وبدأ في إيطاليا جمع المخطوطات العربية منذ القرن الرابع عشر ويبلغ مقدارها في الوقت الراهن ما يزيد عن سبعة آلاف مجلد (وفي الفهارس أكثر من تسعة آلاف رقم)، وتخزن بصورة متبعثرة في أكثر من خمسين مكتبة موزعة في أربعين مدينة، وتخزن الأساسية منها في ميلانو وروما (بما فيها كذلك مجموعات الفاتكان) وبولونيا وفلورنسا، ومن ضمنها الكثير من المخطوطات العربية – المسيحية التي أجلبت من الأديرة والمجموعات الخاصة في الشرق الأدنى، وتم جلب المجموعات الكبيرة من اليمن والصغيرة من استنبول ودول البلقان والعراق وليبيا وإثيوبيا والصومال[1].

---

(١) انظر بالتفصيل: Pearson، ١٩٧١، ص ٢٤٨-٢٦٠، ٢٧١-٢٧٢، ٢٧٣-٢٧٨، ٣٤٠-٣٤٢؛ مكتبة المخطوطات العربية، ص ١٥٤-١٦٢، ١٦٢-١٧٤، ٣٣٣، ٣٣٦؛ ١٩٨٢؛ عواد؛ World Survey IM, ١٩٩٣.

تركيـا

عرفت المجموعات الكتبية الصغيرة والمكتبات الوقفية في الولايات الجنوبية الشرقية من تركيا منذ القرن الحادي عشر، في عهد أسرة المروانيين الكردية الحاكمة (٩٨٣-١٠٨٥) «بلغت يسراً مادياً كبيراً كل من المدن آمد وميافارقين وحصن كيفا، كما امتازت تلك المرحلة بنشاط ثقافي كبير»[١]، ففي تلك الحقبة بالذات جمع الكاتب والشاعر والوزير أبو نصر أحمد بن يوسف المنازي (ت١٠٤٥) «كتباً كثيرة ثم وقفها على جامع ميافارقين وآمد، وهي إلى الآن موجودة بخزائن الجامعين ومعروفة بـ" كتب المنازي"» هذا ما كتبه سنة ١٢٧٤ (أو قبل ذلك بقليل) ابن خلكان[٢]، وقد أسس الوزير الآخر أبو القاسم المغربي (ت١٠٢٧) من مجموعته الوقف لصالح أهل ميافارقين[٣].

كما قيل أعلاه أنه في عام ١١٨٣ أخذ أحد مقربي صلاح الدين من آمد سبعين رحل حمار من الكتب، وحسب إخبارية المؤلف نفسه من القرن الثالث عشر كانت في آمد مكتبة احتوت على ١٠٤٠٠٠كتاب[٤]، وأضحت مجموعة الفيلسوف حسام الدين بن أرطوق (ت١١٩٧)، وذلك لدى الضريح الذي بناه هو في ماردين[٥]، كما

(١) بوسفورت، ١٠٧١، ص ٨٨.

(٢) ابن خلكان، ١، ص ٤٤-٤٥.

(٣) ابن الأثير، المجلد التاسع، ص ٢٢٦، ٢٣٣، ٢٣٥، وما يليها؛ المجلد العاشر، ص١١؛ المقريزي، خطط، ٢، ص ١٥٧، ومايليها؛Eche، ١٩٦٧، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٤) ابو شامة، ٢، ص ٣٩؛ لا شك أن العدد مبالغ فيه.

(٥) ابن أبي أصيبعة، ٢، ص ٣٠٠؛Eche، ١٩٦٧، ص٢٠٠.

وضعت نفس المنطقة في المدرسة التي شيّدها السلطان أبو الحسن من آل أرطوق في الوقف سنة ١٢٧٧، الكتب التي وصلت واحدة منها إلى أيامنا[١]؛ ويؤرخ وقف الأرطوقي قاره أرسلالة المظفر في المدرسة التي بناها برباط ميافارقين كذلك بعام ١٢٧٧[٢]، سَلَّم إلى خانقاه ماردين مخطوطاته عالم الحديث الفقيه شمس الدين أبو العلاء محمود بن أبي بكر الحنفي (ت١٣٠٠)[٣].

إن البيانات حول الثقافة الكتبية العربية في عهد الأسر التركية الحاكمة المبكرة في الأناضول خلال الحقبة الواقعة ما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر تكاد يكون معدومة، وقد بدأت تتطور في القرن الخامس عشر ولا سيما في القرن السادس حين ظهرت المكتبات الأولى، ويعود سبب غنى المكتبات التركية الحالية ليس فقط إلى جهود العلماء والنساخين المحليين – ولو أن عددهم لم يكن قليلاً – وإنما لتدفق المخطوطات من المراكز الأكثر قدما كبلاد الشام ومصر والعراق والجزيرة العربية، وبالأخص ينسب ذلك إلى المخطوطات العربية من القرن العاشر إليالقرن الخامس عشر، أما طرق وزمان نقل المجموعات الكتبية إلى المكتبات العاصمية الاستنبولية فلم تدرس بصورة مرغوبة حتى الآن، يمكن أن ننوه كذلك إلى النهب المألوف في النزاعات الاقطاعية الداخلية في القرون الوسطى إذ كان ذلك النهب على شكل غنائم، أو الهبات الطوعية للسلكان وممثلي السلطة وانتقال العلماء والموظفين مع الكتب وتجارة الكتب ومركزه إدارة أرصدة الأوقاف، وما إلى ذلك، وإذا راجعنا مع تاريخ المكتبات الاستنبولية نفسها نجد أنها تشكلت معزمها بين القرنين الثامن عشر والعشرين، والقليل منها ظهرت في القرن السابع عشر وقبله.

(١) Eche، ١٩٦٧، ص ٢٠٠: ويخزن ذلك الكتاب في المكتبة البلدية بالإسكندرية.

(٢) Eche. 1967. P.201.

(٣) نفس المؤلف،١٩٦٧، ٢٠١.

في الوقت الراهن يوجد عشر مكتبات في أنقرة تحتوي على ما يزيد عن ثلاثة عشر ألف مخطوطة عربية، ومنها اثنا عشر ألفاً في الكلية اللغوية والتاريخية- الجغرافية بجامعة أنقرة[١]، وحدت ست عشرة مكتبة استنبولية في أرصدتها أكثر من مئة مجموعة مختلفة، وهي تعرف بأسماء أصحابها الأسبقين أو بأماكن تخزينها الأول[٢]، والمكتبات الكبرى هي : السليمانية (٣٠٣٩٠ مخطوطة عربية حسب عام ١٩٥٧)[٣]. وطوبقابو سراي (١-٩٣٢)، وبايزيد العمومية (٩١٤٥)، والوطنية (٨٥٨٥)، ومكتبة جامعة استنبول (٦٩٠١)، ومكتبة آياصوفيا (٦٦٧٧)، ونور عثمانية (٣٥٠٠)، وكارولو (٢٤٨٥)، وعاطف أفندي (٢٣٨١)، والمكتبة العمومية الأسكدارية (٢٢٣٩)، ومرات ملا (١٧٧٣)، ومكتبة راغب باشا (١٧٥١)، وعلى وجه الإجمال يحصى عدد المخطوطات باستنبول بما يزيد عن مائة ألف مخطوطة بالإضافة إلى ست وسبعين مكتبة، وكذلك مجموعات خاصة في سبع وستين مدينة أخرى (وأهمها في أقحصار وبرودور وبورصا وديار بكر وإزمير وكاستامونو وقونيا وكوتاخيا ومانيسا وتشوروم وأدرنة)، حيث تخزن بما يزيد عن سبعين ألف، وبما أن البيانات حول كثير من المخطوطات الغير مميزة بحسب اللغة، فلا بد أن نفرض أن كمية المخطوطات العربية في البلاد تزيد عن مائتي ألف؛ وتحتل المكتبات التركية المرتبة الأولى ليس فقط من حيث احتوائها على كميات كبيرة من المخطوطات، بل من حيث قيمة هذه المخطوطات، إذ أنها تحتوي على المؤلفات المكتوبة بخطوط مؤلفيها والمؤلفات الفريدة والتخطيطية والمصورة والبارزة بمختلف النواحي[٤].

---

(١) وهي مجموعة كانت تابعة في السابق لخوجا إسماعيل أفندي، انظر: Ritter، ١٩٥٣، ص ٦٤.

(٢) المخطوطة مرقمة حسب المجموعات، فلذا تستخدم أسماؤها القديمة في الأدب العلمي حتى الآن، انظر قوائم هذه المجموعات عند Schacht، ١٩٢٧، ١٩٣٠؛ Howard، ١٩٣٩؛ آتش، ١٩٥٨ Sezgin, GAS، المجلد الأول ص ٤٢٨-٤٥٤؛ مكتبة المخطوطات العربية، ص ٢٦٨-٢٧١.

(٣) ومؤخراً انضمت إليها طائفة من المجموعات من المكتبات الأخرى.

(٤) لمزيد من التفاصيل: راجع مقالنا في ((مكتبة المخطوطات العربية)) ص ٢٦٥-٢٧٤، والبيبليوغرافيا في المصدر نفسه، ص ٢٧٤-٢٩٦، ٣٤٠-٣٤١؛ عواد ١٩٨٤؛ World Survey IM, ١٩٩٣.

دول البلقان:
ألبانيا، بلغاريا، اليونان، رومانيا، يوغوسلافيا

يرتبط انتشار الكتاب العربي المخطوط في هذه الدول مع تلك المرحلة من تاريخها حين كانت هي من ضمن الدولة العثمانية الكبرى، كما يعود هذا كذلك إلى سكانها من المسلمين، وأقدم مكتبة في المنطقة هي مكتبة غازي خوسرو بيك بسرايفيو التي تأسست سنة ١٥٣٧؛ أسس المكتبة في مدينة رودوس على جزيرة رودوس حافظ أحمد آغا سنة ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣-٩٤م؛ وفي غضون حساب المكتبات والمخطوطات الإسلامية في الدولة العثمانية في فترة ١٨٩٣-١٨٩٥ تم تسجيل بألبانيا الحالية ١٣٣٥ مخطوطة في ثلاث مكتبات، وفي اليونان ٦٠٩٦ مخطوطة في سبع عشرة مكتبة، وفي يوغسلافيا ١١٥٩ مخطوطة في تسع مكتبات.

الآن يخزن في ألبانيا حوالي خمسمائة مخطوطة عربية، وفي اليونان أكثر من ألفين مخطوطة «إسلامية»، وأما العربية بينها فقليل[١]، وبعد تفكك يوغسلافيا بقي عدد أكثر المخطوطات في البوسنه نحو عشرة آلاف وحدة، بعد ذلك في مقدونيا ٤٢٦٠، في يوغسلافيا نفسها حوالي ١٥٠٠، وفي كرواتيا حوالي ألف وأكثرها باللغة العربية

(١) لاحظ ب. أوتاس سنة ١٩٦٥ وجود عند مدير المكتبة المذكورة برودوس قائمة جرد ثلاثة آلاف مخطوطة على ما يبدو، ولكنه لم ير بنفسه إلا حوالي مئة مجلد على الرفوف.

وتوجد في بلغاريا (في المكتبة الوطنية بصوفيا) ما يزيد عن ثلاثة آلاف مخطوطة، وفي رومانيا (في بوخارست وكلوج) حوالي ثلاثمائة مخطوطة عربية[١].

إيران وأفغانستان

انتشرت الكتب باللغة العربية في هذين البلدينفي نفس الآونة المبكرة تقريباً حين انتشارها بالعراق وبلاد الشام، وبهذا فإنَّ الكتب العربية بإيران بدأت من القرن التاسع، وتنسب «خزائن الطاهرين»[٢] بنيسابور إلى عداد المكتبات الأولى في البلاد، وقد توقف بهمذان لفترة طويلة في شتاء مثلج أبو تمام (حوالي ٨٠٥-٨٤٦)، فسكن في بيت أحد الرؤساء حيث كانت مكتبة مليئة بالدواوين العربية وكتب أخرى[٣]، وفي القرن التاسع في أصفهان أنفق أحد الهواة ثلاثمائة ألف درهم على الكتب[٤]، وكان أكبر أثرياء نيسابور أبو منصور البغوي - الذي رأس فيها البريد والرقابة - صاحب أكبر مجموعة كتبية بخراسان في منتصف القرن العاشر[٥]، وخصص الحاكم البويهي الجبار عضد الدولة (٩٤٩-٩٨٣) للمكتبة صالة كبيرة في قصره بشيراز، ويزعمون أنه حشد فيها كل الكتب الموجودة في تلك الآونة في كافة مجالات العلوم، وكثيراً ما كان يستشهد

---

(١) انظر بالتفصيل: Pearson، ١٩٧١، ص ١٨٣، ١٩٧-١٩٩، ٢٤٥،٢٧٢-٢٧٣، ٣٤٣-٣٤٥؛ مكتبة المخطوطات العربية، ص ٢٧، ٣٥، ٧٨-٧٩، ٢٠٨-٢٠٩، ٣٢٣-٣٢٥، ٣٣٦، ٣٤٣-٣٤٣؛ عواد، ١٩٨٤ .World Survey IM, ١٩٩٣

(٢) ابن النديم، ص٤٢.

(٣) وفي غضون استخدامه هذه المكتبة بالذات صنف ديوان الأشعار العربية القديمة ((كتاب الحماسة))، ابن ابن خلكان،١،ص ٢٦١.

(٤) ميتس، ١٩٧٣، ص ١٥٠.

(٥) ابن حوقل، ص ٣٢٠؛ ميتس، ١٩٧٣، ص٧٣، التعليق ١٨.

المقدسي بالكتب التي قرأها في هذه المكتبة التي وصفها بالتفصيل[١]، فمثلاً رأى فيها المقدسي سبعة مجلدات للمؤلف الجغرافي الجيهاني الذي لم يصل إلى أيامنا[٢]؛ وبنى أحد مقربي عضد الدولة برامهرمز مكتبة؛ حيث كان القراء، ومن ينسخ الكتب يقبضون إعانة مالية[٣]، كما أخبر المقدسي أنه كانت المكتبة الكبيرة برامهرمز (وربما هي نفسها) مركزاً للثقافة المعتزلية[٤].

وفي الرِّي كانت لدى الوزير البويهي أبي الفضل ابن العميد (ت٩٧١) كتب كثيرة في كافة العلوم، وكافة فروع الفلسفة والأدب قدرها أكثر من مئة رحل جمل؛ وقد عمل أميناً لمكتبته المؤرخ المقبل مسكويه[٥] الذي يتكلمون عنه مؤخراً كما يتكلمون عن أمين المكتبة في شيراز، تمكن عدو ابن العميد وخليفته إسماعيل بن عباد «الصاحب» (٩٣٨-٩٩٥) بأن يجمع مكتبة أكبر التي يبلغ فيها مقدار الكتب في المجال الديني وحده - كما يزعمون - أربعمائة رحل جمل، وربما احتوت على ٢٠٦ آلاف مجلد، أما فهرسها فملأ عشرة مجلدات[٦]. أوصى القاضي أبو حاتم محمد ابن حبان البستي (ت٩٦٥) لمجينة بست أو نيسابور الدار مع المكتبة ومساكن العيش للعلماء النزلاء والمنحات الدراسية لإعالتهم، بيد أنه بعد مضي أقل من قرن من الزمن بقيت المكتبة الوقفية هذه بلا كتب وكانت تقدم للاستخدام العام، فكما كتب أبو حاتم البستي أحد

---

(١) المقدسي، ص ٤٤٩-٤٥١؛ بارتولد (١٩٠٣)، المجلد السابع، ص ١٥٧-١٥٨؛ ميتس، ١٩٧٣، ص١٤٩.

(٢) المقدسي، ص٣-٤؛ بارتولد (١٩٠٠)، المجلد الأول، ص ٥٧.

(٣) ميتس، ١٩٧٣، ص١٥١-١٥٢.

(٤) المقدسي، ص٤١٣؛ بارتولد (١٩٠٣)، المجلد السابع، ص١٨٨.

(٥) مسكويه، المجلد الثاني، ص٢٢٤-٢٢٥؛ ميتس، ١٩٧٣، ص ١٥٠، يروون أن ابن العميد، كان يقيم مكتبته كثيراً لدرجة أنه لا يهتم إلا بسلامتها حين نهبوا بيته.

(٦) ياقوت، إرشاد، ٥، ص ١٥٠؛ ميتس، ١٩٧٣، ص٩٤، ١٥٠، من الظاهر أن الأرقام مبالغ فيها؛ وفي عهد محمود الغزنوي في حوالي عام ١٠٢٩ احترقت المكتبة كلّها.

مخبري القرن الحادي عشر «فكان السبب في ذهابها مع تطاول الزمان وضعف السلطان واستيلاء ذوي العيث والفساد على تلك البلاد»[١].

كانت في غزنة – التي أضحت في النصف الأول من القرن الحادي عشر عاصكة لدولة واسعة ومركزاً ثقافياً هاماً – مجموعات كتبية كثيرة ومكتبة القصر لدى الغزونيين؛ أسس السلطان محمود الغزنوي (٩٩٨ -١٠٣٠) بغزنة مدرسة كادت أن تكون كل أماكنها مخصصة للمكتبة ومليئة بالكتب[٢]، لكن «يسر المدينة اندثر من جراء العديد من الخرائب»،وذلك في الأعوام ١١٥٠و ١٢٢١ و١٣٢٦[٣] فأدى ذلك إلى هلاك المكتبات، ولم تصل إلى أيامنا إلا بعض الكتب منها التي تم نسخها بغزنة في مرحلة ازدهارها[٤].

شاهد ابن القفطي في المكتبة لدى مدرسة نظام الملك بأصفهان كتاب المظفر بن أحمد بن الفضل الأصفهاني اليزدي الذي قطن عند ملكشاه (١٠٧٢-١٠٩٢)، وكتب ما بين كل بيت في «الحماسة» بيتاً من تأليفه[٥]؛ كانت لدى المسجد الجامع في نفس المدينة مكتبة ملأ فهرستها ثلاثة مجلدات[٦]؛ كما رأى البيهقي في مكتبة السلطان سنجر

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، المجلد الأول، ص ٦١٧-٦١٨؛ ميتس، ١٩٧٣، ص ١٥١؛ وقد تأسف الخطيب البغدادي – الذي تنسب إليه هذه البيانات من ياقوت – كثيراً إذ قال: (ومثل هذه الكتب الجليلة كان يجب أن يكثر بها النسخ فيتنافس فيها أهل العلم ويكتبونها ويجلدونها احرازاً لها)).

(٢) بارتولد (١٩١٦)، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص ٤٣١-٤٣٢.

(٣) بارتولد(١٩٠٣) المجلد السابع، ص ٩٤؛ انظر عن الدمار القاسي لغزنة- الذي سببه في عام ١١٥٠ أو ١١٥١ الحاكم الغوري علاء الدين حسين جهنسوز (أي ((محرق العالم))) – عند بولديريف، ١٩٦٣، ص ٧-١٢.

(٤) مثلاً نسخة ((تحديد نهايات الأماكن)) للبيروني التي هي – على ما يبدو – نسخة من الأصل المكتوب بخط المؤلف (وتخزن حالياً في استنبول في الكتبة السليمانية في رصيد السلطان الفاتح، العدد ٣٣٨٦)، انظر: بولغاكوف، ١٩٦٦، ص ٣٠-٣٦.

(٥) ابن القفطي، ص ٣٢٨..

(٦) بارتولد (١٩٠٣)، المجلد السابع، ص ١٧٠-١٧١.

(١١١٨-١١٥٧) – الذي كان مشغوفاً بكتبه بسبب حسن اعتقاده فيه – مؤلفات الطبيب الحكيم أبي الفتح كوشك[١]، ولعلها كانت موجودة آنذاك بنيسابور.

يذكر الفيلسوف نفسه المكتبة في بوزجان[٢]، وفي بردسير (في مكان كرمان الحالية)؛ أقام مغيث الدين محمد الأول (١١٤١-١١٥٦) لدى المسجد الجامع مكتبة من خمسة آلاف مجلد من مختلف العلوم[٣]، وقد اعتبر ياقوت المكتبة بمدينة ساوه – التي أحرقها المغول – أكبر مكتبة في العالم[٤].

جمع في آلاموت قادة الاسماعيليين الصباحيين مكتبة كبيرة التي نالت شهرة واسعة، في غضون دمار آلاموت من قبل جيوش هولاكو سنة ١٢٥٦ وغدت المكتبة تحت تصرف المؤرخ جويني الذي حافظ فيها على المؤلفات القيّمة – برأيه – والأدوات الفلكية، أما الكتب المحتوية على التعاليم الهرقوطية لديالإسماعيليين فأمر بإحراقها[٥].

في عام ١٢٥٩ تم بناء المرصد لناصر الدين الطوسي على الهضبة شمالي مدينة المراغة، وكانت لدى ذلك المرصد مكتبة نقلت إليها الكتب من المدن المحتلة من قبل هولاكو بما فيها بغداد وآلاموت، يخبرون أن عددها قد بلغ أربعمائة ألف؛ عمل أيضاً في هذه المكتبة حوالي عشر سنوات البغدادي ابن الفوطي، وبعد مضي أقل من مئة عام أي في سنة ١٣٣٩ تحول المرصد إلى أنقاض[٦].

(١) البيهقي، تتمة، ص٩٩-١٠٠.

(٢) نفس المصدر، ص٤٤.

(٣) بارتولد (١٩٠٣) المجلد السابع، ١٤٤.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، المجلد الثالث، ص ٢٤؛ بارتولد (١٠٣)، المجلد السابع، ص١٣٦.

(٥) بارتولد (١٩٠٣)، المجلد السابع، ص٢٠٠.

(٦) بارتولد (١٩٠٣)، المجلد السابع، ص ٢٠٣-٢٠٤؛ نفس المؤلف (١٩١٢أ)، المجلد الثامن، ص ٢٥٨؛ نفس المؤلف (١٩١٨)، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص ١٣٨؛ كراتشكوفسكي، المجلد الرابع، ص١١٣؛ بونياتوف، ١٩٨١، ص٧.

بنى غازان خان في فترة ١٢٩٦-١٣٠٣ ضريحاً غربي تبريز، وقد ظهرت حواليه بمشاركة رشيد الدين طائفة من المباني؛ المسجد الجامع والمدرستان والمستشفى والمكتبة والمرصد ومعه مؤسسة تعليمية لتجريس المواد الديناوية، ومدرسة لمئة صبي يتيم يتعلمون فيها القرآن، وفيها مائة مصحف قرآني[١]، وتشكلت من النسخ التاريخية والدينية من مؤلفات رشيد الدين المعدّ﴾ وقتئذ مجموعة منالمخطوطات (العربية والفارسية) التي سرعان ما تمّ القضاء عليها سنة ١٣١٨، وأن بعضها وصلت إلى أيامنا[٢].

بعد القرن الثالث عشر يفقد الكتاب العربي في إيران وأفغانستان أهميته ويضيق مجال نسخ المؤلفات ونقل كتابتها بالعربية، ومع ذلك بقيت كمية المخطوطات العربية في المكتبات أكثر من النصف، وكان ذلك على حساب الكتب التعليمية والمصاحف القرآنية ومجموعات الأحاديث والمؤلفات المبكرة، وكثير ما يذكر في المصادر عن مكتبات الحكام التيموريين من القرن الخامس عشر بهراة، مثلاً عند شاه رخ وأبي سعيد وحسين بيقرا[٣]، وعند مقربيهم مثل نوائي[٤]، وعند الحكام الصفويين ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر[٥] وغيرهم، تذطر كذلك المجموعات الخاصة مثل التي عند أبي طالب الجيلاني (توفي بأصفهان سنة ١٧١٥)، واحتوت مجموعته على أكثر من خمسة آلاف مجلد[٦]، بيد أنه من الصعب تحديد نسبةالكتب باللغة العربية الموجودة

---

(١) بارتولد (١٩١٢أ)، المجلد الثامن، ص٢٩٤.

(٢) نفس المؤلف، ص٣٠٣، Van Es؛308، ١٩٨١، ص ٢-١١.

(٣) كان أمين مكتبته مدة درويش علي شقيق مير علي شيرانوائي المشهور (بارتولد (١٩٢٨)، المجلد الثامن، الجزء الثاني، ص٢٣٧).

(٤) انظر عن نسخة ((الفتوحات المكية)) لابن عربي، وعن أمين المكتبة الرسام حاجي محمد بهراة عند بارتولد (١٩٢٨)،المجلد الثاني، الجزء الثاني، الصفحتان ٢٣٦ و٢٥٨ مع الإشارات إلى المصادر الفارسية.

(٥) مثلاً أسس عباس العظيم (١٥٨٧-١٦٢٩) وقفاً من الكتب في مكتبة أدربيل (بارتولد (١٩٠٣)، المجلد السابع، ص ٢٠٥)..

(٦) القمي، ١، ص ١٠٥ (وأنا مدين على هذه المعلومة لستانيسلاف بروزوروف).

فيها، ويظهر أنّ البيانات حول تاريخ المكتبات في كلا البلدين تحتوي على الأغلب في المصادر الفارسية، وكما هو معلوم لي لم يتم جمعها حتى الآن.

وفي القرنين التاسع عشر والعشرين انتقلت الكثير من المخطوطات العربية في إيران عبر سوق الكتب إلى المخازن الأوروبية، وكما ينوه المثال على مجموعة مسجد أدربيل شمال غرب إيران على بعض المخطوطات من بغداد والمراغة.

قليل ما كان معروفاً منذ نصف قرن من الزمن عن المخازن العصرية وكمية المخطوطات في كلا البلدين، لكن منشورات عشرات السنوات الأخيرة وضحت الصورة.

في الوقت الراهن احتشدت في طهران حوالي نصف الثروات المخطوطية الموجودة في إيرانن فتحصى إجمالاً بخمسة وخمسين ألف مخطوطة.

وفي مشهد تحتوي أقدم مكتبة في إيران لدى ضريح علي الرضى (آستان قدس) – التي تذكر منذ القرن الرابع عشر – على أكثر من خمسة عشر ألف مخطوطة، وإذا أخذنا بالحسبان أرصدة مكتبات أخرى ومجموعات خاصة توجد في هذه المدينة إلى أربعة عشر ألف مخطوطة، وعدا ذلك توجد في مكتبات كل من يزد وأصفهان وتبريز وشيراز، وكذلك بهمذان، وآمل، وأراك وقزوين، وقاشان، وقم، ورشت، وسبزوار عدة آلاف من مجلدات المخطوطات، ومن كميتها الإجمالية المقدرة بـ ١٦٦ ألف في إيران تنال المخطوطات العربية نصيبها قدره حوالي ١٦٠ ألف.

وأما كمية المخطوطات التي عثرت في أفغانستان فأدنى بكثير، ويمكن أن نقدر العدد الإجمالي للمخطوطات العربية بحوالي ثلاثة آلاف وحدة[1].

---

(١) انظر بمزيد من التفاصيل: مكتبة المخطوطات العربية، ص ٣١-٣٣، ١٢٤-١٥٢، ٣٢٦، ٣٣٢؛ عواد؛ World Survey IM, ١٩٩٣. ١٩٨٤

رابطة الدول المستقلة
(الاتحاد السوفييتي سابقاً)

انحدر من آسيا الوسطى وضفاف الفولغا والقوقاس وسواحل البحر الأسود الكثير من المؤلفين الذين كتبو باللغة العربية[١]، ففي الحقبة الواقعة ما بين القرنين الثامن والعاشر جرى نشاط المؤلفين الذين أصلهم من آسيا الوسطى، (مثل الشاعر الخريمي والرياضي الخوارزمي والفيلسوف الفارابي ، وعالم الحديث محمد بن إسماعيل البخاري وغيرهم)، في الأرجاء المركزية من الخلافة؛ ومن المحتمل أن المجموعات الأولى من الكتب العربية ظهرت في مرو في عهد الطاهريين أو قبل ذلك، لكن المصادر كشفت عن مكتبات السمعانيين ببخارى والمأمونيين بكر كنج (الجرجانية)، ويروي ابن سينا عن المكتبة الأولى، فلما كان خو في السابعة عشر من من عمره اشترك في مداواة نوح بن منصور (٩٧٦-٩٩٧)، ونال عطفه «فسألته يوماً الأذن لي في دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب، فأذن لي، فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على البعض في بيتٍ كتب اللغة العربية والشعر،وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد وطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت إليه، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط، وما رأيته قبل ولا رأيته أيضاً وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل في علمه»[٢]، ليس من المعروف كيف تشكلت هذه المكتبة لكنها هلكت بعض مضي عدة سنوات من الحادث الموصوف، وذلك إبان الحريق، ويحتمل أنّ هذا قد حدث في غضون الاضطرابات الاجتماعية – السياسية بالمدينة، ومعروفة لي فقط مخطوطة واحدة

---

(١) إلى الآن لم يتم حتى الحساب التمهيدي لأسمائهم ومؤلاتهم، ولو أن أهمية ذلك البحث بينة، والحق يقال أنه منذ فترة قريبة ظهر مؤلف حول علماء الرياضيات والفلك في آسيا الوسطى: ماتفييفسكايا، تلاشيف، ١٩٨١.

(٢) ابن القفطي، ص٤١٦؛ بارتولد (١٩٠٠)، المجلد الأول، ص ٥٤؛ خالدوف، ١٩٨١أ، ص ٣٠.

واصلت إلى أيامنا تم إعدادها بغية تقديمها كهدية للأمير الساماني الأخير إسماعيل بن نوح (١٠٠٠-١٠٠٥)[١].

ثمة أخبار غير مباشرة حول مكتبات في جرجانية خوارزم، ففي نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر احتشدت هناك جماعة من نخبة العلماء (أبو نصر منصور بن عراق، وأبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي، وأبو الخير، وابن الخمّار، وأبو ريحان البيروني، وأبو علي ابن سينا وغيرهم) الذين أهدوا مؤلفاتهم لممثلي أسرة المأمونيين (الأسرة الثانية لخوارزمشاهيين)مثل الوزير أبي الحسين السهلي وأنسبائه[٢]؛ كما كانوا دون شك يمتلكون بأنفسهم مجموعات كبيرة من الكتب، عدا ذلك يذكر أن خوارزمشاه أبا العباس مأمون (حكم ما بين ١٠٠٩-١٠١٧) كلف للثعالبي بأن يعتني بمكتبته، وذلك حوالي عام ١٠١١[٣].

كتب عن مكتبات مرو على تخوم القرنين الثاني والثالث عشر ياقوت الحموي ذلك المؤلف الكثير الخبرة والنساخ والعليم بالكتب، فكان بمقدوره أنه توجد ف يمرو «كثرة الأصول المتقنة بها»، ولما رحل سنة ١٢١٩ كانت هناك«عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة»، وكانت خزانتان في المسجد الجامع: ١) العزيزية التي وقفها عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني (أو عتيق بن أبي بكر)، احتوت على «اثني عشر ألف مجلدٍ أو ما يقاربها»؛ ٢) الكمالية ولم يدر ياقوت«إلى من تنسب»؛ ٣) والمكتبة التي أسسها بمدرسته الحنفي شرف الملك المستوفي أبو سعد محمد بن منصور (ت٤٩٤هـ/ ١١٠١م)، وأكثر الاحتمال بمرو، وفي هذه المكتبة كانت نسخة من ستة

(١) وهي مخطوطة ((ديوان الآداب)) لأبي إبراهيم الفارابي المؤرخة بنهاية ١٠ رمضان ٣٩١هـ/ ٣آب (أغسطس) ١٠٠١م، وتخزن حالياً باستنبول في مكتبة ((السليمانية)) في رصيد بشير آغا أيوب، العدد ١٢٨، انظر: المخطوطات المصورة، ١، ٣٥٤.

(٢) بولغاكوف،١٩٧٢، ص١١٩-١٣١؛خالدوف، ١٩٨١أ، ص ٣٤.

(٣) Bosworth, 1968, P. 4-5.

مجلدات «تجارب الأمم» لمسكويه المنسخة بصورة تخطيطية سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م، وقد وصلت أربعة مجلدات منها إلى أيامنا وتخزن متوزعة بين قازان (المجلد الأول) وطشقند (المجلدان الثالث والسادس)، وسانت بطرسبورغ (المجلد الخامس)؛ وتوجد على المجلد الخامس ملاحظات القراءة المؤرخة بأواخر القرن السادس الهجري والثاني عشر الميلادي وبداية القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي، وتوجد في المجلد الأول ملاحظة مكتوبة بيد ياقوت الحموي الذي طالعه في سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م[1]؛ ٤) خزانة نظام الملك الحسن بن إسحاق في مدرسته؛ ٥-٦) خزانتان لدى ممثلي سلالة السمعاني (علماء الحديث والفقهاء والمورخين الوراثيين)؛ ٧) خزانة في المدرسة العميدية؛ ٨)خزانة لمجد الملك«أحد الوزراء المتأخرين بها»؛ ٩) الخزائن في مدرستهاالخاتونية؛ ١٠) والضميرية في خانكاه هناك «وكانت [كتبها] سهلة التناول لا تفارق منزلي، منها مئتا مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مئتي دينار، فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها وأنساني حبها كل بلد عن الأهل والولد وأكثر فوائد هذا الكتاب

---

(١) كانت مخطوطات كل من هذه المجلدات توضح في الأدب العلمي بمجرد وقوعها في مجال بصر المستعربين، وقد تم شراء المجلد الخامس من قبلاً. إيفانوف ببخارى سنة ١٩١٥ وأورد إلى بطرشغراد مع المخطوطات المحصول عليها للمتحف الآسيوي؛ في عام ١٩١٦ نشر إ.ي كراتشكوفسكي مقالاً وصف فيه ذلك المجلد (انظر: كراتشكوفسكي، المجلد السادس، ص ٣٧٣-٣٨٢؛ ميخايلوفا، ١٩٦٥، ص ٢٩-٣١ مع البلوغرافيا المفصلة، ودالة الكتاب الحالية لهذا المجلد ٣٤٥C)؛ وفي مقال آخر سنة ١٩٢٤ (انظر: كراتشكوفسكي، المجلد السادس، ص٤٥٨) ذكر كذلك المجلد الأول بالاستناد على قائمة المخطوطات ألعربية بقازان التي أرسلها له أ. إ.خوري الذي نشر في نفس الآونة مقالاً عن هذه النسخة (ويخزن حالياً في المكتبة العلمية لجامعة قازان الحكومية تحت رقم ٩٥٠)؛ وقد وصف المجلد السادس سنة ١٩٢٦ ف.ف. بارتولد (انظر: مجموعة المخطوطات الشرقية، المجلد الأول، ص ١٨، الرقم ٩، المجلد الثامن، ص ٤٥٠-٤٥١؛ توجد النسخة في معهد الاستشراق لأكاديمية العلوم في جمهورية أزبكستان تحت رقم الجرد ٣٣٨٨)؛ وصف المجلد الثالث سنة ٢٩٣٦أ.إ.مجموعة المخطوطات الشرقية، المجلد الأول، ص١٧، الرقم ٨؛ ويخزن المجلد في الوقت الراهن تحت رقم الجرد ٤١)؛ كان من بين قراء هذه النسخة من المؤلف في نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي محمد بن يحيى المستوفي، وملاحظته مكتوبة في المجلد الخامس الصحيفة ٢٥١أ (وربما هو أحد سلان مؤسس المكتبة الذي ذكر عند ياقوت الحموي؟).

وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن»[1]، من السهل أن نتصور مدى غنى المكتبات بمرو وذلك إذا أخذنا بالحسبان أن مؤلّفه المقتبس«معجم البلدان» ومؤلفه الأساسي الآخر«إرشاد الأريب» مستندان على مئات المصادر بما فيها عشرات من المؤلفات المفقودة.

يظهر أن المكتبات في الجرجانية قد استمر وجودها في عهد الأسرة الخوارزمشاهية الثالثة والرابعة؛ وثمة أخبار حول المؤلفين (مثل رشيد الدين والوطواط وغيره) الذين كانوا يهدون أعمالهم لممثلي هذه الأسر الحاكمة، كانت المجموعات الكتبية عند الزمخشري (ت١١٤٤) وعند أساتذته مكتوبة بخطه في القرن الثاني عشر بخوارزم[2]، وأنشأ أحد كبار النبلاء وهو شهاب الدين خيوقي (ت ١٢٢٠) في المسجد الجامع الشافعي بكر كانج مكتبة «لم يكن لها مثيل لا قبلها ولا بعدها»[3].

يمكننا الافتراض بكل ثقة بأن سمرقند وغيرها من مدن آسيا الوسطى احتوت على مجموعات غنية من المخطوطات العربية مثل مدن شيروان وداغستان وبلغار وغيرها، لكن المصادر منالمرحلة ما قبل المغولية احتفظت بشكل سيء، أما الباقية فحتى الآن لم تحظ بدراسة مقبولة من حيث تاريخ المجموعات المخطوطية.

في النصف الأول من القرن الثالث عشر قضت موجة جديدة من البدو المحاربين من آسيا المركزية على كمية هائلة من القيم المادية والثقافية المحتشدة بما فيها المكتبات وما تحتويها من المخطوطات العربية، كما قتل الكثير من الناس ومن ضمنهم المولعين بالكتب.

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، المجلد الرابع، ص ٥٠٩-٥١٠؛ المجلد الأول، ص٦.

(٢) بيلايف، ١٩٥٣، ص ٦٦، ٦٧، ٧٦؛ خالدوف، ١٩٧١؛ نفس المؤلف، ١٩٧١أ؛ نفس المؤلف، ١٩٧٣؛ ب. خالدوف وأ. خالدوف، ١٩٧٩.

(٣) بارتولد (١٩٢٧)، المجلد الثاني، الجزء الأول ص٢٣٣.

بعد ذلك نشط بالتدريج النشاط الكتبي ولو أنه قد تغير بصورة ملحوظة واحتل مساحات أوسع من ذي قبل؛ ومن بين هذه التغيرات أن الكتب باللغة العربية قد فقدت بعد القرن الثالث عشر أولويتها في المكتبات الإسلامية بآسيا الوسطى وضفاف الفولغا والقوقاس (باستثناء داغستان) وسواحل البحر الأسود، ولو أن كميتها فيها بقيت تزيد عن النصف.

كما اجتاح تيمورلنك (١٣٧٩-١٤٠٥) من خلال غزواته العديد من المراكز الثقافية (بغداد وحلب ودمشق وغيرها) مع مكتباتها، كما أخذ بعض العلماء والكتب المسلوبة إلى سمرقند، لكن البيانات حول المجموعات الكتبية والعلماء ومكتبات المدارس الكثيرة في تلك الآونة ضئيلة، وبعد أن خاب أمل أبي سعيد من المعارف الكتبية قدم كل كتبه هدية لتلامذة المدارس[١]، وكانت المكتبات لدى شيخ الإسلام عصام الدين بن الملك[٢]، وعند أولوغ بيك لدى المرصد أو إحدى القصور[٣]، كانت مكتبة غنية بالمخطوطات العربية ببخارى عند محمد بارسا (محمد بن محمد بن محمود الحافظي البخاري سنة ١٤٢٠) الممثل والمصلح البارز للصوفية بآسيا الوسطى وهاو الكتب والمؤلف المثمر الذي صنَّفَ تفسيراً من مئة مجلد[٤]، وكانت في مكتبته بصورة خاصة النسخة المذكورة لمؤلف مسكويه من مكتبة مرو من القرن الثانس عشر، وهذا يدل علىإحدى طرق تكميلها. بقيت مكتبة محمد بارسا حتى الأربعينات من القرن التاسع عشر بمثابة إحدى أكبر المكتبات العامة بآسيا الوسطى، وبعد ذلك بدأت تندثر،

---

(١) بارتولد (١٩١٨)، المجلد الثاني، الجزء الثاني ص١٢٦-١٢٧.

(٢) نفس المؤلف ١٢٢.

(٣) نقس المؤلف ١٢١.

(٤) البليوغرافيا عنه:Brockelmann, GAL,SB II، ص ٢٨٢-٢٨٣؛ غريازنيفيتش، ١٩٦٧، ص١٠-١١؛ توجد في مجموعة سانت بطرسبورغ من معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا نسخة للكتاب في النحو مكتوبة بخطه.

وتوجد حالياً المخطوطات التي كانت فيها في مخازن طشقند وسانت بطرسبورغ وموسكو وقازان وبعض المدن الأجنبية.

توجد مع مجموعات المخطوطات من القرنين التاسع عشر والعشرين كمية لا يُستهان بها من المنشورات، وتبقى المرحلة الواقعة ما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر مدروسة بصورة ضئيلة.

وإن المخطوطات العربية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي تحفظ حالياً في مكتبات كل من الجمهوريات المستقلة[1].

شبه جزيرة إندوستان

الهند، باكستان، بنغلاديش

تم تدعيم الثقافة الإسلامية في هذه المناطق على الأغلب بدراسة ونسخ المؤلفات العربية المؤلفة خلف نطاق هذا الأقليم، أما المؤلفون المحليون الكاتبون بالعربية، فكانوا قلائل نسبياً، وتشكل حالة المكتبات في الماضي والحاضر صورة معقدة للغاية، إضافة إلى ذلك من الصعب إبراز المواد المتعلقة فقط بالكتب العربية، وقليل من الفهارس والأعمال في تاريخ المكتبات – التي تم نشرها في القرنين التاسع عشر والعشرين – سهلة المنال بالنسبة لنا.

حسب المعطيات الموجودة في الأدب العلمي يمكن أن نذكر في الهند الحالية الأماكن الآتية حيث تخزن المخطوطات العربية (وسنشير بين قوسين إلى كميتها إذا كانت معروفة أو إلى الكمية العامة للمخطوطات العربية): مكتبة الجامعة الإسلامية (أكثر من ٨٠٠) والمجموعة الخاصة لدى حبيب الرحمن (حوالي الألف والعربية لم تميز

(١) انظر لمزيد من التفاصيل:خالدوف، ١٩٧٨؛ مكتبة المخطوطات العربية ص ٢٢٠-٢٥٢، ٣٣٧-٣٣٨؛ عواد ١٩٨٤؛ World Survey IM, ١٩٩٣.

منها) بعليكارخ؛ مكتبة الجمعية الاستشراقية ببنغاليا (١٥٤١ وحدة حسب الفهرس)، وفي المدرسة الكلكتية (١٠٣)، والمكتبة الوطنية (٦٣٦) بكلكتا؛ المكتبة الاستشراقية العمومية (حوالي ثلاثة آلاف) ببتنة؛ مكتبة سالار جانغ (٧١٦ وحدة الفهرس) و(السعيدية) حوالي الألف دون تمييز العربية منها)، والسيد علي بلغرامي (١٠٨٢ دون تمييز العربية)، والجامعة العثمانية (دائرة المعارف العثمانية)، والنظام والمركزية (الآصافية السابقة)، ومكتبة متحف حيدر آباد بحيدر آباد، بالإضافة إلى المجموعات الخاصة المختلفة بلكهنو وبومباي ومدراس ورامبور وأورانغاباد وأحمد أباد ودلهي وإله أباد ونوسري وبهنا وتونك أودايبور وأوجين؛ ويمكن أن نقدر الكمية الإجمالية للمخطوطات العربية بصورة تقريبية جداً بأكثر من سبعة وثلاثين ألف[١]، وتوجد من ضمنها المخطوطات القديمة التي نشر منها الهنود العديد من الآثار العربية الكتابية.

لقد اتضح في السنوات الأخيرة أنه يوجد في باكستان كمية كبيرة للمخطوطات العربية حوالي خمسين ألف[٢].

وفي بنغلاديش وسري لانكا يوجد عدد قليل من المخطوطات العربية[٣].

إندونيسيا

توجد المعطيات المنشرة فقط عن ١٠٤٩ مخطوطة عربية في متحف بوسات (متحف العلوم والفنون سابقاً) بجاكرتا التي وصفها العلماء الهولنديون في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين[٤]، وثمة أسباب تجعلنا نفترض أنه توجد في البلاد

---

(١) انظر: مكتبة المخطوطات العربية ص ٣٩-١٠٦، ٣٢٩؛ عواد ١٩٨٤؛ World Survey IM, ١٩٩٣.

(٢) Utas، ١٩٧١؛ مكتبة المخطوطات العربية ص ٢٠٣-٢٠٤؛ عواد ١٩٨٤؛ World Survey IM, ١٩٩٣.

(٣) مكتبة المخطوطات العربية ص ٣٣؛ عواد ١٩٨٤؛ World Survey IM, ١٩٩٣.

(٤) نفس المصدر، ص١٠٦-١٠٧؛ عواد ١٩٨٤؛ World Survey IM, ١٩٩٣.

طائفة من المجموعات الخاصة من المخطوطات العربية مثلاً عند المنحدرين من جنوب الجزيرة العربية.

بعد ذلك ينبغي القول بأننا لا نحوز البيانات حول المخطوطات العربية في بلدان حوض المحيط الهندي الإسلامية الأخرى (مثل ماليزيا والفلبين وغيرهما).

وكذلك ليس من المعروف ما إذا احتفظت بعض المخطوطات العربية في جمهورية الصين الشعبية التي ظهرت عليأراضيها المحطات التجارية لدى التجار العرب والفرس بين القرنين الثامن والعاشر، أما المسلمون فيقطنون ليس فقط في سنيانغ الأيغورية – الإقليم ذاتي الحكم – بل في بعض الأرجاء الأخرى من البلاد.

وأخيراً يوجد جزء لا يستهان به من التراث العربي المخطوطي في بلدان أوروبا الغربية (وقد تم الكلام عن بعضها آنفاً) وأمريكا الشمالية، وإنّ تاريخ جمع المخطوطات في تلك البلدان مرتبط مع تاريخ الاستعراب وعلم الإسلام فيها[1]، كما كان جماع المخطوطات مثل المبشرين والتجار والرحالة والدبلوماسيون والموظفون الاستعماريون، قاموا بجمع كمية صغيرة من المخطوطات العربية من قبل الأوروربيين في الحقبة الممتدة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، لكن المكتبات والمتاحف والأرشيفات والمجموعات الخاصة الكثيرة في أوروبا وأمريكا الشمالية قد أمتلأت على الأغلب في القرنين التاسع عشر والعشرين؛ ويعود الفضل لهم في علو قيمتها في الغالب؛ لأنّ البحث عنها وجمعها قد تم بصورة هادفة وبمعرفة تفاصيل الأمر، إضافة إلى ذلك إنّ كل المخطوطات العربية تقريباً المحتشدة في هذه البلدان مفهرسة والمعطيات عنها مُدخلة إلى الرواج العلمي[2].

(١) انظر مثلاً: Fuck، ١٩٥٥؛ ص ٣٧، ٤٤، ٦٠، ٨٠-٨١، ١٢٥، ١٨٩-٣٤٥.

(٢) الببليوغرافيا الحديثة وعرض الفهارس: Pearson، ١٩٧١، ص١٩٣-١٩٧، ١٩٩، ٢١٦-٢٢٧، ٢٣٥، ٢٤٦-٢٤٨، ٢٦٧-٢٧٠، ٢٧٩-٢٨٤، ٣٠٣-٣٤٠، ٤٨٢؛ مكتبة المخطوطات العربية ص ٢٣-

إنّ المواد المقدمة عن مجموعات المخطوطات العربية مثالية من نواحي كثيرة، إلى جانب ذلك تخبر المصادر عن بعض البيانات التي تسمح لنا أن نتصور تركيب وتنظيم المكتبات[1]، وجرد المخطوطات والمؤلفات والأعمال الببليوغرافية.

وكانت إحدى أشكال جرد الكتب المخطوطة والمكتبات هو تصنيف فهرستها عند نقلها إلى الوقف، وكان ذلك الفهرست يستعمل في نفس الوقت بمثابة وثيقة شرعية ونوع من الكاتالوج، وفهارس الوقف المحتفظة قليلة جداً وتنسب إلى أزمنة متأخرة، أما فهارس المكتبات بالذات (ومن المحتمل قوائم الجرد المماثلة لها أيضاً)، فمعروفة فقط من ذكرها في المصادر، كان فهرس الحكم الثاني مكوناً من أربعة وأربعين مجلداً، ومكتبة إسماعيل بن عباد الصاحب من عشرة، والفاضلية من سبعة، ومكتبة مسجد أصفهان من ثلاثة، وكاتالوج مكتبة صابور بن ارشير غير معروف، واستخدمت في المكتبة الفاطمية عوضاً عن الكاتالوج القوائم المعلقة برفوف الكتب، وكانت هنالك قوائم كتب المكتبات على اللفائف. إجمالاً لا يمكن القول أن فهرسة الكتب في المكتبات الإسلامية في القرون الوسطى كانت على درجة متطورة.

وكانت الببليوغرافيا معروفة على أشكال كقوئم المؤلفات (وكانوا كذلك يسمونها بالفهرست) للمؤلفين المنفردين في فقرات المعاجم السيرية وغيرها من المؤلفات في المجال التاريخي – السيري (تاريخ المدن ومجموعات المنتجات)، وفي المباحث حول أستاذ المؤلِّف أو أساتذته أو الأسلاف المبجلين (والمثال على ذلك قائمة أعمال أبي بكر الرازي المصنفة من قبل أبي ريحان البيروني المزودة كذلك بقائمة مؤلفات البيروني)[2]، يبدو أن هذا الشكل من الببليوغرافيا كان الأقدم ويعود إلى التقاليد الهلنستية، وذلك لأنه من بين المؤلفات المترجمة في القرن التاسع تظهر قوائم أعمال

٢٦، ٣٣-٣٥، ٣٩-٨٠، ١٥٣-١٥٤، ١٧٨-١٧٩، ١٩٨-٢٠٣، ٢٥٢-٢٦٢-٣٢٣، ٣٢٧-٣٢٧،
٣٣٢، ٣٣٥، ٣٣٨-٣٣٩، ٣٤١-٣٤٢؛ عواد ١٩٨٤؛ World Survey IM, ١٩٩٣.
(1) Eche، ١٩٦٧، ص ٣٣١-٣٤١؛ وبصورة موجزة: خالدوف، ١٩٨٢أ، ص ٢٨٣-٢٨٤.
(2) Sachau. 1878, 13-14, 38-48. Brockelmann, GAL,SB I

أرسطو وجالينوس، ويمكن أن نجد قوائم المواضيع في المقدمات مع الاستعراض العلمي لأعمال الأسلاف («كتاب الفرج بعد الشدّة» للتنوخي و «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني و«إرشاد الأريب» لياقوت الحموي وهلم جرا)، وفي نبذ السيرة الذاتية والإنجازات يُذكر المدرسون والمؤلفات المدروسة تحت إشرافهم، أما المؤلفات الببليوغرافية فقط فنادرة للغاية، ولو أنها قيمة جداً مثل «الفهرست» المشهور لابن النديم (بغداد القرن العاشر) المصنف على شكل مواضيع، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (تركيا القرن السابع عشر) الحاوي على قائمة أبجدية للمؤلفات العربية والفارسية والتركية.

لقد تم تبويب العلوم ومجالات المعارف في المؤلفات الببلوغرافية وفهرسة المكتبات طبقاً للمبدأ التاريخي – التدرجي أي أنها رتبت حسب نظام تفرعها وتقديرها في مجتمع القرون الوسطى، مثلاً كانت فصول المواضيع في كاتالوجات مكتبة صابور – الذي وصل إلينا – حسب النظام الآتي: المصاحف، تفسير القرآن، تأويل القرآن ومختلف أشكال تلاوته، الفقه، الصلوات، علم الفرائض، المذاهب الفقهية علم الكلام، البحث والمناظرة، النحو الاشتقاق، القوافي، دواوين الشعر، النوادر، التأريخ، الرسائل، الطب، الفلك، الفلسفة، الهندسة[١]، كما نجد توحيد فروع المعارف على ثلاث مجموعات وهي الدينية – الأخلاقية – الفقهية والأدبية- اللغوية – التاريخية والفلسفية – الطبيعية- التطبيقية وذلك إلى وقتنا الحاضر، وكان من الممكن أن يجري التقسيم داخل كل مجموعة مفصلة وأن تتبدل مواقع بعض المواد العلمية لكن ماهيتها تبقى ثابتة لا تتغير.

طُبِّقَ في تقسيم الكتب نظام التدرج نفسه الذي يتغير وفقاً لحجم المكتبة وأسباب الراحة العملية؛ وكان الترتيب غالباً ما يطابق قائمة الوقف التي تغدو في مثل هذا الحال طبوغرافياً، وكانت الكتب توضع على الرفوف منبسطة فوق بعضها،

---

(١) Eche. 1967, P. 105.

والرموز الاصطلاحية أو العلامات الموضوعة على الكتب للدلال على مكانها – على ما يبدو- بالاستناد إلى عناوينها وأسماء مؤلفيها التي كانت تكتب في بعض الأحيان على غطاء الغلاف أو على حافتها.

كانت وضعية القارئ والكاتب المعتادة واعتياداتهم العملية تخضع للتقاليد والأثاث الداخلي في الأماكن (البيوت الخاصة والمكتبات والمساجد والمنشآت العامة)، فكانوا يشتغلون وهم جلساء على الأرض المفرشة بالحصائر أو السجاجيد مستندين بظهورهم على الحوائط أو الأعمدة أو يجلسون متربعي الأرجل دون مسند؛ توجد في المؤلفات الوعظية النصائح بوضع الكتب على السنادات (وكانت السنادات الخشبية للكتب تسمى بالألواح، وتوجد النماذج المتأخرة منها في المتاحف)، وليس على الأرض، وكذلك عدم رفع القلم- الذي غنس لتوه في الحبر – فوق الكتاب المفتوح وعدم استعمال الكتاب بمثابة مسند تحت الورقة التي يكتبون عليها وما إلى ذلك.

كانت المكتبات البلاطية والخاصة سهلة البلوغ لعدد محدد من الأشخاص، أما مكتبات الوقف فبالعكس كانت قريبة المنال للجميع دون الحد من ملاك القراء الذين حق لهم كذلك بأخذ الكتب إلى منازلهم؛ وكانت المكتبات من جرَّاء هذا تفقد الكثير من كتبها القيمة، وفي بعض الأحيان تفلس تماماً؛ وكان الحقوقيون والمؤسسون يبحثون عن شتى الوسائل والتدابير لمنع تسرب الكتب خارج المكتبة، فيحدون من كمية الأشخاص المتمتعين بحق أخذ الكتب إلى منازلهم أو يأخذون عليها رهائن أو يطلبون من القارئ بأن يكلفه أشخاص ذوي نفوذ أو يمنعون أخذ الكتب إلى البويت، وهذا مما كان يسجل في شروك الوقف أو على الكتب مباشرة.

كانت إعادة الكتب إلى المكتبات تتم على العادات أو حضور وجدان القارئ أو خوفاً من عقاب الله إذ لم تقضى هنالك أية عقوبات شرعية على إتلاف أو فقدان أو استحواذ الكتب. ينوَّهُ في سير حياة الكثير من الأشخاص إلى ميلهم نحوإغناء مجموعاتهم الخاصة بواسطة استحواذ كتب الغير أو المكتبات، وكثيراً لم يكن يتعرض

هذا الميل للنقد، بل ويعدعى بأنه حب عميق للكتب ويكاد يكون صفة حميدة، فليس من العجيب أنه تتلاقى في بعض الأحيان في الآداب نصائح بعدم إعارة الكتب لأحد.

لقد تمّ التنويه في استعراضنا إلى نحو ٣٢٠ مجموعة خاصة ومكتبة في القرون الوسطى، وفقط أربع وعشرون منها التي نعرف معطياتها عن كمية الكتب الموجودة فيها المحددة بأرقام تامة، وفي ست حالات قدر ثمن الكتب بالمال (ويمكن أن نقدره بعدد الكتب آخذين بالحسبان السعر الأوسط للكتاب من ربع دينار إلى دينار)، وفي خمس حالات نوه إلى عدد الرحال (الجمال والحمير) التي وضعت عليها الكتب، وفي ست حالات ذكرت مختلف السعات (الصناديق، الأسفاط، السلال)، وأخبر مرة واحدة عن وزنها بالقناطير، وقيل ثلاث مرات «الغرفة المليئة» بالكتب، وفي الحالات الباقية إما نتمتع بالمعطيات النسبية — التقديرية (أي الكمية مثل المكتبة كذا أو أكبر مكتبة في العالم أو المجموعة الغنية والقيمة العالية أو عدد لا يحصى من الكتب وما إلى ذلك)، وإما أن محاولة تحديد كمية الكتب معدومة، ولكن يقال عن الجهود التي بذلها مالكها في نسخ الكتب وجمعها والحصول عليها؛ وهنا نطرح سؤالاً: هل من الممكن أن نتوصل بواسطة هذه البيانات الوفيرة وغير متساوية إلى النتائج الثابتة، وأن نجد فيها جوهرة منطقية؟

وإذا أمعنا فيها فنلاحظ أنّ الأرقام «الثابتة» بالذات خادعة في ظل دقتها الظاهرية فقط، وفي ثلاث حالات تتراوح الأرقام الموجودة في المصادر بين حدين متباينين، فقد زعموا أن المكتبة الفاطمية لدى الخليفة العزيز بالقاهرة في القرن العاشر تحتوي على ١٢٠، ١٦٠، ٢٠٠ ألف كتاب أو مجلد، وفي مكتبة مدينة طرابلس في القرن الحادي عشر ثلاثة ملايين أو مائة مائة ألف، وفي مجموعة القاضي الفاضل بالقاهرة في القرن الثاني عشر ٣٠ ألف أو ١٠٠ أو ١٨٠ أو ٣٠٠ ألف أو مليون، ويقدم عدد واحد، ولكن كبير جداً الدال على كمية الكتب في مكتبات آمد في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وهو ١٠٤٠ ألف، وفي مكتبة الحكم الثاني بقرطبة في القرن العاشر ٤٠٠

ألف، وابن عباس بألميريا في القرن الحادي عشر ٤٠٠ ألف، وفي المراغة في القرن الثالث عشر ٤٠٠ ألف، وإسماعيل بن عباد بالري في القرن العاشر ٣٠٦ آلاف؛ هنا يجدر الاعتراف بأن هذه الأرقام (فإذا أخذنا الكبرى منها فسيكون العدد الإجمالي للكتب في هذه المكتبات الثمانية ٧ ملايين و٤٧ ألف) مبالغة بصورة واضحة وغير موثوق بها، أظن أنه يجب تخفيضها بحوالي عشر مرات، وفي حال تناقض الأرقام ينبغي أخذ الصغرى منها وكذلك البعض منها رغم أن الكثير من الأبحاث الجادة تقدمها بمثابة أرقام صحيحة[1].

يجذب الانتباه اعتدال المعطيات الرقمية حول مكتبات العراق التي هي المركز الرئيس – بلا نزاع – لإنشاء وتكاثر وتكديس الكتب العربية المخطوطة خلال الحقبة الواقعة ما بين القرنين الثامن والثالث عشر، والكمية المسجلة في المعطيات حول المكتبات العراقية الثمانية مجملاً تزيد عن مئتين ألف مجلد بقليل[2]، عندئذ ينبغي الأخذ بالحسبان أننا لا نحوز الأرقام المتعلقة بالمكتبات الكبيرة مثل مكتبة علي ابن يحيى وابن حمدان وابن سوار والنظامية وهي الناصرية، لدى تربة أبي حنيفة التي احتوت كلها دون شك على ما يتراواح بين عشرة آلاف وخمسين ألف كتاب، عندئذ نستطيع الافتراض أن المجموعات الخاصة المذكورة هنا حوالي ثمانين والمجموعات غير المحسوبة والمكتبات في العراق احتوت خلال كل مرحلة القرون الوسطى على مليون مجلد مخطوط.

---

(1) وقد قدمت بنفسي البعض من هذه الأرقام بلا تحفظات. خالدوف، ١٩٨٢.، ص ٣٧٦ -٣٨٣..

(2) عند ذلك تحدد أرصدة المكتبات لدى المدرسة المستنصرية في بداية القرن الثالث عشر الكبرى في بغداد بثمانين ألف مجلد، فليكن هذا الرقم تقريبياً، ولكن ليس هنالك ما يدعو للشك أن هذه المكتبة هي الأغنى من حيث كمية المخطوطات خلال كل تاريخ العالم العربي الإسلامي، وحتى في المراغة – إلى حيث أجلبت المخطوطات من كل مكان – لم تكد تزيد كمية المخطوطات عنها.

وإذا اعتبرنا أن الأرقام المتعلقة بالمكتبات العراقية قريبة إلى الحقيقة مستندين على الإحصاءات والفروض فيمكننا أن نسلم بدرجة كبيرة من الاحتمال بأنه في كل من الأقاليم الكبيرة مثل مصر، وبلاد الشام التاريخية، واسبانيا، وإيران وأفغانستان، وتركيا، وجنوب روسيا القيصرية أو الاتحاد السوفييتي الأسبق إلى بداية القرن العشرين قد أنشأ حوالي نصف مليون من المجلدات العربية المخطوطة، وتنخفض الأرقام في سائر أقاليم إفريقيا الشمالية وفي الجزيرة العربية وشبه جزيرة إندوستان من خمسة ملايين إلى مائتي ألف، (وذلك إذا كانت الإحصاءات سليمة).

لقد قدمنا آنفاً الأرقام الدالة على كمية المخطوطات العربية الموجودة في المكتبات المعاصرة في مختلف البلدان، وينبغي أن نضيف إليها البيانات حول بلدان أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية غير المذكورة، عندئذ سنكون أمام الجدول الآتي:

١) تركيا: حوالي ٢٠٠٠٠٠
٢) إيران: حوالي ١١٠٠٠٠
٣) مصر: حوالي ١٠١٠٠٠
٤) العراق: حوالي ٧٠٠٠٠
٥) المملكة العربية السعودية :حوالي ٦٦٠٠٠
٦) باكستان:حوالي ٥٠٠٠٠
٧) المغرب: حوالي ٤٧٨٠٠
٨) تونس:حوالي ٣٧٥٠٠
٩) الهند:حوالي ٣٧٤٠٠
١٠) الولايات المتحدة الأمريكية: أكثر من ٢٥٠٠٠
١١) سوريا: حوالي ٢٥٠٠٠
١٢) المملكة المتحدة البريطانية: حوالي ٢٥٠٠٠
١٣) أوزبكستان:حوالي ٢٠٠٠٠

١٤) ليبيا: حوالي ١٧٠٠٠
١٥) موريتانيا: أكثر من ١٥٠٠٠
١٦) ألمانيا: حوالي ١٥٠٠٠
١٧) اليمن: حوالي ١٥٠٠٠
١٨) لبنان: أكثر من ١٢٦٠٠٠
١٩) نيجريا: أكثر من ١٢٠٠٠
٢٠) روسيا الاتحادية: حوالي١٢٠٠٠
٢١) الجزائر: حوالي ١١٥٠٠
٢٢) البوسنا: حوالي ١٠٠٠٠
٢٣) السودان: حوالي ١٠٠٠٠
٢٤) فرنسا: ٨١٧٣
٢٥) أذربيجان: حوالي ٧٧٠٠
٢٦) سلطنة عمان: حوالي ٧٠٠٠
٢٧) فلسطين: حوالي ٦٦٠٠
٢٨) مالي: حوالي ٥٦٠٠
٢٩) ساحل العاج: حوالي ٥٢٣٤
٣٠) إيطاليا: حوالي ٤٨٣٦
٣١) إسبانيا: حوالي ٤٦٠٠
٣٢) مقدونيا: حوالي ٤٢٦٠
٣٣) البحرين: حوالي ٤٠٠٠
٣٤) الكويت: حوالي ٣٥٠٠
٣٥) النيجر: ٣٤٨٣
٣٦) الإمارات العربية المتحدة: ٣٤٦٠
٣٧) بلغاريا: أكثر من ٣٠٠٠

٣٨) الأراضي المنخفضة (نيدرلاند): أكثر من ٣٠٠٠
٣٩) السنغال: أكثر من ٣٠٠٠
٤٠) أفغانستان: حوالي ٣٠٠٠
٤١) إيرلندا: حوالي ٢٩٠٠
٤٢) الفاتيكان: ٢٦٠٥
٤٣) بوركينافاسو: أكثر من ٢٥٠٠
٤٤) غينيا: أكثر من ٢٠٠٠
٤٥) طاجكستان: حوالي ١٨٠٠
٤٦) قطر: ١٧٣٤
٤٧) النمسا: حوالي ١٧٠٠
٤٨) كندا: حوالي ١٥٥٠
٤٩) يوغسلافيا: حوالي ١٥٠٠
٥٠) ملاوي: حوالي ١٥٠٠
٥١) جورجيا: ١٤٥٩
٥٢) أرمينيا: حوالي ١٠٠٠
٥٣) غامبيا: حوالي ١٠٠٠
٥٤) إندونيسيا: حوالي ١٠٠٠
٥٥) قبرص: حوالي ١٠٠٠
٥٦) كرواتيا: حوالي ١٠٠٠
٥٧) توغو: حوالي ٨٠٠
٥٨) سيراليون: حوالي ٧٥٠
٥٩) بنغلاديش: ٦٦٤
٦٠) بولندا: حوالي ٦٥٠
٦١) الأردن: ٦٠٧

٦٢) الدانمارك: حوالي ٦٠٠

٦٣) السويد:٥٧٨

٦٤) سويسرا: أكثر من ٥٠٠

٦٥) ألبانيا: حوالي ٥٠٠

٦٦) بلجيكا: حوالي ٥٠٠

٦٧) غينيا بيساو: حوالي ٥٠٠

٦٨) اليابان: ٤٧٤

٦٩) سلوفاكيا: حوالي ٤٠٠

٧٠) النرويج: ٣٩٥

٧١) غانا: ٣٤٠

٧٢) رومانيا: أكثر من ٣٠٠

٧٣) كينيا:٢٧٧

٧٤) تشيكيا: حوالي ٢٥٠

٧٥) المجر:٢٠٨

٧٦) قازاخستان:١٩٥

٧٧) أوكرانيا: ١٦٤

٧٨) تانزانيا: : حوالي ١٥٠

٧٩) اثيوبيا: ١٤٠

٨٠) سري لانكا: ١٣٤

٨١) البرتغال: : حوالي ١٠٠

٨٢) تشاد:٨٠

٨٣) اليونان:٦٨

٨٤) اليونان:٦٨

٨٥) جزر القمر: حوالي ٥٠

٨٦) قرغيزيا: حوالي ٤٠

٨٧) ليتوانيا: حوالي ٤٠

٨٨) فنلندا: ٣٩

٨٩) روسيا البيضاء: حوالي ٣٠

٩٠) مالطا: ٣٠

٩١) استونيا: ٢٧

٩٢) جمهورية جنوب إفريقيا: ١٤

٩٣) لاتفيا:٧

٩٤) نيوزيلاندا:٤

٩٥) وكذلك توجد المخطوطات العربية في كل من بورما ومدغشقر وماليزيا والصين وتايلاند وتايوان والصومال لكن الأرقام عنها غير موجودة.

بالطبع ينبغي الأخذ بالحسبان أن معظم هذه الأرقام مقربة جداً ووحدة الإحصاء نسبية، وأنه في بعض البلدان لم ينته استكشاف وجمع المخطوطاتحتى الآن، ويمكن أن توجد المخطوطات العربية في بلدان أخرى، لكن هذه الأرقام استخرجت في نتيجة إجراء دراسات كبيرة للآداب العلمية المكرّسة للمخطوطات العربية، وأجريت الإحصاءات استناداً على كل الفهارس سهلة البلوغ والمقالات الاستعراضية والمعلومات التعميمية لكل مخزن ومدينة وبلاذ على حدة، ونستنتج من ذلك أن عد المخطوطات العربية في العالم كله يبلغ حالياً حوالي مليون[1]، والإحصائيات المقبلة لن

---

(١) وبالمقارنة مع إحصاءاتي التي جرت ١٩٧٤ (على أساس حواشي. إ.ب ميخايلوفا التفسيرية والبيانات، انظر: مكتبة المخطوطات العربية، ص٨-٩) ازدادتالأرقام الخاصة بكثير من البلدان قبل كل شيء مع جهود الخبراء من جميع أنحاء العالم، وقد جمعت المعطيات في أربع مجلدات من World Survey IM, ١٩٩٣.

تكد تغير هذا الرقم بشكل أساسي (بالعادة لا يحاول المستعربون إحصاءها أو يستعملون الأرقام الكبيرة التي تستند على الافتراضات الإرادية).

ينبغي الأخذ بالحسبان أن ثلثي هذه الكمية هي عبارة عن منتوجات النساخين وشيءٍ من منتجاتٍ المؤلفين من القرون الثلاثة الأخيرة (أي من القرن السابع عشر إلى مطالعِ القرن العشرين)، وذلك من جراء تأخر ظهور طباعة الكتب بالأحرف العربية، وبالتالي لقد وصلت إلى أيامنا من مرحلة القرون الوسطى التي نبحثها – وذلك إذا استثنينا منها النسخ الجديدة نيبياً- حوالي مائتي مخطوطة عربية، وربما أقل من ذلك (إذ أنّ خزنها بشكل متبعثر وحالة دراستها الراهنة لا يسمحان بإجراء تحديد دقة أكثر من ذلك) فنجد أن الفرق كبير جداً بين خمسة (أو ٤.٦) مليون ومائتي ألف.

لقد قمنا جزئياً بالإجابة على الأسئلة المطروحة – وهي متى ولماذا كانت تهلك المخطوطات العربية – في سياق سردنا لهذا البحث، وذلك لأنّ الإخبارات عن بعض المؤلفين والمخطوطات والمكتبات تخبر عنها فقط بصدد هلاكها، وقد فكر عن أسباب هلاك الآثار المخطوطية – التي خصصت في حقيقة أمرها للتغلب على سرعة جريان الزمن والترسيخ والحفاظ على الإبداعات الإنسانية الروحية المعبر عنها بالكلمة – المؤلفون منذ القرون الوسطى، فمثلاً دعا الشاعر النيسابوري في القرن العاشر أبو سعد عبد الرحمن بن محمد بن دوست إلى الاعتماد على الذاكرة والإكثار من الحفظ عن ظهر قلب، فكتب:

عليك بالحفظ دون الجمع في كتبٍ فإن للكتب آفاتٌ تفرقها

فالماء تغرقها والنار تحرقها والفأر يخرقها واللص يسرقها[1]

---

(١) الثعالبي، يتيمة، ٤، ص ٤٢٧؛ Goldziher، ١٨٩٠، ص ٢٠٠؛ وقد وردت هذه الأشعار بصورتها الكاملة عند البيروني (الصيدنة، ص ١٣٠) مع بعض الشكوك في تبعيتها للشاعر المذكور.

يمكن أن نلخص الأسباب الرئيسة لهلاك أو سوء حفظ المخطوطات العربية فيما يلي: الأحداث الفريدة من نوعها وهي إتلاف المؤلفين لمدوناتهم وكتبهم لأسباب دينية أو من جراء خيبة أملهم في المعارف الكتبية[1]، والإتلاف القصدي لكتب الغير من الدوافع أو من الحسد أو المنافسة أو التنافر الفكري بين الأفراد والطوائف وبين أتباع مختلف الأديان، أو الإهتراء الطبيعي للورق والأغلفة المشتد من جراء عدم وجود الاعتناء اللازم بالكتب والجهل في أصول صيانتها وسوء كيفية المادة (الحبر والورق وغير ذلك) وإهمال المغلف (مثلاً إذا كان الغلاف ينقطع عن الكتاب وتنفصل الصحائف والدفاتر عن بعضها) أو إفسادها من جراء تعرضها للتأصير الضار من الظواهر الجويّة أو من الحشرات والقوارض، والقضاء عليالمخطوطات المتلفة بطريقة استعمال ورقها لصنع الكرتون للأغلفة الجديدة، والقضاء على المخطوطات المتلفة بطريقة استعمال ورقها لصنع الكريتون للأغلفة الجديدةت، ومن تأثير العوامل الطبيعية (الفياضانات والحرائق الزلازل) والإحراق العلني للمخطوطات، وكذلك من جراء النزاعات الطبقية والفتن الأهلية والغزوات الاجتياحية.

ومع ذلك فإنّ الجزء الصغير من كل الكتب العربية التي أنشئت خلال ثلاثة عشر قرن ونيف منالمرحلة ألمخطوطية كافية حتى نستطيع أن نستخرج استنتاجاً ثابتاً عن الجزء المفقود منها.

تساعد الأبحاث الاستعرابية المختلفة والمتنوعة على تمديد الجسر بين الذي كان، وبين الذي وصل إلى أيامنا ، ويعود الفضل الأساسي لاكتشاف تاريخ المخطوطات إلى المؤلفات المحددة، وفي الغالب تكون هذه المسألة صعبة، فليس معروف عن كثير من المؤلفات إلا واقع وجوجها وذلك بالتذكير بها في مؤلف أو عدة مؤلفات (عنوانها فقط أو مع اسم مؤلفها والتفاصيل الإضافية). وردت في «فهرست»

---

(١) ابن النديم، ص ٢٢٥؛ ياقوت، إرشاد، ٥، ص٣٨٦، ٣٨٩؛ ميتس، ١٩٧٣، ص٢١٢؛ Abbott، ١٩٦٧، ص ٦٢-٦٣.

ابن النديم بيانات عن آلاف المؤلفات من القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الثقافة الكتابية العربية التي لم تحتفظ في المخطوطات، وتكتمل هذه البيانات بشكل ملحوظ في المصادر الأخرى، ومن الجدير بالذكر أن المؤلفات التي تم تسليمها عبر الحقب التاريخية من الأقاليم هي أقل من التي فقدت[١]؛ نعرف عن بعض المؤلفات أنها هلكت بصورتها المسودة أو المبيضة ومؤلفها على قيد الحياة، وقد حدث ذلك على وجه الخصوص مع بعض مؤلفات ابن سينا[٢].

تحتوي المصادر على البيانات حول انتشار أو ندرة المؤلفات هذه أو تلك، مثلاً نوه ابن خلكان (١٢١١-١٢٨٢) في القرن الثالث عشر أنه توجد«في أيدي الناس» أي توجد طائفة من المخطوطات «كتذكرة» ابن حمدون (ت١١٦٧)[٣]، و «شرح المقامات» الحريري لمحمد بن عبد الرحمن المسعودي البندهي (١١٢٨-١١٨٨) في خمسة مجلدات

---

(١) مثلاً أظهرت الدراسة المفصلة لعلم تدوين التاريخ العربي أنه من بين المؤلفات الكثيرة (حوالي ٢٥٠) لمئة وثمانية من المحدثين الأندلسيين والمؤرخين وكتّاب التراجم والسير من القرن الثامن والثلث الأول من القرن التاسع بقيت - باستثناء الاقتباسات - عشرة مؤلفات تابعة لعشرة مؤلفين (بويكو، ١٩٧٧، ص ٣١، ٥٢، ٨٢، ٩٢-٩٤، ١١٣، ١٧٩، ١٨٨، ١٩٦، ٢٠٩، ٢١٢) ومن بين المؤلفات التاريخية - السيرية (عددها أكثر من ٦٠٠) لسبعين مؤلفاً شيعياً من القرن السابع وحتى بداية القرن العاشر القاطنين في العراق وإيران وآسيا الوسطى وصلت إلينا على شكل مخطوطات إحدى وعشرين تابعة لاثني عشر مؤلف (بروزوروف، ١٩٨٠، ص ٧، ٥٧، ٧٤، ٨٤، ٩٠، ١٢٤، ١٣٧، ١٥٥، ١٦١، ١٦٥، ١٧٣، ١٧٥، ١٨٧، ١٩٢).

(٢) يخبرون أن الفيلسوف كان يتعامل مع إبداعاته بإهمال، فلم يكن يبيضها، وكان يوزعها كهدايا دون أن يترك نسخاً لنفسه، أما مكتبته الخاصة فتعرضت في آخر حياته للنهب (في أصفهان سنة ١٠٣٠ أو ١٠٣٤)، ومن الظاهر أنه كان يفقد مخطوطاته قبل ذلك غير مرة في غضون انتقالاته الكثيرة، وقد سلم حوالي مئة مؤلف من مؤلفات ابن سينا متمثلة في ٢٥٠٠ مخطوطة على الأقل، وأكثر من ستين مؤلف معروف فقط بعناوينه ومفقود على ما يبدو (Mahdavi، ١٩٥٤؛ خالدوف، ١٩٨١أ، ص ٣٣، ٤٥، ٧٠؛ خالدوف، ١٩٨٢ب، ص ٨٢-٨٥).

(٣) ابن خلكان، ١، ص ٥١٧، بيد أنه لم تصل إلينا إلا مخطوطات الصيغة من اثني عشر مجلداً متبعثراً (خالدوف، ١٩٦٠، ص ٧٠).

كبيرة[١]، ودواوين الأبلة البغدادي (ت١١٨٣)، وابن المعلم (ت١١٨٦)[٢]، و «تجارب الأمم» لمسكويه (ت١٠٣٠)[٣]، وغيرها، وبالعكس ينوه إلى ندرة المخطوطات عن «كتاب مطمح الأنفس» لأبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسي الإشبيلي (قتل سنة ١١٤٠)[٤]، و «كتاب الأنساب» للسمعاني[٥]، و «كتاب الحجابة والحجّاب» لابن التعاويذي (قتل سنة ١١٨٨) بخمس عشرة كراسة[٦]؛ والمؤلَّف مغفل الإمضاء لأحد المؤلفين المصريين مع عرض الأحداث اليومية[٧]؛ لقد عرض آنفاً أن الكثير من الإخباريات من هذا القبيل مرتبطة مع وصف مجموعات المخطوطات والمكتبات.

ثمة مؤلفات وصلت إلينا أو تم اكتشافها بنسخة واحدة فقط[٨]؛ وتتلاقى من بين هذه المؤلفات المكتوبة منها بخطوط مؤلفيها[٩]؛ لكنه إلى الآن لم يتم جرد المؤلفات

---

(١) ابن خلكان، ١، ص ٥٢٠، والمؤلف لم يسلم.

(٢) نفس المصدر، ٢، الصفحتان ١٨، ٣٢.

(٣) نفس المصدر، ص ٧٠، وقد وصل المؤلف إلينا على شكل مخطوطات قديمة، وتم نشرها.

(٤) نفس المصدر،ص ٤٨٥،٣٤٧؛ لم يستطع ابن خلكان الحصول عليه في مصر، لكن المؤلَّف قد احتفظ بطائفةٍ من المخطوطات الجيدة وتم نشرها.

(٥) نفس المصدر، ١، ص ٤٠٧.

(٦) ابن خلكان، ٢، ص ٢١.

(٧) نفس المصدر، ١، ص ٣٥٨.

(٨) من بين النسخ الفريدة في فرع سانت بطرسبورغ من معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا: ديوان ابن قزمان (ت١١٦٠) تحت دالة كتاب B٨٦؛ و((تاريخ الخلفاء)) مغفل الإمضاء من بداية القرن الحادي عشر (C١٩١١)؛ و(كتاب المنازل والديار)) لأسامة بن منقذ (ت ١١٨٨) في مخطوطة أصدرت ومؤلفها على قيد الحياة (C٣٥) وغيرها؛ إجمالاً يزيد عددها على أربعين بما فيها المتأخرة.

(٩) نشير إلى أنه من بين العشرات من هذه المؤلفات في مجموعة فرع سانتبطرسبورغ من معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم في روسيا إلى ما يلي: المؤلَّف في مجال البلاغة للمظفر بن محمد المنبجي المكتوب بخط المؤلف من أربعينات القرن الثالث عشر (C٣٠٦)؛ منتخب ((سحر العيون؟)) للبغدادي أبي التقا أبي

المحتفظة المكتوبة بخطوط مؤلفيها حتى في المجموعات المفهرسة[1]، وهذا الواقع وحده كاف لكي يشهد بكل فصاحة أن دراسة المخطوطات العربية والتقاليد المخطوطية لا تزال في حالة نشوئها.

وثمة مؤلفات لا نعرفها إلا من خلال ترجمتها إلى الفارسية أوالتركية أو العبرية أو اللاتينية أو بصورتها المختصرة إذا اختصرها مؤلفها أو أحد غيره.

وأكثر الحالات جودة ووضوحاً مخطوط مكتوب بخط مؤلفه أو أية مخطوطة قديمة أخرى والنسخ المقابلة عليها، عندئذ يظهر كل تاريخ المخطوطات بوضوح، وكأنه على راحة اليد، وحتى إيجاد المخطوطات أو التذكيرات أو الاقتباسات الجديدة تضيف خاصيات جديدة قليلة، هكذا جرت الأمور مع مؤلفات البيروني، وكثير من مؤلفاتٍ مرّت بتاريخ طويل ومعقّد ووصلت إلينا في عدّة مخطوطات.

تنحصر مسألة الاستعراب كذلك في ربط تاريخ المخطوطات مع تاريخ المكتبات بما فيها القديمة والحديثة، ليس بحوزتنا حتى الآن إلا ملاحظات الباحثين المنفردين المتبعثرة على صفحات مؤلفاتهم.

إن كمية المعطيات حول مجموعات المخطوطات ماضياً وحاضراً بالاقتران مع تقديرها العلمي في إخبارات المصادر والفرائض الحذرة تسمح لنا بأن نقول أن الأدب العربي المخطوط في القرون الوسطى كان الأغنى في العالم بزمانه

بكر بن عبد الله البدري في الأعوام ٨٧٥-٨٧٦هـ/ ١٤٧٠-١٤٧٢م (A٣٢٧)، والمؤلف في مجال الفقه ((مفتاح السعادة)) لكمال الدين بن أسايش الشرواني في ٩١٦هـ/ ١٥١٠-١١م (C١٤٣٦).

[1] وليس هنالك إلا مقال استعراض واحد حول مخازن استنبول فقط (Ritter 1953)، وحتى هو غير مستفيض أبداً.

الخاتمة

تتوحد النصوص العربية المخطوطة ليس فقط من حيث سمتاها الجوهريتان المكونتان لتركيبها – ألا وهما اللغة وتقنية صنعها – بل ومن حيث ترابطها الداخلي العميق؛ تظهر خصال جامعتها البينة من خلال فحواها (أي حجمها وخاصية إعلامها المنحصرة ضمن الآثار المخطوطية) وشكلها (أي طرائق ترتيب النصوص وأسلوب سردها) على امتداد الحقبة الزمنية الطويلة الواقعة ما بين القرنين السابع والعشرين وعلى مساحات شاسعة من الأراضي، فتشمل جزءاً لا يُستهان به من ثلاث قارات في العالم القديم، وتتبع الأكثرية الساحقة من النصوص العربية المخطوطة لتقليد واحد.

وفي غضون تقليدية الشكل والمضمون للآثار الكتابية وتقنية الحرفة المخطوطية تتبين بوضوح منابع التقاليد نفسها وتلك العوامل التي أدّت إلى استمرارها وتتابعها.

تنقسم النصوص العربية المخطوطة من حيث طبيعة منشئها إلى ما يلي:

١) الآثار الأدبية الشفهية المدونة كتابياً.
٢) الترجمة من اللغات الأخرى.
٣) الآثار المنشأة مباشرة بصورتها الكتابية باللغة العربية.

شكلت تلك المجموعات الثلاث من خلال المرحلة المبكرة الواقعة بين القرن السابع والعاشر رصيداً أولياً من الآداب العربية الكتبية، ومع مرور الزمن كان الرصيد الأدبي يتخذ خصالٍ منقولة ويضمها؛ وكانت المنتجات الكتابية المتراكمة المعرضة لإعادة الإدراك تزداد حجماً؛ وباتت تلك المحافظة للجزء المكدّس والمعاد إنتاجه للمنتجات الكتابية إحدى العوامل التي أدّت إلى تجانس التقاليد العربية المخطوطية.

والعامل الآخر الذي وحّد وأدّى إلى استقرار النصوص العربية المخطوطة هو ضبط قواعد اللغة العربية الفصحى المعدّة في المرحلة المبكرة وعلى أتم الدقّة، ومن

عواقب الترسيخ الصلب لأعراف اللغة الثابتة (وبالتحديد المتغيرة ضمن حدود ضيقة)، ونظام الكتابة هو أن الفروق بين الآثار الكتابية في مختلف المراحل والأقاليم كانت طفيفة، وهكذا توفرت الشروط الملائمة للتتابع الزمني والمكاني للتقاليد العربية المخطوطية، إلى جانب ذلك إن الترابط بين اللغة والكتابة لا يخلو من الحالات المعقدة في الكتابة والاختلافات في تفسير النصوص.

كون التشكل المبكر لعلم اللغة العربية – الذي شمل الوصف النظري والعملي للنطق وقواعد الكتابة وتركيب الكلام وعلم الصرف والاشتقاق وذخيرة الألفاظ ونظم الشعر والبلاغة – هو مجموعة الوسائل المساعدة لاستيعاب قواعد اللغة والتغلب على المصاعب المذكورة وملازمة أعراف اللغة ومراقبة كيفية المخطوطات، وقد نالت المؤلفات في مجال اللغة نفسها نسبة محسوسة من المنتجات المخطوطية، وإضافة إلى ذلك إن الكثير من النصوص مصحوبة بالتفسيرات اللغوية التي هي من ضمن فحواها، تلك هي إحدى أهم خصائص الآثار العربية الكتابية.

جرت عملية الإنتاج التأليفي في المجال الديني في الشرق العربي – الإسلامي في القرون الوسطى على شكل دوران كمية محدودة من المعلومات المتزائدة ببطء والداخلة إلى الرواج من جديد مرات كثيرة، وذلك في المجال الشفهي بمساعدة اللغة والكتابة العربيتين، ولقد كانت نتائجها تثبت في كل المؤلفات والمخطوطات الجديدة التي باتت وسيلة لتجمع واستحداث كمية المعارف اللازمة لوجود النظام الاجتماعي والعقائد السائدة، والمخطوطة الواحدة هي عبارة عن ذرة التقاليد المتطورة التي تتألف بدورها من كل المخطوطات الموجودة في أي زمن كان.

حددت وجود التقاليد المخطوطية – الكتبية في الشرق العربي – الإسلامي بتلك الميّزة الاجتماعية التي خلت من الاعتراف العلني والقانوني بالتفارق الطبقي إذ كان التركيب الطبقي للمجتمع مستوراً وراء التصورات الأخلاقية – القانونية

والدينية، وطبقاً لذلك لم تكن معارف وتفاسير الدين الإلهي والقرآن الكريم والتقاليد منحصرة ضمن إطارات طبقة اجتماعية ما أو طائفة خاصة.

إن الخدمة الدينية الإسلامية لم تتميز عن المجتمع لا شكلياً ولا واقعياً وغير منفصلة عن المعارف الدنياوية، عوضاً عن هذا اعتبر السعي وراء المعارف الدينية واجباً على مؤمن، ولم يكن بالمقدور أن ينفذ ذلك الشرط كاملاً لكن مثل هذا التشجيع بالإضافة إلى عدم وجود حدود قاسية بين الطبقات جعلا ارتباط شريحة واسعة من الناس مع التعليم والكتاب، وحقاً إن عدد الأشخاص – الذين أخذوا على عاتقهم في المجال الديني وبالدرجة الأولى التأليف – كان كبيراً جداً، فيما عدا علماء الدين كان هنالك الكثير من الشعراء واللغويين والفلكيين والأطباء، وكذلك النساخين والمغلفين وأمناء المكتبات، وفي غالب الأحيان كانت أعمالهم ينفق عليها جيداً وتنال إقبالاً جماهيرياً واسعاً.

إلى جانب المنشئين والمستهلكين الأساسيين للكتب العربية المخطوطة – ومنهم المسلمين من مختلف الاتجاهات والطوائف والمذاهب الفقهية – أدّى قسطاً كبيراً إلى الثقافة ألكتبية العربية المسيحيون واليهود والمجوس وممثلوا الطوائف الدينية الصغيرة، وقد اعتنق كثير منهم الإسلام، وبعض الطوائف حافظت على عقائدها الدينية لأرباب الثقافة الكتبية العربية أيضاً المتنوعة، ولكن كلهم قطنوا في المدن الكبيرة على الأغلب حيث احتشدت مجموعات المخطوطات.

جرى نشاط مولعي الكتب العرب في ظل التفكك الإقطاعي وتعدد المراكز الثقافية، وقد ساعد هذا الظرف على تنوع أشكال العلم والأدب والتنافس بين مختلف المراكز والمدارس والتبادل الواسع بالمنجزات الثقافية وانتقال الناس والمخطوطات من مكان لآخر، بيد أن ضعف تقاليد نظام الدولة وعدم الاستقرار السياسي وغزوات البدو والاحتلال الأجنبي كثيراً ما كانت تؤدي إلى اجتياح المدن، حيث كانت تهلك كذلك المخطوطات والمكتبات.

عكس تصور الوحدة (الجدلية) والإكمال المتبادل بين بعض المخطوطات والتقاليد المخطوطية عموماً جوهرة الموضوع نفسها، وهذا هو سبب إثمارها، وتظهر على ضوئها إمكانية وحتى ضرورة مراجعة طائفة من المشكلات الاستعرابية وحلّها على الصعيد غير الذي كان من ذي قبل، ومعالجة البعض منها بشكل آخر؛ يتّضح دور ثبات اللغة ونظام الكتابة والتأثير المتبادل المستمر بين الآداب الشفهية والكتابية ضمن إطار الطائفة الاجتماعية – الترابطية واستخلاف الذخيرة الكتبية؛ وإن من المهم هو التفريق بين تعدد أشكال ومظاهر العمل الإبداعي والنسخي لدى المؤلفين وسائر مولعي الكتب، ورؤية عمل كتابي كالسبيكة المتينة لكل ما ورث وتكرر وما أدخل لأول مرة؛ ويحافظ ذلك الشرط إلى حد ما على قوته تجاه أية نسخة من العمل الكتابي؛ وينبغي الأخذ بالحسبان أنه كانت تتروج في المجالين الكتابي والشفهي ليست المؤلفات الفنية فحسب بل والدينية – الفقهية والعلمية وفي مجال الإيمان بالغيب، في ظل اختلاف الوظائف المؤادة من قبل المؤلفين وغيرهم من المشتركين في التقاليد المخطوطية تتوضح غزارة الإنتاج عند بعض المؤرخين البدائيين والجمّاع والمترجمين والمعلقين والمصنفين لـ«الموجز» أو «الموسع» طالما أنهم كانوا يتعاملون مع المواد الأدبية الجاهزة، ويمكن التحديد بدقة أكثر أهمية نظام نقل النصوص والمؤلفات الكاملة والإثبات المناسب بالوثائق وتزويدها بالحواشي وأسماء العلم والأشخاص، عندئذ سنتوصل إلى أفضل تصور عن تركيب النصوص والمخطوطات وتأثيرها على بعضها البعض والمصطلحات وما يتعلق بها من النواحي الثقافية الكتبية المخطوطية المختلفة.

تظهر خاصية المخطوطة العربية كإحدى مواد الثقافة المادية في بعض الدلائل المادية المختلفة من حيث زمان ومكان المنشأ ومنها الورق (وقد لعب إدخال صناعته دوراً رئيساً)، والكتابة ووجود اللسان على الغلاف، وفغي التغليف والزخرفة وغيرها من التفصيلات؛ تحدد الأفضال الفنية – الأخلاقية لدى المخطوطات العربية على وجه

الخصوص بكيفية الكتابة والغلاف، في حين أن تزويدها بالصور كانت ظاهرة قليلة الانتشار وضعيفة التطور.

امتازت التقاليد المخطوطية – الكتبية العربية بشدتها وخلقت إنتاجاً ضخماً وهذا ما أضحى نتيجة لبعض الأسباب والظروف ومن أهمها الحقبة الطويلة ومن وجودها على مساحات شاسعة من الأراضي حيث احتشدت منذ القدم الموارد الطبيعية الغنية وجماهير كبيرة من السكان والكمية الكبيرة من الآثار الكتابية الأولية وتنوعها، وإعلان قيمة المعارف والآداب كخزائن المعارف وضبط قواعد اللغة والكتابة وتبجلها، وكثرة المؤلفين الذين كان من ضمنهم مؤلفون ذوي إنتاج غزير، ووجود الأساس الاجتماعي الكبير وأوساط القراء وعدد كبير من الرعاة وأصحاب الطلبات والجمّاع من جهة والنساخين وتجار الكتب من جهة أخرى، والاحتفاظ على الاستخلاف رغم تغير الحدود المساحية، وحلول الانحطاط في بعض المراحل وتأثير القوى المجمرة؛ وقد عبرت النتائج عن نفسها بعدد ضخم من المؤلفات المروجة (وتحصى بمئات ألوف العناوين) والمخطوطات (لا تقل عن خمسة ملايين بل إنها لا تخضع للعدّ) التي كانت تحتشد في مئات مجموعات المخطوطات والمكتبات، ويمكن أن نستنتج ذلك من خلال المؤلفات التي وصلت إلينا (أكثر من مئة ألف عنوان؟) والمخطوطات (حوالي ٦٣٠)، وكذلك بالمعلومات الموجدودة على حد سواء، وبما فيها كذلك البيانات الرقمية (بيج أنها معرضة للنقد والتدقيق)، فإن هذه الأرقام ضخمة لدرجة أنه من المستحيل مقارنتها مع أي شيء، وذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار فقط الآداب المخطوطة القديمة ومن القرون الوسطى؛ وكان ينبغي البحث عن الأرقام القريبة للمقارنة حيث كانت طباعة الكتب موجودة ومتطورة كصناعة النقش على الخشب في الشرق الأقصى منذ القرن الثاني، والمطابع في أوروبا منذ القرن الخامس عشر؛ ومن الصعوبات التي يواجهها اليوم العلمُ المعاصر عند دراسته للمخطوطات العربية والتقاليد المخطوطية العربية هي الكمية الهائلة فوق الحد من المواد الواصلة إلينا وتبعثرها بالخزائن والمجموعات في مختلف البلدان وصعوبة مناالها النسبي.

اعتمد منشؤو الكتب العربية المخطوطة على تجارب الحضارات السابقة، فطوروها وكملوها وحافظوا على مستواها الجيد، ومن جهة أخرى تعرضت الشعوب المجاورة للعرب والتي تربطهم بهم صلة وثيقة بهم منذ القرن التاسع لتأثير الثقافة العربية المخطوطية – الكتبية، فقد ظهر الكتاب المخطوط المكتوب عند كل الشعوب الإسلامية بلغتهم الأم، وتطور تحت تأثير عربي شديد، أما التقاليد الكتبية لدى المسيحيين في الشرق الأدنى واليهود فتعدّلت بشكل ملحوظ؛ وظهرت عبر المنتجات الكتابية الاستعارات اللغوية والأدبية والمعلومات الثقافية والعلمية، وبالدرجة الأولى استعيرت العناصر التقنية والمادية لحرفة الكتب، وقد امتدت التأثيرات من هذا القبيل – بما فيها المباشرة وغير المباشرة – حتى على المسافات البعيدة، فقد تعرضت لها مثلاً الثقافة الكتبية الأوروبية حتى مرحلة النهضة.

لقد ساعدت الأبحاث على التمييز والإظهار بالوقائع والتقدير لأهم المزايا الجديدة بالعملية الأدبية والتقاليد الكتبية – الكتابية في العالم العربي الإسلامي، وإذا أدركناها وفهمناها ففي هذه الحال ستتوضح الصورة الحقيقية للثقافة في القرون الوسطى التي هي الجزء الكبير من الإنسانية، ونستطيع تحديد مكانها في التاريخ والثقافة العالمية.

فهرس الموضوعات



مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

ص.ب.: 55156 ـ دبي ـ الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 2624999 4 00971 / 2625999 4 00971 فاكس: 2696950 4 00971

www.almajidcenter.org - E-mail: info@almajidcenter.org